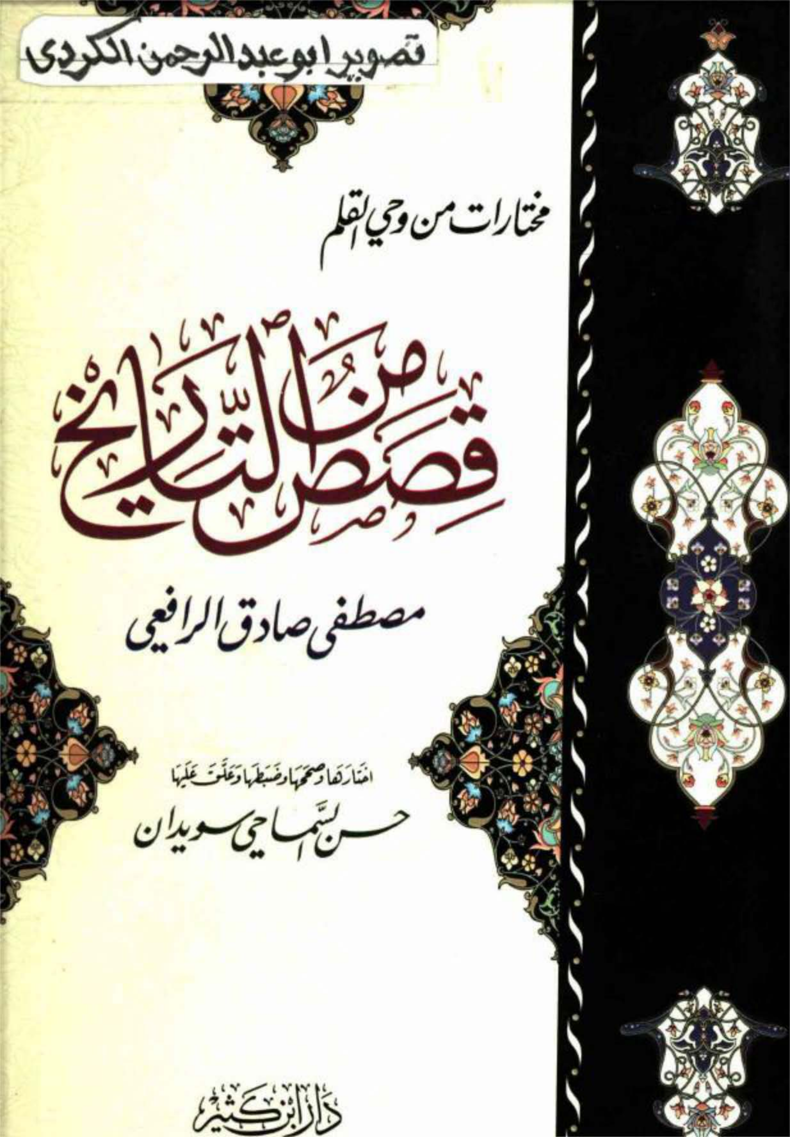

تصوير ابو عبد الرحمن الكردي
مختارات من وحي القلم
قصص من التاريخ
مصطفى صادق الرافعي
اختارها وصححها وضبطها وعلق عليها
حسن السماحي سويدان
دار ابن كثير

مختارات من وحي القلم

مصطفى صادق الرافعي

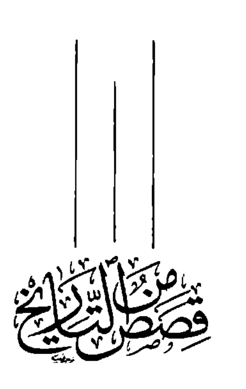


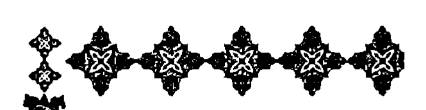
اختارها وصنّفها وضبطها وعلّق عليها

حسن السماحي سويدان



دمشق - بيروت


قصص من التاريخ



الطبعة الثانية

1431 هـ - 2010 م

المرضوع: أدب

العنوان: قصص من التاريخ

التأليف: مصطفى صادق الرافعي

الورق: أبيض
ألوان الطباعة: لون واحد
عدد الصفحات: 320
القياس: 17×24
التجليد: غلاف
الوزن: 480 غ

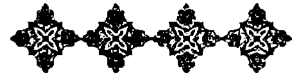


للطباعة و النشر و التوزيع

التنفيذ الطباعي:
مطبعة بشار الحلبي - دمشق
التجليد:
مؤسسة القصيباتي للتجليد - دمشق



دمشق - سوريا - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2458541
بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
تلفاكس: 817857 01 - جوال: 204459 03
www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com





إلى الأستاذ الرافعي:

إنك واحدٌ من عشْرةٍ هم كتّابُ العربية في كلٍّ عصورها.

إنك لسان القرآن الناطق.

فاقبل تحياتي وإكباري وشكري..

علي الطنطاوي



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

وبعد: فإن الرافعيَ يعدُّ بحق رائدَ الأدبِ الإسلامي، ذلك الأدب الملتزم في مضمونه وأسلوبه بأخلاق القرآن الكريم، كما يعد فيلسوفَ الإسلام وإمامَ البيان، وما ذلك إلا ثمرةَ مصاحبته للقرآن العظيم، الذي حفظه ولمّا يبلغ العاشرة من عمره، فتغلغلت معانيه في حنايا نفسه، وأعماق قلبه، وأغوار عقله، فصار قرآنيَّ التفكير، قرآنيَّ المشاعر، قرآنيَّ التعبير.

عاش الرافعي حياته كلها يجاهد بقلمه تحت راية القرآن، شارحاً إعجازه اللغوي والنفسي والاجتماعي والحضاري، مدافعاً عن القرآن، ولغة القرآن، وأمة القرآن في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كلُّ ذلك بأسلوب شعري أخّاذ، بلغ الغاية في الإبداع.

وكانت مقالاتُ الرافعي في مجلة «الرسالة» قمةَ إبداعه، وهي التي جمعها في كتابه الخالد «وحي القلم»، ومن أعظم هذه المقالات تلك القصص التاريخية التي أخذ الرافعي أصلها من سير السلف الصالح في كتب التراث الإسلامي، فنفخ فيها من روحه، وصاغتها عبقريته العقلية والبيانية خلقاً آخرَ يأخذ بالألباب، فلا عجب أن أثارت هذه القصص

إعجاب كبار العلماء والأدباء الذين أرسلوا إلى الرافعي رسائلَ الإعجاب والإكبار والتهنئة بهذا الفتح الأدبي العظيم.

وقد حاول بعض الكتاب أن يحذوَ حذو الرافعي، وينسجَ على منواله فأحسن، لكنه لم يبلغ الشأوَ الذي بلغه الرافعي.

وخدمة للقرآن العظيم في آدابه وأخلاقه ولغته رأيتُ أنْ أفردَ هذه القصص في كتاب مستقل فضبطت نصها، وذلك بالرجوع إلى أصول هذه المقالات في مجلة «الرسالة» وإلى أربع طبعات من «وحي القلم» وهي: الطبعة الرابعة (١٩٥١) والخامسة (١٩٥٤) والسابعة (١٩٥٧) وطبعة دار المعارف، وهي أردؤها، وذيلت كلَّ قصة بتاريخ نشرها في «الرسالة» كما ضبطت ألفاظها، وشرحت غريبها، وخرّجت الأحاديث الواردة فيها، وترجمت للرافعي معتمداً على كتاب الأستاذ محمد سعيد العريان رحمه الله تعالى «حياة الرافعي»، وقدمت بين يدي الكتاب بالمقدمات التالية:

١ ـ التعريف بكتاب «وحي القلم» أصل هذا الكتاب، مع بيان مكانته في المكتبة العربية الإسلامية للدكتور عبد الوهاب عزام رحمه الله تعالى الأستاذ في جامعة القاهرة.

٢ ـ صدى هذه القصص: وهما رسالتان أرسل أُولاهما الشيخ الأديب العالم علي الطنطاوي، والأخرى أرسلها الأستاذ الأديب البليغ فليكس فارس يعربان فيهما عن إعجابهما بهذه القصص التي ارتقت بالأدب العربي إلى قمة الآداب العالمية.

وأرجو أن أكون بهذه القصص الرائعة قد قدمت للقارىء زاداً عقلياً وروحياً قلَّ نظيره، فعليه أن يتهيأ لقراءتها بجد واجتهاد، وانتباه واستعداد، لتفتحَ له كنوزَها ويظفرَ بدررها، فمؤلفها لم يكتبها للتسلية والترفيه، بل كان جاداً كل الجد.

كما أرجو أن أكون بهذه القصص قد قربت الرافعي إلى عامة القراء،

وأثرْتُ رغبتهم للعودة إلى تراث الرافعي الخالد ينهلون منه العلم والأدب الرفيعين الأصيلين.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجزيَ الرافعي عن أمة محمد ﷺ الجزاءَ الأوفى على جهاده الصادق لتبقى راية القرآن عالية.

وأسأله تعالى أن يجزيَ أستاذي الجليل الشيخ عبد القادر الأرناؤوط الذي أفزع إليه في كل ما يخفى عليّ في العلم عامة وفي علم الحديث خاصة، وأن يحفظه ذخراً للإسلام والمسلمين بمنه وكرمه.

كما أسأله تعالى أن يجزي الأستاذ الأخ أبا مالك علي مستو خير الجزاء على حرصه لتقديم الكتاب النافع بالشكل اللائق، مساهمةً منه في إغناء الثقافة العربية الرفيعة لأبناء الضاد في كل مكان.

وأخيراً أسأل الله تعالى أن يتقبل مني عملي، وأن يدخره لي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم والحمد لله رب العالمين.

دمشق ١٤/ ١/ ١٤١٩ وكتبه

١٠/ ٥/ ١٩٩٨م حسن السماحي سويدان



فيلسوف القرآن وإمام البيان
مصطفى صادق الرافعي

مصطفى صادق الرافعي

نسبه ومكانة أسرته

هو مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن عبد القادر الرافعي، ينتهي نسبُه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

والأسرة الرافعية من أشهر الأسر العلمية في مصر، قدم جَدُّ الأسرة الشيخ عبد القادر من طرابلس الشام إلى مصر في منتصف القرن الثالث عشر الهجري، وعليه تخرّجَ كبارُ علماء مصر، كالشيخ البحراوي الكبير، والشيخ محمد بَخِيت مفتي الديار المصرية. وقد نبغ من هذه الأسرة عددٌ كبيرٌ من العلماء والقضاة والأدباء والمؤرخين.

ولادته ونشأته

وفي قرية بَهتِيم في محافظة القَلْيُوبية ولد فيلسوف القرآن وإمام البيان مصطفى صادق الرافعي في أوائل المحرم (١٢٩١) الموافق للأول من كانون الثاني (١٨٨٠).

كان والدُ الرافعي رئيساً للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم، وهو واحدٌ من أحد عشر أخاً اشتغلوا بالقضاء، وآخرُ منصبٍ للشيخ هو رئيسُ محكمة طنطا الشرعية، وكان رحمه الله تعالى ورعاً صادقاً صَلباً في دينه،

شديداً في الحق، توفي في طنطا، ودفن فيها.

وأمُّ الرافعيّ ابنةُ الشيخ الطوخي حلبيةُ الأصل، كان والدها تاجراً تسير قوافِلُه بالتجارة بين مصر والشام، وقد أقام في قرية بَهِيم إحدى قرى القليوبية.

كان منزلُ القاضي عبد الرزاق الرافعي أزهرَ صغيراً لما يتردد إليه من العلماء، وما تزخر به مكتبتُه من نفائس الكتب، وقد عُنِيَ بابنه مصطفى حتى أتمّ حفظ القرآن الكريم ولمَّا يبلغ العاشرة من العمر، إضافةً إلى ما تعلّمه من الثقافة الدينية واللغوية العالية.

انتسب الرافعي إلى مدرسة دَمَنْهور الابتدائية، ثم انتقل إلى مدرسة المنصورة الأميرية، التي نال منها الشهادة الابتدائية، وعمره أنذاك سبع عشرة سنة.

مرضه وما تركه من أثر في حياته

وبعد ذلك أصابه مرض لم يبارِحْهُ حتى ترك حُبسة في صوته، وثقلاً في سمعه، فترك التعليمَ الرسمي، وعكف على التحصيل الشخصي في مكتبة أبيه؛ ومكاتب طنطا المشهورة، ينهل من كنوزها، وما مضى إلا قليل، حتى استوعبَها، وأحاطَ بما فيها، وبذلك اجتمعت للرافعي العبقريّ كلُّ أسباب المعرفة والاطلاع، إلا أنّ ثقل سمعه ما زال يزدادُ حتى إذا بلغَ الثلاثين من العمر صار أصمَّ لا يسمع شيئاً.

في عام (١٨٩٩) عُيِّنَ الرافعي كاتباً في محكمة طخا، ثم انتقل إلى محكمة طنطا الشرعية، ثم إلى المحكمة الأهلية، وبقي في عمله هذا إلى أن لقي وجه ربه الكريم.

الرافعي الشاعر

كَلِفَ الرافعيُّ بالشعر من أول نشأته، وتزوَّدَ له زادَه من الأدب القديم،

ووعى ما وعى من تراثِ شعراء العربية، وبدأ الرافعيُّ يقولُ الشعر ولمَّا يبلغ العشرين، وفي عام (١٩٠٣) أصدر ديوانه الأول، وقدّم له بمقدمة بديعةٍ، قال عنها الشيخ إبراهيم اليازجي: «وقد صدَّره[١] الناظمُ بمقدمةٍ طويلةٍ في تعريفِ الشعر ذهبَ فيها مذهباً عزيزاً في البلاغة، وتبسَّطَ ما شاء في وصف الشعر وتقسيمه وبيانِ مزيَّتِهِ في كلامٍ تضمَّن من فنونِ المجازِ وضروبِ الخيالِ ما إنْ تدبرتَهُ وجدتَه الشعر بعينه».

وكان لديوان الرافعي صدًى عظيماً بين كبار شعراء مصرَ وعلمائها وأدبائها آنذاك، فقال فيه البارودي:

لمصطفى صادقٍ في الشعرِ منزلةٌ أمسى يعاديه فيها من يصافيهِ
حازَ الكمال فلم يَحْتَجْ لمنقبةٍ فلَسْتَ تنعتُهُ إلا بما فيهِ

وقال الكاظمي:

شِعْرُك يا مصطفى لصافيةٌ بحورُه، كلُّ وِرْدِها عَذْبُ
إنْ تُنْتَخَبْ من سواكَ قافيةٌ فذي قوافيكَ كلُّها نَخَبُ

وقال حافظ إبراهيم:

إيهِ يا رافعيُّ أحسنتَ حتّى لا أرى مُخْيِناً بجنْبِكَ شيّا

وكتب إليه الشيخ محمد عبده: «أسألُ اللهَ أن يجعلَ للحقِّ من لسانِكَ سيفاً يمحَقُ الباطِلَ، وأن يقيمَك في الأواخرِ مقامَ حسّانَ في الأوائل».

وكتب إليه زعيم مصر مصطفى كامل يقول: سيأتي يومٌ إذا ذُكِرَ فيه الرافعيُّ قال الناسُ: هو الحكمةُ العاليةُ مصوغةٌ في أجملِ قالبٍ من البيانِ».

وفي عام (١٩٠٤) أصدر الرافعي الجزء الثاني من الديوان، وفي عام (١٩٠٦) أصدر الجزء الثالث، أما الجزء الرابع فما زال مخطوطاً لم يطبع.

---

(١) أي الديوان.

وفي عام (١٩٠٨) أصدر الجزء الأول من ديوان «النظرات»، وليس كلُّ شعر الرافعي في دواوينه، فالجيّدُ الذي لم ينشر من شعره أكثر مما نشر.

الرافعي في بيته

وفي عام (١٩٠٤) تزوّجَ الرافعيُّ من فتاةٍ من أسرة البرقوقي من مدينة المنصورة، وأخوها هو الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي العالم الأديب صاحب مجلة «البيان».

وكان الرافعيُّ يعيش في بيته عيشةً مثاليةً عاليةً، فهو زوجٌ كما يجب أن يكونَ الزوج، وأب كما يجب أن يكون الأب، يتصاغر لأولاده، ويناغيهم، ويدلِّلُهم، ويبادِلُهم حباً بحبٍّ، دون أن ينسى واجبَ التهذيب والرعاية والإرشاد، ناصحاً برفق، مؤدباً بشدة أحياناً.

الرافعي مؤرخ الأدب

في عام (١٩٠٨) نشرت الجامعة المصرية دعوة إلى الأدباء إلى تأليف كتابٍ في تاريخ الأدب العربي جعلتْ جائزة الفائز مئتي جنيه، وضربتْ أجلاً لتقديمه سنتين، وتعهدت بطبع الكتاب.

انقطع الرافعي لتأليف كتاب «تاريخ آداب العرب» من منتصف سنة (١٩٠٩) إلى آخر سنة (١٩١٠) وفي سنة (١٩١١) أتمَّ طبع الكتاب على نفقته قبل أن يَحِلَّ الأجلُ الذي عينته الجامعة.

قال الأستاذ أحمد لطفي السيد عن كتاب الرافعي «تاريخ آداب العرب»: قد قرأنا هذا الجزء، فأما نحوُهُ فعليه طابعُ الباكورة في بابه، يدلُّ على أنّ مؤلفَه قد ملك موضوعَه مُلكاً تاماً، وأخذ بعدَ ذلك يتصرَّفُ فيه تصرُّفاً حسناً، وليس من السهل أن تجتمعَ له الأغراض التي بسطها في هذا

الجزء إلا بعدَ دَرْسٍ طويلٍ وتعبٍ مُمِلٍّ. أما أسلوبُ الرافعيِّ في كتابهِ، فإنّه سليمٌ من الشوائبِ الأعجميةِ، التي تقعُ لنا في كتاباتنا نحن العرب المتأخرين، فكأنّي وأنا أقرأه أقرأُ من قلم المبرِّد في استعماله المساواة، وإلباس المعاني ألفاظاً سابغة مفصّلَةً عليها، لا طويلةً تتعثر فيها، ولا قصيرةً عن مداها تُوْدِي ببعض أجزائها».

وقالت عنه مجلة «المقتطف»: «إنّه كتابُ السنة» وما كتبَتْ مثل هذه الكلمة من قبلُ ومن بعدُ لغير هذا الكتاب، كلُّ هذا والرافعيُّ يومئذ لم يتجاوز الثلاثين من العمر.

وفي عام (١٩١٢) أصدر الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب، وموضوعه «إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة»، وقد أصدره من بعدُ تحت هذا العنوان.

وقد كتب سعد زغلول إلى الرافعي يقول:

«حضرة المحترم الفاضل الأستاذ مصطفى صادق الرافعي:

تحدَّى القرآنُ أهلَ البيانِ في عباراتٍ قارِعةٍ مُحْرِجَةٍ، وَلَهْجَةٍ واخِزَةٍ مُرْغِمةٍ: أَنْ يأتوا بِمِثْلِهِ، أو سورةٍ منه، فما فعلوا، ولو قَدِرُوا ما تأخّروا، لِشِدَّةِ حِرْصِهِم على تَكْذِيبِهِ ومعارضتِه، بكلِّ ما مَلَكَتْ أَيْمَانُهم، واتّسَعَ له إمْكَانُهم.

هذا العجزُ الوضيعُ بعد ذاك التحدي الصارخ، هو أثرُ تلك القدرة الفائقةِ. وهذا السكوتُ الذليلُ بعد ذلك الاستفزازِ الشامخِ هو أثرُ ذلك الكلامِ العزيزِ.

ولكنَّ قوماً أنكروا هذه البداهةَ، وحاولوا سِتْرَها، فجاءَ كتابُكم «إعجازُ القرآنِ» مصدِّقاً لآياتِهَا، مكذِّباً لإنكارِهم، وأيَّدَ بلاغةَ القرآن وإعجازَه بأدلةٍ مشتقةٍ من أسرارِها، في بيانٍ مستمدٍّ من روحها، كأنّه تنزيلٌ

من التنزيلِ، أو قبسٌ من نورِ الذكرِ الحكيم.

فلكم على الاجتهاد في وضعِهِ والعنايةِ بطبعهِ شكرُ المؤمنين، وأجرُ العاملين والاحترامُ الفائق».

ومن ذلك اليوم انكشفَ للناس أنّ الرافعيَّ أديبٌ ليس مثله في العربية، وأنّه كاتبٌ من الطراز الأول بين كتّابها، وأنّه صاحبُ القلم الذي يكتُبُ في إعجازِ القرآنِ فيُعْجِزُ، ويتحدَّثُ عن الإسلامِ حديثَ المؤمنِ للمؤمنِ.

لقد عَرَفَ الرافعيُّ يومئذٍ أنّ عليه رسالةً يؤدّيها بين أدباء الجيل، وأنّ له غايةً أخرى هو عليها أقدر، وبها أجدر، فجعل الهدفَ الذي يسعى إليه أن يكونَ لهذا الدين حارساً وحامياً، يدفع عنه أسبابَ الزَّيْغِ والفتنةِ والضّلالِ، وأن ينفخَ في هذه اللغةِ روحاً من روحه، فيردها إلى مكانتها، ويردَّ عنها، فلا يجترىءُ عليها مجترىءٌ، ولا ينالُ منها نائِلٌ، ولا يتنَدَّرُ بها ساخِرٌ، إلا انبرى له، يبدِّدُ أوهامَه، ويكشِفُ دخيلتَهُ.

وفي عام (١٩١٢) وبعد رحلة إلى لبنان ألف كتابه «حديثَ القمر» يصف فيه عواطف الشباب وخواطِرَ العشاق في أسلوب رمزي على ضربٍ من النثر الشعري البارع.

كتـاب المساكين

وقعت الحرب العالمية الأولى، وأرسلت إلى مصر الفقرَ والجوعَ والغلاءَ، فلم يكن ضحاياها في مصر بالجوع والفقر أقلَّ عدداً من ضحاياها في ميادين المعارك، لقد صودرتْ أقوات الشعب المصري، وحُمِلت إلى المحاربين وتُرِكَ الناس يتضوّرون جوعاً.

كان الرافعيُّ شاعرَ النفس، مرهفَ الحسن، رقيقَ القلبِ، قويَّ العاطفة، يرى المنظرَ الأليمَ، فتنفعلُ به نفسُه، ويتحرّكُ خاطِرُه، ويتفطّرُ

قلبُه، نظر الرافعيُّ حواليه فرأى بؤساً تتعدَّدُ ألوانُه، وتتشكَّلُ صورُه، وتحتَشِدُ آثارُه، فكان أثرُ ذلك في نفسِه «كتابَ المساكين» الذي طبعه عام (١٩١٧)، وعن هذا الكتاب كتب شيخُ العروبةِ أحمد زكي باشا: «لقد جعلتَ لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وهيجو كما للفرنسيين هيجو، وجُوتهِ كما للألمان جُوتهِ».

وفي عام (١٩٢٤) أخرج كتاب «رسائل الأحزان» وهو كتابُ خواطرٍ مطلقة عن الحب، وهو كتابٌ فريدٌ في العربية في أسلوبه ومعانيه وبيانه الرائع.

وبعد ذلك أخرج كتابه «السحاب الأحمر» وهو كتاب يحومُ حول فلسفةِ البُغْضِ وطيشِ الحب.

وبعد ذلك أخرج كتاب «أوراق الورد» وفيه حنينُ العاشق المهجورِ، ومنيةُ المتمني، وذكرياتُ السالي، وفن الأديب، وشعر الشاعر.

تحت راية القرآن

رأى الرافعيُّ في دعوى التجديد ذريعةً للنيل من العربية في أرفع أساليبها (الشعر الجاهلي) وسبيلاً إلى الطعن في القرآن وإعجازِه، وباباً للزِّراية بتراث الأمة منذ كان للعرب شعرٌ وبيانٌ، ومن ذلك اليوم نشط الرافعيُّ يجاهِدُ هذه الدعوى، ووقف قلمَه على تفنيدِها، وكَشْفِ أبعادِها وغاياتِها، وما كان عملُه ذلك إلا جهاداً في الله تحت راية القرآن، فمن ذلك كان الاسم الذي جمع به كلَّ ما كتب عن المعركة بين القديم والجديد، والكتاب من خير ما أنتجت العربيةُ في النقد، وأحسنُ مثالٍ في مكافحة الرأي بالرأي مع الإطلاع الواسع. والفكر الدقيق. ويأتي هذا الكتاب بعد كتاب «وحي القلم» في مكانتِه بين كتب الرافعي.

الرافعي والرسالة

كان عملُ الرافعيِّ في الرسالة نِقْلةً بعيدةً لأدبه، الذي ارتقى إلى ذِروته، وزال عنه ما كان يدّعيه خصومه من الغموض في أسلوبه، وبدأ ذلك في ربيع سنة (١٩٣٤) وظلّ يكتبُ لها كلَّ أسبوعٍ مقالةً أو قصّةً، وقد أجمعَ علماءُ العصر وأدباؤه على أنّ مقالات الرافعيِّ في الرسالة هي أبدعُ ما كُتِبَ في الأدب العربي قديمِه وحديثِه، وقد جمعَ أكثرَها في كتابه «وحيُ القلم» ذلك الكتابُ المعجِزُ، الذي لا يمكن أن يُوفَّى حقه بسطر أو سطرين، لذلك صدَّرتُ هذا الكتابَ بكلمةٍ عنه للدكتور عبد الوهاب عزّام رحمه الله تعالى.

وفاته

في يوم الإثنين (١٠/ ٥/ ١٩٣٧) استيقظ الرافعي مع الفجر كعادته كلَّ يوم، فتوضأ وصلّى، وجلس في مصلاه يسبّح ويدعو، ويتلو قرآنَ الفجر، وأحسّ بعدَ لحظةٍ حُرقةً في مَعِدَتِه، فتناولَ دواءً، وعاد إلى مصلاه، ومضت ساعة، ثم نهض، فلما كان في البهو سقط على الأرض، فهبَّ أهلُ الدار، فوجدوه جسداً قد فارقته الروحُ إلى بارئها، وحُمِلَ جثمانُه بعد الظهر، حيث دفن إلى جوارِ أبويه في مقبرة العائلة بطنطا.

أمضى الرافعيُّ في الوظيفةِ ثمانٍ وثلاثين سنة، ومات ولم يجاوِزْ السابعةَ والخمسين من العمر.

لقد كان الرافعيُّ صاحبَ دعوةٍ في العربية والإسلام يدعو إليها، فحقُّه على العربية، وحقُّ العربية على أدبائها، وحقُّ الإسلام على أهله أن نجدِّدَ دعوةَ الرافعي ونبقي ذكره، وننشرَ رسالته، ونُعْنَى بآثارِه، فإذا نحنُ وُفِّقْنا إلى ذلك فقد وفَّينا له بعضَ الوفاء[1].

---

(١) لخصتُ هذه الترجمة من كتاب الأستاذ محمد سعيد العريان «حياة الرافعي».



للدكتور عبد الوهاب عزام[1]

أنا معجبٌ بالرافعي منذ قرأتُ له، وأحذرُ أن يغطّيَ الإعجابُ على بصري، وتَكِلَّ عينُ الرضا عن العيوب، وقد اتهمْتُ نفسي، ولتكافِئ التهمةُ الإعجابَ، ويعادِلُ الحبُّ الارتيابَ.

الرافعيُّ نسيجُ وحدِه، تَقْرَأ له فتشعرُ أنَّكَ في اختراعه وتصويره وبيانِه وتفكيرِه لا يذكّرك بأحدٍ، ولا يذكّرك به أحدٌ، وحَسْبُ الكاتبِ أن يكونَ مستقلاً يستملي الضميرَ، ويُبْدِعُ في التصوير.

---

(١) عالم بالأدب، ولد في إحدى قرى الجيزة سنة (١٣١٢ ـ ١٨٩٤) ودخل الأزهر وتخرج من مدرسة القضاء الشرعي، ثم التحق بالجامعة المصرية القديمة،ونال شهادته في الآداب والفلسفة عام (١٩٢٣)، ثم اختير مستشاراً للشؤون الدينية في السفارة المصرية بلندن، فالتحق بقسم الدراسات الشرقية بجامعتها، ونال الدكتوراه في الآداب الشرقية، ثم رجع إلى جامعة القاهرة،التي منحته الدكتوراه، ثم درّس فيها الفارسية،ثم صار عميداً لكلية الآداب، وكان عضواً في المجامع اللغوية في دمشق والقاهرة وبغداد، وكان يتقن الفرنسية والإنكليزية والفارسية والأوردية والتركية، له مؤلفات رائعة، وتحقيقات فائقة، منها «الشاهنامة» للفردوسي. توفي (١٣٧٨ ـ ١٩٥٩).

وكثيرٌ من الكتاب قوالبُ تختلِفُ أحجامُها وأشكالُها، ولكنّها صورةٌ مستعارَةٌ لا تفتأ تستعيرُ مادَّةَ عملِها.

بين شعراء الفرس شاعر تسمّى خلاّقَ المعاني، والرافعيُّ في «وحي القلم» جديرٌ بهذا اللقب، وما أعسرَ الخَلْق هنا! وما أصعبَ الإبداع! يعمَدُ إلى الحدث الصغير ذي المعنى المحدود، فيحطّمُ حدودَه، ويصلُه بالبشريّةِ كلِّها، أو يشيعه في العالم كله، ويصوّرُه صوراً تلقّى القارىء بجدّتِها ورَوْعتِها.

والكاتبُ الملهَمُ يرى الخليقةَ أسباباً متصلة، ومعانيَ متجاوِبةً، وصوراً متجاذبة، فما يبصِرُ ذرّةً إلا رأى وراء الفلك، ولا يمسك شعاعاً إلا جذبه إلى الشمس، وكأنّ كلَّ شيءٍ في الوجودِ عينٌ تطِلُّ على العالَم غيرِ المحدودِ،تتثالُ عليه الفِكَرُ، وتتزاحَمُ أمامَه الصُّوَرُ، فيكونُ همُّه أنْ يَشُقَّ طريقَه بين المعاني المتزاحمة، ويجدَ سبيله بين الطرق المتشعبة، وأن يطردَ المعاني التي لا يريدُها عن المعاني التي يقصدُها، فهو من الخِصْبِ في نَصَبٍ ـ نصَبِ الكاتبِ المقلِّد من الإجدابِ والإجبالِ.

والعالَمُ أمامَ الرافعيِّ كتابٌ مفتوحٌ، يدرِك فيه جمالَ الحروفِ وحُسْنَ السطور، ثم ينفذُ إلى ما لا ينتهي من المعاني، وما يزالُ يعرِضُ المعنى الواحد في صورٍ رائعةٍ، حتى يدعَ القارىءَ معجَباً حيرانَ، قد اجتمعتْ على القراءةِ خفقاتُ قلبه، ونظراتُ عينيه، وأساريرُ وَجْهِهِ، فلو أنّ الرافعي صوَّر هذه الخفقات، وبيَّن هذه النظرات والقسمات، لاستردّ البيان الذي أفاضَهُ على قارئه.

والرافعيُّ يُغرِبُ أحياناً، أو يدِقُّ فَيَنْبَهِمُ معناه، وفي هذا ثورةُ بعضِ الأدباءِ عليه، ولكنَّ الذي آمنَ بقدرته فيما وضحَ واستبان من كلامه، يؤمِنُ أنّه حينَ يَغْمُضُ يتحيَّلُ لمعنًى دقيقٍ خفيٍّ، لم تَرُضْهُ الألفاظُ، ولم يذلِّله الكتّابُ، أو يتلطَّفُ لفكرٍ نفورٍ آبدٍ لِيَخْتِلَهُ. وكثيراً ما يخيَّلُ إليَّ وأنا أقرأ

آبداتِ الرافعي أنّي أُتبعُ بصري طائراً يرتفع في اللُّوح، ثم يرتفعُ حتى تضمِرَه السّحبُ، فلا تراه العينُ، ولكن تعرفُ أنّه في جو السماء، فإن قيل: إنّ هذا حُكْمُ الإعجاب والرضا، قلتُ: فإني أتهم نفسي، فلا أدفعُ عن هذه الأوابد، ولكنَّ «وحيَ القلمِ» بريءٌ من الغموض والانبهام، وإنّما أكتبُ اليوم عن «وحي القلم».

وهذا الكاتِبُ النابغةُ نزّاعٌ إلى الجمال، طمّاحٌ إلى الفضيلةِ، مولَعٌ بكلِّ خلُقٍ كريمٍ، فلا يعالِجُ أمراً إلا حلَّق به إلى الجمال والرأفةِ والرحمةِ والإحسانِ والحريةِ والإقدامِ وهلم جرّا، وقلبُه فيّاضٌ بالإيمان والطُهْرِ، فإذا كتبَ في الدين وما يتصل به ارتقى إلى حيث تَنْقَطِعُ المطامعُ.

اقرأ مقاله: «سُمُوُّ الفقر أو المصلح الاجتماعي الأعظم» إنّها تملأُ القارِىءَ إعجاباً، وتسمو به حتى يحسبَ نفسَه مَلَكاً محلِّقاً، يرى مآتمَ الناس ومصائبَهم من حيثُ لا تتعلّق به ولا تستهويه، ولا يوفَّق لهذا البيان إلا مُسْلِمٌ ملهَمٌ كالرافعيِّ، يكتبُ في حقيقة علوية كالنفس المحمدية.

ثم اقرأ في مقاله: «الله أكبر» وصفَ المسجد، ونشيدَ الملائكة، لقد قرأتُ فكانت تَنْبَعِثُ التكبيرةُ من قرارةِ نفسي، فأُمْسِكُها مؤثراً الاستماع إلى هذا التكبير، الذي يدوي به المَسْجِدُ، فلما انتهى المقالُ لم أملك أنْ رفعتُ صوتي بآخرِ كلمةٍ فيه «الله أكبر».

هذه النزعات العلوية والسمو الروحي يتجلّى في مقالاته «الإشراقُ الإلهي»، «فلسفةُ الإسلام»، «حقيقةُ المسلم»، «وحيُ الهجرة»، «فوقَ الآدمية»، «درسٌ من النبوة»، «شهرٌ للثورة»، «ثباتُ الأخلاق».

الرافعي كاتبُ الإسلام والعربية، يتناولُ الحدَثَ الصغيرَ في تاريخ الإسلام ومآثرِ العربِ فيجعلُه عنوانَ فصلٍ بليغٍ من الحكمةِ والموعظةِ يسايرُه فيه القارِىء متعجباً: كيف ولدت هذه الواقعة الصغيرةُ هذِه المعاني التي تحاول أن تكونَ تاريخَ جيلٍ؟ اقرأ «زوجة إمام»، و«السمكة» واقرأ

«يا شباب العرب» و«يا أيها المسلمون».

وهذا الكاتب السماوي أبرعُ الناسِ تحليقاً بالحب الطاهر، وأعظمُهم ترفّقاً به، وأبصرهم بالمهاوي والمهالِك، التي يحلّق عنها هذا الحب العليُّ الأبيُّ، نظرةٌ إلى السماء تصف العلاء والمضاء والطهر والسمو الروحي الذي لا يُحَدُّ، ونظرةٌ إلى الأرض تصف السقوط الحيواني، والهوِيَّ الشيطانيَّ، فترى القارىءَ مدعواً إلى السماء، مطروداً عن الأرض، طائراً إلى الخير، نافراً عن الشر.

وإذا وصف صاحبُنا الجمالَ، بثّ في العالَم معانيه، ونقضَ عليه ألوانه، فكأنّما خلق العالم خلقاً جديداً، يخلق من الشعاع شمساً، ومن القطرة نهراً، ومن الوردة حديقةً، ثم يغرِّدُ فلا يُدرَى، أهذا التغريد تفسير هذا الجمالُ، أم هذا الجمال تصويرُ هذا التغريد؟ ولا يدري القارىءُ أهو في ربيعٍ باهرٍ، أم في بيانٍ ساحرٍ؟ وما أشبه قلمُه وهو يشقُّ المنظر الغُفْلَ عن سرائرِ الجمالِ بإبرةِ الحاكيةِ، تُسَلَّطُ على الصفحةِ الجامدةِ السوداءِ فتردُّها كلاماً وأنغاماً وألحاناً. واقرأ «عرش الورد» ترَ كيفَ جعل ابنتَه على عرشها مركزاً يحيطُ بها الجمالُ فلكاً دائراً.

ولله درُّ مصطفى حين يتغلغَلُ في الجماعات، فيحس آلامها، ويصف أسقامَها، ويعرِبُ عمّا في ضمائر اليائسين، وعما في رؤوس المتكبرين، ولا يزالُ بالمعنى الذي يراه الناس جماداً يقدَحُهُ حتى يخرِجَ منه النارَ والنورَ، ويأخذ الحادثةَ الصغيرةَ ينطِقُهَا بما وراءَها، ويكشِفُها عما انطوت عليه، حتى يقيمَ بها للإنسانية عُرْساً أو مأتماً. اقرأ «أحلام الشارع» تسمعُ أناتِ البشرية، وترى عبراتِها، وتلمسُ مصائبها ملونةً بدم المُهَجِ، وماءِ العيونِ، ونارِ الزفراتِ، وحَزِّ الحسراتِ، وسوادِ الفاقةِ والذِلَّةِ، ثم تسمعُ لعنةَ الإنسانيةِ على لسَان ما خلَقَتْ الإنسانيةُ من قوانين، والعجبُ أنَكَ كلَّما

أسال الحزنُ عبراتِك، طبَعَ البيانُ السّاحِرُ على شفتيك بسمةَ إعجابٍ لا تملِكُ نفيَها.

واقرأ «عبرة اللقطاء» تر أنّه صاغَ من أساريرهم حروفاً للهجاء، تسعُ كلَّ معنى، وتتمثَّلُ الآثامَ التي وَلَدَتْ هؤلاءِ، والمصائِبَ التي يحملها هؤلاء، والمفاسد التي سيلدُها هؤلاءِ.

وتقرأ «لحوم البشر» فتستمعُ إلى الشيطانِ والمَلكِ، كلٌّ ينشِدُ أناشيده، ويستخرجُ الرافعيُ منها دعوةً إلى الفضيلة، ولعنةً للرذيلة، وهو قادِرٌ على تسخيرِ الشيطانِ لبيانِه فقد أُعطي في البيان مُلك سليمان.

وإذا وعظ مصطفى الصادق نفذ إلى السرائر، وصوَّرَ للإنسانِ فضائِلَهُ ورذائِلَهُ تصويراً لا يَدَعُ له أن يختارَ إلا الأُولى، وأن يهجرَ إلا الثانية، وهو لا يَعْمَدُ إلىالنذر يصبُّها على النفسِ صبَّ السياط، يألم لها الجِسْمُ، ويموتُ القلبُ، بل يَعْمَدُ إلى الحياةِ يصوِّرُها هنا على حقائقها، نافياً عنها تلبيسَ إبليس، وإلى القلبِ ينفخُ فيه العَظَمَةَ، ويبثُّ فيه الفضيلةَ والطهارةَ والطموحَ إلى كلِّ خيرٍ، والنفورَ من كلِّ شرٍّ.

وهذه المقاصد الجليلة والنزعات السامية تُخالِطُها دعابةٌ رقيقة، وسخريةٌ نافذة، ترى الكاتبَ يرتفِعُ فوق العالَم، ثم يسخَرُ مما عبد الناسُ من أباطيل وأهواء، فإذا التماثيل التي يسجدون لها تهاويل، وإذا الهول الذي يفزعون منه تهويل، وإذا العظمةُ والكبرياءُ والسلطانُ والجاهُ والغنى، وكلُّ ما عدَّهُ الاجتماع عظمةً لقومٍ وحقارةً لآخرين أضاحيكُ يخلُقُها الجهلُ، ويهدِمُها العقلُ، ويقدِّسُها الإنسان حيواناً، ويَحْطِمُها الإنسانُ إنساناً.

وأعوذ بالله من الرافعي إذا انطلق ساخراً، يرسل بيانه طعناتٍ دراكاً، وهو يضحك ضَحِك البَرْقِ في السّحابِ الراعِدِ، أو لمع السيف في يد الضارب.

وبعدُ: فهذا وصفُ الروضِ في كلماتٍ، لو كانتْ أزهاراً ما مَثَّلَتْهُ، ونَعْتُ البحرِ في سطورٍ، لو كانَتْ أمواجاً ما صوَّرَتْهُ، فأمّا الروضُ في بهجةِ جمالِهِ، والبَحْرُ في روعةِ جلالِه، فهما ما خطَّهُ الرافعي، فإن شئتَ فَقُلْ جناتٌ في صفحاتٍ، وعُبابٌ في كتابٍ، وإن شئتَ فقل: إنّه العالَمُ في سطورٍ قد انتظَمَ، ووحيٌ إلهيٌّ سمّاه الرافعيُّ «وحيَ القلم»، وذلك الفضل من الله[1].

---

(١) «الرسالة» العدد (١٨٦) تاريخ ١٢/ ١١/ ١٣٥٥ الموافق ٢٥/ ١/ ١٩٣٧.

قصص الرافعي

لم يعالج الرافعيُّ القصةَ ـ فيما أعلم ـ قبلَ قصةِ سعيدِ بنِ المسيَّب[١] إلا مرتين: أما أولاهما ففي سنة (١٩٠٥) وكانت «مجلة المقتطف» قد سبَّقَتْ بين الأدباء جائزةً لمن يُنشِيءُ أحسنَ قصة مصرية، فأنشأ الرافعيُّ قصته الأولى، وكان عنوانها «الدرس الأول في علبة كبريت» ولم يحصل بها على جائزة، وقد أعاد نشرَها بعد ذلك بثلاثين سنة بعنوان «السطر الأخير من القصة»[٢].

أما القصة الثانية؛ فأنشأها في سنة (١٩٢٥) بعنوان «عاصفة القدر» ونشرتها «المقتطف» أيضاً[٣]، ثم كانت قصة سعيد بن المسيب في سنة (١٩٣٤).

على أنّ ثمةَ فرقاً بين هذه القصة والقصتين الأُوليين؛ ذلك أن هاتين القصتين هو أنشأهما إنشاءً، فلم يعتمِدْ فيهما على حادثةٍ في التاريخ أو حديثٍ في كتاب؛ أما قصةُ سعيد بن المسيب فلها أصلٌ معتمدٌ في التاريخ، فلم يكنْ له في إنشائها إلا بيانُ الأديبِ وفنّ القاص، وكانت نواةً، فمهّدَ لها، واستنبتها فنمتْ وازدهرتْ.

وفي الأدب القديم نوَيَّات كثيرةٌ مِنْ مثل هذه النواة، لم يتنبّه لها الذين

---

(١) قصة زواج وفلسفة المهر ص٦٢ من هذا الكتاب.

(٢) الرسالة: العدد ٧٨ سنة ١٩٣٤.

(٣) المقتطف: ديسمبر سنة ١٩٢٥.

يدعون إلى العناية بأدب القصة في العربية، ولو قد تنبهوا لها لوجدوا معيناً لا ينضبُ، كان حريّاً بأن يمدهم بالمدد بعد المدد، لينشئوا في العربية فنّاً جديداً، من غير أن يقطعوا الصلةَ بين ماضينا وحاضرنا في التاريخ الأدبي؛ وبمثلِ هذا تحيا الآداب العربية وتتجدَّدُ، وإلى مثل هذا ينبغي أن تكونَ دعوةُ المجددين، لا إلى الاستعارةِ والاستجداءِ من أدب الغرب، والجري في غبارِ كُتّابه وشعرائه.

. . . أقول: إنّ الرافعيَ لم يكنْ يعرِفُ عن فن القصة شيئاً يحمله على معالجتها، ويغريه على العناية بها؛ وقد قدمتُ القولَ بأنّه كان يسخَرُ ممن يقصُرُ جهدَه من الأدباء على معالجة القصة، ولا يراه أهلاً لأن يكونَ من أصحاب الامتياز في الأدب؛ إذْ لم تكن القصةُ عنده إلا ضرباً من العبث، ولوناً من ألوان الأدب الرخيص، لا ينبغي أن تكونَ هي كلَّ أدب الأديب وفنِّ الكاتبِ. وقد كان يعيبُ عليَّ لأول عهدي بالكتابة أنني لا أكادُ أكتبُ في غير القصة، وأنني أجعلُ بعضَ همي في دراسة الأدب أن أقرأ كلَّ ما أستطيعُ أن أقرأ عن فن القصة وأسلوبِها وطرائِقها ومذاهبِ الكُتّاب فيها، وكان يرى ذلك مني تخلُّفاً وعجزاً، ونزولاً بنفسي غيرَ منزلتها بين أهل الأدب!

على أنه إلى ذلك كان يجدُ لذةً في قراءة القصة على أنها لون من ألوان الرياضة العقلية، لا بابٌ من الأدب؛ كما يشاهِدُ رواية في السيما، أو يقرأ حادثة في جريدة. وأحسب أنه كان يعتقد ـ على أنه كان لا يعرف التواضع في الأدب ـ بأنّه لا يحسُنُ له أن ينشىءَ قصةً ولا ينبغي له. وأحسبُه أيضاً حين أنشأ قصة سعيد بن المسيب لم يكن يقصِدُ إلى أن تكون قصةً، ولكنّها هكذا جاءت على غير إرادتِهِ، فكأنّما اكتشفَ بها نفسَه . .

والحقيقةُ أنّ الرافعي كان يملكُ طبيعةً فنيةً خصبةً في القصة، يعرفُها من يعرفُه في أحاديثه الخاصة بينه وبين أصحابه حين كان يتعمَّدُ العبثَ

والتسلية، فيطوى من الحديثِ وينشُرُ، ويكتمُ ويورّي، ويوردُ الخبرَ غير موردِه، ويهزل ولا يقول إلا الجدّ؛ ويطوي النادرةَ إلى آخر الحديثِ، ويقول في آخر المقال ما كان ينبغي أن يكونَ في أوّله.

وكان له إلى ذلك تعبيرٌ رشيقٌ، وفكاهةٌ رائقةٌ، يخترعُها لوقتها، لا تملك معها إلا أن تضحَكَ، وتدع التوقُّر المصنوعَ؛ وإنّ له في هذه الفكاهة لمذاهب عقليةٍ بديعةٍ تحسُّ فيها روحَهُ الشاعرة، وحكمتَه المتزنة، وسخريتَه اللاذعة؛ ويكادُ كثيرٌ من مقالاته يكون برهاناً على ذلك؛ فقلّما تخلو إحداها من دعابة طريفة، أو نكتةٍ مبتكرةٍ.

... وهذه هي كلُّ أدواتِ القاصِّ الموفَّقِ؛ فما ينقصُه إلا أن يدرسَ فنّ القصةِ ومذاهبها ليكون فيها من السابقين المبرّزين، ولكن الرافعيَّ كان يجهَلُ طبيعةَ نفسه، وكان له في كُتَّاب القصة ما قدمتُ من الرأي، فكان تخلّفُه مِنْ هذين! وحتى فيما أنشأ من القصص بعدَ ذلك، لم يكن له مذهبٌ فنيٌّ خاصٌّ يحتذيه، ويسيرُ على نهجه؛ ولكنّه كان يقصُّ كما تلهِمُهُ فطرتُه غيرَ ملقٍ باله إلى ما رسم أهلُ الفنّ من حدودِ القصةِ وقواعدِها؛ فإننا بذلك لنستطيعُ أن ندرسَ طبيعتَه وطريقتَه القصصية خالصةً له وحدَه، غير متأثرٍ فيها بمذهبٍ من مذاهبِ المتقدمين أو المتأخرين من كُتّاب القصص؛ على ما قد يكونُ فيها من نقصٍ وتخلُّفٍ، أو ابتكارٍ وتجديدٍ.

وطريقةُ الرافعي في كتابة قصصه غريبةٌ، وغايتُه منها غير غايةِ القُصاص، فالقصةُ عندَه لا تعدو أن تكونَ مقالةً من مقالاته في أسلوبٍ جديدٍ؛ فهو لا يفكِّرُ في الحادثة أول ما يفكّرُ، ولكن في الحكمة والمغزى والحديث والمذهب الأدبي، ثم تأتي الحادثةُ من بعدُ؛ فكان إذا هَمّ أنْ يُنْشِىءَ قصةً من القِصص، جعل همَّه الأول أن يفكّر في الحكمة التي يريدُ أن يلقيها على ألسنة التاريخ ـ على طريقتِهِ في إنشاء المقالات ـ فإذا اجتمعتْ له عناصِرُ الموضوع، وانتهى في تحديدِ الفكرة إلى ما يريدُ، كان

بذلك قد انتهى إلى موضوعِه، فليس له إلا أن يفكِّر في أسلوب الأداء، وسواءٌ عليه بعد ذلك أن يؤدي موضوعَه على طريقة المقالة، أو على طريقة القصة؛ فكلاهما ينتهيان به إلى هدفٍ واحدٍ؛ فإذا اختار أن تكونَ قصةً، تناول كتاباً من كتب التراجم الكثيرة بين يديه، فيقرأ منها ما يتفق، حتى يعثرَ باسمٍ من أعلام التاريخ، فيدرس تاريخه، وبيئته، وخِلاّنه، ومجالسه؛ ثم يصطنعُ من ذلك قصةً صغيرةً يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذي أعدّه من قبلُ؛ وإنه ليلهم أحياناً، ويوفَّقُ في ذلك توفيقاً عجيباً، حتى تأتيَ القصةُ وكأنّها بنتُ التاريخ، وما للتاريخ فيها إلا نادرة يرويها في سطور، أو إلا أسماء الرجال. . .

على أنَّ البديعَ في ذلك هو قدرةُ الرافعيِّ ـ يرحمه الله ـ على أن يعيشَ بخياله في كلِّ عصرٍ من عصور التاريخ، فيحسُّ إحساسه، ويتكلَّم بلسان أهله، حتى لا يشكَّ كثيرٌ ممن يقرأ قصةً من قصصِ الرافعيّ في أنّها كلَّها صحيحةٌ من الألفِ إلى الياءِ.

وأحسَبُ أنّ الرافعيَّ لم يتخذ هذه الطريقة في تأليف القصصِ عن عمدٍ واختيارٍ، فلم يكن ثَمةَ ما يدفعُه إلى معالجةِ القصة واختيار طريقةٍ فيها ـ ورأيه في القصة رأيه ـ ولكنّه مذهبٌ اتفق له اتفاقاً بلا قصدٍ ولا معاناةٍ؛ وإنما تأتّى له ذلك من طريقته التي أشرتُ إليها في الحديث عنه عندما يهمُّ بالكتابة[1]؛ فقد أسلفتُ القول أنه كان يحرِصُ على أن يعيشَ وقتاً ما قبلَ الكتابة في جوٍّ عربيٍّ، فيتناول كتاباً من كتب الأدب القديم، يقرأ منه فصلاً ما قبل أن يشرعَ في إملاء مقاله؛ فمن هنا كان أول الطريق إلى مذهبه في القصة، ولكلِّ شيءٍ سببٌ، وأحسبُه لما همَّ أن يكتبَ عن المعجزة المالية في تقاليد الزوج، وعن فلسفة المهر، وقد اجتمعتْ له الفكرةُ في ذلك،

---

(١) حياة الرافعي (٢٢٠).

تناول ـ كعادته ـ كتاباً من كتب العربية يقرأ فيه ما تيسّرَ، فاتفق له في مطالعتِه أنْ يقرأ قصة سعيد بن المسيب والوليد بن عبد الملك وأبي وداعة؛ فرآها أشبه بموضوعه، وفيها تمامُه، فبدا له أن يؤدّي موضوعه هذا الأداء، فكانت قصة. وأذكرُ أنّه لما دعاني ليملي عليَّ هذه القصةِ قال لي في لهجةِ الظافرِ:

«... لقد وقعتُ على نادرةٍ مدهشةٍ من التاريخ تتحدَّثُ عن فلسفةِ المهرِ حديثاً لا أعرفُ أبلغَ منه في موضوعِه..» فمن ذلك أعتقدُ أنّ أولَ هذا المذهب في القصة كان اتفاقاً غيرَ مقصودٍ، صادفَ طبيعةً خصبةً، ونفساً شاعرة، فكان فناً جديداً.

وأكثرُ قِصص الرافعيّ مِنْ بعدُ على هذا المذهب. على أنّ لكلِّ قصة من هذه القصص ـ أو لأكثرها ـ أصلاً يستنِدُ إليه مِنْ روايةِ التاريخ، أو خبرٍ مُهْمَلٍ في زاويةٍ لا يتنبَّهُ له إلا مَنْ كان له مِثْلُ طبيعةِ الرافعيِّ الفنيةِ وإحساسِه ويقظتِه؛ على أنّ أهمَّ ما أعانه على ذلك هو عندي صلتُه الروحية بهذا الماضي، وشعورُه بالحياة فيه كأنه من أهلِه ومن ناسِه؛ فإنَّ له بجانب كلِّ حادثةٍ وكلِّ خبرٍ من أخبارِ ذلك الماضي قلباً ينبِضُ، كأنّ له فيه ذكرى حيةً من ذكرياته، تصل بين ماضيه وحاضره؛ فما يقرأه تاريخاً كان وانطوت أيامه، ولكنه يقرأ صفحةً من ماضيه ما يزال يحسُّ فيها إحساسَ الحيّ بين أهله، فما أهونَ عليه بعدُ أن يترجمَها من لغةِ التاريخِ إلى لغةِ الأحياء!

وقد كنتُ على أن أردَّ كلَّ قصةٍ من قصص الرافعي إلى أصلِها من التاريخ، وأنسبها إلى راويها الأول، ليكونَ النموذجُ واضحاً لمن يريدُ أن يحتذيَ الرافعيَّ، ليتمِّمَ ما بدأ على مذهبه في تجديدِ الأدب العربي، ولكنّي

وجدتُ ذلك أشبه بأنْ يكونَ فصلاً من الأدب، ليس موضعُه في هذا الكتاب[١].

محمد سعيد العريان[٢]

* * *

(١) حياة الرافعي (٢٥١ـ ٢٥٥).

(٢) أديب من كبار الكتاب، ولد في قرية محلة حسن بمحافظة الغربية عام (١٣٢٣ ـ ١٩٠٥) وتخرج بدار العلوم في القاهرة سنة (١٩٣٠) وتنقل في التدريس إلى سنة (١٩٤٢) شارك في تحرير كثير من المجلات الأدبية، من أشهر مؤلفاته: «حياة الرافعي» و«قطر الندى» و«على باب زويلة» و«شجرة الدر» و«بنت قسطنطين» كما حقق عدة كتب منها «العقد الفريد» توفي في القاهرة سنة (١٣٨٤ ـ ١٩٦٤).

صدى الكتاب:

إلى الأستاذ الرافعي

للأستاذ علي الطنطاوي

سيدي:

أعرني هذا القلم السحري الذي تكتب به، لأصفَ لك الشعورَ الذي خامرني وإخواني هنا حين قرأنا فصلك الأخير «قصة زواج» فما أدري واللهِ كيف أصفه لك.

وقد والله قرأناه مثنى وثُلاث ورُباع، وقد والله قطعنا القراءة مرة وثانية وثالثة، لأننا لم نكن نملك نفوسنا أن تفلتَ من قيودِ المادة، وتنفذَ من بين السطورِ إلى عالمٍ أسمى وأوسع، تطيرُ في أرجائه لتحلقَ بهذه البلاغة العلوية التي تسمو بتاليها وتسمو حتى تدنوَ به من حدود العالم الكامل ـ عالمِ القرآن ـ وتريه تحقيقَ ما قاله فيه سعد «بطل المشرق»: «كأنها تنزيل من التنزَيل».

وقد واللهِ خرجنا منها، وكأننا لم نعرف عبدَ الملك أمير المؤمنين، وسعيداً سيد التابعين إلا الساعة.. فإذا أنتَ قد نقلتَ المُلْكَ والجلالَ من ذاك إلى هذا، وإذا مقالةٌ منك واحدةٌ تَغْلِبُ عبدَ الملك على جيوشِه وأمواله وملكه، ثم تجرِّده منها، ثم تعرضه جسداً هزيلاً، وتمنحُ سعيداً

على فقره وتواضعه أسمى العظمة والهيبة والجلال، حتى يقولَ هذا: أنا، فتردِّدُها ملائكةُ السماء، ويقولَ ذاك: أنا، فستحيي أن تعيدَها شياطينُ الجحيم.

وأقسم لقد سمعتُ هذه القصة، وقرأتُها، وحفظتُها، وحَدَّثتُ بها، وانحدرت بين أذني ورأسي ولساني عشرين مرة، ثم كأنْ لم أسمع بها إلا الآن، وكأني كنتُ في ليلٍ مظلمٍ فطلعتْ علي مقالتُكَ شمساً ساطعةً، عرفتُ بها كيف تكون حُصيّاتُ الليل لالىءَ النهار، فما بالك بمن لم يسمع باسم سعيد؟ وما بالك بمن لا يعرف من الدنيا أدباً إلا الأدب الذي يسقط علينا من باريس أو لندن أو بيونس آيرس، ولا يدري من البلاغة إلا أنها التي تلوح بين سطورها رؤوس البنادق، وأفواه المدافع، وأجنحة الطيّارات.

ومثل أولئك كثير، فقد عابوك بالغموضِ، ورموكَ بالإبهام، وادعوا أن كتبك لا تفهم ومعانيك لا تساغ!! فلما ظهر أنّ في الغرب شاعراً فحلاً مذهبه الغموض يتخذه، ويدعو له، ويدافع عنه ـ أصبح الغموض فناً من فنون الأدب،تَتَمحّل له الأسباب، وتُتَلَمَّسُ له الدواعي، فما الذي جعل سيئةَ الرافعي حسنةَ پول ڤاليري إلا أن ذاك من فرنسة وهذا من مصر.

وعندنا أنك لو استكثرتَ من هذا النوع لغطيتَ على خيام أهل الجديد، ودُورهم المبنيّة من الطين والقش بقصر شامخ من الصخر يثبت ما ثبتدالدهر.

وعندنا أن مئة قطعة من مثل هذه القصة تنشىء الأدب العربي إنشاءً جديداً، وتُخْرِجُ من الشيخ الهِمِّ الفاني الذي ينتظر الموت شاباً قوياً بهياً، جاء يستأنف الحياة بحنكة الشيخوخة، وتجعل من الأدب العربي أدبين، أدب أربعة عشر قرناً؛ وأدب الرافعي.

ولستُ والله أمدحك لأتملّقك وأتزلفُ إليك، وما بي بحمد الله رذيلة

التملُّقِ والتزلُّفِ، ولكنّي أمدحك، وما أجدني صنعتُ شيئاً، لأنك في نفسي أكبرُ من ذلك، إنك واحد من عشرةٍ هم كتّاب العربية في كل عصورها، إنك لسان القرآن الناطق.

فاقبل تحياتي وإكباري وشكري، وأسألك أن تزيدَنا من هذا النوع من الأدب، وأن تستكثرَ من هذه الفصول الاجتماعية، وأن تعلمَ أن مقالاتِك في الزواج كان لها من الأثر ما لا يكون لقانونٍ صارمٍ من ورائه السجن، وإننا نحمد الله على أن جعل في العربية مجلةً صاحبها الزيات، ويكتب فيها الرافعي[١].

* * *

(١) مجلة «الرسالة» السنة الثانية (١٣٥٣ ـ ١٩٣٤) العدد (٦٩).

إلى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

بقلم الأديب فليكس فارس[١]

إنّك تتناولُ أدقَّ المباحث الاجتماعية، التي شغلتْ وما زالتْ تَشْغَلُ المفكرين في كلّ عصر، وفي كلِّ بلادٍ، تتناولها، وتخوضُ غمارَها، معتكفاً على موضِعِ السِّرِّ في ثقافتك العربية، مستنيراً بأضواءِ الكتاب الحقّ، وحكمةِ مَنْ اهتدوا قَبْلَكَ في هذا الشرق النيِّرِ، فكانتْ عبادتُهم فلسفةً، وكانت صلواتُهم استغراقاً وتفكيراً.

كثيرٌ من مجددي الإنشاءِ في هذا الزمان، ينحرفون عن ثقافتهم وغرائزهم القومية، فينتحلونَ مذاهبَ كُتّابِ الغرب وأساليبهم. أمّا أنتَ فمِنَ الفئةِ القليلةِ الآخذة بروحِ الشَّرْقِ لإحياءِ الشَّرقِ، النافحةِ في الأحفادِ روحَ أجدادِهم.

قرأتُ لك في منارة العرب الوهّاجة في «الرسالة» ما تُتْحِفُ به العالَم

---

(١) كاتب من الخطباء، ولد في إحدى قرى المتن بلبنان سنة (١٢٩٩ ـ ١٨٨٢) وتعلّم الفرنسية في الشويفات، وأصدر في بيروت جريدة «لسان الاتحاد» وسافر إلى إستانبول.وعاد منها إلى حلب مدرساً في مدرستها السلطانية، وفيها تعلم التركية، ثم سافر إلى أمريكة سنة (١٩٢٠) وعاد فاستقر في الاسكندرية رئيساً للترجمة في مجلسها البلدي سنة (١٩٣٠) واستمر إلى أن توفي سنة (١٣٥٨ ـ ١٩٣٠) من كتبه «رسالة المنبر إلى الشرق العربي».وترجم «رولا» لألفرد دي موسيه، و«هكذا تكلّم زرادشت» لنتشه.

العربـيِّ من طرائفَ وبـدائعَ، فأيقنتُ أنـكَ من الكُتّـابِ العـالميين، الذين يستمدّون آياتهم من الإلهام، ويَسْتَجْلونَ الحقائقَ من قلبِ الحياة الخفّاقِ، وما أكثرَ من يستطبعون الرواسمَ، وينقلون مقلدِّين مشوِّهينَ!

بين ما نشرتْه لك «الرسالة» قطعةُ «رؤيا في السماء»[1] وقفتُ عندها مأخوذاً بروعتها، فأردتُ أن أنقلَها إلى اللغةِ الفرنسية، لِنَشْرِها في مجلة أدبية في باريس، وقد ترجمتُها، فجاءَتْ بما أبقيتُ لها من أسلوبك الفخم دليلاً على استقلال لغةِ العربِ عن كل هذه الأساليب، التي ينتحيها أكثرُ كتابنا مأخوذةً عن الأسلوبِ الغربيِّ، وعلى تَفرُّدِ بيانِها بهذا الإيجازِ المُعْجِزِ، وفيه سِرُّ سحرِها وبهائِها.

إنَّ في مقالِكَ من الدفاع عن حَقِّ الحياةِ وواجباتِ الحياةِ ما يعزِّزُ الوحيَ الذي أُنزلَ على عيسى ومحمد عليهما السلامَ تحت سماءِ الشرقِ، فلم ينفذِ الغربيونَ إلى كُنْهِهِ في مبادىء المسيحيةِ، إذْ ذهبوا منها في مسألة التبتُّلِ مذهباً أتى به الحواريُّ بولس متأثراً بفلسفة الرومان، وضائقة أزمنة الاضطهاد، لذلك ترى الأممَ الغربيةَ عندما تَقِفُ واجفةً من تناقُصِ النسلِ تهبُّ إلى معالجةِ الأخطار المحدقة بها، متوسلةً بنظريّاتِ الكفاح والتفوُّقِ على الأمم المجاورة، فهي ترمي طغماتِ الأطفالِ فيالقَ للجهادِ في ساحاتِ الحروبِ من أجلِ المال، وكتلاً من لحمٍ تعصرُها الآلاتُ عصراً، فتتدفقُ بدمائها رحيقاً تتجرَّعُه المدنيّةُ سُمّاً زعافاً.

إنّ الغربيين ليفوتَهم أن يحاربوا أعداء الأسرةِ والنَّسْلِ بالمبادىء الروحية، تتناولُ ما وراءَ هذه الحياة، وأذكرُ مما قرأتُ لكتّابِ الغرب أنّهم شعروا بالأبوة، كما شعرتَ بها أنتَ مخترقة حجاب الموتِ، لتتجلى عند هدفها الأسمى في عالم الخلود.

---

(١) انظر ص (١٢٤) من هذا الكتاب.

إنّ الأدب الغربي يقفُ بالأبوة عند نهاية الشطر الفاني من الحياةِ، فهو يرى الأرحامَ تدفعُ بالأجنَّةِ للقبورِ لا للأبدِ، لذلك أردتُ ألا يفوتَه ما أتيتَ به في مقالِكَ الرائعِ من دعوةٍ هي أقوى ما يَتوسَّلُ به داعٍ إلى حقِّ الله في تناسُلِ عبادِه، وقد ترجمتُ هذا المقال لا مباهاةً بروحِ الشرقِ العربية، التي تهبُّ من كلِّ سطر فيه فحسب، بل لأنشرَ أيضاً في الغربِ ما استوحتْهُ عبقريتُك الشرقيةُ من مبادىء الهداية الخالدة.

إنّ هذا الحديثَ الذي أنطقتَ به أبا خالد وشيخَه أبا ربيعة لخيرُ ما ابتكرتْهُ الآدابُ العالميةُ في هذا المطلب، وهذه الرؤى التي تقبِضُ على الروح، وترفعُها قَسْراً إلى عالمِ الخفاءِ، لتبسُطَ من الحقِّ أمامَ المتطلّعين إلى ما وراءِ المادةِ ما يشعرون به في قرارةِ نفوسِهم، وينكرُها عليهم عقلُهم المتنبِّهُ المحلِّلُ الغارِقُ في لُجَجِ الزائلاتِ من قوةٍ ومالٍ ودُوَلٍ وجنودٍ وحرب[1].

* * *

---

(١) الرسالة السنة الثالثة ١٣٥٣ ـ ١٩٣٥ العدد (٩١).

مصطفى صادق الرافعي



اليمـامتـــان(١)

جاء في «تاريخ الواقديّ»: «أنّ المُقَوْقِسَ عظِيمَ القِبْطِ في مِصْرَ، زَوّجَ بِنْتَهُ أَرْمانُوْسَةَ مِنْ قسطنطينَ بن هِرَقْل،وجَهَزَّها بِأَمْوالِها؛ حَشَماً لِتَسِيْرَ إلَيْهِ، حتى يَبْنِيَ عَلَيْهَا في مَدِيْنَةِ قَيْسَارِيَة(٢)؛ فَخَرَجَتْ إلى بُلْبَيْسَ(٣)، وأقامتْ بها، فجاءَ عَمْرُو بنُ العاصِ إلى بُلْبَيْسَ، فحاصَرَها حِصَاراً شديداً، وقاتلَ مَنْ بِهَا، وقَتَلَ مِنْهُمْ زُهاءَ أَلْفِ فارِسٍ، وانْهَزَمَ مَنْ بَقِيَ إلى المُقَوْقِسَ، وأُخِذَتْ أرمانُوْسَةُ وجَمِيْعُ ما لِها، وأَخِذَ كُلُّ ما كانَ للقِبْطِ في بُلْبَيْسَ، فأَحَبَّ عَمْرُو ملاطَفَةَ المُقَوْقِسِ، فَسَيَّرَ إلَيْهِ ابْنَتَهُ مُكَرَّمةً في جَمِيْعِ مالِهَا، مَعَ قَيْسِ بن أبي العاص السَّهْميّ؛ فَسُرَّ بِقُدُومِهَا..».

هذا ما أثبتَهُ الواقديُّ في روايتِهِ، ولَمْ يَكُنْ مَعْنِيّاً إلا بأَخْبارِ المَغَازي والفُتُوْحِ، فَكَانَ يَقْتَصِرُ عليها في الرِّوايةِ؛ أما ما أَغْفَلَهُ فَهُوَ ما نَقُصُّه نحنُ:

كَانَتْ لأَرْمانُوْسَةَ وَصِيْفَةٌ مُوَلَّدةٌ(٤) تُسَمَّى مارِيَة، ذاتُ جمالٍ يونانيٍّ، أَتَمَّتْهُ مِصْرُ، ومَسَحَتْه بِسِحْرِها، فَزَادَ جَمَالُها على أنْ يَكُوْنَ مِصْرِيّاً، ونَقَصَ الجَمَالُ اليونانيُّ أنْ يكُونَهُ؛ فهو أَجْمَلُ مِنْهُمَا، وَلِمَصْرَ طبيعةٌ خاصَّةٌ في

(١) [نوع من الحمام].

(٢) بلدة بفلسطين.

(٣) بُلْبَيْس هي المدينة المعروفة بمحافظة الشرقية بمصر.

(٤) [المولدة: المولودة بين العرب، أو التي أحد أبويها أعجمي].

الحُسْنِ؛ فهي قَدْ تُهْمِلُ شيئاً في جَمَالِ نِسَائِهَا، أو تُشَعِّثُ[١] مِنْهُ، وقد لا توفِّيهِ جُهدَ محاسِنِهَا الرائعةِ؛ ولكنْ مَتَى نَشَأَ فيها جَمَالٌ يَنْزِعُ إلى أَصْلٍ أجنبيٍّ أَفْرَغَتْ فيه سِحْرَها إفراغاً، وأبَتْ إلا أنْ تَكُونَ الغالبةَ عليهِ، وجَعَلَتْهُ آيَتَها في المقابَلَةِ بَيْنَهُ في طابعِهِ المصريِّ، وبَيْنَ أَصْلِهِ في طبيعةِ أَرْضِهِ كائنةً ما كانَتْ؛ تَغَارُ على سِحْرِها أنْ يكونَ إلا الأَعْلَىٰ.

وكانتْ ماريةُ هذِهِ مسيحيةً قويةَ الدِّينِ والعَقْلِ، اتَّخَذَها المُقَوْقِسُ كَنِيْسَةً حيةً لابنتِهِ، وهو كان والياً وبَطْرِيَرْكاً على مِصْرَ من قِبَلِ هِرَقْلَ؛ وكانَ مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِ اللهِ أَنَّ الفَتْحَ الإسلاميَّ جاءَ في عَهْدِهِ، فَجَعَلَ اللهُ قَلْبَ هذا الرَّجُلِ مِفتاحَ القُفْلِ القِبْطِيِّ، فلمْ تَكُنْ أبوابُهُمْ تُدافعُ إلا بِمِقْدَارِ ما تُدْفَعُ، تُقَاتِلُ شيئاً من قتالٍ غيرِ كبيرٍ، أما الأبوابُ الروميةُ، فَبَقِيَتْ مستَغْلِقةً حَصِيْنَةً، لا تُذْعِنُ إلا للتحطيمِ، ووراءَها نحوُ مئةِ ألفِ روميٍّ يقاتِلُوْنَ المعجزةَ الإسلاميَّةَ التي جاءَتْهُم من بلادِ العَرَبِ أَوَّلَ ما جاءَتْ في أَرْبَعةِ آلافِ رَجُلٍ، ثم لم يَزِيْدُوْا آخِرَ ما زادوا على اثني عَشَرَ ألفاً.

كانَ الرُّومُ مِئَةَ أَلْفِ مُقاتِلٍ بِأسلحَتِهِم ـ ولم تَكُنْ المدافعُ معروفةً ـ ولكنَّ رُوْحَ الإسلامِ جَعَلَتْ الجيشَ العربيَّ كأنّه اثنا عَشَرَ ألفَ مِدْفعٍ بِقَنابِلِها، لا يقاتلونَ بقوّةِ الإنسانِ، بل بِقُوَّةِ الرُّوْحِ الدينية، التي جَعَلَهَا الإسلامُ مادةً مُنْفَجِرَةً تُشْبِهُ الدِّينامِيْتَ قبلَ أنْ يُعْرَفَ الدِّينامِيْتُ!

ولما نَزَلَ عَمْرٌو بِجَيْشِهِ على بُلْبَيْسَ، جَزِعَتْ مارِيَةُ جَزَعاً شَدِيْداً؛ إذْ كانَ الرُّوْمُ قد أَرْجَفُوا[٢] أنّ هؤلاءِ العَرَبَ قومٌ جياعٌ، يَنْفضُهُم الجَدْبُ على البلادِ نَفْضَ الرِّمالِ على الأَعْيُنِ في الرِّيْحِ العاصِفِ؛ وأنَّهُم جَرادٌ إنسانيٌّ

---

(١) [تفرّق].

(٢) المرجفون: هم الذين يولّدون الأخبار الكاذبة التي يكون معها اضطرابٌ في الناس.

لا يَغْزُو إلا لِبَطْنِهِ؛ وأنّهُم غِلاظُ الأكبادِ كالإبِلِ التي يمتطونَهَا؛ وأنَّ النساءَ عِنْدَهُم كالدَّوابِّ يُرْتَبَطْنَ على خَسْفٍ[1]؛ وأنَّهُم لا عَهْدَ لهم ولا وفاءَ، ثَقُلَتْ مطامِعُهُم، وخَفَّت أماناتُهُم؛ وأنَّ قائِدَهُم عَمْرَو بنَ العاصِ كانَ جزّاراً في الجاهِلِيَّةِ، فما تَدَعُهُ رُوحُ الجزّارِ ولا طبيعتُهُ؛ وقد جاءَ بأربعةِ آلافِ سالخٍ من أَخْلاَطِ النّاسِ وشُذَّاذِهم، لا أربعةِ آلافِ مقاتلٍ من جَيْشٍ له نظامُ الجيش!

وتوهَّمَتْ ماريَةُ أوهامَها، وكانَتْ شاعِرَةً قَدْ دَرَسَتْ هي وأَرْمَانُوسَةُ أَدَبَ يونانَ وفلسفتَهِم، وكانَ لها خيالٌ مَشْبُوبٌ متوقِّدٌ، يُشْعِرُها كلَّ عاطِفَةٍ أكبرَ مما هِيَ، ويضاعِفُ الأشياءَ في نَفْسِهَا، ويَنْزِعُ إلى طبيعتِهِ المؤنَّثَةِ، فيبالِغُ في تَهْوِيْلِ الحُزْنِ خاصَّةً، ويَجْعَلُ مِنْ بَعْضِ الألفاظِ وَقُوداً على الدَّمِ..

ومنْ ذلك اسْتُطِيْرَ قَلْبُ ماريةَ وأَفْزَعَتْها الوساوسُ، فجعلتْ تَنْدُبُ نفسَها، وصَنَعَتْ في ذلك شِعْراً هذه ترجمتُهُ:

جاءَكِ أربعةُ آلافِ جَزَّارٍ أيَّتُها الشّاةُ المسْكِيْنَةُ!

ستذُوْقُ كلُّ شَعْرَةٍ مِنْكِ ألمَ الذَّبْحِ قبلَ أنْ تُذْبَحِي!

جاءَكِ أربعةُ آلافِ خاطِفٍ أيَّتُها العَذْرَاءُ المسكينةُ!

ستموتينَ أربعةَ آلافِ مِيْتَةٍ قبلَ المَوْتِ!

قَوِّني يا إلهي! لأُغْمِدَ في صَدْرِي سِكِّيناً يَرُدُّ عنّي الجزّارِيْنَ!

يا إلهي! قَوِّ هذِه العذراءَ، لتتزوَّجَ الموتَ قبل أنْ يَتَزَوَّجَهَا العربيُّ..!

وذهبَتْ تتلُو شِعرَها على أَرْمانُوْسةَ في صوتٍ حزينٍ يتوجَّعُ؛ فضَحِكَتْ هذه! وقالتْ: أنتِ واهمةٌ يا ماريَةُ؛ أَنَسِيْتِ أنَّ أبي قدْ أهدى إلى نبيِّهم

---

(١) [الذل].

بنتَ أنْصِنا[١]، فكانَتْ عِنْدَهُ في مملكةٍ بعضُها السماءُ، وبعضُهَا القلبُ؟ لقد أخبرني أبي أنَّه بعثَ بها لتَكْشِفَ له عن حقيقةِ هذا الدِّيْنِ وحقيقةِ هذا النبيِّ؛ وأنها أنفذتْ إليه دَسِيْساً يُعْلِمُهُ أنَّ هؤلاءِ المسلمينَ هم العقلُ الجديدُ الذي سيضَعُ في العالَمِ تمييزَهُ بين الحقِّ والباطِلِ، وأنَّ نبيَّهُم أَطْهَرُ من السَّحابةِ في سمائِهَا، وأنّهم جميعاً يَنْبَعِثُونَ منْ حُدودِ دينهم وفضائلهِ، لا مِنْ حدودِ أنفسِهِم وشهواتها؛ وإذا سَلُّوا السَّيْفَ سَلُّوه بقانونٍ، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانونٍ.

وقالتْ عن النِّساءِ: لأنْ تَخَافَ المرأةُ على عِفَّتِها من أبيها أقربُ منْ أنْ تخافَ عليها من أصْحَابِ هذا النبيِّ؛ فإنَّهُم جميعاً في واجباتِ القَلْبِ وواجباتِ العقلِ، ويكادُ الضَّمِيْرُ الإسلاميُّ في الرّجل منهُم ـ يكونُ حامِلاً سلاحاً يضرِبُ صاحِبَهُ إذا همَّ بمخالفتِهِ.

وقال أبي: إنَّهُم لا يُغِيرُون على الأُمم، ولا يحارِبُونَها حَرْبَ المُلْكِ؛ وإنّما تِلْكَ طبيعةُ الحركةِ للشَّرِيْعَةِ الجديدةِ، تَتَقَدَّمُ في الدّنيا حاملةً السّلاحَ والأخلاقَ، قويةً في ظاهرِها وباطنِها، فمنْ وراءِ أسلحتِهِم أخلاقُهُم؛ وبذلك تكونُ أسلحتُهُم نفسُها ذاتَ أخلاقٍ!

وقال أبي لها: إنّ هذا الدِّينَ سَيَنْدَفِعُ بأخلاقِه في العالَم اندفاعَ العُصَارةِ الحيّةِ في الشجرةِ الجرداء؛ طبيعةٌ تَعْمَلُ في طبيعةٍ؛ فليسَ يَمضي غيرَ بعيدٍ حتى تَخضَرَّ الدنيا، وترميَ ظلالَهَا؛ وهو بذلك فوقَ السّياساتِ التي تُشْبِه في عملِها الظّاهِرِ المُلَفَّقِ ما يُعَدُّ كطِلاءِ الشّجرةِ المَيْتَةِ الجرداءِ بلونٍ أخضرَ. . شَتَّانَ بين عملٍ وعملٍ، وإنْ كان لونٌ يشبِهُ لوناً. .

---

(١) هي مارية القبطية، التي أهداها المقوقس إلى النبي ﷺ، وكانت من أنصنا بالوجه القبلي. [وتعرف اليوم باسم قرية الشيخ عبادة نسبة إلى الصحابي الجليل عبادة بن الصامت رضي الله عنه، الذي بنى فيها مسجداً، وهي تتبع اليوم مركز ملوي بمحافظة المنيا من صعيد مصر].

فاستروَحَتْ ماريةُ، واطمأنَّتْ باطمئنانِ أرمانُوسةَ، وقالت: فلا ضَيْرَ علينا إذا فتحوا البلدَ، ولا يكونُ ما نَسْتَضِرُّ بهِ؟

قالت أرمانوسةُ: لا ضَيْرَ يا ماريةُ، ولا يكونُ إلا ما نُحِبُّ لأنفسِنَا؛ فالمسلمونَ ليسوا كهؤلاءِ العُلوجِ[1] من الرُّومِ، يفهمونَ متاعَ الدنيا بفكرةِ الحِرْصِ عليهِ، والحاجةِ إلى حلالهِ وحرامِهِ، فَهُمُ القُساةُ الغِلاظُ المُتَكَلِّبُونَ كالبهائم؛ ولكنَّهُمْ يفهمونَ متاعَ الدنيا بفكرةِ الاستغناءِ عنهُ، والتمييزِ بين حلالِه وحرامِه، فهُم الإنسانيُّون الرُّحماءُ المتعففونَ.

قالتْ ماريَةُ: وأبيكِ يا أرمانوسةُ، إنّ هذا لَعَجِيْب! فقد ماتَ سقراطُ وأفلاطونُ وأرسْطو وغيرُهم من الفلاسفةِ والحكماءِ، وما استطاعوا أن يؤدِّبوا بحكمتِهم وفلسفتِهم إلا الكتبَ التي كتبوها. . ! فلم يُخْرِجُوا للدنيا جماعةً تامةَ الإنسانيةِ، فضلاً عن أمةٍ كما وصفْتِ أنتِ من أمرِ المسلمينَ؛ فكيفَ استطاعَ نبيُّهم أنْ يخرجَ هذه الأمةَ وهم يقولون: إنّه كان أميّاً؟ أفتسْخَرُ الحقيقةُ من كبارِ الفلاسفةِ والحكماءِ وأهلِ السياسةِ والتدبير؛ فتدعُهُمْ يعملونَ عَبَثاً أو كالعبثِ، ثم تَسْتَسْلِمُ للرَّجلِ الأمّيِّ، الذي لم يَكْتُبْ، ولم يقرَأْ، ولم يدرُسْ، ولم يتعلَّمْ؟

قالت أرمانوسةُ: إنّ العلماءَ بهيئة السماءِ وأجرامِهَا، وحسابِ أفلاكِهَا، ليسوا همُ الذين يَشُقُّونَ الفجرَ، ويُطْلِعُونَ الشمسَ؛ وأنا أرى أنّه لا بدَّ من أمةٍ طبيعيةٍ بفطرتها، يكونُ عملُها في الحياةِ إيجادَ الأفكارِ العمليّةِ الصحيحةِ، التي يسيرُ بها العالَمُ، وقد درسْتُ المسيحَ وعملَه وزمنَه، فكان طِيلةَ عمرِه يحاوِلُ أنْ يوجِدَ هذه الأمةَ، غيرَ أنّه أوجدَها مُصغَّرةً في نفسِه وحوارِيِّيهِ، وكان عملُه كالبدءِ في تحقيق الشيءِ العسيرِ؛ حَسْبُه أنْ يُثبِتَ معنى الإمكانِ فيه.

---

(١) العلج الأعجمي الشديد الغليظ.

وظهورُ الحقيقةِ مِنْ هذا الرَّجُلِ الأمّيِّ هو تَنَبُّهُ الحقيقةِ إلى نَفْسِهَا؛ وبرهانُها القاطعُ أنّها بذلكَ في مَظْهَرِها الإلهيّ. والعجيبُ يا مارية، أنَّ هذا النبيَّ قد خذله قومُه وناكروه، وأجمعوا على خِلافِه، فكان في ذلك كالمسيحِ، غيرَ أنَّ المسيحَ انتهى عندَ ذلك؛ أمّا هذا فَقَدْ ثبتَ ثباتَ الواقعِ حينَ يقعُ؛ لا يرتدُّ ولا يتغيَّرُ؛ وهاجَرَ مِنْ بلدِهِ، فكانَ ذلك أولَ خُطَا الحقيقةِ التي أعلنتْ أنّها ستمشي في الدنيا، وقد أخذتْ مِنْ يومئذٍ تمشي[1]. ولو كانتْ حقيقةُ المسيحِ قد جاءت للدنيا كلِّها لهاجرتْ به كذلك، فهذا فرقٌ آخرُ بينهُما.

والفرقُ الثالثُ أنّ المسيحَ لم يأتِ إلا بعبادةٍ واحدةٍ هيَ عبادةُ القلبِ.

أما هذا الدينُ فعلمتُ مِنْ أبي أنّه ثلاثُ عباداتٍ يشُدُّ بعضُها بعضاً: إحداها للأعضاءِ، والثانيةُ للقلبِ، والثالثةُ للنّفس، فعبادةُ الأعضاءِ: طهارتُها، واعتيادُها الضَّبْطَ؛ وعبادةُ القلبِ: طهارتُه وحبُّه الخيرَ؛ وعبادةُ النفس: طهارتُها وبذلُها في سبيلِ الإنسانيةِ. وعندَ أبي أنّهم بهذهِ الأخيرةِ سيملكونَ الدنيا؛ فلنْ تُقْهَرَ أمةٌ عقيدتُها أنَّ الموتَ أوسعُ الجانبينِ وأسعدُهما.

قالت ماريةُ: إنّ هذا واللهِ لسِرٌّ إلَهِيٌّ يدلُّ على نفسِه؛ فمِنْ طبيعةِ الإنسانِ ألاّ تنبعثَ نفسُه غيرَ مباليةٍ الحياةَ والموتَ إلاّ في أحوالٍ قليلةٍ، تكونُ طبيعةُ الإنسانِ فيها عمياءَ: كالغضبِ الأعمىٰ، والحبِّ الأعمىٰ، والتكبُّرِ الأعمىٰ؛ فإذا كانتْ هذِهِ الأمَّةُ الإسلاميةُ كما قلتِ منبعثةً هذا الانبعاثَ، ليسَ فيها إلا الشعورُ بذاتِيَّتِهَا العاليةِ ـ فما بَعْدَ ذلكِ دليلٌ على أنَّ هذا الدِّينَ هو شعورُ الإنسانُ بسموّ ذاتيّتِهِ، وهذه هي نهايةُ النهاياتِ في الفلسفةِ والحكمةِ.

---

(١) انظر المقالات النبوية في «وحي القلم» (٢: ١ ـ ٧٠).

قالت أرمانوسةُ: وما بعدَ ذلك دليلٌ على أنكِ تتهيَّئينَ أن تكوني مسلمةً يا ماريةُ!

فاسْتَضْحَكَتَا معاً، وقالتْ ماريَةُ: إنّما ألقيتِ كلاماً جارَيْتُكِ فيهِ بحَسَبِه، فأنا وأنتِ فكرتانَ لا مسلمتانِ.

* * *

قال الراوي: وانهزمَ الرومُ عن بُلْبَيْسَ، وارتدُّوا إلى المقوقس في مَنْف[1]، وكانَ وحيُ أرمانوسةَ في ماريةَ مدةَ الحِصار - وهي نحوُ الشّهْر - كأنّه فِكْرٌ سَكَنَ فكراً، وتمدَّد فيه؛ فقد مرَّ ذلك الكلامُ بما في عَقْلِهَا مِنْ حقائقِ النّظرِ في الأدبِ والفلسفةِ، فصنعَ ما يَصْنَعُ المؤلِّفُ بكتابٍ ينقِّحُهُ، وأنشأَ لها أَخْيِلَةً تُجادِلُها، وتدفَعُها إلى التسليمِ بالصَّحِيْحِ لأنّه صحيحٌ، والمؤكَّدِ لأنّه مؤكَّد.

ومن طبيعةِ الكلامِ إذا أثّرَ في النفسِ، أن يَنْتَظِمَ في مثلِ الحقائقِ الصغيرةِ التي تُلقَى للحفظ؛ فكانَ كلامُ أرمانوسَةَ في عَقْلِ ماريَةَ هكذا: «المسيحُ بِدْءٌ وللبدءِ تَكْمِلةٌ، ما مِنْ ذلكَ بُدٌّ. لا تكونُ خِدْمَةُ الإنسانيةِ إلا بذاتٍ عاليةٍ، لا تبالي غيرَ سموِّها. الأمةُ التي تبذلُ كلَّ شيءٍ وتَسْتَمْسِكُ بالحياةِ جُبْناً وحِرْصاً لا تأخذُ شيئاً، والتي تبذُلُ أرواحَها فقط تأخذُ كلَّ شيءٍ».

وجَعَلَتْ هذه الحقائقُ الإسلاميةُ وأمثالُها تُعرِّبُ هذا العَقْلَ اليونانيَّ؛ فلمَّا أرادَ عَمْرُو بن العاص توجيهَ أرمانوسةَ إلى أبِيْهَا، وانتهى ذلكَ إلى ماريةَ، قالتْ لها: لا يَجْمُلُ بِمَنْ كانَتْ مثلَكِ في شرفِها وعقلِها أنْ تكونَ كالأخِيذةِ[2]، تَتَوَجَّهُ حيثُ يُسارُ بها؛ والرأيُ أنْ تبدئي هذا القائِدَ قبلَ أنْ

---

(١) [عاصمة مصر القديمة].

(٢) [الأسيرة]

يَبْدَأَكِ؛ فأرسلي إليه، فأعلميه أنّكِ راجعةٌ إلى أبيكِ، واسأليه أنْ يُصْحِبَك بعضَ رجالِهِ؛ فتكوني الآمرةَ حتّى في الأسْرِ، وتصنعي صُنْعَ بناتِ الملوكِ!

قالت أرمانوسةُ: فلا أجدُ لذلك خيراً مِنْك في لسانِك ودَهائِك؛ فاذهبي إليه مِنْ قِبَلي، وسيَصْحَبُكِ الراهبُ شطًّا، وخُذي معكِ كوكبةً من فرساننا.

قالتْ ماريةُ وهي تَقُصُّ على سيّدتِها: لقد أديتُ إليه رسالَتَكِ، فقالَ: كيفَ ظَنُّها بِنَا؟ قلتُ: ظنُّها بفعل رَجُلٍ كريمٍ، يأمُرُه اثنان: كَرَمُهُ، ودينُهُ. فقالَ: أبلِغيْهَا أنَّ نبيَّنا ﷺ قال: «اسْتَوْصُوا بالقِبْطِ خَيْراً، فإنَّ لَهُمْ فِيْكُمْ صِهْراً وذِمَّةً»[١]. وأَعلِمِيْهَا أننا لسنا على غارةٍ نُغِيْرُها، بل على نفوسٍ نُغَيِّرُها.

قالتْ: فَصِفِيْه لي يا ماريةُ.

قالت: كان آتياً في جماعةٍ من فرسانِهِ على خُيولهم العِرابِ[٢]، كأنَّها شياطينُ تحمِلُ شياطينَ من جنسٍ آخرَ؛ فلمّا صارَ بحيثُ أتبيَّنُه أوْماَ إليهِ التَّرْجُمَانُ ـ وهو وَرْدان مولاه ـ فنظرتُ، فإذ هو على فَرَسٍ كُمَيْتٍ أحَمَّ[٣] لم يَخْلُصْ للأسودِ ولا للأحمرِ، طويلِ العنقِ، مُشْرِفٍ، له ذُؤابةٌ أعلى ناصيتِهِ كطُرَّةِ المرأةِ، ذيَّالٍ، يَتَبَخْتَرُ بفارسِه، ويُحَمْحِمُ كأنَّه يريدُ أنْ يتكلَّمَ، مُطهَّمٍ[٤]..

فقطعتْ أرمانوسةُ عليها وقالتْ: ما سألتُكِ صفةَ جوادِهِ..

---

(١) [أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٢: ٥٥٣) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وهو كما قالا، انظر «الأحاديث الصحيحة» رقم (١٣٧٤)].

(٢) [الأصيلة].

(٣) الكميت الأحم: هو الأحمرُ الضاربُ للسوادِ، لا يخلُصُ لأحدِ اللونين، فإذا كانَ أحْمَرَ خالِصاً قيلَ فيه: كُميتٌ مُدَمًّى (بتشديد الميم الثانية وفتحها).

(٤) [التام في كل شيء، المتناهي الحسن].

قالتْ ماريةُ: أما سلاحُهُ. .

قالت: ولا سلاحُهُ، صِفيه كيفَ رأيتِه هُوَ!

قالت: رأيتُهُ قصيرَ القامةِ، علامةَ قوةٍ وصلابةٍ، وافرَ الهامةِ، علامةَ عقلٍ وإرادةٍ، أدعجَ العينين. .

فضحكتْ أرمانوسةُ وقالت: علامةُ ماذا؟

. . . أبلجَ، يُشْرِقُ وَجْهُهُ كأنَّ فيهِ لألاءَ الذَّهَبِ على الضَّوْءِ، أيّداً[١]، اجتمعتْ فيه القوَّةُ، حتى لتكادَ عيناهُ تأمرانِ بنظرِهما أمراً. . داهيةً كُتِبَ دَهاؤُهُ على جبهتِهِ العريضةِ، يجعلُ فيها معنًى يأخذُ مَنْ يراه؛ وكلَّما حاولتُ أنْ أتفرّسَ في وجهِهِ رأيتُ وجهَهُ لا يُفسِّرُهُ إلا تكرارُ النظرِ إليهِ.

وتضرَّجتْ وجنتاها، فكانْ ذلك حديثاً بينها وبين عيْنَيْ أرمانوسةَ. . وقالتْ هذِهِ: كذلكَ كلُّ لذةٍ، لا يفسِّرُها للنفسِ إلاّ تكرارُها. .

فغضَّتْ ماريةُ من طَرْفِها، وقالتْ: هو واللهِ ما وَصَفْتِ، وإنّي ما ملأتُ عينيَّ منه، وقد كِدْتُ أُنكِرُ أنّه إنسانٌ لما اعتراني مِنْ هيبتِهِ. .

قالت أرمانوسةُ: مِنْ هيبتِهِ، أمْ عينيهِ الدّعجاوَيْنِ. . ؟

ورجعتْ بنتُ المقوقس إلى أبيها في صُحْبَةِ قيس، فلما كانوا في الطريق، وجبَتْ الظُّهرُ، فنزل قيسٌ يصلي بمن معه، والفتاتانِ تنظرانِ؛ فلما صاحوا: «اللهُ أكبرُ. . !» ارتعشَ قلبُ ماريةَ، وسألتْ الراهبَ شطًا: ماذا يقولون؟ قال: إنّ هذه كلمةٌ يدخلونَ بها صلاتَهُم، كأنّما يخاطِبونَ بها الزَّمَنَ أنّهم الساعةَ في وقتٍ ليسَ مِنْهُ ولا مِنْ دنياهم، وكأنّهم يعلنونَ أنّهم بَيْنَ يدي مَنْ هو أكبرُ من الوجودِ؛ فإذ أعلنوا انصرافَهُم عن الوقتِ، ونزاعِ الوقتِ، وشَهَواتِ الوقتِ، فذلك هو دخولُهم في الصّلاةِ؛ كأنّهم يَمْحُونَ

---

(١) [قوياً].

الدنيا مِنَ النفس ساعةً أو بعض ساعة؛ ومَحْوُها من أنفسِهم هو ارتفاعُهم بأنفسِهِم عليها؛ انظري، ألا تَرَيْنَ هذه الكلمةَ قد سَحَرَتْهُم سِحْراً، فهم لا يلتفتونَ في صلاتِهِم إلى شيءٍ؛ وقد شملتْهُم السكينةُ، ورَجَعوا غيرَ مَنْ كانوا، وخشَعوا خشوعَ أعظمِ الفلاسفةِ في تأمُّلِهم؟[1].

قالت ماريةُ: ما أجملَ هذه الفطرةَ الفلسفيةَ! لقد تَعِبَتْ الكُتُبُ لِتَجْعَلَ أهلَ الدنيا يستقرُّون ساعةً في سكينةِ اللهِ عليهم فما أفلحتْ، وجاءَتْ الكنيسةُ، فَهوَّلت على المُصلِّيْنَ بالزَّخارفِ والصُّوَرِ والتماثيلِ والألوانِ، لتُوحِيَ إلى نفوسِهِم ضَرْباً من الشعورِ بسكينةِ الجمالِ، وتَقْدِيْسِ المعنى الدِّينيِّ، وهي بذلك تحتَالُ في نقلِهِم مِنْ جوِّهم إلى جَوِّها؛ فكانت كساقي الخمر؛ إنْ لم يُعْطِكَ الخمرَ عَجَزَ عَنْ إعطائِكَ النَّشْوةَ، ومَنْ ذا الذي يستطيعُ أنْ يَحْمِلَ معه كنيسةً على جوادٍ أو حمارٍ؟

قالت أرمانوسةُ: نعم إنَّ الكنيسةَ كالحديقةِ؛ هي حديقةٌ في مكانها، وقلّما تُوحي شيئاً إلا في موضعِها؛ فالكنيسةُ هي الجدرانُ الأربعةُ، أمّا هؤلاءِ فمعبدُهم بين جهاتِ الأرضِ الأربعِ.

قال الراهبُ شطّا: ولكنّ هؤلاء المسلمينَ متى فُتِحَتْ عليهم الدنيا، وافتتنوا بها، وانغمسُوْا فيها - فستكونُ هذه الصّلاةُ بعينِها ليسَ فيها صلاةٌ يومئذٍ.

قالت ماريةُ: وهل تُفتَحُ عليهم الدنيا، وهل لهم قُوّادٌ كثيرونَ كعَمْرٍو..؟

قال: كيفَ لا تُفْتَحُ الدنيا على قومٍ لا يُحارِبُونَ الأمَمَ، بل يحارِبُوْنَ ما فيها من الظُّلْمِ والكُفْرِ والرَّذِيْلَةِ، وهم خارجونَ من الصّحراءِ بطبيعةٍ قويةٍ كطبيعةِ المَوْجِ في المدِّ المرتفعِ؛ ليسَ في دَاخِلِها إلا أنْفُسٌ مندفعةٌ إلى

(١) انظر مقالة - حقيقة المسلم - «وحي القلم» (٢ : ١١).

الخارجِ عنها؛ ثم يقاتلونَ بهذِه الطبيعةِ أمماً ليسَ في الداخِلِ منها إلا النفوسُ المُسْتَعِدّةُ أَنْ تَهْرُبَ إلى الداخلِ. . !

قالتْ ماريةُ: واللهِ لكأنّنا ثلاثتنا على دِيْنِ عمرٍو.

وانفتلَ قيسٌ من الصّلاةِ، وأقبلَ يترحَّلُ، فلما حاذى ماريةَ، كان عندَها كأنّما سافَرَ ورَجَعَ؛ وكانتْ ما تزالُ في أحلامِ قلبِهَا؛ وكانتْ مِنَ الحُلُمِ في عالَمٍ أخذَ يتلاشى إلا مِنْ عَمْرٍو، وما يتَّصِلُ بعَمْرٍو، وفي هذِهِ الحياةِ أحوالٌ ثلاثٌ يغيْبُ فيها الكونُ بحقائقه: فيغيبُ عن السكرانِ، والمخبولِ، والنائمِ؛ وفيها حالةٌ رابعةٌ يتلاشَى فيها الكونُ إلا مِنْ حقيقةٍ واحدةٍ تتمثَّلُ في إنسانٍ محبوبٍ.

وقالت ماريةُ للراهبِ شطا: سَلْهُ: ما أَرَبُهُم مِنْ هذهِ الحربِ، وهل في سياستِهِم أنْ يكونَ القائدُ الذي يَفْتَحُ بلداً حاكماً على هذا البلدِ. . . ؟

قال قيسٌ: حَسْبُكِ أَنْ تعلمي أنّ الرّجلَ المسلمَ ليسَ إلا رَجُلاً عامِلاً في تحقيقِ كلمةِ اللهِ، أما حظُّ نفسِه، فهو في غيرِ هذِهِ الدنيا.

وترجَمَ الراهبُ كلامَه هكذا: أما الفاتِحُ فهو في الأكثرِ الحاكمُ المقيمُ، وأما الحربُ فهي عندنا الفكرةُ المُصْلِحَةُ؛ تريدُ أنْ تضرِبَ في الأرضِ وتعملَ، وليس حظُّ النفسِ شيئاً يكونُ من الدنيا؛ وبهذا تكونُ النفسُ أكبرَ مِنْ غرائزِها، وتَنْقَلِبُ معها الدنيا برُعونتِها وحماقاتِها وشَهَواتِها كالطفلِ بين يدي رجلٍ، فيهما قوةُ ضبطِه وتصريفِه. ولو كان في عقيدتِنا أنّ ثوابَ أعمالِنا في الدنيا، لا نعكسَ الأمرُ.

قالت ماريةُ: فَسَلْهُ: كيفَ يَصْنَعُ عمرٌو بهذه القِلَّةِ التي مَعَهُ، والرومُ لا يُحْصَى عَدَدُهم؛ فإذا أخفقَ عَمْرٌو فمَن عَسَى أن يستبدلوه منه؟ وهل هو أكبرُ قُوّادِهم، أو فيهم أكبرُ منه؟

قال الراوي: ولكنّ فَرَسَ قيسٍ تمَطَّر(١)، وأسرعَ في لحَاقِ الخيلِ على المقدَّمةِ، كأنَّهُ يقول: لسنا في هذا. .

وفُتِحَتْ مصرُ صُلْحاً بين عمرٍو والقِبطِ، وولَّى الرومُ مُصْعِدين إلى الإسكندريةِ، وكانت ماريَةُ في ذلك تستقرِىءُ أخبارَ الفاتحِ، تطوفُ منها على أطلالٍ مِنْ شخصٍ بعيدٍ؛ وكانَ عمرٌو مِنْ نفسِها كالمملكةِ الحصينةِ مِنْ فاتحٍ لا يَمْلِكُ إلا حُبَّهُ أنْ يأخذَها؛ وجعلتْ تذوي، وشَحَبَ لونُها، وبدأت تنظرُ النظرةَ التائِهَةَ، وبانَ عليها أثرُ الرُّوحِ الظَّمْأى؛ وحاطَها اليأسُ بجوِّهِ الذي يُحْرِقُ الدمَ؛ وبَدَتْ مجروحةَ المعاني؛ إذْ كانَ يتقاتَلُ في نفسِها الشعورانِ العَدُوَّان: شعورُ أنّها عاشِقَةٌ، وشعورُ أنّها يائِسَةٌ!

ورقَّتْ لها أرمانوسةُ، وكانَتْ هي أيضاً تتعلَّقُ فتًى رومانيّاً، فسَهِرَتا ليلةً تُديرانِ الرأيَ في رسالةٍ تحملُها ماريةُ مِنْ قِبَلِهَا إلى عمرٍو، كي تَصِلَ إليهِ، فإذا وصلتْ بلَّغتْ بعينيها رسالةَ نفسِها.

واستقرّ الأمرُ أن تكونَ المسألةُ عن ماريةَ القبطيةَ، وخبرِها، ونسلِها، وما يتعلَّقُ بها، مما يطولُ الإخبارُ به إذا كان السؤالُ مِنْ امرأةٍ عن امرأةٍ. فلما أصبَحَتا وَقَعَ إليها أنّ عمراً قد سارَ إلى الإسكندريةِ لقتالِ الرومِ، وشاعَ الخبرُ أنّه لما أمرَ بفُسْطاطِهِ أنْ يُقَوَّضَ، أصابوا يمامةً قد باضَتْ في أعلاه، فأخبروه فقال: «قد تَحَرَّمَتْ في جوارِنا، أَقِرُّوا الفسطاطَ حتى تطيرَ فِرَاخُها». فأقرُّوه!

ولم يَمْضِ غيرُ طويلٍ حتى قَضَتْ ماريةُ نحبَها، وحَفِظَتْ عنها أرمانوسةُ هذا الشِّعْرَ الذي أسمتْهُ: نَشيدَ اليمامةِ:

على فُسْطاطِ الأميرِ يمامةٌ جاثمةٌ تحضُنُ بيضَها.

تركها الأميرُ تصنعُ الحياةَ، وذهبَ هو يَصْنعُ الموتَ!

---

(١) [تمطرت الخيل: ذهبت مسرعةً].

هي كأسْعَدِ امرأةٍ؛ ترى وتلمسُ أحلامَهَا
إنَّ سعادةَ المرأةِ أولَها وآخرَها بعضُ حقائق صغيرةٍ كهذا البيضِ.

* * *

على فسطاطِ الأميرِ يمامةٌ جاثمةٌ تحضُنُ بيضَها.
لو سُئِلَتْ عن هذا البيضِ لقالتْ: هذا كَنْزِي.
هي كأهنأ امرأةٍ، مَلَكَتْ مِلْكها من الحياةِ ولم تَفْتَقِرْ.
هل أُكلِّفُ الوجودَ شيئاً كثيراً إذا كلَّفْتُهُ رجلاً واحداً أحبُّهُ!

* * *

على فُسطاطِ الأميرِ يمامةٌ جاثمةٌ تحضُنُ بيضَها.
الشَّمسُ والقمرُ والنّجومُ، كلُّها أصغرُ في عينها مِنْ هذا البَيْضِ.
هي كأرقِّ امرأةٍ؛ عرفَتْ الرِّقَّةَ مرتين: في الحُبِّ، والولادةِ.
هل أُكلِّفُ الوجودَ شيئاً كثيراً إذا أردتُ أنْ أكونَ كهذِه اليمامةِ!

* * *

على فُسطاطِ الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تَحْضُنُ بيضَها.
تقول اليمامةُ: إنَّ الوجودَ يحبُّ أن يُرى بلونينِ في عَيْنِ الأُنْثَى؛
مرةً حبيباً كبيراً في رَجُلها، ومرةً حبيباً صغيراً في أولادِها.
كلُّ شيءٍ خاضِعٌ لقانونِه؛ والأنثى لا تريدُ أن تَخْضَعَ إلا لقانُوْنِهَا.

* * *

أيتها اليمامةُ! لم تعرفي الأميرَ، وتركَ لكِ فُسْطاطَه!
هكذا الحَظُّ: عَدْلٌ مضاعَفٌ في ناحيةٍ، وظُلْمٌ مضاعَفٌ في ناحيةٍ أخرى.
احمدي الله أيتُها اليمامةُ، أنْ ليسَ عندَكُمْ لغاتٌ وأديانٌ،
عندكم فقط: الحُبُّ والطبيعةُ والحياةُ.

* * *

علی فُسطاطِ الأميرِ يمامةٌ جاثمةٌ تَحْضُنُ بيضَها.
يمامةٌ سعيدةٌ، ستكونُ في التاريخِ كهُدْهُدِ سليمانَ،
نُسِبَ الهدهدُ إلى سليمان، وسَتُنْسَبُ اليمامةُ إلى عَمْرٍو.
واهاً لكَ يا عَمْرُو! ما ضَرَّ لو عَرَفْتَ اليمامةَ الأُخرى[1]...!

* * *

(١) نشرت في مجلة «الرسالة» السنة الثالثة العدد رقم (٩٢) تاريخ المحرم عام ١٣٥٤ الموافق ٨ نيسان ـ إبريل ١٩٣٥.

سموّ الحب[١]

صَاحَ المنادي في مَوْسِمِ الحَجِّ: «لا يُفْتِي النَّاسَ إلا عَطاءُ ابنُ أبي رَباح»[٢]. وكذلك كان يَفْعَلُ خلفاءُ بني أُميةَ؛ يَأمُرُوْنَ صائِحَهُمْ في الموسِمِ، أنْ يدلَّ النّاسَ على مفتي مكةَ وإمامِها وعالِمِها، ليَلْقَوْهُ بمسائِلِهِم في الدِّينِ، ثُمَّ ليُمْسِكَ غَيْرُهُ عن الفَتْوَى، إذ هو الحُجَّةُ القاطِعَةُ، لا ينبغي أن يكونَ معها غيرُها مما يَخْتلفُ عليها أو يعارِضُها، وليس للحُجَجِ إلا أنْ تُظاهِرَها وتتَرَادفَ على معناها.

وجَلَسَ عطاءُ يتحيَّنُ الصَّلاةَ في المَسْجِدِ الحرامِ، فوقَفَ عليه رَجُلٌ وقال: يا أبا مُحمَّدٍ! أنتَ أفْتَيْتَ كما قال الشاعِرُ:

سَلِ المُفْتِيَ المكِّيَّ: هلْ في تَزَاوُرٍ ... وَضَمَّةِ مُشْتاقِ الفُؤادِ جُنَاحُ؟
فقالَ: مَعَاذَ اللهِ أَنْ يُذْهِبَ التُّقَى ... تلاَصُقُ أكبادٍ بِهِنَّ جِرَاحُ!

فَرَفَعَ الشيخُ رأسَهُ، وقال: والله ما قلتُ شيئاً من هذا، ولكنَّ الشاعِرَ هو نَحَلَنِي هذا الرأيَ الذي نَفَثَه الشيطانُ على لسانِه، وإني لأخافُ أن تَشيعَ القالَةُ في النَّاسِ، فإذا كان غَدٌ، وجَلَسْتُ في حَلْقَتي، فاغْدُ عليَّ، فإنّي قائلٌ شيئاً.

---

(١) [انظر «عودٌ على بدءٍ» من كتاب «حياة الرافعي» (٢٥٦)].

(٢) ولد هذا الإمام سنة (٢٧)هـ وتوفي سنة (١١٥) قالوا: ومات يوم مات وهو عند الناس أرضى أهل الدنيا.

وذهبَ الخبرُ يؤُجُّ كما تَؤُجُّ النار، وتعالَمَ الناسُ أن عطاءَ سيتكلَّمُ في الحُبِّ، وعَجِبُوا كيفَ يَدْرِي الحُبَّ أو يُحْسِنُ أن يقولَ فيه مَن غَبرَ عِشْرِيْنَ سنةً فراشُهُ المَسْجِدُ، وقد سَمِعَ مِنْ عائشةَ أمِّ المؤمنين، وأبي هُريرةَ صاحبِ رسول الله ﷺ، وابنِ عباسٍ بَحْرِ العلمِ!

وقال جماعةٌ مِنْهُم: هذا رجلٌ صامِتٌ أكثرَ وقتِه، وما تكلَّمَ إلا خُيِّلَ إلى النّاسِ أنه يُؤيَّدُ بمثلِ الوحيِ، فكأنّما هو نَجِيُّ ملائكةٍ يَسْمَعُ ويقولُ، فلعلَّ السماءَ مُوحِيَةٌ إلى الأرضِ بلسانِهِ وَحْياً في هذِه الضّلالةِ التي عَمَّتْ النّاسَ، وفَتَنَتْهُم بالنِّساءِ والغِناءِ.

ولمّا كانَ غَدٌ جاءَ النّاسُ أرسالاً[1] إلى المسجدِ، حتى اجتمعَ مِنْهُم الجَمْعُ الكثيرُ. قال عبدُ الرحمنِ بنُ عبدِ الله بن أبي عمّار: وكنتُ رجلاً شاباً من فِتْيانِ المدينةِ، وفي نفسِي ومِنَ الدنيا ومن هَوَى الشّباب، فغدوتُ مع النّاسِ، وجِئْتُ وقد تكلَّم أبو محمد وأفاضَ، ولم أكنْ رأيتُه مِنْ قَبْلُ، فنظرْتُ إليه، فإذا هو في مجلسِهِ كأنَّهُ غُرابٌ أسودُ، إذْ كانَ ابنَ أمَةٍ سوداءَ تُسَمّى بَرَكةَ، ورأيتُه مع سوادِهِ أعْوَرَ، أفْطَسَ، أشَلَّ، أعْرَجَ، مُفَلْفَلَ الشَّعرِ، لا يتأمَّلُ المرءُ مِنْهُ طائلاً، ولكنَّكَ تسمعُه يتكلَّمُ، فتظنُّ مِنْهُ ومن سَوادِهِ ـ واللهِ ـ أنَّ هذِه قطعةُ لَيْلٍ تَسْطَعُ فيها النُّجومُ، وتصعدُ من حولها الملائكةُ وتَنْزِلُ.

قال: وكان مجلِسُه في قصَّةِ يوسفَ عليهِ السَّلامُ، ووافقتُهُ وهوَ يتكلَّم في تأويلِ قولِه تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف: ٢٣ ـ ٢٤].

---

(١) [أفواجاً].

قال عبدُ الرحمن: فسمعتُ كلاماً قُدْسِياً، تضَعُ لهُ الملائكةُ أجْنِحَتَها من رضىً وإعجابٍ بفقيهِ الحجازِ. حَفِظْتُ منه قولَه:

عَجَباً للحُبِّ! هذِهِ مَلِكةٌ تعشَقُ فتاها الذي ابتاعَهُ زوجُها بثمَنٍ بَخْسٍ؛ ولكنْ أينَ مُلْكُها وسطوةُ مُلْكِها في تصويرِ الآيةِ الكريمةِ؟ لم تَزِدْ الآيةُ على أنْ قالتْ: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي﴾ و﴿ٱلَّتِي﴾ هذِهِ كلمةٌ تدلُّ على كلِّ امرأةٍ كائنةً مَنْ كانَتْ؛ فلمْ يَبْقَ على الحُبِّ مُلْكٌ ولا مَنْزِلةٌ؛ وزالَتِ المَلِكَةُ من الأنثى!

وأعْجَبُ من هذا كلمةُ ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ وهي بصيغَتِها المفرَدَةِ حِكايَةٌ طويْلَةٌ، تُشِيْرُ إلى أنّ هذهِ المرأةَ جَعَلَتْ تعترِضُ يوسفَ بألوانٍ مِنْ أنوثَتِهَا لَوْنٍ بعدَ لونٍ؛ ذاهبةً إلى فنٍّ، راجعةً منْ فنٍّ؛ لأنّ الكلمةَ مأخوذةٌ مِنْ روَدَانِ الإبلِ في مشيتِها؛ تذهبُ وتجيءُ في رِفْقٍ. وهذا يُصَوِّرُ حَيْرَةَ المرأةِ العاشِقَةِ، واضطرابَها في حُبِّها؛ ومحاولتَها أنْ تنفُذَ إلى غايتِها؛ كما يصوِّرُ كبرياءَ الأنثى، إذْ تَخْتالُ وتترفَّقُ في عَرْضِ ضَعْفِهَا الطبيعيِّ، كأنّما الكبرياءُ شيءٌ آخرُ غيرُ طبيعَتِها؛ فمهما تتهالَكُ على مَنْ تُحِبُّ وجبَ أنْ يكونَ لهذا الشيءِ الآخَرِ مَظْهَرُ امتناعٍ، أو مَظْهَرُ تحيُّرٍ، أو مظهرُ اضطرابٍ، وإنْ كانَتْ الطبيعةُ مِنْ وراءِ ذلكَ مندفعةً ماضيةً مصمِّمةً.

ثُمَّ قالَ: ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ ليدُلَّ على أنّها لا تطمَعُ فيهِ، ولكنْ في طبيعَتِهِ البشريّةِ، فهي تَعرِضُ ما تعرِضُ لهذه الطبيعةِ وحدَها، وكأنَّ الآيةَ مصرِّحةٌ في أدبٍ سامٍ كلَّ السموِّ، منزَّهٍ غايةَ التنزيهِ بما معناه: «إنّ المرأةَ بذلتْ كلَّ ما تستطيعُ في إغرائِهِ وتصبيِّهِ[1]، مقبِلةً عليه، ومتدللةً، ومتبذلةً، ومُنْصَبَّةً من كلِّ جهةٍ، بما في جِسْمِهَا وجمالها على طبيعتِهِ البشريةِ، وعارضةً كلَّ ذلكَ عرضَ امرأةٍ خلعَتْ ـ أوّل ما خَلَعَتْ ـ أمامَ عَيْنَيْهِ ثوبَ المُلْكِ».

ثم قال: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ ولم يَقُلْ «أغْلَقَتْ» وهذا يُشعِرُ أنّها لمّا

---

(١) [استمالته].

يَئِسَتْ، ورأتْ منهُ محاولةَ الانصرافِ، أسرَعتْ في ثورةِ نفسِها مهتاجةً، تتخيّلُ القُفلَ الواحِدَ أقفالاً عِدّة، وتجري من بابٍ إلى بابٍ، وتضطربُ يدُها في الإغلاق، كأنما تحاوِلُ سدَّ الأبوابِ لا إغلاقَها فقط.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ ومعناها في هذا الموقفِ أنّ اليأسَ قد دفعَ بهذهِ المرأةِ إلى آخرِ حدودِه، فانتهتْ إلى حالةٍ من الجنونِ بفكرتِهَا الشهوانيةِ، ولم تَعُدْ لا مَلِكَةً ولا امرأةً، بل أنوثةً حيوانيةً صِرفةً، متكشّفةً مصرّحةً، كما تكونُ أنثى الحيوانِ في أشدِّ اهتياجِها وغَلَيانها.

هذه ثلاثةُ أطوارٍ يترقّى بعضُها من بعضٍ، وفيها طبيعةُ الأنوثةِ نازلةً من أعلاها إلى أسفلِها. فإذا انتهت المرأةُ إلى نهايتها، ولم يَبْقَ وراءَ ذلك شيءٌ تستطيعُه أو تَعْرِضُهُ، بدأت مِنْ ثَمَّ عظَمةُ الرجولة الساميةِ المتمكّنةِ في معانيها، فقال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وهذه أسْمَى طريقة إلى تنبيهِ ضميرِ المرأةِ في المرأةِ، إذ كان أساسُ ضميرها في كلِّ عصرٍ هو اليقينُ باللهِ، ومعرفةُ الجميلِ، وكراهةُ الظُلْم. ولكنَّ هذا التنبيهَ المترادِفَ ثلاثَ مرّاتٍ لم يكسِرْ مِنْ نَزْوَتِها، ولم يَفْثَأ[1] تلكَ الحِدَّةِ، فإنَّ حُبَّها كان قد انحصرَ في فكرةٍ واحدةٍ، اجتمعتْ بكلِّ أسبابِها في زمنٍ في مكانٍ في رجلٍ، فهي فكرةٌ مُحْتَبَسَة، كأنَّ الأبوابَ مغلَّقةٌ عليها أيضاً؛ ولذا بقيتْ المرأةُ ثائرةً ثورةَ نَفْسِها.

وهنا يعودُ الأدبُ الإلٰهِيّ السامي إلى تعبيرِه المُعْجِزِ فيقول: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ كأنما يُومىءُ بهذه العبارةِ إلى أنّها ترامَتْ عليه، وتَعَلَّقَتْ به، والتجأتْ إلى وسيلتِهَا الأخيرةِ، وهي لَمْسُ الطبيعة بالطبيعةِ، لإلقاءِ الجَمْرَةِ في الهشيمِ..!

(١) [يكسر].

جاءَتْ العاشقةُ في قضيَّتِهَا ببرهانِ الشيطانِ، يَقْذِفُ به في آخِرِ محاولتِهِ. وهنا يقَع لِيُوْسُفَ عليهِ السلامُ برهانُ ربِّه، كما وقع لها هي برهانُ شيطانِها، فلولا برهانُ ربّه لكانَ رجُلاً من البَشَرِ في ضَعْفِه الطبيعيِّ.

قال أبو محمد: وههنا ههنا المعجزةُ الكبرى، لأنّ الآيةَ الكريمةَ تريدُ ألا تنفِيَ عن يُوْسُفَ عليهِ السّلامُ فُحولةَ الرجولةِ، حتى لا يُظَنَّ بهِ، ثم هي تريدُ من ذلكَ أنْ يتعلَّمَ الرجالُ، وخاصةً الشبانَ منهم، كيفَ يتساموْن بهذه الرجولةِ فوقَ الشهواتِ، حتّى في الحالةِ التي هي نهايةُ قدرةِ الطبيعةِ؛ حالةِ مَلِكةٍ مطاعةٍ فاتنةٍ عاشقةٍ مُخْتَلِيةٍ مُتَعَرِّضةٍ متكشِّفَةٍ متهالكةٍ. هنا لا ينبغي أن ييأسَ الرجلُ، فإنَّ الوسيلةَ التي تجعلُه لا يرى شيئاً مِنْ هذا ـ هي أن يَرَىٰ برهانَ ربِّهِ.

وهذا البرهانُ يُؤَوِّله كلُّ إنسانٍ بما شاءَ، فهو كالمفتاحِ الّذي يوضَعُ في الأقفالِ كلِّها، فيفُضُّها كلَّها؛ فإذا مَثَّلَ الرجلُ لنفسِه في تلك الساعةِ أنّه هو وهذِه المرأة منتَصِبان أمامَ اللهِ يراهما، وأنّ أمانيَّ القلب التي تهجِسُ فيه، وبظنُّها خافيةً، إنما هي صوتٌ عالٍ يسمعُهُ اللهُ؛ وإذا تذكرَ أنَّهُ سيموتُ ويُقْبَرُ، وفكَّر فيما يصنعُ الثرى في جسمِه هذا، أو فكّرَ في موقفِهِ يومَ تَشْهَدُ عليه أعضاؤه بما كان يعملُ، أو فكّر في أنَّ هذا الإثمَ الذي يقتَرِفُه الآن سيكونُ مَرْجِعُه عليه في أختِهِ أو بنتِهِ ـ إذا فكّرَ في هذا ونحوِه رأى برهانَ ربِّه يُطالِعُهُ فجأةً، كما يكونُ السّائرُ في الطريقِ غافلاً مندفعاً إلى هاويةٍ، ثم ينظرُ فجأةً، فيرى برهانَ عَيْنِه؛ أترونه يتردَّى في الهاوية حينئذٍ، أم يقفُ دونها وينْجُو؟ احفظوا هذِهِ الكلمةَ الواحدةَ التي فيها أكثرُ الكلامِ، وأكثرُ الموعِظةِ، وأكثرُ التربيةِ، والتي هي كالدِّرْعِ في المعركةِ بين الرجلِ والمرأةِ والشيطانِ، كلمةَ ﴿ رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾.

* * *

قال عبدُ الرحمنِ بنُ عبدِ اللهِ وهو يتحدَّثُ إلى صاحِبِه سُهَيْلِ بنِ

عبدِ الرحمنِ: ولزِمْتُ الإمامَ بعد ذلك، وأجْمَعْتُ أنْ أتشبَّهَ بهِ، وأسلُكَ في طريقِهِ مِنَ الزّهدِ والمعرفةِ؛ ثم رجعتُ إلى المدينةِ، وقد حَفِظْتُ الرّجُلَ في نفسي، كما أحفظُ الكلامَ، وجعلتُ شِعاري في كلِّ نَزْعةٍ من نَزَعاتِ النّفْسِ هذِهِ الكلمةَ العظيمةَ: ﴿ رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦٓ ﴾ فما ألممتُ بإثمٍ قطُّ، ولا دانيتُ معصيةً، ولا رَهِقَنِي مَطْلَبٌ من مطالبِ النّفسِ إلى يومِ النّاسِ هذا، وأرجو أن يَعْصِمَني اللهُ فيما بقي، فإنّ هذه الكلمةَ ليست كلمةً، وإنما هي كأمرٍ من السماءِ تَحْمِلُهُ، تمُرُّ بهِ آمِناً على كلِّ معاصي الأرضِ، فما يَعْتَرِضُكَ شيءٌ منها، كأنّ مَعَكَ خاتِمَ المَلِكِ تَجُوزُ بهِ.

قال سهيلُ: فلهذا لقّبَكَ أهلُ المدينةِ بالْقَسّ لعبادتِك وزهدِك وعُزُوفِكَ عن النّساءِ، وقليلٌ لكَ ـ واللهِ ـ يا أبا عبدِ اللهِ، فلو قالوا: ما هذا بَشَراً إنْ هذا إلا مَلَكٌ، لصدقوا.

* * *

قالت سلأمةُ جاريةُ سُهيل بن عبد الرحمن المُغَنّيَةُ، الحاذِقَةُ الظريفةُ، الجميلةُ الفاتنةُ، الشاعرةُ القارئةُ، المؤرخةُ المتحدِّثةُ، التي لم يجتمِعْ في امرأةٍ مثلها حُسنُ وجهها، وحسنُ غنائِها، وحسنُ شِعْرِها ـ قالت: واشتراني أميرُ المؤمنين يزيدُ بنُ عبدِ الملكِ بعشرينَ ألفَ دينار (عشرة آلاف جنيه) وكان يقولُ: ما يُقِرُّ عيني ما أوتيتُ من الخلافةِ حتّى أشتريَ سلاّمةَ؛ ثم قال حين ملكني: ما شاءَ بعد من أمرِ الدّنيا فَلْيَفُتْني! قالتْ: فلما عُرِضْتُ عليه أمرني أنْ أغنّيهِ، وكنتُ كالمخبولةِ مِنْ حُبِّ عبدِ الرحمن القَسّ، حُبّاً أراه فالِقاً كبدي، آتياً على حُشاشتي: فذهبَ عنيّ واللهِ كلُّ ما أحْفَظُهُ مِنْ أصواتِ الغناءِ، كما يُمْسَحُ اللوحُ مما كُتِبَ فيه، وأُنسيتُ الخليفةَ وأنا بين يديهِ، ولم أرَ إلا عبدَ الرحمنِ ومجلسَه مني يومَ سألني أنْ أغنّيهِ بشعرِه فِيَّ، وقَوْلي له يومئذٍ: حُبّاً وكرامةً وعزاةً لوجهِك الجميلِ،

وتناولتُ العودَ، وجَسَسْتُه(١) بقلبي قبل يدي، وضربتُ عليه كأنّي أضربُ لعبدِ الرحمنِ، بيدٍ أرى فيها عقلاً يحتالُ حيلةَ امرأةٍ عاشقةٍ. ثم اندفعتُ أغنّي بشعرِ حبيبي:

إنَّ التي طَرَقَتْكَ بَيْنَ رَكائِبِ ... تَمْشِي بِمِزْهَرِها وأنتَ حَرَامُ
لِتَصيدَ قَلْبَكَ، أو جزاءَ مودَّةٍ ... إنَّ الرفيقَ له عليكَ ذِمَامُ
باتتْ تُعَلِّلُنَا وتَحْسِبُ أننا ... في ذاك أيقاظٌ، ونحنُ نيامُ

وغنيتُه واللهِ غِناءَ والهةٍ، ذاهبةِ العقلِ، كاسفةِ البالِ، وردّدتُه كما ردّدتُه لعبدِ الرحمنِ، وأنا إذ ذاكَ بين يديهِ كالوردةِ أوّلَ ما تتفتّحُ. وأنا أنظرُ إليه، وأتبينُ لصوتي في مِسْمعيه صوتاً آخرَ.. وقطّعته ذلك التقطيعَ، ومدّدتُه ذلك التمديد، وصحتُ فيه صيْحةَ قلبي وجوارحي كلِّها، كما غنيتُ عبدَ الرحمن، لكيما أؤديَ إلى قلبه المعنى الذي في اللفظِ، والمعنى الذي في النفسِ جميعاً، ولكيما أُسْكِرَه ـ وهو الزاهدُ العابدُ ـ سُكْرَ الخمرِ بشيءٍ غير الخمر!

وما أفَقْتُ مِنْ هذه إلا حينَ قطعْتُ الصوتَ، فإذا الخليفةُ كأنّما يَسْمَعُ من قلبي لا من فمي، وقد زَلْزَلَهُ الطربُ، وما خَفِيَ عَلَيَّ أنّه رجلٌ قد ألَمَّ بشأنِ امرأةٍ، وخشيتُ أن أكونَ قد افْتَضَحْتُ عنده؛ ولكنْ غلبتْه شهوتُه، وكان جسداً بما فيه، يريدُ جسداً لما فيه، فمِنْ ثَمّ لم يُنْكِرْ ولم يتغيَّر.

واشتراني، وصِرْتُ إليه، فلما خَلَوْنَا سألني أنْ أغنيَ، فلم أشعرْ إلا وأنا أغنّيه بشعرِ عبدِ الرحمن:

ألا قُلْ لهذا القلبِ: هَلْ أَنْتَ مُبصرٌ ... وهَلْ أنتَ عَنْ سلاَّمةَ اليومَ مُقْصِرُ
إذا أخَذَتْ في الصَّوْتِ كادَ جَلِيسُها ... يَطِيرُ إليها قلبُه حِينَ تَنْظُرُ

وأدّيتُه على ما كان يَسْتَحْسِنُه عبدُ الرحمن ويطربُ له، إذ يسمعُ فيه

---

(١) [لمسته].

هَمْساً من بكائي، ولهفةً مما أجِدُ به، وحَسرةً على أنّه يَنْسَكِبُ في قلبي، وهو يَصُدُّ عني ويتحاماني، وما غنّيتُ: «وهل أنتَ عن سلاّمةَ اليومَ مُقْصِرُ» إلا في صوتٍ تنوحُ به سلاّمةُ على نفسِها وتندبُ وتتفجَّعُ!

فقال لي يزيدُ وقد فَضَحَتْ نفسي عندَهُ فضيحةً مكشوفةً: يا حبيبتي مَن قائلُ هذا الشعر؟

قلت: أحدّثُك بالقصّةِ يا أميرَ المؤمنين؟

قال: حدِّثيني.

قلتُ: هو عبدُ الرحمن بن أبي عمار، الذي يلقبونَهُ بالقَسِّ لعبادتِه ونُسكِه، وهو في المدينةِ يُشْبِهُ عطاءَ بن أبي رَبَاح، وكان صديقاً لمولاي سُهَيْل، فَمرَّ بدارنا يوماً وأنا أُغني فوقفَ يَسْمَعُ، ودَخَلَ علينا الأَحْوَصُ[1]، فقال: ويْحَكُم؟ لكأنَّ الملائكَةَ والله ـ تتلو مزاميرَها بحَلْقِ سلاَّمة، فهذا عبدُ الرحمنِ القَسّ قد شُغِل بما يَسْمَعُ منها، وهو واقِفٌ خارجَ الدّارِ، فتسارعَ مولاي، فخرجَ إليه، ودعاه إلى أن يدخُلَ فَيَسْمَعَ مني، فأبى! فقال له: أما عَلمْتَ أنّ عبدَ الله بنَ جعفرٍ، وهو مَنْ هو في محلِّه وبيتِه وعلمِه قد مَشَى إلى جميلةَ أستاذةِ سلاَّمة حين عَلِمَ أنها آلَتْ ألِيَّةً[2] ألا تُغَني أحداً إلا في منزلِها؛ فجاءَها فسمعَ منها، وقد هيّأتْ له مجلِسَها، وجعلتْ على رؤوس جواريها شعوراً مُسْدَلَةً كالعناقيدِ، وألبَسْتهُنَّ أنواعَ الثيابِ المصَبَّغَة، ووضعتْ فوقَ الشعورِ التيجانَ، وزينتهنّ بأنواعِ الحِلي، وقامتْ هي على رأسِه، وقام الجواري صفَّيْن بين يديه، حتى أقسمَ عليها فجلسَتْ غيرَ بعيدٍ، وأمرَتِ الجواري فجلسنَ، ومع كلِّ جاريةٍ عودُها، ثم ضربْنَ

(١) هو الأحوص الشاعر المعروف [وهو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت الأنصاري، شاعر هجّاء، كان معاصراً لجرير والفرزدق، مات بدمشق سنة (١٠٥)].

(٢) [حلفت يميناً].

جميعاً، وغنّتْ عليهنَّ، وغنّى الجواري على غنائِهَا، فقال عبدُ اللهِ: ما ظننتُ أنّ مثلَ هذا يكونُ!

وأنا أُقْعِدُكَ في مكانٍ تسمَعُ مِن سلاّمة، ولا تراها، إنْ كنتَ عندَ نفسِكَ بالمنزلةِ التي لم يبلغْها عبدُ الله بنُ جعفر!

قالتْ سلاّمةُ: وكانتْ هذِهِ واللهِ ـ يا أميرَ المؤمنين ـ رُقْيَةً من رُقَى إبليس؛ فقال عبدُ الرحمن: أمّا هذا فنَعَم. ودخلَ الدارَ، وجلسَ حيثُ يَسْمَعُ، ثم أمرني مولايَ فخرجْتُ إليه خروجَ القَمَرِ مَشْبُوباً مِنْ سحابةٍ كانتْ تغطِّيه؛ فأما هو فما رآني حتى عَلِقْتُ بقلبِهِ، وسبَّحَ طويلاً طويلاً؛ وأما أنا فما رأيتُه حتّى رأيتُ الجنةَ والملائكةَ، ومِتُّ عن الدنيا، وانتقلتُ إليه وحدَهُ..

قالتْ سلاّمةُ: وافْتَضَحْتُ مرةً أخرى، فَتَنَحْنحَ يزيدُ.. فضحكتُ وقلتُ: يا أميرَ المؤمنين! أحَدِّثُكَ أم حَسْبُكَ؟

قال: حدّثيني ويْحَكِ! فواللهِ لو كنتِ في الجنةِ كما أنتِ لأعَدْتِ قصةَ آدمَ مع واحدٍ واحدٍ مِنْ أهلِها حتى يُطْرَدوا جميعاً من حُسْنِها إلى حسنِك! فما فَعَلَ القَسُّ ويحكِ؟

قلتُ: يا أميرَ المؤمنين! إنه يُدْعَى القَسُّ قبلَ أن يهواني.

فقال يزيدُ: وهل عَجَبٌ وقد فَتَنْتِهِ أن يَطرُدَه البَطْريقُ[1]؟

قلتُ: بل العجبُ وقد فتنْتُهُ أنْ يصيرَ هو البطريقَ...!

فضحكَ يزيدُ وقال: إيهِ، ما أحسَبُ الرَّجلَ إلا قد دُهِيَ منكِ بداهيةٍ! فحدثيني، فقد رفعتُ الغَيْرة؛ إني واللهِ ما أرى هذا الرَّجُلَ في أمرِهِ وأمركِ إلا كالفَحلِ من الإبلِ، قد تُرِكَ من الركوبِ والعَمَلِ، ونُعِّمَ وسُمِّنَ للفحْلَةِ،

(١) [رئيس أساقفة النصارى].

فَنَدَّ يوماً، فذَهَب على وَجْهِهِ، فأقْحَمَ في مَفَازةٍ، وأصابَ مَرتَعاً فَتَوَحَّشَ واستأسَدَ، وتبيَّن عليه أثرُ وحشيتِهِ، وأقْبلَ قِبالَ الجنِّ مِنْ قوةٍ ونشاطٍ وبأسٍ شديدٍ؛ فلما طالَ انفرادُه وتأبُّدُه، عَرَضتْ له في البرِّ ناقةٌ كانت قد نَدّتْ مِنْ عطنها، وكانتْ فارهةً جسيمةً، قد انتهتْ سِمْناً، وغطّاها الشحمُ واللّحمُ، فرآها البازِلُ[1] الصؤولُ[2]، فهاجَ وصالَ وَهدَرَ، يخبطُ بيدِهِ ورجلهِ، ويُسْمَعُ لجَوْفِه دَوِيٌّ من الغليان، وإذا هي قد ألقتْ نفسَها بين يديهِ!

أما واللهِ لو جُعَلَ الشيطانُ في يمينهِ رَجُلاً فَحْلاً قَوِيّاً جَمِيْلاً، وفي شمالِهِ امرأةً جميلةً عاشقةً تهواهُ؛ ثم تمطّىٰ متدافعاً، ومَدّ ذراعيه فابتعدا؛ ثم تراجَعَ مُتَدَاخِلاً، وضَمَّ ذِرَاعَيْهِ فالتقيا؛ لكانَ هذا شأنَ ما بينَكِ وبينَ القَسِّ!

قلت: لا واللهِ يا أميرَ المؤمنين! ما كان صاحبي في الرجال خَلاًّ ولا خَمْراً، وما كان الفَحْل إلا الناقةُ. . ! وما أحسبُ الشيطانَ يعرفُ هذا الرجلَ، وهل كانَ للشيطانِ عملٌ مع رجلٍ يقولُ: إني أعرفُ دائماً فكرتي، وهي دائماً فكرتي لا تتغيّرُ، ذاك رجلٌ أساسُه كما يقول: ﴿ بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ ولقد تصنَّعْتُ له مرةً يا أميرَ المؤمنين، وتشكّلت[3] وتحلَّيتُ وتبرّجتُ، وحدّثتُ نفسي منه بكثيرٍ، وقلت: إنّه رجلٌ قد غَبَر شبابَه في وجودٍ فارغٍ مِنَ المرأة، ثم وجدَ المرأةَ فيَّ وحدي، وغنّيتُه يا أميرَ المؤمنين غناءَ جوارحي كلِّها، وكنتُ له كأنّي حَريرٌ ناعِمٌ يَتَرَجْرَجُ، ويُنْشَرُ أمامَه، ويُطْوَى. . وجلستُ كالنائمةِ في فراشِهَا، وقد خلا المجلسُ، وكنتُ مِنْ كلِّ ذلك بين يديهِ كالفاكهةِ الناضجةِ الحُلوةِ تقول لمن يراها: كُلْني. . !.

قال يزيدُ: ويحكِ ويحكِ! وبعدَ هذا؟

---

(١) [الذي دخل في السنة التاسعة].

(٢) [صَؤُلَ البعيرُ إذاوثب على الابل يقاتلها].

(٣) [ضفرت خصلتين من مقدم رأسها عن اليمين وعن الشمال ثم شدت به سائر ذوائبها].

قلت: بعدَ هذا يا أميرَ المؤمنين! وهو يهواني الهَوى البَرْحَ، ويعشقُني العِشْقَ المُضْني ـ لم يرَ في جمالي وفِتْنَتِي واستسلامي إلا أنّ الشيطانَ قد جاء يَرْشوه بالذَّهَبِ. . الذي يتعامَلُ به!

فضحكَ يزيدُ وقال: لا واللهِ، لقد عَرَضَ الشيطانُ مِنْكِ ذَهَبَهُ ولؤلؤَهُ وجواهرَهُ كلَّها، فكيفَ لَعَمري لم يُفْلِحْ؛ وهو لو رشانِي مِنْ هذا كلِّه بدرهمٍ لوجدَ أميرَ المؤمنين شاهِدَ زُوْرٍ. . !

قلتُ: ولكنّي لم أيْأَسْ ـ يا أميرَ المؤمنين ـ وقد أردتُ أنْ أظهرَ امرأةً؛ فلم أُفْلِحْ، وعَمِلْتُ أن أَظْهَرَ شيطانةً؛ فانخذلْتُ، وَجَهَدْتُ أن يَرَى طبيعتي؛ فلم يرني إلا بغير طبيعةٍ، وكلّما حاولتُ أنْ أنزِلَ به عن سَكِينتهِ ووَقارِهِ رأيتُ في عينَيْهِ ما لا يتغيَّرُ، كنورِ النَّجْمِ، وكانتْ بعضُ نظراتِهِ واللهِ كأنّها عصا المؤدِّبِ، وكأنَّه يرى في جمالي حقيقةً مِنَ العبادة، ويرَىَ في جسمي خُرافةَ الصَّنَمِ، فهو مُقْبِل عَلَيَّ جميلةً، ولكنَّه مُنْصَرِفٌ عني امرأةً.

لم أيأسْ على كلِّ ذلك ـ يا أميرَ المؤمنين ـ فإنّ أولَ الحُبِّ يَطْلُبُ آخِرَه أبداً إلى أنْ يموتَ. وكان يُكثِرُ من زيارتي، بل كانتْ إليّ الغَدْوَةُ والرَّوحةُ، من حُبِّه إيايَّ وتعلّقِه بي؛ فواعدتُهُ يوماً أنْ يجيءَ متى وارَىٰ الليلُ أهلَه لأغنّيه: «ألا قُلْ لهذا القلبِ. . .» وكنتُ لَحّنتُهُ، ولم يسمعْه بعدُ. ولبثتُ نهاري كلَّه أسْتَرْوِحُ في الهواء رائحةَ هذا الرجلِ مما أتلهَّفُ عليه، وأتمثَّلُ ظلامَ الليلِ كالطَّرِيْقِ الممتدِّ إلى شيءٍ مخبوءٍ أعلِّلُ النفسَ بهِ. وبلغتُ ما أَقْدِرُ عليه في زينةِ نفسي، وإصلاحِ شأني، وتشكّلْتُ[1] في صُنُوف من الزَّهْرِ، وقلتُ لأجملهنَّ وهي الوردةُ التي وضعتُها بين نَهْدَيَّ: يا أختي، اجْذبي عينَهُ إليكِ، حتّى إذا وقَفَ نظَرُهُ عليك فانزلي به قليلاً أو اصعدي به قليلاً.

(١) [زينت ضفائرها].

قال يزيدُ وهو كالمحموم: ثُمَّ ثُمَّ ثُمَّ؟

قلتُ: يا أميرَ المؤمنين! ثم جاءَ مع الليلِ، وإنَّ المجلسَ لَخالٍ ما فيهِ غيري وغيرُه، بما أكابِدُ منه، وما يُعاني منّي، فغنّيتُه أحرَّ غناءٍ وأشجاهُ، وكان العاشِقُ فيه يَطْرَبُ لصوتي، ثم يَطْرَبُ الزَّاهِدُ فيه من أنّه استطاعَ أن يَطْرَبَ، كما يَطيشُ الطفلُ ساعةَ ينطلِقُ من حَبْسِ المؤدِّب.

وما كان يسوءُني إلا أنّه يُمارِسُ فِيَّ الزهدَ ممارسةً، كأنّما أنا صُعوبةٌ إنسانيةٌ، فهو يريدُ أنْ يغلبَها، وهو يُجرِّبُ قُوَى نفسِه وطبيعتِه عليها؛ أو كأنه يراني خيالَ امرأةٍ في مرآةٍ، لا امرأةً ماثلةً له بهواها وشبابِها وحسنِها وفتنتِها، أو أنا عندَهُ كالحورية من حُورِ الجنَّةِ في خيالِ مَنْ هي ثوابُهُ، تكونُ معه، وإنّ بينها وبينَهُ من البُعْدِ ما بينَ الدنيا والآخرة؛ فأجمعتُ أنْ أحطِّم المرآةَ ليراني أنا نفسي لا خيالي، واستنجدتُ كلَّ فتنتي أنْ تجعلَهُ يَفِرُّ إليّ كلّما حاولَ أن يفرَّ منّي.

فلما ظننتُني ملأتُ عينيه وأذنيه ونفسَه، وانصببتُ إليه من كل جوارحِهِ، وهِجْتُ التيّارَ الذي في دمه، ودفعتُه دفعاً ـ قلتُ له: أنتَ يا خليلي شيءٌ لا يُعرَفُ، أنتَ شيءٌ مُتَلَفِّفٌ بإنسانٍ، ومَنِ التي تَعْشَقُ ثوبَ رجلٍ ليسَ فيه لابِسُهُ؟.

ورأيتُه واللهِ يطوفُ عندَ ذلك بفكرِهِ، كما أطوفُ أنا بفكرِي حولَ المعنى الذي أردتُه. فملتُ إليه وقلتُ[1]: «أنا واللهِ أحبُّكَ!.

فقال: وأنا واللهِ الذي لا إله إلا هو...

قلتُ: وأشتهي أن أعانقَك وأقبِّلَكَ!.

---

(١) هذا نص كلامهما كما رواه صاحب «الأغاني» ـ إلى قوله: (يوم القيامة)؛ وهو كلُّ القصةِ في كتابه.

قال: وأنا واللهِ!.

قلت: فما يمنعُكَ؟ فواللهِ إنّ الموضعَ لَخَالٍ!.

قال: يمنعني قولُ اللهِ عزّ وجلّ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] فأكرَهُ أن تحولَ مودّتي لكِ عداوةً يوم القيامة».

إني أرى برهانَ ربي يا حبيبتي، وهو يمنعُني أنْ أكونَ من سيئاتكِ وأن تكوني من سيئاتي، ولو أحببتُ الأنثى لوجدتُكِ في كلِّ أنثى، ولكنّي أُحبُّ ما فيكِ أنتِ بخاصّتِكِ، وهو الذي لا أعرفُهُ ولا أنتِ تعرفينَهُ، هو معناك يا سلاّمة لا شخصُكِ.

ثم قام وهو يبكي، فما عادَ بعدَ ذلك ـ يا أميرَ المؤمنين ـ ما عادَ بعدَ ذلك، وترك لي ندامتي وكلامَ دموعِهِ؟ وليتني لم أفعلْ، ليتني لم أفعلْ، فقد رأى أنّ المرأةَ ـ في بعض حالاتها ـ تكشِفُ وجهها للرّجلِ، وكأنّها لم تُلْقِ حجابَها، بل ألقتْ ثيابَها[1].

* * *

(١) [نشرت في «الرسالة» السنة الثانية (١٩٣٤) العدد رقم (٧٧ ـ ٧٨).

قصة زواج وفلسفة المهر[(١)]

قال رسولُ عبدِ الملك: ويحكَ يا أبا محمّدٍ لَكأنَّ دَمَكَ واللهِ مِنْ عَدوِّك؛ فهو يفورُ بِكَ لتَلجَّ[(٢)] في العنادِ فتُقْتَلَ، وكأنّي بكَ ـ واللهِ ـ بينَ سَبُعَيْنِ قد فغَرَا[(٣)] عليكَ؛ هذا عن يمينِكَ، وهذا عن يسارِكَ، ما تفرُّ مِنْ حَتْفٍ إلا إلى حَتْفٍ، ولا ترحمُكَ الأنيابُ إلا بمخاليبها.

هاهنا هِشَامُ بنُ إسماعيلَ عاملُ أميرِ المؤمنينَ، إنْ دَخلَتْهُ الرحمةُ لَكَ، استوثَقَ منك في الحديدِ، ورَمَى بكَ إلى دمَشْقَ، وهناك أميرُ المؤمنين، وما هو ـ واللهِ ـ إلا أنْ يُطْعِمَ لحمَكَ السيفَ، يَعُضُّ بِكَ عَضَّ الحيةِ في أنيابها السَّمُّ؛ وكأني بهذا الجَنْبِ مصروعاً لِمَضْجَعِهِ، وبهذا الوَجْهِ مضرَّجاً بدمائِهِ، وبهذه اللحيةِ مُعَفَّرَةً بترابِهَا، وبهذا الرأسِ مُحْتَزّاً في يد أبي الزُّعَيْزِعَةِ جلاَّدِ أمير المؤمنين، يلقيه مِنْ سيفِهِ رَمْيَ الغُصْنِ بالثمرةِ قَدْ ثَقُلَتْ عليهِ.

وأنت يا سعيدُ فقيهُ أهلِ المدينة، وعالمُها، وزاهدُها، وقد عَلِمَ أميرُ المؤمنين أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عُمَرَ قال فيك لأصحابه: لو رأى هذا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَسَرَّه، فإنْ لم تكرُمْ عليكَ نفسُك، فَلْيَكْرُمْ على نفسِكَ المسلمونَ؛ إنَّكَ

(١) [انظر «قصص الرافعي» ص (٢١) من هذا الكتاب].

(٢) [لتمادى].

(٣) [فغر: فتح فمه].

إنْ هلكتَ رَجَعَ الفِقْهُ في جميع الأمصارِ إلى المَوالي؛ ففقيهُ مكّةَ عطاءٌ، وفقيهُ اليمنِ طاوسٌ، وفقيهُ اليَمامة يحيى بن أبي كثير، وفقيهُ البصرةِ الحسن[١]، وفقيه الكوفة إبراهيمُ النخعي، وفقيهُ الشام مكحولٌ، وفقيهُ خراسانَ عطاءُ الخُراساني، وإنما يتحدَّثُ الناسُ أنّ المدينةَ مِنْ دونِ الأمصارِ قد حرسها الله بفقيهها القرشيِّ العربيِّ أبي محمدٍ ابن المُسيَّب كرامةً لرسول الله ﷺ، وقد عَلِمَ أهلُ الأرضِ أنّكَ حجَجْتَ نيّفاً وثلاثين حَجّة، وما فاتَتْكَ التكبيرةُ الأولى في المسجد منذ أربعينَ سنةً، وما قمتَ إلا في موضعِكَ مِنَ الصفِّ الأولِ، فلم تنظرْ قطُّ إلى قفا رجلٍ في الصّلاةِ؛ ولا وجدَ الشيطانُ ما يعرِضُ لك مِنْ قِبَلِهِ في صلاتِكَ ولا قَفَا رجُلٍ؛ فاللهَ اللهَ يا أبا محمد، إني واللهِ ما أغشُّك في النصيحةِ؛ ولا أخدعُكَ عن الرأي، ولا أنظرُ لكَ إلا خيرَ ما أنظرُ لنفسي؛ وإنّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ مَنْ عَلِمتَ؛ رجلٌ قد عمَّ الناسَ ترغيبُه وترهيبُه، فهو آخِذُكَ على ما تكرهُ، إن لم تأخذْهُ أنتَ على ما يُحِبُّ؛ وإنّهُ ـ والله يا أبا محمد ـ ما طَلَبَ إليكَ أميرُ المؤمنين إلا وأنتَ عندَه الأعلىٰ، ولا بعثني إليكَ إلا وكأنَّه يَسْعَى بينَ يديك، رِعايةً لمنزلتِكَ عِنْدَهُ، وإكباراً لحقِّكَ عليه؛ وما أرسلني أخطُبُ إليكَ ابنتَك لِوَلِيِّ عهدِه إلا وهو يَبْتَذِلُ نفسَه ابتذالاً، ليَصِلَ بِكَ رَحِمَهُ، ويُوثِّقَ آصِرتَه؛ وإنْ يَكُنْ اللهُ قد أغناكَ أنْ تنتفِعَ به وبِمُلْكِهِ وَرَعاً وزَهادَةً، فما أحوجَ أهلَ مدينةِ رسولِ اللهِ ﷺ أن ينتفعوا بكَ عِنْدَهُ، وأنْ يكونوا أصهارَ الوليدِ فيَسْتَدْفِعُوا شرّاً ما بِهِ عنهم غنًى، ويجتلبوا خيراً ما بهم غنىً عنه، ولستَ تدري ما يكونُ من مَصَادِرِ الأمورِ وموارِدِها.

وإنّكَ واللهِ إنْ لججتَ في عنادِكَ، وأصْرَرْتَ أن تردَّني إليه خائباً، لَتَهِيْجَنَّ قَرَمَ[٢] سيوفِ الشامِ إلى هذه اللحوم، ولَحْمُكَ يومئذٍ مِنْ أطيبِها،

---

(١) [البصري].

(٢) [لشدة الشهوة إلى اللحم].

ولأميرِ المؤمنين تارتان: لينٌ وشدةٌ؛ وأنا إليكَ رسولُ الأولى، فلا تجعلْني رسولَ الثانيةِ. .

وكان أبو محمد يسمعُ هذا الكلامَ، وكأنّ الكلامَ لا يَخْلُصُ إلى نفسِه إلا بعدَ أن تتساقَطَ معانيه في الأرضِ، هَيبةً منه، وفرقاً مِنْ إقدامِهَا عليه؛ وقد لانَ رسولُ عبدِ الملكِ في دَهائِهِ، حتى ظنَّ عندَ نفسِهِ أنه سَاغَ مِنَ الرَّجُلِ مَسَاغَ الماءِ العَذْبِ في الحلْق الظامىءِ، واشتدَّ في وَعيدِه، حتّى ما يشكُّ أنّه قد سقاه ماءً حميماً، فقطَّع أمعاءَه؛ والرجلُ في كلِّ ذلكَ مِنْ فوقِهِ كالسّماءِ فوقَ الأرضِ، لو تحوَّل النّاسُ جميعاً كنَّاسين يثيرونَ مِنْ غبارِ هذِهِ على تلكَ، لما كانَ مرجِعُ الغبارِ إلا عليهم، وبقيت السماءُ ضاحكةً صافيةً تتلألأُ.

وقلَّبَ الرسولُ نظرَهُ في وجهِ الشيخِ، فإذا هو هو، ليسَ فيه معنى رغبةٍ، ولا رهبةٍ، كأنْ لم يَجعلْ له الأرضَ ذهباً تحتَ قدميه في حالةٍ، ولم يملأْ الجوَّ سيوفاً على رأسِهِ في الحالةِ الأخرى؛ وأيقنَ أنّه مِنَ الشيخِ العظيمِ كالصبيِّ الغِرّ؛ قد رأى الطائرَ في أعلى الشجرةِ فطمعَ فيه، فجاء مِنْ تحتِها يناديه: أنْ انزلْ إليّ حتى آخذَكَ وألعبَ بِكَ. .

وبعد قليلٍ تكلَّم أبو محمدٍ فقال:

يا هذا، أمّا أنا فقد سمعتُ، وأما أنتَ فقد رأيتَ، وقد روينا أنّ هذِهِ الدنيا لا تَعدِلُ عندَ اللهِ جَنَاحَ بعوضةٍ، فانظرْ ما جئتني أنتَ بهِ، وقِسْهُ إلى هذه الدنيا كلِّها، فكمْ ـ رحمكَ اللهُ ـ تكونُ قد قَسَمْتَ لي من جناحِ البعوضةِ. .؟ ولقد دُعيتُ مِنْ قَبْلُ إلى نيِّفٍ وثلاثين ألفاً لآخُذَها، فقلتُ: لا حاجةَ لي فيها ولا في بني مروان، حتى ألقى اللهَ فيحكمَ بيني وبينهم، وهاأناذا اليومَ أُدعى إلى أضعافِهَا وإلى المزيدِ معها؛ أفأقبِضُ يدي عن جمْرةٍ، ثم أمدُّها لأملأَها جمراً؟ لا واللهِ، ما رغبَ عبدُ الملكِ لابنِهِ في ابنتي، ولكنَّه رجلٌ من سياستِهِ إلصاقُ الحاجةِ بالناس، ليجعلَها مَقادةً

لهم، فيُصَرِّفَهُم بها؛ وقد أعجزَهُ أن أبايِعَهُ، لأنّ رسولَ اللهِ ﷺ نهى عن بَيعتين، وما عبدُ الملك عندَنا إلا باطِلٌ كابنِ الزُّبيرِ، ولا ابنُ الزبيرِ إلا باطلٌ كعبدِ الملكِ، فانظر فإنّكَ ما جئتَ لابنتي وابنِه، ولكن جئتَ تخطبني أنا لبيعتِه. .

قال الرسولُ: أيها الشيخُ! دَعْ عنكَ البيعةَ وحديثَها، ولكنْ مَنْ عَسَىٰ أن تَجِدَ لكريمتِكَ خيراً مِنْ هذا الذي ساقَهُ اللهُ إليك؟ إنّكَ لراعٍ، وإنّها لرعيةٌ وسَتُسْأَلُ عنها، وما كانَ الظنُّ بِكَ أنْ تُسيءَ رِعْيتَها، وتَبْخَسَ حقَّها، وأن تَعْضِلَها[1] وقد خطبها فارِسُ بني مروان، وإنْ لم يكنْ فارسُهُم، فهو وليُّ عَهْدِ المسلمينَ، وإنْ لم يكنْ هذا ولا ذاكَ، فهو الوليدُ بنُ أميرِ المؤمنين؛ وأدنى الثلاثِ أرفعُ الشّرَفِ، فكيفَ بهنَّ جميعاً، وهُنَّ جميعاً في الوليدِ؟

قال الشيخُ: أمّا إني مسؤول عن ابنتي، فما رغبتُ عن صاحِبك إلا لأني مسؤولٌ عن ابنتي، وقد علمتَ أنتَ أنَّ اللهَ يسألُني عنها في يومٍ لعلَّ أميرَ المؤمنين وابنَ أمير المؤمنين وألفافَهما لا يكونونَ فيه إلا وراءَ عبيدِها وأوباشِهَا ودُعّارِها[2] وفُجّارِها[3]، يخرجون من حسابِ الفَجَرَةِ إلى حسابِ القَتَلَة، ومن حسابِ هؤلاء إلى الحسابِ على السرقةِ والغَصْبِ، إلى حسابِ أهلِ البغْي، إلى حسابِ التفريطِ في حقوقِ المسلمينَ. ويخِفُّ يومئذٍ عبيدُها وأوباشُها ودعّارُها وفجارُها في زِحام الحَشْرِ، ويمشي أميرُ المؤمنين وابنُ أميرِ المؤمنين ومن اتّصل بهما، وعليهم أمثالُ الجبال مِنْ أثقالِ الذنوبِ وحقوقِ العبادِ.

---

(١) [تمنعها من الزواج].

(٢) [فساقها].

(٣) الضمير راجع إلى الدنيا.

فهذا ما نظرتُ في حُسْنِ الرعايةِ لابنتي، لو لم أضِنَّ بها على أميرِ المؤمنينَ وابنِ أميرِ المؤمنين لأوبقتُ(١). لا واللهِ، ما بيني وبينكم عملٌ، وقد فرغْتُ مما على الأرضِ، فلا يمرُّ السيفُ مني في لحمٍ حيٍّ.

* * *

ولمّا كانَ غداةُ غدٍ جَلَسَ الشيخُ في حَلْقتِهِ في مَسْجِدِ رسولِ اللهِ ﷺ للحديثِ والتأويلِ(٢)، فسأل رجلٌ من عُرْضِ المجلس، فقالَ: يا أبا محمد! إنَّ رَجُلاً يُلاحِيني(٣) في صَداقِ بنتِهِ، ويكلِّفُني ما لا أُطيقُ، فما أكثرُ ما بَلَغَ إليه صَداقُ أزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ وصداقُ بناتِهِ؟

قال الشيخ: رَوَيْنا أنّ عمرَ رضي الله عنه كان ينهى عن المغالاةِ في الصَّداقِ ويقولُ: «ما تزوَّجَ رسولُ اللهِ ﷺ، ولا زَوَّجَ بناتِه بأكثرَ مِنْ أربعمئة دِرْهَمٍ»(٤)، ولو كانتْ المغالاةُ بمهورِ النّساءِ مَكْرُمَةً لسبقَ إليها رسولُ اللهِ ﷺ.

ورَوَيْنا عنه ﷺ أنه قال: «خَيْرُ النّساءِ أحسنُهنَّ وُجُوْهاً وَأَرْخَصُهُنَّ مُهُوْراً»(٥).

---

(١) [لأهلكتُ].

(٢) [التفسير].

(٣) [يخاصمني].

(٤) الدرهم: خمسة قروش.

[والحديث أخرجه أبو داود في النكاح باب الصدقة برقم (٢١٠٦) وأحمد في مسنده رقم (٢٨٥) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح].

(٥) [أخرجه ابن عدي من حديث عائشة رضي الله عنها وهو حديث موضوع كما قال في «ضعيف الجامع» رقم (٢٩٢٧) ويغني عنه قوله ﷺ: «خير النساء التي تسره إذا نظر» أخرجه النسائي وأحمد في المسند والحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو حديث صحيح.

وقوله ﷺ: «خير النكاح أيسره» أخرجه أبو داود من حديث عقبة بن عامر رضي=

فصاح السائل: يرحَمُك اللهُ يا أبا محمدٍ، كيفَ يأتي أنْ تكونَ المرأةُ الحسناءُ رخيصةَ المَهْرِ، وحُسنُها هو يُغْلِيها على النّاسِ؛ تَكْثُرُ رغبتُهم فيها فيتنافسونَ عليها؟

قال الشيخُ: انظرْ كيفَ قلتَ. أهم يُساوِمُونَ في بهيمةٍ لا تَعْقِلُ، وليسَ لها مِنْ أمرِها شيءٌ، إلا أنَّها بِضاعةٌ مِنْ مطامعِ صاحبِها، يُغْلِيها على مطامعِ النَّاسِ؟ إنما أرادَ رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ خيرَ النِّساءِ مَنْ كانتْ على جمالِ وَجْهِهَا، في أخلاقٍ كجمالِ وَجْهِهَا، وكانَ عقلُهَا جمالاً ثالثاً؛ فهذه إنْ أصابَتْ الرجلَ الكُفءَ، يَسَّرَتْ عليه، ثم يَسَّرَتْ، ثم يَسَّرَتْ؛ إذ تعتبرُ نفسَها إنساناً يريدُ إنساناً، لا متاعاً يطلُبُ شارياً، وهذه لا يكونُ رُخْصُ القيمةِ في مَهْرِها، إلا دليلاً على ارتفاعِ القيمةِ في عقلِها ودينِها.

أما الحمقاءُ فجمالُها يأبى إلا مضاعفةَ الثَّمَنِ لِحُسْنِها، أيْ لِحُمْقِهَا؟ وهي بهذا المعنى مِنْ شِرار النِّساءِ، وليست من خيارِهِنَّ.

ولقد تزوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بعضَ نسائِهِ على عشرةِ دراهمَ وأثاث بيتٍ، وكان الأثاثُ: رحى يدٍ، وجَرَّةَ ماءٍ، ووِسادَةً من أَدَمٍ(١) حشوُها ليفٌ. وأوْلَمَ على بعضِ نسائِهِ بِمُدَّينِ من شعيرٍ، وعلى أخرى بمُدَّينِ من تَمْرٍ، ومُدَّينِ من سَوِيقٍ(٢).

وما كان به ﷺ الفقر، ولكنه يَشْرَعُ بسنته ليُعلِّم الناسَ مِنْ عملِهِ أنَّ المرأةَ للرجلِ نَفْسٌ لِنَفْسٍ، لا متاعٌ لشارِيْهِ؛ والمتاعُ يُقَوَّمُ بما بُذِلَ فيه، إنْ غالياً وإنْ رخيصاً، ولكنَّ الرجلَ يُقَوَّمُ عندَ المرأةِ بما يكونُ مِنْهُ؛ فمهرُها الصَّحِيحُ ليسَ هذا الذي تأخذُه قبلَ أنْ تُحْمَلَ إلى دارِهِ، ولكنّه الذي تجدُهُ

- الله عنه وهو حديث صحيح انظر «صحيح الجامع» رقم (٣٢٩٣) و(٣٢٩٥)].

(١) [الجلد].

(٢) [انظر الأحاديث في «تحفة العروس أو الزواج الإسلامي السعيد» ص(٨٣)].

منه بعدَ أن تُحْمَلَ إلى دارِهِ؛ مَهْرُها معاملتُها، تأخذُ منه يوماً فيوماً، فلا تزالُ بذلك عَرُوْساً على نفْسِ رَجُلِهَا ما دامَتْ في معاشرتِهِ. أما ذلكَ الصَّداقُ من الذّهبِ والفضةِ، فهو صَدَاقُ العروسِ الداخلةِ على الجسمِ لا على النَّفْسِ؛ أفلا تراهُ كالجسم يَهْلَكُ ويَبْلَى، أفلا ترى هذه الغاليةُ ـ إنْ لَم تَجِدْ النفْسَ في رَجُلِهَا ـ قد تكون عروسَ اليومِ ومطلَّقةَ الغدِ؟!

وما الصّداقُ في قليلهِ وكثيرِهِ، إلا كالإيماءِ إلى الرجولةِ وقُدْرتِها، فهو إيماءٌ، ولكنّ الرَّجُلَ قَبْلُ.

إنَّ كلَّ امرىءٍ يستطيعُ أن يَحْمِلَ سيفاً، والسيفُ إيماءٌ إلى القوة، غير أنّه ليسَ كلُّ ذوي السيوفِ سواءً، وقد يَحْمِلُ الجبانُ في كلِّ يدٍ سيفاً، ويملِكُ في دارِه مئةَ سيفٍ؛ فهو إيماءٌ، ولكنَّ البطلَ قَبْلُ، ولكنّ البَطَلَ قَبْلُ.

مئةُ سيفٍ يَمْهَرُ بها الجبانُ قوّتَه الخائبة، لا تغْني قوّتَه شيئاً، ولكنّها كالتدليسِ على مَنْ كان جباناً مثلَه. ويُوشِك أن يكونَ المهرُ الغالي كالتدليسِ على النّاسِ وعَلَى المرأةِ، كي لا تعلمَ ولا يعلمَ النّاسُ أنّه ثمنُ خَيْبَتِها؛ فلو عَقَلَتِ المرأةُ لباهتْ النساءَ بيُسْرِ مهرِها، فإنّها بذلِكَ تكونُ قد تَرَكَتْ عقلَها يعمَلُ عملَهُ، وكفَّتْ حماقتَها أنْ تُفْسِدَ عليه.

فصاح رجلٌ في المجلسِ: أيها الشيخ! أفي هذا من دليلٍ أو أثر؟

قال الشيخُ: نعم؛ أمّا من كتابِ الله فقد قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]. فهي زَوْجُهُ حين تَجِدُه هو، لا حينَ تَجِدُ مالَه؛ وهي زوجُهُ حين تُتَمِّمُه لا حينَ تُنْقِصُهُ، وحين تلائِمُهُ، لا حينَ تَخْتَلِفُ عليه؛ فمصلحةُ المرأةِ زوجةً ما يجعلُها مِنْ زوجها، فيكونان معاً كالنَّفْسِ الواحدةِ، على ما ترى للعضوِ من جسمِه؛ يريدُ مِنْ جسمِه الحياةَ لا غيرَها.

وأما من كلام رسولِ الله ﷺ فقد روينا: «إذا أتاكَمُ مَنْ تَرْضَوْنَ دِيْنَهُ

وأمانَتَهُ فَزَوِّجُوهُ؛ إلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ في الأرضِ وفَسَادٌ كبيرٌ»(١).

فقد اشترط الدِّينَ، على أن يكونَ مَرْضِيّاً لا أيَّ الدينِ كان؛ ثم اشترط الأمانةَ، وهي مظهر الدين كلِّه بجميعِ حسناتِه؛ وأيسرُها أن يكونَ الرجلُ للمرأة أميناً، وعلى حقوقها أميناً، وفي معاملتِها أميناً؛ فلا يَبْخَسُها، ولا يُعْنِتُها، ولا يُسِيْءُ إليها؛ لأنّ كلَّ ذلك ثَلْمٌ في أمانتِه؛ فإنْ ردَّتْ المرأةُ مَنْ هذِهِ حالُه وصِفَتُهُ من أجلِ المهرِ ـ تقدَّم إليها بالمهر مَنْ ليستْ هذِهِ حالَهُ وصفتَهُ، فوقعتْ الفتنةُ، وفسدتْ المرأةُ بالرجلِ، وفسدَ هُوَ بها، وفسدَ النّسلُ بهما جميعاً، وأُهْمِلَ مَنْ لا يَمْلِكُ، وتعنَّستْ مَنْ لا تَجِدُ، ويَرْجِعُ المهرُ الذي هو سببُ الزواجِ سبباً في منعه، ويتقارَبُ النساءُ والرجالُ على رغمِ المَهرِ والدينِ والأمانة؛ فيقع معنى الزواج، ويبقى المعطَّلُ منه هو اللفظُ والشّرْعُ.

هل علمت المرأةُ أنّها لا تدخُلُ بيتَ رَجُلِهَا إلا لتجاهِدَ فيه جِهَادَها، وتبلوَ فيه بلاءَها؟ وهل يقومُ مالُ الدنيا بحقِّها فيما تعملُ وما تجاهِدُ، وهي أمُّ الحياةِ ومُنْشِئَتُها وحافظتُها؟ فأينَ يكونُ مَوْضِعُ المالِ ومكانُ التَّفرقةِ في كثيرِه وقليلِه، والمالُ كلُّه دونَ حقِّها؟

ولن يتفاوتَ النّاسُ بالمالِ ـ تَخْتَلِفُ درجاتُهم به، وتكونُ مراتبُهم على مقدارِه، تكثُر بِهِ مرةً وتَقِلُّ مرةً ـ إلا إذا فسدَ الزمانُ، وبطلتْ قضيةُ العقلِ، وتعطَّلَ مُوجِبُ الشّرعِ، وأصبحت السجايا تتحوّلُ، يَمْلِكُها مَنْ يملِكُ المالَ، ويَخْسَرُها من يخسرُه؛ فيكونُ الدِّينُ على النفوسِ كالدَّخيلِ المزاحِمِ لموضعِه، والمتَدَلّي في غيرِ حقهِ؛ وبهذا يرجِعُ باطلُ الغَنيِّ دِيْناً

(١) [أخرجه الترمذي في النكاح برقم (١٠٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أيضاً برقم (١٠٨٥) من حديث أبي حاتم المزني رضي الله عنه، وهو حديث حسن].

يتعاملُ الناسُ عليه، ودِينُ الفقير بَهْرَجاً لا يروجُ عندَ أحدٍ؛ وليسَ هذا من ديننا، دينِ النّفسِ والخُلُقِ.

وإنَّ ألفَ بعيرٍ يقْنوها[1] الرجل خالصةً عليه، ثابتةً له، لا تزيدُ في منزلةِ دينهِ قدْر نَمْلَةٍ ولا مادونها.

والحَجَرانِ: الذهبُ والفضةُ ـ قد يكونُ شُعاعُهما في هذِهِ الدنيا أضْوَأَ من شمسِها وقمرِها، ولكنّهُما في نورِ النّفْسِ المؤمنةِ كحصَاتين يأخذُهما مِنْ تحتِ قدمَيْهِ، ويذهَبُ يزعُمُ لك أنّهما في قَدْرِ الشّمْسِ والقمرِ.

وهلاكُ النّاسِ إنّما يُقْضَى بمحاولتِهم أنْ يكونوا أُناساً بعيوبِهِم وذنوبِهِم؛ فهذا هو الإنسانُ المدْبِرُ عنِ اللهِ وعن نفسِهِ وعن جنسِهِ؛ لا يَكونُ أبوه أباً في عَطْفِهِ، ولا أُمّهُ أمّاً في محبتِها، ولا ابنُه ابناً في بِرّهِ، ولا زوجُتُه زوجةً في وَفائِها؛ وإنّما يكونونَ له مَهالِكَ، كما روينا عن رسول الله ﷺ: «يأتي على النّاسُ زمانٌ يكونُ هَلاكُ الرَّجُلِ عَلَى يدِ زوجتِهِ وأبويه وولَدِه؛ يُعَيِّرونَهُ بالفَقْرِ، ويكلّفُونَهُ ما لا يُطِيْقُ؛ فَيَدْخُلُ المَداخِلَ التي يَذْهَبُ فيها دِينُهُ فَيَهْلِكَ»[2].

وصاحَ المؤذِّنُ، فقطعَ الشيخُ مجلسَه، وقامَ إلى الصّلاةِ، ثم خرجَ إلى دارِه، فتلقتْهُ ابنتُه، وعلى وجهِهَا مثلُ نورِه، قالتْ: يا أبتِ كنتُ أتلو الساعةَ قولَه تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة: ٢٠١] فما حَسَنَةُ الدنيا قال: يا بُنَيّة، هي التي تَصْلُحُ أنْ تُذْكَرَ مع حسنةِ الآخرةِ، وما أراها للرّجُلِ إلا الزوجةَ الصالحةَ، ولا للمرأة....

---

(١) [يملكها].

(٢) [رواه البيهقي في «الزهد» رقم (٤٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال العراقي في تخريج الإحياء (٢: ٣٤): ضعيف، وذكر صاحب «كنز العمال» برقم (٣١٠٠٨) ونسبه لأبي نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد والخليلي والرافعي من حديث ابن مسعود رضي الله عنه].

وطُرِقَ البابُ، فذهبَ الشيخُ يفتَحُ، فإذا الطارقُ عبدُ اللهِ بن أبي وَدَاعَة؛ وكان يجالِسُه ويأخذُ عنه ويلزمُ حلقتَه، ولكنّه فقدَهُ أياماً؛ فدخلَ فجلسَ.

قال الشيخُ: أينَ كنتَ؟.

قال: تُوفِّيَتْ أهلي فاشتغلْتُ بها.

قال الشيخُ: هلاّ أخبرتَنا فَشَهِدْناها.

ثم أخذَ يُفِيْضُ في الكلامِ عن الدنيا والآخرة؛ وشعَر ابنُ أبي وداعة أنّ القبرَ ما يزالُ في قلبه حتى في مجلسِ الشيخِ، فأرادَ أن يقومَ، فقال سعيدُ:

هل استحدثْتَ امرأةً غيرَها؟ .

قال: يرحمُك الله! أينَ نحنُ من الدنيا اليوم، ومَن يُزَوِّجُني، وما أملكُ إلا درهمينِ أو ثلاثة؟.

قال الشيخ: أنا. . . .

أنا، أنا، أنا. . دوَّى الجوُّ بهذه الكلمة في أُذنِ طالبِ العلمِ الفقيرِ، فَحَسِبَ كأنَّ الملائكةَ تَنْشُدُ نشيداً في تسبيحِ اللهِ يَطِنُّ لحنُه: أنا، أنا، أنا. . .

وخرجَتْ الكلمةُ مِنْ فَمِ الشيخِ ومنَ السَّماءِ لهذا المسكينِ في وقتٍ واحدٍ، وكأنّها كلمةٌ زوَّجَتْهُ إحدى الحورِ العينِ.

فلما أفاقَ من غَشْيَةِ أُذنِهِ. . قال: وتَفْعَلُ؟.

قال سعيد: نعم، وفسر (نعمْ) بأحسنِ تفسيرِها وأبلغِه؛ فقال: قم فادعُ لي نفراً مِنَ الأنصارِ، فلما جاؤوا، حَمِدَ اللهَ، وصلّى عَلَى النبي ﷺ، وزوّجه على ثلاثة دراهم (خمسة عشر قرشاً).

ثلاثةُ دراهم مهرُ الزوجة التي أرسلَ يخطبُها الخليفةُ العظيمُ لولي عهدِه بثقلها ذهباً لو شاءتْ.

وغشّى الفرحُ هذه المرة عيني الرّجُلِ وأذنيهِ، فإذا هو يَسْمَعُ نشيدَ الملائكةِ يَطِنُّ لحنُه: أنا، أنا، أنا...

ولم يشعرْ أنّه على الأرضِ، فقام يطيرُ، وليسَ يدري مِنْ فرحِهِ ما يَصْنَعُ، وكأنَّه في يومٍ جاءَه من غيرِ هذِهِ الدنيا، يتعرَّفُ إليها بهذا الصوتِ الذي لا يزالُ يَطِنُّ في أذنيه أنا، أنا، أنا...

وصار إلى منزله، وجعلَ يفكِّرُ: مِمّن يأخذُ، مِمَّنْ يستدِيْنُ؟ فظهرتْ له الأرضُ خَلاءً من الإنسانِ، وليسَ فيها إلا الرجلُ الواحِدُ الذي يضطربُ صوتُه في أذنيه: أنا، أنا، أنا...

وصلّى المغربَ، وكان صائماً، ثم قامَ فأسرجَ، فإذا سراجُه الخافتُ الضئيلُ يَسْطَعُ لعَيْنَيْهِ سطوعَ القمرِ، وكأنّ في نورِه وجهَ عروسٍ تقول له: أنا، أنا، أنا...

وقدَّمَ عَشاءَه لِيُفْطِرَ، وكان خبزاً وزيتاً، فإذا البابُ يُقْرَعُ؛ قال: مَنْ هذا؟.

قال الطارق: سعيدٌ..

سعيدٌ؟ سعيدٌ! من سعيدٌ! أهو أبو عثمان، أبو علي؛ أبو الحسن؟ فكَّر الرجلُ في كلِّ مَنْ اسمُه سعيدٌ إلا سعيدَ بنَ المسيِّبِ؛ إلا الذي قال له: أنا..

لم يخالجْهُ أنْ يكونَ هو الطارقَ، فإنّ هذا الإمام لم يَطْرُقْ بابَ أحدٍ قَطّ، ولم يُرَ منذُ أربعينَ سنة إلا بينَ دارِه والمسجدِ.

ثم خَرَجَ إليه، فإذا به سعيدُ بن المسيَّب، فلم تأخذه عَيْنُهُ حتى رَجعَ القبرُ، فَهَبَطَ فجأةً بظلامِهِ وأمواتِه في قلبِ المسكينِ، وظنّ أنَّ الشيخَ قد

بَدا له، فَنَدِمَ، فجاءَهُ للطّلاقِ قبلَ أنْ يشيعَ الخبرُ، ويتعذَّرَ إصلاحُ الغلطةِ! فقال: يا أبا محمد! لو... لو... لو ـ لو أرسلتَ إليَّ لاتيتُكَ!.

قال الشيخ: لأنتَ أحقُّ أن تُؤتَى.

فما صكّتْ الكلمةُ سمعَ المسكينِ حتى أبْلَسَ[١] الوجودُ في نظره، وغشِيَ الدنيا صمتٌ كَصَمْتِ الموتِ، وأحسّ كأنَّ القبرَ يتمدَّدُ في قلبه بعُروقِ الأرضِ كلِّها! ثم فاءَ لنفسِه، وقَدَّرَ أنْ ليسَ محلُّ شيخِه إلا أن يأمرَ، وليسَ محلُّه هو إلا أنْ يُطِيْعَ، وأنَّ مِن الرّجولةِ ألاَّ يكونَ مَعرَّةً على الرجولةِ، ثم نَكَسَ وَتَنَكَّسَ، وقال بِذِلَّةٍ ومسكنةٍ: ما تأمرني؟.

تفتّحَتْ السماءُ مرّةً ثالثةً، وقال الشيخُ: إنّكَ كُنْتَ رجلاً عزباً، فتزوَّجْتَ، فَكَرِهْتُ أن تبيتَ الليلةَ وحدَك؛ وهذِه امرأتُكَ!.

وانحرفَ شيئاً، فإذا العروس قائمةٌ خلفَهُ مستترةٌ بِهِ، ودفعَها إلى البابِ، وسلَّم، وانصرفَ.

وانبعثَ الوجودُ فجأةً، وطنَّ لَحْنُ الملائكةِ في أُذُنِ أبي وَداعَةَ: أنا، أنا، أنا...

دخلتْ العروسُ البابَ، وسقطتْ من الحياءِ، فتركها الرجلُ مكانَها، واستوثَقَ من بابهِ، ثم خَطا إلى القصعةِ التي فيها الخبزُ والزيتُ، فوضعها في ظلِّ السراجِ كي لا تراها؛ وأغمضَ السراجُ عينَه ونشرَ الظلَّ.

ثم صعدَ إلى السّطحِ، ورمى الجيرانَ بحُصَيّاتٍ؛ ليعلموا أنّ له شأناً اعتراه، وأنْ قَدْ وَجَبَ حقُّ الجارِ على الجارِ ـ وكانَتْ هذه الحصيات يومئذٍ كأجراس التلفون اليوم ـ فجاؤوه على سُطوحهم وقالوا: ما شأنُك؟.

---

(١) [سكت].

قال: وَيْحَكُم! زَوّجَنِي سعيدُ بنُ المسيَّبِ ابنتَه اليومَ؛ وقد جاءَ بها الليلةَ على غفلةٍ.

قالوا: وسعيدٌ زَوَّجَكَ! أهو سعيدٌ الذي زَوّجَكَ! أزَوَّجَك سعيدٌ.

قال: نعم.

قالوا: وهي في الدار؟ أتقول: إنها في الدار؟.

قال: نعم.

فانثال النساءُ عليه من هنا وهاهنا حتى امتلأتْ بهنَّ الدارُ، وغشيتْ الرجلَ غشيةٌ أخرى، فحسِبَ دارَه تتيهُ على قصرِ عبدِ الملك بن مروان، وكأنّما يسمَعُها تقول: أنا، أنا، أنا...

قال عبدُ اللهِ بن أبي وداعة: ثم دخلتُ بها، فإذا هي من أجملِ النّاسِ، وأَحْفَظِهم لكتابِ اللهِ تعالى، وأعْلَمِهم بسنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وأعْرَفِهِمْ بحقِّ الزوجِ. لقد كانتْ المسألةُ المعضِلَةُ تُعيي الفقهاءَ، فأسألُها عنها، فأجدُ عندَها منها علْماً.

قال: ومكثتُ شهراً لا يأتيني سعيدٌ ولا آتيه، فلما كان بعدَ الشهر أتيتُهُ، وهو في حلقتِه، فسلّمْتُ، فردَّ عليَّ السّلامَ، ولم يكلِّمْني حتى تفرّقَ النّاسُ من المجلسِ، وخلا وجهُهُ، فنظر إليَّ وقال: ما حالُ ذلكَ الإنسانُ...؟.

أما ذلك الإنسانُ فلم يعرِفْ من الفرقِ بين قَصْرِ وليّ العهدِ ابنِ أميرِ المؤمنين، وبين حُجْرَةِ ابن أبي وداعة التي تُسَمَّى داراً..! إلا أنّ هناك مضاعفةَ الهمّ، وهنا مضاعفة الحُبّ.

وما بين (هناك) إلى القبرِ مدةَ الحياةِ ـ سَتَخْفِتُ الروحُ من نورٍ بعد نورٍ، إلى أن تنطِفىءَ في السماءِ من فضائِلها.

وما بين (هنا) إلى القبرِ مدةَ الحياةِ ـ تسطعُ الروحُ بنورٍ على نورٍ، إلى أن تشتعلَ في السماءِ بفضائِلها.

وما عندَ أميرِ المؤمنينَ لا يبقَى، وما عندَ الله خيرٌ وأبقى.

* * *

ولم يزلْ عبدُ الملكِ يحتالُ لسعيدٍ وَيَرْصُدُ غَوَائِلَهُ، حتى وقعتْ به المِحنةُ، فضربهُ عاملُه على المدينة خمسينَ سوطاً في يومٍ باردٍ، وصَبَّ عليه جرّةَ ماءٍ، وعرّضهُ على السّيفِ، وطافَ به الأسواقَ عارياً في تُبَّانٍ[1] مِنَ الشَّعْرِ، ومنعَ النّاسَ أن يجالسوه أو يخاطبوه. . وبهذِه الوقاحةِ، وبهذه الرذيلةِ، وبهذه المَخْزَاة، قال عبدُ الملك بن مروان: أنا. . . ؟.

ذيل القصة وفلسفة المال

ذَهَبَ الناسُ يميناً وشمالاً فيما كتبناه مِنْ خبرِ الإمامِ سعيدِ بنِ المسيَّب، وتزويجهِ ابنتَه من طالبِ علمٍ فقيرٍ، بعدَ إذ ضَنَّ بها أن تكونَ زوجاً لوليّ عهدِ أميرِ المؤمنين عبدِ الملكِ بنِ مروان؛ وقد جعلتْ قلوبُ بعضِ النساءِ العصرياتِ المتعلماتِ تصيحُ وتُوَلْوِلُ. . وحدّثَنا أديبٌ ظريفٌ أنَّ إحداهُنَّ سألت عن عنوان عبدِ الملك بنِ مروان. . !

أفَتُراها ستكتبُ إليه أنها تقبلُ الزواجَ مِنْ ولي عهدِه؟

* * *

على أنّ للقصة ذيلاً، فإنّ الطبيعةَ الآدميةَ لا عَصْرَ لها، بل هي طبيعةٌ

(١) التبان: ما يسمى اليوم (المايوه) أو لباس البحر، ذكره الجاحظ وقال: هو سروالٌ قصيرٌ يلبسه الملاحون.

كُلِّ عصرٍ؛ والفضيلةُ الإنسانيةُ يبدأ تاريخُها من الجنةِ، فهيَ هيَ، لا تتجدَّدُ ولا تزالُ تلوحُ وتختفي.

أما الرذيلةُ فأولُ تاريخِها من الطبيعةِ نفسِها، فهي هي. لا تتغيَّرُ، ولا تزالُ تظهرُ وتَنْتَشِرُ.

لمّا زوجَ الإمامُ ابنتَه مِنْ ابن أبي وَدَاعةَ، أخذها بنفسِه إليهِ في يومِ زوَّجَها منه، ومشى بها في طريقٍ حَصاهُ عندَهُ أفضلُ مِنَ الدُّرِّ، وترابُهُ أكرمُ من الذَّهبِ ـ طارت الحادثةُ في النّاسِ، واستَفاضَ لهم قولٌ كثيرٌ؛ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقد قال جماعةٌ منهم: تَاللهِ لئنْ انقطعَ الوحْيُ، إنَّ في معانيه بقيَّةً ما تزال تنزِلُ على بعضِ القلوبِ التي تُشْبِهُ في عَظَمَتِها قلوبَ الأنبياءِ؛ وما هذه الحادثةُ على الدنيا إلا في معنى سُورَةٍ منِ السُّوَرِ، قد انشقَّتْ لها السماءُ، ونزلَ بها جِبريلُ يَخْفُقُ على أفئدةِ المؤمنين خفقةَ إيمانٍ.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] وقال أناسٌ منهم: أمَا واللهِ لو تَهَيَّأَ لأحدِنا أنْ يكونَ لِصّاً يَسْرُقُ أميرَ المؤمنين، أو ابنَ أميرِ المؤمنين، لركبَ رأسَهُ في ذلك، ما يَرُدُّهُ عن السرقةِ شيءٌ؛ فكيفَ بمنْ تَهيَّأَ له الصِّهْرُ والْحَسَب، وجاءَهُ الغِنَى يَطْرُقَ بابَه ما بالُهُ يردُّ كلَّ ذلك، ويُخْزِي ابنتَه برجلٍ فقيرٍ تعيشُ في دارِه بأسْوَإِ حالٍ؛ وكيفَ تَثْقُلُ همتُه، وتَبْطُؤُ، وتموتُ، إذا كان الدرُّ والجوهرُ والذهبُ والخلافةُ؛ ثُمَّ ينبعِثُ ويمضي لا يتلكَّأُ عَزْمُهُ، إذا كان العِلْمُ والفَقْرُ والدِّيْنُ والتَّقْوىٰ؟

وانتهى كلامُ النّاسِ إلى الإمامِ العظيمِ، فلم يَجِئْهُ إلا مِنْ الظَّنِّ خَفِيّاً خَفِيّاً، كأنّما هي أقوالٌ حَسِبَها تُقَالُ عَنْهُ بعدَ خمسينَ وثلاثمئةٍ وألفِ سنةٍ (في زمننا هذا) حينَ يكونُ هو في معاني السّماءِ، ويكونُ القائلون في معاني الترابِ النَّجِسِ، الذي نَفَضَتْهُ على الشرقِ نعالُ الأوربيين..؟

قال الراوي: ولم يَسْتَطِعْ أحدٌ مِنَ النّاسِ أنْ يواجِهَ الإمامَ بشَفَةٍ أو بِنْتِ شَفَةٍ، لا مُضَيِّقاً عليه مِنْ قلبِه ولا مُوَسِّعاً، حتى كانَ يومٌ مِنْ أيامِ الجُمُعَةِ، وقد مالَ النّاسُ بعدَ الصلاةِ إلى حَلْقَةِ الشيخِ، وتَقَصَّفوا[1] بعضُهُم على بعضٍ، فغصَّ بهمُ المَسْجِدُ، وكان إمامُنا يفسِّرُ قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

قال الراوي: فكان فيما قاله الشيخ:

إذا هُدِيَ المرءُ سبيلَه كانت السُّبُلُ الأخرى في الحياةِ إما عداءً له، وإما معارَضَةً، وإما رَدّاً، فهو منها في الأذَى، أو في معنى الأذى، أو عُرْضَةٌ للأذى. لقد وَجَدَ الطريقَ، ولكنّه أصابَ العقَباتِ أيضاً، وهذه حالةٌ لا يَمْضِي فيها الموَفَّقُ إلى غايتِه، إلا إذا أعانَهُ الله بطبيعتينِ:

أولاهما: العزمُ الثابتُ، وهذا هو التوكلُ على اللهِ.

والأخرى: اليقينُ المستبصِرُ، وهذا هو الصبرُ على الأذى.

ومتى عَزَمَ الإنسانُ ذلك العزمَ، وأيقنَ ذلك اليقينَ ـ تحولتْ العقباتُ التي تصدُّهُ عن غايتِه، فآل معناها أنْ تكونَ زيادةً في عزمِه ويقينِه، بعد أن وُضِعْنَ ليَكُنَّ نَقْصاً منهما؛ فَتَرْجِعُ العقباتُ بعدَ ذلك، وإنّها لوسائلُ تعينُ على الغايةِ. وبهذا يَبْسُطُ المؤمن رُوْحَهُ على الطريقِ، فما بُدٌّ أنْ يَغْلِبَ على الطريقِ وما فيها، ينظرُ إلى الدنيا بنورِ اللهِ. فلا يَجِدُ الدنيا شيئاً ـ على سَعَتِها وتَناقُضِها ـ إلا سبيلَه وما حَوْلَ سبيلِهِ، فهو ماضٍ قُدُماً، لا يَترادُّ ولا يَفْتُرُ.ولا يكِلُّ، وهذه حقيقةُ العَزْمِ، وحقيقةُ الصَّبْرِ جميعاً.

ومن ثَمّ لا تكونُ الحياةُ لهذا المؤمنِ مهما تَقَلَّبَتْ واختلفتْ ـ إلا نَفاذاً

---

(١) [ازدحموا].

مِنْ طريقٍ واحدةٍ دونَ التَّخبُّطِ في الطرقِ الأخرى، ثم لا يكونُ العمرُ مهما طالَ إلا مُدَّة صَبْرٍ في رأي المؤمنِ[1].

وعزيمةُ النفاذِ وعزيمةُ الصَّبْرِ، هما الضوءُ الروحاني القويُّ، الذي يكتسِحُ ظُلماتِ النفسِ، مما يسمِّيهِ النّاسُ خمولاً ودَعَةً وتهاوناً وغفلةً وضَجَراً ونحوَها.

قال: ولكنْ كيفَ يُعانُ المؤمنُ على هذه المعجزةِ النفسيّةِ؟ هنا يتبيَّنُ إعجازُ الآيةِ الكريمة؛ فقد ذُكِرَ فيها التوكُّلُ ثلاثَ مراتٍ، وافتتحتْ به وخُتمتْ؛ والتوكُّلُ هو العَزْمُ الثابتُ كما أوضحنا. وذُكِرتْ في الآية بينَ ذلك هدايةُ المرءِ سبيلَه؛ وهذه الإضافةُ ﴿سُبُلَنَاۚ﴾ تُعيِّنُ أنّها هدايةُ الإنسان إلى سبيلِ نفسِه؛ أيْ سبيلِهِ الباطنيِّ، الذي هو مَناطُ[2] سعادتِه في الشعورِ بالسعادة.

ثم ذُكِرَ الصَّبْرُ على أذى النّاسِ، والأذى لا يَقَعُ إلا في حيوانيةِ الإنسانِ، ولا يؤثّرُ إلا فيها، فكأنَّ الآيةَ مُصرِّحةٌ أنّ نجاحَ المؤمنِ ونَفاذَه في الحياةِ لا يكونان أولَ الأشياءِ وآخرَها إلا بثلاثٍ: العَزْمُ الثابتُ، ثم العَزْمُ الثابتُ، ثم العَزْمُ الثابتُ. وأنّ الصّبرَ ليسَ شيئاً يُذْكَرُ، أو شيئاً يُجْدِي، إنْ لم يَكُنْ صبراً على أذى الحيوانيةِ في أفظَعِ وحشيَّتِها؛ فالروحُ لا تؤذي الروحَ، ولكنَّ الحيوانَ يؤذي الحيوانَ، وأنّ ما يقعُ مِنْ هذه الحيوانيةِ فيُسمَّى اعتداءً مِنْ غيرِكَ، ويسمّى أذًى لكَ، هو شيءٌ ينبغي أن يجعلَه العزمُ فخراً لقوّةِ الاحتمالِ فيكَ، كما جعلهُ البطشُ فخراً للقدرةِ عند المعتدي.

وبهذا يكونُ العزمُ قد فَصَلَ بين نفسِكَ الروحيةِ؛ وبَيْنَ شخصِكَ

---

(١) سيأتي في كلام الإمام بسطٌ لهذا المعنى.
(٢) [متعلَّقٌ].

الحيوانيِّ، وَوَهَبَكَ حقيقةَ الشّعورِ، وصحَّحَ بمعاني رُوحيتِك معانيَ حيوانيتِكَ؛ وحينئذٍ تَرى السعادةَ حقَّ السّعادة ما كانَ هدايةً لنفسِكَ أو هدايةً بها، ولو انقلبَ في الشخصِ الحيوانيِّ منك أذىً وألماً. ذلك صَبْرُ أولي العَزْمِ من الرُّسُلِ.

قال الراوي: وعندَ ذلكَ صاحَ رَجُلٌ كانَ في المَجْلِسِ دسَّه عامِلُ الخليفةِ، لِيَسْأَلَ الشيخَ سؤالاً على مَلأ النّاسِ، يكونُ كالتشنيعِ عليه والتشهيرِ به؛ وقد مَكَرَ العامِلُ، فاختارَهُ شيخاً كبيراً أعْقَفَ، لِيَرْحَمَ الناسُ رِقَّةَ عَظْمِهِ وكِبَرَ سِنّهِ، فلا يَعْرِضُونَ له بأذىً، ثم ليكونَ صوتُهُ كأنّه صوتُ الدّهرِ من بعيدٍ.

قال الصَّائِحُ: ذلك أيها الشيخُ صبرُ أولي العزمِ من الرُّسُلِ، أو صبرُ ابنتِكَ على مَكارِهِ العيشِ مع ابنِ أبي وداعةَ، لا يجدُ إلا رُمْقَةً يُمْسِكُ بها الرَّمَقَ عليها، وقد كانَتْ النعمةُ لها مُعْرِضةً، فدفعتَها إليه ـ زعمتَ ـ لِتُهْلِكَ به شَخْصَها الحيوانيَّ، وتوكَّلْتَ على اللهِ، وألقيتَ ابنتَك في اليَمِّ. . ؟

فتربَّدَ وَجْهُ الشيخِ، وأطرقَ هُنَيَّاتٍ، ثم رفعَ رأسَهُ، وقال: أينَ المتكلِّم آنفاً؟.

فارتفعَ الصوتُ: هاأناذا.

قال: اذنُ مِنّي.

فتقاعَسَ الرَّجُلُ، كأنما تَهَيَّبَ ما فَرَطَ مِنْهُ، فاستدناهُ الثانيةَ؛ فقامَ يتخطَّى النّاسَ، حتى وقفَ بإزائِهِ ثم جلسَ؛ فقرأ الشيخُ قولَه تعالى: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

ثم قالَ: أيُّها الرّجلُ، لا تَسمعْني بأذُنِك وحدَها، أرأيتَك[١] لو سمعتَ خبراً ليسَ في نفسِكَ أصلٌ من معناه، أو وَرَدَ عليك الخبرُ ونفسُك عنه في شُغُلٍ قد أهمَّها؛ أفكنتَ تَنشَطُ له نشاطَك للخبرِ احتفلتْ له نفسُك، أو أصابَ هوًى منك، أو رأيتَه موضعَ اعتبار؟

قال: لا.

قال الشيخُ: فإذا سمعتَ بأذنك وحدَها، فإنما سمعتَ كلاماً يمرُّ بأذنك مَرّاً، وإذا أردتَ الكلامَ لنفسِك سمعتَ بأُذنِك ونفسك معاً؟

قال: نعم.

قال الشيخُ: فكلُّ ما لا تَنفَرِدُ به حاسّةٌ واحدةٌ، بل تشارِكُ فيه الحواسُّ كلُّها أو أكثرُها ـ لا يكونُ إلا موضعَ اهتمامٍ للنَّفْسِ؟

قال: نعم.

قال الشيخُ: فمن هنا يَكْثُرُ الفَرَحُ والحُزْنُ كلاهُما إذا شارَكتْ فيهما الحواسُّ، فيأتي كلٌّ منهما كثيراً مهما قلَّ، وتزيدُ كلُّ حاسَّةٍ في اللَّذةِ لذةً، وفي الألم ألماً، فتعملُ النَّفْسُ في ذلك أعمالاً تَسْحَرُ بها، فيكونُ الشيءُ لصاحبه غيرَ ما هو للنّاسِ، كالصوتِ الباكي أو الضّاحِك في لسانِ طفلِكَ، تسمعُه أنتَ منه بكلِّ حواسِّكَ، فإذا أنتَ سمعتَ الصوتَ عينَهُ من لسانِ رجلٍ في النّاسِ رأيتَه غير ذاك، أكذلك هو؟

قال: نعم.

قال الشيخُ: أفيكونُ السرور بالغاً عجيباً أكثرَ ما هو بالغٌ، حينَ يجِدُ

---

(١) أرأيتَك: بمعنى أخبرني، تبقى تاؤه على حالها في الإفراد والتثنية والجمع، ويسلِّطُ التغيرُ على الكاف: أرأيتَك، أرأيتكما، أرأيتكم إلخ.

المالَ والغِنى في الإنسان، أم حين يجِدُ القوةَ النفسيةَ وطبيعةَ المَرح والرضَى؟

قال: بل حينَ يَجِدُ في النفس. .

قال الشيخُ: أرأيتَ الإنسانَ يكونُ سعيداً بما يتوهَّمُ الناسُ أنّه بهِ غنيٌّ سعيدٌ، أم بشعورِه هو، وإنْ كان بَعدُ فيما لا يتوهَّمُ الناسُ فيه الغَنِى والسعادة؟

قال: بل بشعورِه.

قال الشيخُ: أفلا توجَدُ في الدنيا أشياءُ من النَّفسِ تكونُ فوقَ الدنيا، وفوق الشهواتِ والمطامعِ؛ كالطفلِ عندَ أُمّهِ، كلُّ ما تعلَّق به من شيءٍ وُزِنَ به هو لا بغيرِه، وكان الاعتبارُ عليه لا على سواه، أتعرفُ أمّاً ترضَى أن يُذْبَح ابنُها في حِجْرِها لِقاءَ أن يُمْلأ حِجْرُها ذهباً، وإنْ كانت فقيرةً مُعْدِمةً؟

قال: لا.

قال الشيخُ: فإذا كانتْ النفسُ تَشْعُرُ أكثرَ مما ترى؛ أفيذهَبُ ما تراه فيما تَشْعُرُ به، ويكونُ شعورُها هو وحدَه الذي يَلْبَسُ ما حولها، ويصوِّرُهُ، ويُصرِّفُه؟

قال: نعم.

قال الشيخُ: أفتعرِفُ أنّ لكلِّ نفسٍ قويةٍ من هذا العالم الذي نعيشُ فيه عالَماً آخر هو عالَمُ أفكارِها وإحساسِها، وفيه وحدَه لذاتُ إحساسِها وأفكارِها؟

قال: نعم.

قال الشيخُ: أفرأيتَ المرأةَ إذا صحَّ حبُّها أو فرحُها أو عزمُها، أرأيتَها تكونُ إلا في عالَم أفكارِها؟ أرأيتَ كلَّ ما يتَّصِلُ برغبَتِها حينئذٍ يكونُ إلا من أشياءِ قلبِها لا مِنْ أشياءِ الدنيا؟ أرأيتَها لا تعيشُ في هذِهِ الحالةِ إلا

بالمعاملةِ مع قلبِها الذي لا يأكُلُ، ولا يَشْرَبُ، ولا يلبَسُ، ولا يجمَعُ المالَ، ولا يريدُ إلا الشعورَ فقط؟

قال: نعم هو ذاك.

قال الشيخُ: أرأيتَ إذا كانَ الإيمانُ قد وُلِدَ، ونشأَ، وترَعْرَعَ في قلبِ المرأةِ، ألا يكونُ هو طِفْلُ قلبِها؟

قال: نعم.

قال الشيخُ: أرأيتَ إذا كانتْ الخَمْرُ عند مُدْمِنِها شيئاً عظيماً، وكانتْ ضرورةً من ضروراتِ وجودِهِ الضَّعِيفِ المختلِّ، فلا يستقيمُ وجودُه ولا سَفَهُ وجودِه إلاّ بها؛ أفيلزَمُ من ذلك أنْ تكونَ الخمرُ من ضَروراتِ صاحبِ الوجودِ القويِّ المنتظمِ؟

قال: لا.

قال الشيخُ: أفَمُوقِنٌ أنتَ لابدَّ من آخرِ لأيامِ الإنسانِ ولياليهِ في هذه الدنيا فينقطعُ به العيشُ؟

قال: نعم.

قال الشيخُ: أفيُؤرِّخُ الإنسانُ يومئذٍ بتاريخِ معدتِه وما حولَها، أم بتاريخِ نفسِه وما فيها؟

قال: بل بتاريخِ نفسِه.

قال الشيخُ: فإذا كُنْتَ صاحِبَ حَرْبٍ، وكُنْتَ بطلاً من الأبطال، ومِسْعَراً من المَسَاعير(١)، وأيقنتَ الموتَ في المعركة؛ أيكونُ الحقيقيُّ

---

(١) [يقال: رجل مِسْعَرُ حرب إذا كان تحمى به الحرب، ومن حديث أبي بصير: «وَيْلُ امِّهِ مِسْعَرُ حربٍ لو كان له أصحاب» يصفه بالمبالغة في الحرب والنجدة].

عندَكَ في هذه الساعةِ هو الموتُ أم الحياةُ؟

قال: بل الحياةُ عندئذٍ وهْمٌ وباطلٌ.

قال الشيخُ: فتَفِرُّ في تلك الساعةِ إلى الحياةِ ولذّاتِها في خيالِكَ، أم تفرُّ منها ومِنْ لذاتِهَا؟

قال: بل الفرارُ منها، فإنّ خيالَها يكونُ خَبَالاً.

قال الشيخُ: ففي تلك الساعةِ التي هي عُمْرُ نفسِكَ، وعَمَلُ نفسِكَ، ورجاءُ نَفْسِكَ؛ تستشعرُ اللذةَ في موتِكَ بطلاً، أم تُحِسُّ الكَرْبَ والمَقْتَ من ذلك؟

قال: بل أستشعرُ اللذةَ.

قال الشيخُ: إذن فهي كبرياءُ الروحِ العظيمةِ على مادَّةِ الترابِ والطينِ في أيِّ أشكالِها ولو في الذَّهَبِ.

قال: هي تلك.

قال الشيخُ: إذن فبعضُ أشياءِ النَّفْسِ تمحُو في بعضِ الأحوالِ كلَّ أشياءِ الدنيا، أو الأشياءَ الكثيرةَ من الدنيا.

قال: نعم.

قال الإمامُ: يرحمُكَ اللهُ؛ كذلك مُحِيَ عندنا أميرُ المؤمنين وابنُ أميرِ المؤمنين، ومُحِيَ المالُ والغنَى، ولم يكنْ ذلك عندنا إلا سعادةً؛ ومن رحمةِ اللهِ أنّ كلَّ مَن هُدِيَ سبيلَه بالدين أو الحكمةِ، استطاعَ أن يصنَعَ بنفسِه لنفسِه سعادتَها في الدنيا، ولو لم يكنْ له إلا لُقَيْماتٍ؛ فإن السَّعَةَ سَعَةُ الخُلُقِ لا المالِ، وإنّ الفقرَ فقرُ الخُلُقِ لا العيشِ.

قال الراوي: ثم إنّ الإمامَ العظيمَ التفتَ إلى النّاسِ وقال: أما إني ـ عَلِمَ اللهُ ـ ما زوّجتُ ابنتي رجلاً أعرفه فقيراً أو غنياً، بل رجلاً أعرفُه بطلاً

مِنْ أبطالِ الحياةِ، يملِكُ أقوى أسلحتِه من الدينِ والفضيلةِ، وقد أيقنتْ حينَ زوّجتْها منه أنّها سَتَعْرِفُ بفضيلةِ نفسِها فضيلةَ نفسِه، فيتجانسُ الطبعُ والطبعُ؛ ولا مَهْنأ لرجلٍ وامرأةٍ إلا أنْ يُجانِسَ طبعُهُ طبعَها، وقد علمتْ وعلِمَ النّاسُ أنْ ليسَ في مالِ الدّنيا ما يشتري هذه المجانسة، وأنها لا تكونُ إلا هديةَ قلبٍ لقلبٍ يأتَلِفَانِ ويَتَحَابّانِ.

ثم قال الإمامُ: وأنا فقد دخلتُ على أزواجِ رسولِ الله ﷺ[1] ورأيتُهنَ في دُوْرِهِنّ يُقاسِيْنَ الحياةَ، ويُعانِيْنَ مِنَ الرِّزْقِ ما شَحَّ دَرُّهُ، فلا يجيءُ إلا كالقَطْرَةِ بعد القَطْرَةِ، وهنَّ على ذلك، ما واحدةٌ منهنَّ إلا هي مَلِكَةٌ من مَلِكات الآدميّة كلِّها، وما فَقْرُهنَّ إلا كبرياءُ الجنَّةِ نظرتْ إلى الأرضِ فقالت: لا...![2]

يجاهِدْنَ مجاهَدَةَ كلِّ شريفٍ عظيمِ النَّفْسِ، همُّهُ أنْ يكونَ الشرفُ أو لا يكونَ شيءٌ.

ويرى الغافِلُ أنّ مِثْلَهُنّ هالكاتٌ في تعبِ الجهادِ، ويعلَمْنَ من أنفسهنَّ غيرَ ما يَرَى ذلك المسكينُ ـ يَعْلَمْنَ أنّ ذلك التعبَ هو لذةُ النَّصْرِ بعينِها.

كانت أنوثتُهنَّ أبداً صاعدةً مُتَسَاميةً فوق موضِعِها بهذه القناعةِ وبهذِهِ التقوى، ولا تزالُ متساميةً صاعدةً، على حين تنزل المطامعُ بأنوثةِ المرأةِ دونَ موضِعِها، ولا تزالُ أنوثتُها تَنحَدِرُ ما بقيتْ المرأةُ تطمَعُ؛ ورُبَّ مَلَكَةٍ جعلتْها مطامعُ الحياةِ في الدَّرْكِ الأسفلِ، وهي باسمها في الوَهْمِ الأعلى[3]..!

---

(١) توفي سعيدُ بن المسيَّب سنة إحدى وتسعين للهجرة أو حولها، وكان قد لقي جماعةً من الصحابةِ، وسمع منهم، ودخل على أزواجِ النبيِّ ﷺ، وأخذ عنهنَّ، وكان متزوجاً ابنة أبي هريرة الصحابي الجليل، وعنه أكثرُ روايته.

(٢) انظر مقالة: «درس من النبوة» «وحي القلم» (٢ : ٦٣).

(٣) [انظر ما قاله الكاتب عن امرأة العزيز في قصة «سمو الحب» ص(٥٣).

وقد روينا عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «اطَّلَعْتُ في الجنَّة، فإذا أقَلُّ أهلِها النساء، فقلت: أينَ النساءُ؟ قال: شَغَلَهُنَّ الأحمران: الذهبُ والزعفرانُ»[1] أي الطمعُ في الغنى، والعملُ له، والميلُ إلى التبرُّجِ، والحِرْصُ عليه.

ونفسُ الأنثى ليسَتْ أنثى، ولكنَّ شُغْلَها بذلك التبرجِ وذلك الحرصِ وذلك الطمعِ ـ هو يُخَصِّصُها بخصائص الجسدِ، ويُعطيها من حكمِه، ويُنزِلُها على إرادتِهِ؛ وهذه هي المزَلَّةُ، فتهبِطُ المرأةُ أكثرَ مما تعلو، وتَضْعُفُ أكثرَ مما تقوَى، وتَفسُدُ أكثرَ مما تَصْلُحُ. إنّ نفسَ الأنثى لرجلٍ واحدٍ، لِزَوْجِهَا وحدَه.

رأيتُ أزواجَ النبيِّ ﷺ فقيراتٍ مَقتُوراً عليهن الرِّزقُ، غيرَ أنّ كلاًّ منهنَّ تعيشُ بمعاني قلبِها المؤمنِ القويِّ، في دارٍ صغيرةٍ فَرَشَتها الأرضُ، ولكنّها من معاني ذلك القلبِ كأنّها سماءٌ صغيرةٌ مختبئةٌ بين أربعةِ جدرانٍ.

---

(١) هذان هما فتنةُ النساء في كلّ دهرٍ، وهذا الحديث من المعجزات، فالذهبُ كنايةٌ عن المال والحلي، وما كان من بابهما. أمّا الزعفران ففيها المعجزة، لأنّها كنايةٌ مطلقةٌ، فهمها العرب دلالةً على الثياب المصبغة، ونفهم منها نحنُ كلَّ أنواع زينةِ النساء، من المساحيقِ والعطورِ، إلى (المودة) التي هي أصباغٌ معنويةٌ لأشكالِ الثيابِ، وقد كان العربُ يقولون: غمرت المرأةُ وجهَها إذا طَلَتْهُ بالزعفران، ليصفوَ لونُها. ويقولون من ذلك: امرأة مغمَّرةٌ، وتغمَّرَتْ، أي فعلت ذلك. فالزعفران كما ترى، كنايةٌ تدخل فيها (البودرة) والأدهان المختلفة، وكلُّ ما أفسَدَ وَجْهَ المرأةِ، ليفسِدَ حياتَها الاجتماعية..
[والحديث أخرجه مختصراً العسكري في «الأمثال» عن الحسن مرسلاً بلفظ: «أهلك الناسَ الأحمران الذهب والزعفران» وقال أبو بكر الأنباري: هكذا جاء هذا الحرف مفسّراً في الحديث، وأحسب التفسير من بعض نقلته انظر «كنز العمال» رقم (٤٥٠٩٣)].

إنهنّ لم يبتعدْنَ عن الغنى إلا لِيَبْعَدْنَ عن حماقةِ الدنيا التي لا تكونُ إلا في الغنى.

أفٍّ أفٍّ! أتريدونَ أنْ أُزَوِّجَ ابنتي من ابنِ أميرِ المؤمنين فيُخزيها اللهُ على يديَّ، وأدفعُها إلى القَصْرِ، وهو ذلك المكانُ الذي جمعَ كلَّ أقذارِ النَّفْسِ ودَنَسِ الأيام والليالي.

أأُزَوِّجُها رجلاً تعرِفُ من فضيلةِ نَفْسِها سقوطَ نفسِه، فتكونُ زَوجَةَ جسمِهِ ومطلَّقةَ رُوحِه في وقتٍ معاً؟!

ألا كَمْ مِنْ قَصْرٍ هو في معناه مَقبرةٌ، ليسَ فيها مِنْ هؤلاء الأغنياءِ رجالِهم ونسائِهم إلا جِيَفٌ يُبْلي بعضُها بعضاً!

قال الراوي: وضجَّ النّاسُ لحمامةٍ صغيرةٍ قد جَنَحَتْ من الهواءِ، فوقعتْ في حِجْرِ الشيخِ، لائذةً به مِنْ مَخافةٍ، وجعلتْ تَدِفُّ[1] بِجناحَيْها، وتَضْطَرِبُ من الفزَعِ، ومرَّ الصقرُ على أثرِها، وقد أهوَى لها، غيرَ أنّه تمطَّرَ[2]، ومَرَق في الهواء إذ رأى النّاسَ..

وتناولَها الإمامُ في يدِه، وهي في رَجْفَتِهَا من زلزلةِ الهواءِ، وكانت كالعَرُوس مُسَرْوَلَةً قد غابتْ ساقاها في الريش، وعلى جِسْمِهَا من الألوانِ نَمْنمةٌ وتَحبِيرٌ، ولها رُوحُ العَروسِ الشابّةِ، يُهدُونَهَا إلى مَنْ تَكرَهُ، ويَزُفُّونَها على قاتِلها الذي يُسمّى زوجَها.

وأدناها الشيخُ مِنْ قلبِهِ، ومَسَحَ عليها بيدِه، ونظرَ في الهواءِ نظرةً.. وهو يقول: نَجوتِ نَجوتِ يا مسكينةُ![3]

* * *

---

(١) [تضرب جنبيها بجناحيها].

(٢) [أسرع].

(٣) [نشرت في «الرسالة» السنة الثانية (١٩٣٤) العددان (٦٧) و(٧٠)].

زوجــة إمام

جَلَسَ جماعةُ أصحابِ الحديثِ في مسجدِ الكوفةِ، ينتظرون قدومَ شيخِهم الإمامِ أبي محمَّدٍ سُليمان الأعمش[١] ليسمَعُوا منهُ الحديثَ، فأبطأَ عليهم؛ فقال منهمْ قائِلٌ: هلمُّوا نتحدَّثُ عن الشَّيخِ، فنكونَ مَعهُ وليس معنا، فقالَ أبو معاويةَ الضَّريرُ: إلى أنْ يكونَ معنا ولسنا معه! فخطرتْ ابتسامةٌ ضعيفةٌ تهتزُّ على أفواهِ الجماعَةِ، لم تبلغ الضَّحِكَ، ومَرّتْ لم تُسمَعْ، وكأنّها لم تُرَ، وانطلَقَتْ من المباحِ المعْفوِّ عنهُ. ولكنْ أكبرَها أبو عَتَّاب منصورُ بن المُعْتَمِرِ. فقال: ويلكَ يا أبا معاويةُ! أتتَندَّرُ بالشيخِ، وهُوَ منذُ الستينَ سنةً لم تَفُتْهُ التكبيرةُ الأُولى في هذا المسجِدِ، وعلى أنّه مُحدِّثُ الكوفةِ وعالمُهَا، وأقرأُ النّاسِ لكتابِ اللهِ، وأعلمُهُم بالفرائِضِ، وما عَرَفَتِ الكوفةُ أعبدَ منه، ولا أفقهَ في العبادةِ؟

فقال محمَّدُ بنُ جُحَادَةَ[٢]: أنتَ ـ يا أبا عَتَّابٍ ـ رجلٌ وحدَك، تُواصِلُ الصومَ منذُ أربعينَ سنةً، فقدْ يَبِسْتَ على الدَّهْرِ، وأصبحَ الدَّهْرُ جائِعاً منكَ، وما بَرِحْتَ تبكي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، كأنّما اطلعْتَ على سَواءِ الجَحِيْمِ، ورأيتَ النّاسَ يَتَواقَعُون فيها، وهي لَهَبٌ أَحْمَرُ، يَلْتَفُّ على لَهَبٍ أحمرَ، تحت دُخَانٍ أسودَ، يَتَضَرَّبُ في دخانٍ أسودَ؛ يَتَغَامَسُ الإنسانُ فيها، وهي مِلءُ السماواتِ، فما يكونُ إلا كالذُّبابةِ، أوقَدُوا لها جَبَلاً ممتدّاً مِنَ النّارِ،

---

(١) ولد هذا الإمام العظيم سنة (٦١) للهجرة، وتوفي سنة (١٤٨).

(٢) الجُحادَةُ هي الغرارة الممتلئة، فكانت أُمُّه تشبِّهُ بها لضخامتِها.

ينطادُ[١] بين الأرضِ والسماء، وقَدْ ملأَ ما بينَهُما جَمْراً وشُعَلاً ودُخاناً، حتى لتتهارَبَ السُّحُبُ في أعلى السماءِ من حَرِّه، وهو على هَوْلِه وجسَامتِه لِحَرْقِ ذُبابةٍ لا غيرِها، بَيْدَ أنها ذُبابةٌ تُحْرَقُ أبداً، ولا تموتُ أبداً، فلا تزالُ ولا يزالُ الجبلُ!

فصاحَ أبو معاويةَ الضَّريرُ: ويحكَ يا محمَّدُ! دعِ الرَّجُلَ وشأنَه؛ إنّ للهِ عباداً متاعُهُم مما لا نعرِفُ، كأنّهم يأكلونَ ويشربونَ في النَّوْمِ، فحياتُهم مِنْ وراءِ حياتِنَا، وأبو عتَّابٍ في دنيانا هذِه ليسَ هو الرَّجُلُ الذي اسمهُ منصورٌ، ولكنَّهُ العَمَلُ الذي يَعْمَلُهُ منصورٌ، هل أتاكم خَبرُ قارىءِ المدينةِ أبي جعفر الزاهد؟

قالَ الجماعةُ: ما خبرُه يا أبا معاويةَ؟ قالَ: لَقَدْ تُوُفِّيَ مِنْ قريبٍ، فَرُئِيَ بعدَ موتِهِ على ظَهْرِ الكَعْبَةِ؛ وستَرَوْنَ أبا عَتَّابٍ ـ إذا ماتَ ـ على منارَةِ هذا المَسْجِدِ!

فصاحَ أبو عتّابٍ: تَخَلَّلْ يا أبا معاويةَ؛ أما حَفِظْتَ خبرَ ابنِ مسعودٍ: كنّا عند النبيِّ ﷺ فقام رجلٌ، فوقَع فيه رجلٌ مِنْ بعدِه؛ فقال النبيُّ ﷺ: «تخلَّلْ» قال: ممَّ أتَخَلَّلُ؟ ما أكلتُ لحماً؟ قال: «إنّكَ أكلتَ لَحْمَ أخيكَ!»[٢].

فتَقَلْقَلَ الضَّريرُ في مجلسِهِ، وتَنَخْنَحَ، وهَمْهَم أصواتاً بينَهُ وبَيْنَ نفسِه، وأحسَّ الجماعةُ شأنَه، وقد عرفوا أنّ له شرّاً مُبْصِراً، كالّذي كانَ فيهِ مِنَ المَزْحِ والدُّعابةِ، وشرّاً أعمى هذِه بوادرُ.

---

(١) [يرتفع].

(٢) [قال المنذري في «الترغيب» رقم (٤١٧٢): حديث غريب رواه أبو بكر بن أبي شيبة والطبراني واللفظ له، ورواته رواة الصحيح اهـ وقوله: (فوقع فيه) اغتابه وذكر شيئاً من عيوبه].

فاسْتلَبَ ابنُ جُحادَةَ الحديثَ مما بينَهُمَا، وقال: يا أبا معاويةَ، أنتَ شيخُنا وبركَتُنَا وحافظُنا، وأقربُنا إلى الإمامِ، وأمسُّنا به؛ فحدِّثنا حديثَ الشيخِ كيفَ صنعَ في رَدِّه على هشامِ بنِ عبدِ الملكِ[١]، وما كانَ بينَكَ وبينَ الشَّيْخِ في ذلك؛ فإنّ هذا مما انفردتَ أنتَ به دونَ النَّاسِ جميعاً، إذْ لم يَسْمَعهُ غيرُ أذنيك، فلم يَحْفَظْهُ غيرُك وغيرُ الملائكةِ.

فأسْفَرَ وَجْهُ أبي معاويةَ، وسُرِّيَ عنهُ، واهتزَّ عِطْفاهُ، وأقبلَ عَلَيْهِم بِعَفْوِ القادِرِ.. وأنْشأَ يحدِّثُهُم. قالَ:

إنّ هشاماً ـ قاتَلَهُ اللهُ ـ بعثَ إلى الشَّيْخِ: أنْ اكتُبْ لي مناقِبَ عثمانَ ومَساوِىءَ عليٍّ. فلما قرأَ كتابَهُ كانَتْ داجِنَةٌ[٢] إلى جانبِه، فأخذَ القِرْطاسَ[٣] وألْقمَهُ الشاةَ، فلا كَتْهُ حتى ذَهَبَ في جَوْفِهَا، ثم قالَ لرسولِ الخليفةِ: قُلْ لهُ: هذا جوابُكَ! فَخشِيَ الرسولُ أنْ يَرْجِعَ خائباً، فيقتلَهُ هشامٌ، فما زَالَ يتحمَّلُ بِنَا، فقلنا: يا أبا محمد، نجِّهِ من القتلِ. فلما ألْححنا عليه كَتَبَ: «بسم اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم. أما بعدُ يا أميرَ المؤمنين، فلو كانَتْ لعثمانَ رضي الله عنه مناقبُ أهلِ الأرْضِ ما نَفَعَتْكَ، ولو كانَتْ لعليٍّ رضي الله عنه مساوِىءُ أهلِ الأرضِ ما ضرَّتْك، فعليكَ بِخُوَيصةِ نَفْسِكَ، والسّلامُ».

فلما فَصَلَ[٤] الرسولُ، قال لي الشيخُ: إنّه كانَ في خُرَاسَانَ مُحدِّثٌ اسمه الضَّحَّاكُ بن مُزاحِم الهلاليّ، وكانَ فقيهَ مكتبٍ عظيمٍ، فيه ثلاثةُ آلافِ صبيٍّ يتعلّمون؛ فكان هذا الرجلُ إذا تَعِبَ رَكِبَ حماراً، ودارَ به في المكْتَبِ عليهم، فيكونُ إقبالُ الحِمَارِ على الصبيِّ هَمّاً، وإدبارُه عنه

---

(١) بويع هشام سنة (١٠٥) للهجرة، وتوفي سنة (١٢٥).
(٢) [الشاة التي تعلفها الناس في منازلهم].
(٣) [الصحيفة].
(٤) [خرج].

سروراً. وما أرى الشيطانَ إلاّ قد تَعِبَ في مكتبه وأعيا، فركبَ أميرَ المؤمنين. . . ليدورَ علينا نحنُ يسألُنا: ماذا حَفِظْنا مِنْ مساوىءِ عليٍّ؟!!

قلت: فلماذا ألقمتَ كتابَهُ الشاةَ؟ ولو غسلتَهُ أو أحرقتَهُ كان أفهمَ له، وكان هذا أَشْبَهَ بِكَ. فقال: وَيْحَكَ يا أبلهُ! لقد شابتْ البلاهةُ في عارِضَيْكَ؛ إنّ هشاماً سيتَقَطَّعُ منها غَيْظاً، فما يُخْفي عنه رسولُهُ أنّي أطعمتُ كتابَهُ الشاةَ، وما يُخْفِي عنه دَهَاؤه أنّ الشاةَ ستَبْعَرُه مِنْ بَعْدُ. . !

قلتُ: أفلا تَخْشَى أميرَ المؤمنينَ؟

قال: وَيْحَكَ! هذا الأَحْوَلُ عندَك أميرُ المؤمنينَ؟ أبِمَا ولدتْهُ أمُّه مِنْ عبدِ الملك؟ فَهَبْها ولدتْهُ من حائِكٍ أو حجَّامٍ! إنّ إمارةَ المؤمنين يا أبا معاويةَ، هي ارتفاعُ نفسٍ من النّفوسِ العظيمةِ إلى أثرِ النبوّةِ؛ كأنَّ القرآنَ عَرَضَ المؤمنينَ جميعاً، ثم رضي منهم رجلاً للزّمنِ الذي هو فيه، ومتى أصيبَ هذا الرجلُ القرآنيُّ، فذاك وارثُ النبيِّ في أمتِه، وخليفتُه عليها، وهو يومئذ أميرُ المؤمنين، لا مِنْ إمارة المُلْك والترَف، بل مِنْ إمارةِ الشّرعِ والتّدبيرِ والعملِ والسياسةِ.

هذا الأحولُ الذي التفَّ كدودةِ الحريرِ في الحريرِ، وأقبلَ على الخيلِ لا للجهادِ والحربِ، ولكنْ للّهو والحَلْبَة، حتى اجتمعَ له من جيّادِ الخَيْلِ أربعةُ آلافِ فرسٍ، لم يجتمعْ مثلُها لأحدٍ في جاهليةٍ ولا إسلامٍ، وعَمِلَ الخزَّ وقُطُفَ الخزِّ، واستَجَادَ الفُرشَ والكُسْوَةَ، وبالغَ في ذلك، وأنفقَ فيه النفقاتِ الواسعةِ، وأفسدَ الرجولةَ بالنعيمِ والترفِ، حتى سَلَكَ الناسُ في ذلك سُنَّتَه، فأقبلوا بأنفسِهم على لهوِ أنفسِهم، وصنعوا الخيرَ صنعةً جديدةً بِصَرْفِهِ إلى حظوظِهِم، وتركوا الشرَّ على ما هُوَ في النّاسِ، فزادوا الشرَّ، وأفسدوا الخيرَ، ولم يَعُدِ الفقراءُ والمساكينُ عندَهُم هُم الفقراءُ والمساكينُ من النّاسِ، بل بطونَهُم وشهواتِهِم. . !

ولقَدْ كانَ الرَّجُلُ من أغنياءِ المسلمينَ يقتصِدُ في حظِّ نفسِهِ ليَسعَ ببرِّهِ

مئةً أو مئتين، أو أكثر من إخوانه وذوي حاجتِهِ، فعادَ هذا الغنيُّ يتَّسِعُ لنفسِه ثم يتَّسِعُ، حتى لا يكفِيهُ أنْ يأكلَ رزق مئة أو مئتين أو أكثر!

إنّ هذا الإسلامَ يجعلُ أحسنَ المسرّاتِ أحسنَها في بَذْلِها للمحتاجينَ، لا في أخذِها والاستِئثارِ بها، فهي لا تضيعُ على صاحبها إلا لتكونَ لَهُ عندَ اللهِ، وكأنَّ الفقرَ والحاجةَ والمسكنةَ والإنفاقَ في سَبِيْلِ اللهِ ـ كأنَّ هذِه أرَضُون يُغْرَسُ فيها الذَّهَبُ والفضةُ غَرْساً لا يُؤتِي ثمرَه إلا في اليومِ الذي يَنْقَلِبُ فيه أغنى الأغنياءِ على الأرضِ، وإنّه لأفْقَرُ الناسَ إلى درهمٍ مِنْ رحمةِ اللهِ، وإلى ما دُوْنَ الدِّرْهَمِ؛ فيقالُ له حينئذٍ: خُذْ من ثمارِ عَمَلِكَ، وخُذْ مِلءَ يديْكَ!

والسلطانُ في الإسلامِ هو الشرعُ مَرْئيّاً يُتابِعهُ النّاسُ، متكلِّماً يفهمُه الناسُ، آمراً ناهياً يُطيعه الناس. ولقد رأى المسلمونَ هذا الأحولَ، وتابَعُوْهُ وسمعوا له وأطاعوا؛ فمنعوا ما في أيديهم، فانقطعَ الرِّفْدُ، وقلَّ الخَيْرُ، وشحَّتْ الأنفسُ، وأصبحَ خيرُهم خيرَهم لبطنِه وشهواتِه، وصارَ الزمانُ أشبهَ بناسِه، والنّاسُ أشبهُ بمَلِكِهم، ومَلِكُهُم في شهواتِهِ فقيرُ المؤمنين لا أميرُ المؤمنين!

إنّ هذه الإمارةَ ـ يا أبا معاويةَ ـ إنما تكونُ في قُرْبِ الشَّبَهِ بينَ النبيِّ ومن يختارُه المؤمنونَ للبَيْعة. وللنبيِّ جهتان: إحداهُما إلى ربِّه، وهذِه لا يطمَعُ أحدٌ أن يبلُغَ مَبلَغَهُ؛ والأخرى إلى النّاسِ، وهذه هي التي يُقاسُ عليها، وهي كلُّها رِفْقٌ، ورحمةٌ، وعملٌ، وتدبيرٌ، وحِيَاطةٌ، وقوةٌ، إلى غيرها، مما يقَومُ به أمرُ النّاسِ؛ وهي حقوقٌ وتَبِعَاتٌ ثقيلةٌ، تَنْصَرِفُ بصاحِبها عن حَظِّ نفسِه، وبهذا الانصرافِ تَجْذِبُ النّاسَ إلى صاحِبها. فإمارةُ المؤمنينَ هي بقاءُ مادّةِ النور النبويِّ في المصباح الذي يُضيءُ للإسلام بإمدادِه بالقَدْرِ بعد القدر هذِهِ النفوسِ المضيئة. فإنْ صَلَحَ الترابُ أو الماءُ مكانَ الزيتِ في الاستضاءة، صَلَحَ هشامٌ وأمثالُه لإمارةِ المؤمنين!

ويلٌ للمسلمينَ حينَ ينظرونَ فيجدونَ السلطانَ عليهم بينَه وبينَ النبي ﷺ مثلَ ما بينَ دِينَينِ مختلفَيْنِ، ويلٌ يومئذٍ للمسلمينَ! ويلٌ يومئذٍ للمسلمينَ!

فلما أتمَّ الضريرُ حديثَهُ قال ابن جُحادَةَ: إنّ شيخَنا على هذا الجدِّ ليَمْزَحُ، وسأحدِّثُكم غيرَ حديثِ أبي معاويةَ، فقد رأيتُ الدنيا كأنّما عَرَفَتِ الشيخَ، ووقَفَتْ على حقيقتِهِ السماويةِ، فقالَتْ لهُ: اضْحَكْ منّي، ومن أهلي، ولكنَّ وقارَه ودينَه ارتفعا به أنْ يضحَكَ بفمِهِ ضَحِكَ الجهلاءِ والفارغينَ، فضَحِك بالكلمةِ بعدَ الكلمةِ من نوادِرِه.

لقد كنتُ عندَهُ في مَرْضَتِهِ، فعاده أبو حنيفةَ صاحِبُ الرأي، وهو جبل عِلْمٍ شامخ، فطَوَّلَ القعودَ مما يُحِبُّه ويأنَسُ بِهِ، إذ كانتْ الأرواحُ لا تَعرِفُ مع أحبابِها زمناً يَطُوْلُ أو يَقْصُرُ. فلما أرادَ القيامَ قال له: ما كأنّي إلا ثَقُلْتُ عَلَيْكَ. فقال الشيخُ: إنّكَ لثقيلٌ عليَّ وأنتَ في بيتِكَ..! وضَحِكَ أبو حنيفة، كأنّه طِفْلٌ يُلاغِيهِ[1] أبوه بكلمةٍ ليسَ فيها معناها، أو أبٌ دَاعَبَه طِفْلُهُ بكلمةٍ فيها غيرُ معناها.

وجاءَهُ في الغَداةِ قومٌ يعودُوْنَهُ، فلمّا أطالوا الجلوسَ عندَه أخذَ الشيخُ وِسادتَه، وقام مُنْصَرِفاً، وقال لهم: قد شَفَى اللهُ مَرِيْضَكُم..!

فقال الضريرُ: تلكَ روْحَةٌ من هواءِ دُنْباوَنْد[2]، فإنّ أبا الشيخِ كانَ مِن تلكَ الجبالِ، وقَدِمَ إلى الكوفةِ وأمُّهُ حاملٌ؛ فوُلِدَ هنا؛ فكأنَّ في دَمِهِ ذلك النَّسِيْمَ، تَهُبُّ منه النفْحةُ بعدَ النفحةِ، في مثل هذه الكلماتِ المُتَنَسِّمَةِ؛ ثم هي رُوْحُهُ الظريفةُ الطيّبَةُ تَلْمِسُ بعضَ كلامِهِ أحياناً، كما تَلْمِسُ روحُ الشاعرِ بَعْضَ كلامِ الشَّاعِرِ؛ وما رأيتُ أدقَّ النوادِرِ الساخرةِ وأبلغَها

(١) [يناغيه].

(٢) ناحية من رستاق الريّ في الجبال الثلجية، وهي بلاد العجم.

وأعجبَها يجيءُ إلا مِنْ ذوي الأرواحِ الشاعِرَةِ الكبيرةِ البعيدَةِ الغَوْرِ، كأنّما النادِرَةُ من رؤيةِ النَّفسِ حقيقتينِ في الشيءِ الواحدِ. والإمامُ في ذلكَ لا يَسْخَرُ من أحدٍ، إلا إذا كانتْ الأرضُ حينَ تُخْرِجُ الثمَرةَ الحلوةَ تسْخَرُ بها من الثَّمَرةِ المرَّةِ.

والعجيبُ أنّ النادرةَ البارعةَ التي لا تتَّفِقُ إلا لأقوى الأرواحِ، يتفِقُ مثلُها لأضعفِ الأرواحِ؛ كأنّها تسْخَرُ مِنَ النّاسِ، كما يسخرونَ بها، فهذا أبو حَسَن مُعلِّمُ الكُتّابِ، جاءَهُ غلامانِ من صِبْيتِهِ، قد تعلَّقَ أحدُهُمَا بالآخَرِ؛ فقال: يا مُعلِّمُ، هذا عَضَّ أذني.

فقال الآخَرُ: ما عَضَضْتُها، وإنّما عَضَّ أُذُنَ نَفْسِهِ..

فقالَ المعلِّمُ: وتمكُرُ بي يا ابنَ الخبيثةِ؟ أَهُوَ جَمَلٌ طويلُ العُنُقِ حتّى ينالَ أذنَ نفسِهِ فَيَعُضَّها..!

وطَلَعَ الشيخُ عليهم، وكأنّما قرأ نَفْسَ أبي معاويةَ في وَجْهِهِ المتفتِّحِ. ومنْ عجائِبِ الحكمةِ أنّ الذي يَلْمَحُ في عيني المُبْصِرِ مِنْ خوالِجِ نَفْسِهِ، يُلْمَحُ على وجهِ الضريرِ مُكَبَّراً مجسَّماً. وكان الشيخُ لا يأنَسُ بأحدٍ أُنْسَه بأبي معاويةَ، لذكائِهِ وحِفظِهِ وضبْطِهِ، ولمُشاكلَةِ الظَّرْفِ الروحيِّ بينهما؛ فقالَ لَهُ:

ـ فِيمَ كانَ أبو معاويةَ؟.

ـ كان أبو معاويةَ في الذي كانَ فيهِ!.

ـ وما الذي كانَ فيهِ؟.

ـ هو ما تسألُ عَنْهُ!.

ـ فأَجِبْني عمّا أسألُ عنه.

ـ قد أجبتُكَ!.

ـ بماذا أجبتَ؟.

ـ بما سمعتَ!.

فقبَّضَ وجهُ الشيخُ، وقال: أهاهنا وهناك معاً؟ لو أنَّ هذا مِن امرأةٍ غضْبَى على زَوْجِهَا لكان له معنى، بل لا معنى له، ولا مِن امرأةٍ غضبَى على زوجها، أَحْسَبُ لولا أنَّ في منزلي مَنْ هو أبْغَضُ إليَّ منكم ما خرجتُ؟.

فقال الضريرُ: يا أبا محمد! كأننا زوجاتُ العِلم، فأيتُنا التي حَظِيتْ وبَظِيَتْ...

فغطَّى الجماعةُ أفواهَهُم يضحَكُونَ، وتبسَّم الشيخُ، ثم شَرَعَ يحدِّثُ، فأَفْضَى مِنْ خَبرٍ إلى خبرٍ، وتَسرَّح[1] في الرواية حتّى مرَّ بِهِ هذا الحديثُ:

عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ هلاكَ الرِّجالِ طاعَتُهُمْ لِنِسَائِهِمْ»[2].

قال الشيخُ: كان الحديثُ بهذا اللفظ، ولم يقلِ النبيُّ ﷺ: «هلاكُ الرَّجُلِ طاعتُهُ لامرأتِهِ»؛ فإنّ هذا لا يستقيمُ؛ إذْ يكونُ بعضُ النساءِ أحياناً أكملَ مِنْ بَعْضِ الرِّجالِ، وأوفرَ عَقْلاً وأسدَّ رأياً، وقد تكونُ المرأةُ هي الرجلُ في الحقيقةِ عزماً وتدبيراً وقوّةَ نفسٍ، ويَلِيَّنُ الرجلُ معها كأنّه امرأةٌ. وكثيرٌ من النّساءِ يَكُنَّ نساءً بالحِلْية والشَّكْلِ، دونَ ما وراءَهما، كأنَّما هُيِّئْنَ رجالاً في الأَصْلِ، ثم خُلِقْنَ نساءً بعدُ، لإِحْدَاثِ ما يريدُ الله أن يُحْدِثَ بِهِنَّ، مما يكونُ في مِثْلِ هذِهِ العجيبةِ، عملاً ذا حقيقتينِ في الخيرِ أو الشَّرِ.

وإنما عَمّ الحديثُ ليدلَّ على أنّ الأصلَ في هذه الدنيا أنْ تستقيمَ أمورُ التدبيرِ بالرِّجالِ؛ فإنَّ البأسَ والعقلَ يكونانِ فيهم خِلقةً وطبيعةً أكثر مما

---

(١) [أسرع].

(٢) [أخرجه أحمد والطبراني والحاكم من حديث أبي بكرة رضي الله عنه بلفظ «هلكت الرجالُ حين أطاعتِ النّساءَ» وهو حديث ضعيف كما قال في «ضعيف الجامع» رقم (٦١١٠)، وأخرج الترمذي رقم (٢٢٦٧) من حديث أبي هريرة قوله ﷺ: «إذا كانت أمراؤكم شراركم.. وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها»، وهو حديث ضعيف أيضاً].

يكونانِ في النّساءِ، كما أنّ الرِّقَةَ والرحمةَ في خِلْقَةِ النساءِ وطبيعتهنَّ أكثرُ مما هما في الرجال، فإذا غلبتْ طاعةُ النساءِ في أمةٍ من الأممِ، فتلك حياةٌ معناها هلاكُ الرّجالِ، وليس المرادُ هلاكَ أنفسِهم، بل هلاكَ ما هُمْ رجالٌ بهِ، والحديدُ حديدٌ بقوته وصلابَتِهِ، والحجرُ حجرٌ بشدّتِه واجتماعِه؛ فإن ذابَ الأولُ أو تَفلّلَ، وتَناثرَ الآخرُ أو تفتّتَ، فذاك هلاكُهُما في الحقيقةِ، وهما بعدُ لا يزالانِ من الحجرِ والحديدِ.

والمرأةُ ضعيفةٌ بفطرتِهَا وتركيبِهَا، وهي على ذلِكَ تأبَى أنْ تكونَ ضعيفةً أو تُقِرَّ بالضَّعْفِ، إلا إذا وجدتْ رجُلَها الكامِلَ، رَجُلَها الذي يكونُ معها بقوّته وعقلِهِ، وفِتْنتِه لها، وحبِّها إياه، كما يكونُ مثالٌ مع مثالٍ. ضَعْ مئةَ دينارٍ بجانبِ عشرةِ دنانيرَ، ثم اتركْ للعشرةِ أنْ تتكلَّمَ، وتَدّعِيَ، وتستطيلَ؛ قد تقولُ: إنَّها أكثرُ إشراقاً، أو أظرفُ شَكْلاً، أو أحسنُ وَضْعاً وتَصْفِيْفاً؛ ولكنّ الكلمةَ المحرَّمةَ هنا أنْ تَزْعُمَ أنها أكبرُ قيمةً في السُّوقِ. . !

قال الشيخُ: ومَن مِنَ النساءِ تُصِيْبُ رجلَها الكاملَ، أو القريبَ من كمالِهِ عندَها، أي طبيعتَه بالقياس إلى طبيعتِها، كمالِ جسمٍ مُفصَّلٍ لجسمِ تفصيلَ الثوبِ الذي يَلبَسُه ويختالُ فيه؟ أما إنّ هذا من عملِ اللهِ وحدَه؛ كما يَبسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ من عبادِه ويَقْدِرُ، يُبْسُطُ مِثْلَ ذلك للنّساءِ في رجالِهِنَّ ويَقْدِرُ.

فإذا لم تُصِبْ المرأةُ رَجُلَها القويَّ ـ وهو الأعمُّ الأغلبُ ـ لم تَسْتَطِعْ أنْ تكونَ معه في حقيقةِ ضَعْفِهَا الجميلِ، وعَمِلَتْ على أنْ يكونَ الرجلُ هو الضعيفُ، لتكونَ معه في تزويرِ القوّةِعليهِ وعلى حياتِهِ، وبهذا تَخْرُجُ مِنْ خَيْرِها؛ وما أولُ خروجُ النساءِ إلى الطرقاتِ إلا هذا المعنى؛ فإنْ كَثُرَ خروجُهُنَّ في الطريقِ، وتَسَكُّعْنَ هاهنا وهاهنا، فإنّما تِلْكَ صورةٌ من فسادِ الطبيعةِ فيهنَّ، ومن إملاقِهَا أيضاً. .

قال الشيخُ: وكأنّ في الحديثِ الشّريفِ إيماءً إلى أنَّ مِنْ بَعْضِ الحقِّ على النّساءِ أن يَنْزِلْنَ عَنْ بَعْضِ الحقِّ الذي لهنَّ إبقاءً على نظامِ الأُمةِ، وتيسيراً للحياةِ في مَجراها؛ كما يَنْزِلُ الرَّجلُ عن حقِهِ في حياتِهِ كلِّها إذا حارَبَ في سبيلِ أمتِهِ، إبقاءً عليها، وتيسيراً لحياتِهَا في مَجراها. فَصَبْرُ المرأةِ على مثلِ هذِهِ الحالةِ هو نفسُه جهادُها وحَرْبُهَا في سبيلِ الأُمةِ، ولها عليه مِن ثوابِ اللهِ مثلُ ما للرَّجُلِ يُقتَلُ أو يُجْرَحُ في جهادِهِ.

ألا وإنّ حياةَ بعضِ النّساءِ مع بعضِ الرّجالِ تكونُ أحياناً مثلَ القَتْلِ، أو مثلَ الجَرْحِ، وقد تكونُ مِثْلَ الموتِ صَبْراً على العذابِ! ولهذا قال رسولُ الله ﷺ لمُزَوَّجةٍ يسألُها عن حالِها وطاعَتِها وصبرِها مع رَجُلِها: «فأينَ أنتِ منه؟» قالت: ما آلُوه إلا ما عَجَزْتُ عنه! قال: «فكيفَ أنتِ لَهُ؟ فإنّه جَنَّتُكِ ونارُكِ»[1].

آه! آه! حتى زواجُ المرأةِ بالرّجلِ هو في معناه مُرُوْرُ المرأةِ المسكينةِ في دنيا أخرى إلى موتٍ آخر، ستُحاسَبُ عِنْدَهُ بالجنَّةِ والنّارِ، فَحِسَابُها عندَ اللهِ نوعان: ماذا صَنَعْتِ بدنياكِ ونعيمِها وبؤسِها عليكِ؛ ثم ماذا صَنَعْتِ بزوجِكِ ونعيمِه وبؤسِه فيك؟

وقد روينا أنّ امرأةً جاءَتْ النبيَّ ﷺ، فقالتْ: يا رسول الله! إنّي وافدةُ النّساءِ إليكَ؛ ثم ذكرتْ ما للرّجالِ في الجِهَادِ مِنَ الأجرِ والغَنيمةِ؛ ثم قالَتْ: فمالنا مِنْ ذلك؟

فقالَ ﷺ: «أبلِغي مَنْ لَقِيْت من النّساءِ أنّ طاعةً للزَّوْجِ، واعترافاً بحقِّه ـ يَعْدِلُ ذلك، وقليلٌ مِنْكُنَّ مَنْ يَفعَلُه!»[2].

---

(١) [قال الهيثمي في «المجمع» (٤: ٣٠٦): رواه أحمد (٤: ٣٤١) والطبراني في الكبير والأوسط والحاكم (٢: ١٨٩) وصححه ووافقه الذهبي، وهو كما قالا].

(٢) [قال الهيثمي في «المجمع» (٤: ٣٠٥): رواه البزار (١٤٧٤)، وفيه رشدين بن كريب، وهو ضعيف].

وقال الشيخُ: تأمّلوا واعجبوا من حكمةِ النبوّةِ ودقّتِها وبلاغَتِها؛ أيقالُ في المرأةِ المُحِبّةِ لزوجِهَا المفتتِنَةِ به، المعجَبة بكمالِهِ: إنّها أطاعتْهُ واعترفتْ بحقِّه؟ أوليسَ ذلك طبيعةُ الحُبِّ إذا كان حُبّاً؟ فلم يبقَ إذنْ إلا المعنى الآخرُ، حينَ لا تُصِيبُ المرأةُ رجُلَها المفضَّلَ لها، بل رجلاً يُسمَّى زوجاً؛ وهنا يَظْهَرُ كرمُ المرأةِ الكريمةِ، وهاهنا جهادُ المرأةِ وصبرُها، وهاهنا بَذْلُهَا لا أخْذُها؛ ومِنْ كُلِّ ذلك هاهنا عملُها لجنَّتِها أو نارِها.

فإذا لم يكن الرَّجلُ كامِلاً بما فيهِ للمرأةِ، فلتُبْقِهِ هي رَجُلاً بنزولها عن بعضِ حقِّها له، وتَرْكِهَا الحياةَ تجرِي في مجراها، وإيثارِها الآخرةَ على الدُّنيا، وقيامِها بفريضةِ كمالِها ورحمتِها، فيبقى الرَّجُلُ رَجلاً في عملِهِ للدُّنيا، ولا يُمْسَخُ طبعُهُ، ولا يَنْتَكِسُ بها، ولا يَذِلُّ. فإنْ هي بَذَأَتْ وتَسَلَّطَتْ وغلَبَتْ وصرَّفتْ الرَّجُلَ في يَدِها، فأكثرُ ما يَظْهَرُ حينئذٍ في أعمالِ الرّجالِ من طاعتِهِم لنسائِهِم ـ إنّما هو طَيْشُ ذلكَ العَقْلِ الصغيرِ وجُرْأتُهُ، وأحياناً وقَاحَتُهُ؛ وفي كلِّ ذلك هلاكُ معاني الرّجولةِ، وفي هلاكِ معاني الرجولةِ هلاكُ الأمةِ؟!

قال الشيخُ: والقلوبُ في الرّجالِ ليستْ حقيقةً أبداً بطبيعةِ أعمالهم في الحياةِ وأمكنتهم منها، ولكنَّ القلبَ الحقيقيَّ هو في المرأةِ، ولذا ينبغي أن يكونَ فيه السُّموُّ فوقَ كلِّ شيءٍ إلا واجبَ الرحمةِ؛ ذلك الواجِبُ الذي يتَّجِهُ إلى القويِّ فيكونُ حبّاً، ويتَّجِهُ إلى الضعيفِ فيكونُ حَناناً ورِقَّةً، ذلك الواجبُ هو اللُّطْفُ؛ ذلك اللطفُ هو الذي يُثْبِتُ أنّها امرأةٌ.

* * *

قال أبو معاويةَ: وانفضَّ المجلِسُ، ومنعني الشيخُ أن أقومَ مع النّاسِ، وصَرَفَ قائدي؛ فلما خلا وجهُه قال: يا أبا معاويةَ! قُم معي إلى الدّارِ.

قلتُ: ما شأنٌ في الدار يا أبا محمد؟

قال: إن تلك غاضبةٌ عليَّ، وقد ضاقَتْ الحالُ بيني وبينَها، وأخشى أنْ تتباعَدَ، فأريدُ أن تُصْلِحَ بيننا صُلْحاً.

قلتُ: فممَّ غَضَبُهَا؟

قال: لا تُسْأَلُ المرأةُ مِمَّ تَغضَبُ، فكثيراً ما يكونُ هذا الغَضَبُ حركةً في طِباعِهَا، كما تكونُ جالسةً وتريدُ أن تقومَ فتقومَ، وتريدُ أنْ تمشيَ فتمشيَ!

قلتُ: يا أبا محمدا هذا آخرُ أربعِ مراتٍ[1] تَغْضَبُ عليكَ غَضَبَ الطلاقِ، فما يَحْبِسُكَ عليها والنساءُ غيرُها كثيرٌ.

قال: وَيْحَكَ يا رَجُلُ! أبائعُ نساءٍ أنا، أما علمتَ أنّ الذي يُطلِّقُ امرأةً لغيرِ ضرورةٍ مُلْجِئَةٍ، هو كالّذي يبيعُها لمن لا يدري كيفَ يكونُ معها، وكيفَ تكونُ معه؟ إنَّ عُمْرَ الزوجةِ لو كان رقبةً، وضُرِبَتْ بسيفٍ قاطعٍ لكانَ هذا السيفُ هو الطلاقُ!

وهل تَعِيشُ المطلَّقَةُ إلا في أيامٍ مَيْتَةٍ؟ وهل قاتِلُ أيامِهَا إلا مُطَلِّقُها؟

قال أبو معاويةَ: وقُمْنا إلى الدّارِ، واستأذنتُ ودَخَلْتُ على تِلْكَ.

قال أبو مُعاويةَ الضريرُ: وكنتُ في الطَّرِيقِ إلى دارِ الشَّيْخِ، أُرَوِّيءُ[2] في الأمر، وأَمْتَحِنُ مذاهبَ الرأيِّ، وأقلِّبُها على وجوهِها، وأنظرُ كيفَ أحتالُ في تأليفِ ما تَنافَرَ مِنَ الشَّيخِ وزوجتِه؛ فإنّ الذي يسفُرُ بينَ رَجُلٍ وامرأتِهِ إنما يمشي بفكرِه بين قلبينِ، فهو مُطْفِيءُ نائِرَةٍ[3] أو مُسْعِرُها، إذ لا يَضَعُ بين القلبينِ إلا حُمْقَهُ أو كِياسَتَهُ، وهو لنْ يردَّ المرأةَ إلى الرأيِ إلا إذا طافَ على وجهِهَا بالضَّحِكِ، وعلى قَلْبِهَا بالخَجَل، وعلى نفسِها

(١) هذا هو التعبيرُ الصحيحُ لمثلِ قولِ النّاسِ هذِه رابعُ مرةٍ.
(٢) [أنظر فيه ولا أتعجل].
(٣) النائرة: الغضب.

بالرِّقَّة، وكان حكيماً في كلِّ ذلك؛ فإنَّ عقلَ المرأةِ مع الرَّجُلِ عَقْلٌ بعيدٌ، يجيءُ من وراءِ نفسِها، من وراءِ قلبِها.

* * *

وجعلتُ أنظرُ ما الذي يُفسِدُ مَحلَّ الشيخِ من زوجتِه، ومثَّلتُ بينَه وبينَها، فما أخرجَ لي التفكيرُ، إلا أنّ حُسْنَ خُلُقِه معها دائماً هو الذي يَسْتَدْعي منها سُوْءَ الخُلقِ أحياناً؛ فإنّ الشَّيْخَ كما وردَ في وَصْفِ المُؤْمِنِ: «هَيِّنٌ لَيِّنٌ كالجَمَلِ الأَنُفِ[1]، إنْ قِيْدَ انقادَ، وإنْ أُنيخَ على صَخْرَةٍ استَنَاخَ»، والمرأةُ لا تكونُ امرأةً حتى تَطْلُبَ في الرَّجُلِ أشياءَ: مِنْهَا أنْ تُحِبَّهُ بأسبابٍ كثيرةٍ مِنْ أسبابِ الحُبِّ؛ ومنها أنْ تَخَافَهُ بأسبابٍ يسيرةٍ مِنْ أسبابِ الخوفِ. فإذا هي أحبَّتْهُ الحبَّ كلَّه، ولم تخَفْ منه شَيْئاً، وطال سكونُه وسكونُها، نَفَرَتْ طبيعتُها نفرةً كأنّها تُنَخِّيه[2] وتُذَمِّرُه، ليكونَ معها رجلاً، فَيُخِيفَها الخوفَ الذي تَسْتَكْمِلُ به لذةَ حُبِّها، إذ كان ضعفُها يُحِبُّ فيما يحبُّه من الرَّجُلِ أنْ يقْسُوَ عليهِ الرَّجُلُ في الوقتِ بعد الوقتِ، لا ليؤْذِيَهُ، ولكن لِيُخْضِعَهُ؛ والآمرُ الذي لا يُخَافُ إذا عُصِيَ أمرُه، هو الذي لا يُعْبأُ بهِ إذا أُطِيْعَ أمرُه.

وكأنَّ المرأةَ تَحْتَاجُ طبيعتُها أحياناً إلى مَصَائِبَ خفيفةٍ، تؤذي برِقَّةٍ، أو تَمُرُّ بالأذى مِنْ غَيْرِ أنْ تلمسَها بهِ، لتتحرَّكَ في طبيعتِها معاني دموعِها مِنْ

(١) أي المأنوف ويسميه العامة (المخزوم) وهو الذي عُقِرَ أنفُه بالخشاشِ، فيقادُ منه، فيكونُ ذلولاً سمحاً. [وهو حديث صحيح أخرجه ابن المبارك عن مكحول مرسلاً، والبيهقي عن ابن عمر مرفوعاً، ولفظه: «المؤمنون هيّنون ليّنون كالجمل الأنف. . إلخ» انظر «الأحاديث الصحيحة» رقم (٩٣٢)].

(٢) [تستثير نخوته].

غيرِ دموعِها؛ فإنْ طالَ ركودُ هذِه الطبيعةِ، أوجدتْ هي لنفسِها مصائِبَها الخفيفةَ، فكانَ الزوجُ إحداها. .

وهذا كلُّه غيرُ الجُرْأةِ أو البَذَاءِ فيمَنْ يُبغضْنَ أزواجَهنَّ، فإنَّ المرأةَ إذا فَرَكَتْ[1] زوْجَهَا لمنافَرةِ الطبيعةِ بينها وبينَهُ، ماتَ ضَعْفُها الأُنْثَوِيُّ الذي يتمُّ به جمالُها واستمتاعُها والاستمتاعُ بها، وتعقَّدَ بذلك لينُها، أو تصلَّبَ، أو استَحْجَرَ، فتكونُ مع الرَّجُلِ بخلافِ طبيعتِها، فينقَلِبُ سُكْرُها النِّسائيُّ بأنوثتها الجميلةِ عربدةً وخِلافاً، وشرّاً وصَخَباً، ويَخْرُجُ كلامُها للرَّجُلِ وهو مِن البُغْضِ كأنّه في صوتينِ لا في صوتٍ واحدٍ. ولعلّ هذا هو الذي أحسَّه الشاعرُ العربيُّ بفطرتِهِ ـ من تلكَ المرأةِ الصخَّابةِ الشديدةِ الصوتِ، الباديةِ الغيظِ، فضاعفَ لها في تركيبِ اللفظِ حين وصفَها بقوله:

صُلُبَّةُ الصَّيْحَةِ صَهْصَلِيقُها[2]

قال أبو معاويةَ: واستأذنتُ على تلكَ، ودخلتُ بعدَ أنْ استوثقتُ أنَّ عندَها بعضَ مَحارِمِها؛ فقلتُ: أنعمَ اللهُ مساءَكِ يا أمَّ محمَّدٍ. قالتْ: وأنتَ، فأنعمَ اللهُ مساءَك.

فأصغيتُ للصوتِ، فإذا هو كالنّائمِ قد انتبَه يَتَمَطَّى في استرخاءٍ، وكأنَّها تَقْبَلُنِي بهِ وتردُّني معاً، لا هو خالِصٌ للغضَبِ، ولا هو خالصٌ للرضى.

فقلتُ: يا أمَّ محمدٍ! إني جائعٌ لم أَلِمَّ اليومَ بمنزلي. فقامَتْ، فقرَّبتْ ما حضَرَ؛ وقالت: مَعْذِرَةً يا أبا معاويةَ، فإنّما هو جُهْدُ المُقِلِّ، وليسَ

(١) [أبغضته].

(٢) هذا من عجائب اللغة العربية، إذا زاد المعنى زادوا له في اللفظ. ورواية «لسان العرب»: «(شديدة) الصيحة» وليست بشيء، فليصحّحُها من يقتني «اللسانَ» من القراء [والبيت للعيكم الكِنْدي].

يَغْدُوْ إمساكَ الرَّمَق. فقلتُ: إنّ الجَوْعانَ غيرُ الشَّهوانِ؛ والمؤمنُ يأكُلُ في مِعًى واحدٍ[١] ولم يَخْلُقْ اللهُ قَمْحاً للملوكِ، وقَمْحاً غيرَه للفقراءِ.

ثم سمَّيْتُ ومَدَدْتُ يدي أتحسَّسُ ما على الطَّبَقِ، فإذا كِسَرٌ من الخُبْزِ، معها شيءٌ من الجزَرِ المسلوقِ، فيهِ قليلٌ من الخلِّ والزّيتِ؛ فقلتُ في نفسِي: هذا بَعْضُ أسبابِ الشَّرِّ؛ وما كان بي الجُوْعُ ولا سَدُّهُ، غيرَ أني أَرَدْتُ أنْ أعرِفَ حاضِرَ الرِّزْقِ في دارِ الشَّيخِ، فإنَّ مَثَلَ هذهِ القِلَّةِ في طعامِ الرَّجُلِ هي عندَ المرأةِ قِلَّةٌ مِنَ الرَّجُلِ نفسِه؛ وكلُّ ما تَفْقِدُهُ من حاجاتِها وشهوَاتِ نفسِها، فهو عندَها فَقرٌ بِمَعْنَيَيْنِ: أحدُهُما من الأشياءِ، والآخرُ مِنَ الرَّجُلِ: كلَّما أكثرَ الرجلُ من إتحافِهَا كثُرَ عندَها، وإنْ أقلَّ قَلَّ. وإنّما خُلِقَتْ المرأةُ بَطْناً يَلِدُ، فبطنُها هُوَ أكبرُ حقيقتها، وهذِهِ غايتُها، وغايةُ الحكمةِ فيها؛ لا جَرَمَ كانَ لها في عقلِها مَعِدَةٌ معنويةٌ؛ وليسَ حبُّها للحِلي والثيابِ والزينةِ والمالِ، وطِمَاحُها إليها، واستهلاكُها في الحِرْصِ والاستشرافِ لها ـ إلا مَظْهَراً مِنْ حِكَمِ البطنِ وسُلطانِه؛ فذلك كلُّه إذا حقَّقتَه في الرَّجُلِ لم تَجِدْهُ عندَه إلا مِنْ أسبابِ القوةِ والسُّلطةِ، وكان فَقْدُهُ من ذرائعِ الضعفِ والقِلَّة؛ فإذا حققتَه في المرأةِ ألفيتَهُ عندَها من معاني الشِّبَعِ والبَطَرِ، وكان فقدُهُ عندَها كأنّه فنٌّ من الجُوْعِ، وكانَتْ شهوتُها له كالقَرَمِ[٢] إلى اللحمِ عند من حُرِمَ اللَّحْمَ؛ وهذا بعضُ الفَرْقِ بين الرّجالِ والنساءِ؛ فلن يكونَ عقلُ المرأةِ كَعَقْلِ الرَّجُلِ لمكانِ الزيادةِ في معانيها

(١) في بعض الأثر: المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء. وهذا الحديث رمز عجيب لبهيمية من لا يرى الدنيا إلا الدنيا فقط.
[وهو حديث صحيح أخرجه البخاري في الأطعمة باب المؤمن يأكل في معي واحد رقم (٥٣٩٣) ومسلم في الأشربة رقم (٢٠٦٠) من حديث ابن عمر مرفوعاً].

(٢) [الشهوة].

البطنيّة، فحُسِبَتْ لها الزيادةُ هاهُنا بالنقص هناك؛ فهنّ ناقصاتُ عقلٍ ودينٍ كما ورد في الحديث[١]: أما نقصُ العقل فهذِه علتُه؛ وأما الدِّينُ فَلِغَلَبَةِ تلك المعاني على طبيعتِها، كما تَغْلِبُ على عقلِها؛ فليسَ نَقْصُ الدِّينِ في المرأةِ نَقْصاً في اليقينِ أو الإيمانِ، فإنّها في هذينِ أقوى من الرَّجُلِ؛ وإنّما ذاك هو النقصُ في المعاني الشديدةِ التي لا يَكْمُلُ الدِّينُ إلا بها؛ معاني الجُوْعِ من نعيمِ الدنيا وزينتِها، وامتدادِ العينِ إليها، واستشرافِ النّفْسِ لها؛ فَإِنَّ المرأةَ في هذا أقلُّ مِنَ الرَّجُلِ؛ وهي لهذهِ العلةِ ما بَرِحَتْ تُؤْثِرُ دائماً جمالَ الظاهرِ وزينَتَهُ في الرِّجالِ والأشياءِ، دونَ النَّظَرِ إلى ما وراءَ ذلك من حقيقةِ المنفعةِ.

قال أبو معاويةَ: وأَرَيْتُهَا أني جائعٌ، فَنَهَشْتُ نَهْشَ الأعرابيِّ، كيلا تَفْطَنَ إلى ما أردتُ مِنْ زَغْمِ الجُوْعِ؛ ثم أحببتُ أن أَسْتَدْعِيَ كلامَها، وأَسْتَمِيْلَهَا لأن تَضْحَكَ وتُسَرَّ، فأغيِّرَ بذلك ما في نفسها، فيجدُ كلامي إلى نفسِها مذهباً؛ فقلتُ: يا أمَّ محمدٍ، قد تحرَّمتُ بطعامِكِ، ووَجَبَ حقي عليكِ، فأشيري عليَّ برأيكِ فيما أَسْتَصْلِحُ به زوجتي، فإنّها غاضبةٌ عليَّ، وهي تقولُ لي: واللهِ ما يُقِيْمُ الفأرُ في بيتِكَ إلا لِحُبِّ الوطنِ.. وإلا فهو يَسْتَرْزِقُ من بيوتِ الجيرانِ.

قالتْ: وقد أعْدَمْتَ حتّى من كِسَرِ الخبزِ والجزَرِ المسلوقِ؟ اللهَ منكَ! لقد استأصَلْتَها من جذورِها؛ إنّ في أمراضِ النّساءِ الحُمَّى التي اسمها

---

(١) [أخرجه البخاري في الحيض رقم (٣٠٤) ومسلم في الإيمان رقم (٧٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ولفظه: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن» قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل» قلن: بلى، قال: «فذلك نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم» قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصان دينها»].

الحُمَّى، والحُمَّى التي اسمُها الزَّوجُ..

فقلتُ: الله اللهَ يا أمَّ محمد! لقد أيسَرْتِ بعدَنا، حتى كأنَّ الخبزَ والجزرَ المسلوقَ شيءٌ قليلٌ عندَكِ من فَرْط ما يَتَيسَّرُ؛ أو ما علمتِ أنَّ رِزْقَ الصالحينَ كالصالحينَ أنفسِهم، يصومُ عَنْ أصحابِهِ اليومَ واليومينِ.. وكأنَّكِ سمعتِ شيئاً من أخبارِ أمهاتِ المؤمنين، أزواجِ رسولِ الله ﷺ ونساءِ أصحابِهِ رضوانُ الله عليهم؛ فما خَيْرُ امرأةٍ مسلمةٍ لا تكونُ بِأَدَبِهَا وخُلُقِهَا الإسلاميِّ كأنّها بِنْتُ إِحْدَى أمهاتِ المؤمنين؟

أفرأيتِ لو كُنْتِ فاطمةَ بنتَ محمد ﷺ؛ أفكان ينقُلكِ هذا إلى أحسنَ مما أنتِ فيه من العَيْشِ؛ وهل كانتْ فاطمةُ بنتَ مَلِكٍ تعيشُ في أحلامِ نفسِها، أو بنتَ نبيٍّ تعيشُ في حقائقِ نفسِها العظيمةِ؟

تقولينَ: إنني استأصلتُ أمَّ معاويةَ مِنْ جُذورِها؛ فما أمُّ معاويةَ وما جذورُها؟ أهي خيرٌ من أسماء بنتِ أبي بكرٍ صاحبِ رسولِ الله ﷺ، وقد قالتْ عن زوجِهَا البطلِ العظيمِ(١): تزوّجني ومالَه في الأرضِ مِنْ مالٍ ولا مملوكٍ، ولا شيءَ غيرَ فرَسِه وناضِحهِ(٢)، فكنتُ أعْلِفُ فرَسَه، وأكفيه مؤنتَه، وأسُوسُه، وأدقُّ النَّوى لناضِحِه، وأعلِفُهُ، واستقي الماء، وأخْرِزُ غَرْبَه(٣)، وأعجِنُ؛ وكنتُ أَنْقُلُ النوى على رأسي من ثلث فرسخٍ، حتّى أرسلَ إليَّ أبو بكر بجاريةٍ، فكفتني سياسةَ الفرسِ، فكأنما أعتقني.

هكذا ينبغي لنساءِ المسلمينَ في الصَّبْرِ والإباءِ والقوةِ، والكبرياءِ بالنَّفْس على الحياةِ كائنةً ما كانتْ، والرضا والقناعة، ومؤازرةِ الزوجِ وطاعتهِ، واعتبارِ مالَهُنَّ عندَ اللهِ لا مالَهنَّ عندَ الرَّجُلِ، وبذلك يَرْتَفِعْنَ على

---

(١) [الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ وأحد العشرة المبشرين بالجنة].
(٢) النواضح: الإبل يُستقى عليها، واحدُها ناضحٌ، وسائِقُها النضّاحُ.
(٣) الغرب: الدلو العظيمة تُتَّخَذُ من جِلْدِ الثَّوْرِ.

نساءِ الملوكِ في أنفسِهنَّ، وتكونُ المرأةُ منهنَّ وما في دارِها شيءٌ، وعندَها أنّ في دارِها الجنةُ. وهل الإسلامُ إلاّ هذِه الروحُ السماويةُ التي لا تهزِمُها الأرضُ أبداً، ولا تُذِلُّها أبداً، ما دام يأسُها وطمعُها معلَّقَيْنِ بأعمالِ النفسِ في الدُّنيا، لا بشهواتِ الجسمِ من الدُّنيا؟

هل الرَّجُلُ المسلمُ الصحيحُ الإسلامِ، إلا مِثْلُ الحربِ، يثورُ حولَها غبارُها، ويكونُ معَهَا الشظَفُ والبأسُ والقوةُ والاحتمالُ والصَّبرُ، إذ كان مفروضاً على المسلمِ أن يكونَ القوةَ الإنسانيةَ لا الضعفَ، وأن يكونَ اليقينَ الإنسانيَّ لا الشكَّ، وأن يكونَ الحقَّ في هذِهِ الحياةِ لا الباطلَ؟

وهل امرأةُ المسلمِ إلا تلكَ المفروضُ عليها أنْ تُمِدَّ هذِهِ الحربَ بأبطالِها، وعَتَادِ أبطالِها، وأخلاقِ أبطالِها؛ ثم ألا تكونَ دائماً إلا مِنْ وراءِ أبطالِها؟ وكيفَ تَلِدُ البطلَ إذا كانَ في أخلاقِهَا الضعةُ والمطامعُ الذليلةُ، والضَّجَرُ والكسلُ والبلادَةُ؟ ألا إنّ المرأةَ كالدارِ المبنيّةِ، لا يَسْهُلُ تغييرُ حدودِها إلا إذا كانت خَراباً.

فاعترَضَتْهُ امرأةُ الشَّيْخِ، وقالتْ: وهل بأسٌ بالدّارِ إذا وُسِّعَتْ حدودُها من ضِيْقٍ؟ أتكونُ الدّارُ في هذا إلى نَقْصِها أو تمامِها؟

قال أبو معاويةَ: فَكِدْتُ أنقطِعُ في يدِها، وأحببتُ أن أمْضِيَ في استمالتِها، فتركتُها هُنَيْهَةً ظافرةً بي، وأريتُها أنّها شدَّتني وَثاقاً، وأطرقتُ كالمفكِّرِ؛ ثُمّ قلتُ لها: إنّما أحدِثُكِ عن أمِّ معاويةَ لأبي معاوية؛ وتلك دارٌ لا تَمْلِكُ غيرَ أحجارِها وأرضِها فبأيِّ شيءٍ تَتَّسِعُ؟

زعموا أنّه كان رجلٌ عامِلٌ يَمْلِكُ دُوَيرةً قد التصقتْ بها مساكِنُ جيرانِهِ، وكانَتْ له زوجةٌ حمقاءُ، ما تزالُ ضيّقةَ النَّفْسِ بالدّارِ وصِغَرِها، كأنَّ في البناءِ بناءً حولَ قلبها. وكانا فقيرينِ، كأمِّ معاويةَ وأبي معاويةَ؛ فقالتْ له يوماً: أيّها الرجلُ! ألا توسِّعُ دارَك هذِهِ، لِيَعْلَمَ النّاسُ أنكَ أيْسَرْتَ، وذهبَ عنك الضرُّ والفقرُ؟

قال: فبماذا أُوسِّعُها وما أملكُ شيئاً، أأُمْسِكُ بيميني حائطاً، وبشمالي حائطاً، فأمدُّهُما أباعِدُ بينهُما...؟ وهبيني ملكتُ التَّوسِعَة ونفقتَها، فكيفَ لي بدورِ الجِيْرانِ، وهي ملاصِقةٌ لنا بيْتٌ بيت؟

قالت الحمقاءُ: فإننا لا نريدُ إلا أنْ يَتعَالَمَ النّاسُ أننا أيْسَرْنا؛ فاهدمْ أنتَ الدارَ، فإنّهم سيقولونَ: لولا أنّهم وَجَدُوْا واتّسَعُوْا وأصبحَ المالُ في يدِهِم لما هَدَمُوْا....!

قال أبو معاويةُ: وغاظَتْنِي زوجةُ الشَّيْخِ، فلم أسمعْ لها هَمْسةً من الضَّحِكِ لِمَثَلِ الحَمْقاءِ، وما اخترعْتُه إلا مِنْ أجلِهَا تريدُ أنْ يذهبَ عملي باطلاً؛ فقلتُ: وهل تتَّسِعُ أمُّ معاويةَ من فقرِها إلا كما اتّسعَ ذلك الأعرابِيِّ في صلاحِهِ؟

قالتْ: وما خبرُ الأعرابي؟

قلتُ: دخلَ علينا المسجدَ يوماً أعرابيٌّ جاءَ مِنَ الباديةِ، وقامَ يصلّي فأطالَ القيام، والنّاسُ يرمقونَهُ، ثم جعلوا يتعجَّبونَ منه، ثم رفعوا أصواتَهُم يمدحونَهُ، ويصفونَهُ بالصّلاحِ؛ فَقَطَعَ الأعرابيُّ صلاتَهِ، وقالَ لهم: مع هذا إني صائمٌ....

قال أبو معاوية: فما تمالَكَتْ أنْ ضَحِكَتْ، وسمعتُ صوتَ نفسِها، وميَّزْتُ فيه الرضى مقبِلاً على الصُّلْحِ الذي أتسَببُ له. ثم قلتُ:

وإذا ضاقتْ الدارُ فلمَ لا تتَّسِعُ النَّفْسُ التي فيها؟

المرأةُ وحدَها هي الجوُ الإنسانيُّ لدَارِ زوجها، فواحدةٌ تدخلُ الدَّارَ، فتجعلُ فيهاالروضةَ ناضرةً مُتَرَوِّحةً باسمةً، وإنْ كانَتْ الدَّارُ قَحْطَةً مَسْحُوْتَةً[١] ليسَ فيها كبيرُ شيءٍ.

---

(١) [مستأصلة].

وامرأةٌ تدخُلُ الدَّارُ فتجعلُ فيهامثلَ الصحراءِ برمالِها وقَيْظِها وعواصِفِهَا، وإن كانتْ الدَّار في رياشِها ومَتَاعِها كالجَّنةِ السُندسيَّةِ.

وواحدةٌ تجعلُ الدارَ هي القبرَ.

والمرأةُ حقُّ المرأةِ هي التي تترك قلبَها في جميعِ أحوالِه على طبيعتِهِ الإنسانيةِ، فلا تجعَلُ هذا القلبَ لزوجِها من جِنْسِ ما هِيَ فيهِ من عِيْشَةٍ: مرةً ذهباً، ومرةً فضةً، ومرةً نُحاساً، أو خَشَباً، أو تراباً، فإنّما تكُونُ المرأةُ مع رَجُلِهَا مِنْ أجْلِهِ، ومِنْ أجْلِ الأُمةِ معاً؛ فعليها حقّان لاحَقٌّ واحدٌ، أصغرهما كبيرٌ، ومن ثَمَّ فقد وجبَ عليها إذا تزوجتْ أن تَسْتَشعِرَ الذاتَ الكبيرةَ مع ذاتِها، فإنْ أغضبَها الرَّجُلُ بهفوةٍ منه، تجافَتْ له عنها، وصَفَحتْ من أجلِ نظامِ الجماعةِ الكُبرى؛ وعليها أن تَحْكُمَ حينئذٍ بطبيعةِ الأُمةِ لا بطبيعةِ نفسِها، وهي طبيعةٌ تأبى التفرُّقَ والانفرادَ، وتقومُ على الواجبِ، وتُضَاعِفُ هذا الواجبَ على المرأةِ بخاصةٍ.

والإسلامُ يَضَعُ الأُمةَ ممثَلَةً في النَّسْلِ بَيْنَ كلِّ رجلٍ وامرأتِهِ، ويوجِبُ هذا المعنى إيجاباً، ليكونَ في الرَّجلِ وامرأتِهِ شيْءٌ غيرُ الذكورةِ والأنوثةِ، ويجمَعُهما، ويقيِّدُ أحدَهما بالآخر، ويضعُ في بَهِيْمِيتِهِمَا التي من طبيعَتِها أن تتفقَ وتَخْتَلِفَ، إنسانيةً من طبيعتِها أن تتفقَ ولا تختلفَ.

ومتى كان الدِّينُ بينَ كلِّ زوجٍ وزوجتِهِ، فمهما اختلفا وتَدَابَرا، وتعقَّدتْ نفساهما، فإنّ كلَّ عُقْدَةٍ لاَ تَجِيْءُ إلا ومعها طريقةُ حَلِّها، ولن يُشادَّ الدِّيْنَ أحدٌ إلا غَلَبهُ، وهو اليُسْرُ والمُسَاهَلَةُ، والرَّحْمَةُ والمغفرةُ، ولينُ القَلْبِ، وخَشْيةُ اللهِ؛ وهو العهدُ والوفاءُ والكرمُ، والمؤاخاةُ، والإنسانيةُ؛ وهو اتساعُ الذّات وارتفاعُها فوقَ كلِّ ما تكونُ به منحطَّةً أو ضَيِّقَةً.

قال أبو معاويةَ: فحَقُّ الرَّجُلِ المسلمِ على امرأتِه المسلمَةِ، هو حقٌّ من

اللهِ، ثم من الأُمةِ، ثم مِنْ الرَّجُل نفسِه، ثُمَّ مِنْ لُطْفِ المرأةِ وكرمِهَا، ثم ممابينَهُما معاً. وليس عجيباًبعدَ هذا ما روينا عن النبيِّ ﷺ: «لو كنتُ آمراً أحداً أن يَسْجُدَ لأحدٍ، لأمرتُ النساءَ أنْ يَسْجُدْنَ لأزواجِهِنَّ، لِما جَعَلَ اللهُ لهم عليهنَّ مِنَ الحقِّ»[1].

وهذه عائشةُ أمُّ المؤمنين قالت: يا معشرَ النّساءِ! لو تَعْلَمْنَ بحقِّ أزواجِكُنَّ عليكُنَّ، لجعلتْ المرأةُ مِنْكُنَّ تَمْسَحُ الغبارَ عن قَدَمي زَوْجِهَا بِحُرِّ وَجْهِهَا[2].

قال أبو معاويةَ: وكانَ الشَّيْخُ قد استبطأني، وقد تركتُه في فناءِ الدّارِ، وكنتُ زوّرتُ في نفسي كلاماً طويلاً عن فَرْوَتِهِ الحقيرةِ التي يلبَسُها، فيكونُ فيها مِنْ بَذَاذَةِ الهيئةِ كالأجيرِ الذي لم يَجِدْ مَنْ يَسْتَأْجِرُهُ، فظهر الجُوْعُ حتى على ثيابِهِ... وقد مرَّ بالشَّيْخِ رَجُلٌ من المُسَوِّدة[3] وكانَ الشيخُ في فروتِهِ هذه جالساً في موضعٍ فيه خليجٌ مِنَ المطرِ، فجاءَه المسوِّد فقال: قم فاعْبُرْبي هذا الخليجَ. وجذبَهُ بيدِه، فأقامَهُ وركبَه، والشيخُ يَضْحَكُ.

وكنتُ أريدُ أنْ أقولَ لأمِّ محمدٍ: إنَّ الصَّحْوَ في السماءِ لا يكونُ فقراً في السماءِ، وإنَّ فروةَ الشيخِ تَعْرِفُ الشيخَ . أكثرَ من زوجتِهِ، وإنَّ المؤمنَ

---

(١) [أخرجه الترمذي رقم (١١٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال: حديث حسن صحيح، وأخرج نحوه الحاكم من حديث معاذ وصححه ووافقه الذهبي، انظر «الترغيب» للمنذري الأحاديث (٢٨٩٣) و(٢٨٩٤) و(٢٨٩٥) و(٢٨٩٦) و(٢٨٩٧) و(٢٨٩٨)].

(٢) [انظر بهذا المعنى «الترغيب» للمنذري الأحاديث رقم (٢٨٩١) و(٢٨٩٢) و(٢٨٩٣)].

(٣) الذين يلبَسُونَ السواد، وهم شيعة العباسيين.

في لذّاتِ الدُّنيا، كالرَّجُلِ الذي يضعُ قدمَيْهِ في الطِّينِ ليمشي، أكبرُ هَمِّهِ ألا يجاوزَ الطينُ قدمَيْهِ.

ولكنَّ صوتَ الشَّيْخِ ارتفعَ: هلْ عليكم إذْنٌ؟

قال أبو معاويةَ: فبَدرت، وقلت: بسم اللهِ ادخلْ؛ كأني أنا الزوجةُ.... وسمعتُ هَمْساً من الضَّحِكِ؛ ودخلَ أبو محمد، فجلسَ إلى جانبي، وغمزني في ظهري غمزةً؛ فقلتُ: يا أمَّ محمدٍ، إنّ شيخَكِ في ورَعِهِ، وزُهْدِهِ لَيُشْبِهُهُ ما يُشْبِعُ الهُدهُدَ، ويَرْوِيهِ ما يَرْوِي العُصْفُورَ، ولئن كان مُتَهَدِّماً فإنّه جَبَلُ عِلْمٍ، «ولا تَنْظُرِي إلى عَمَشِ عينيهِ، وحُمُوشَةِ ساقيهِ، فإنّه إمامٌ وله قَدَرٌ»[١]

فصاحَ الشيخُ: قُمْ أخزاكَ اللهُ، ما أردتَ إلا أنْ تعرِّفَها عيوبي!

قال أبو معاويةَ: ولكنّي لم أَقُمْ، بل قامتْ زوجةُ الشيخِ فقبلتْ يَدَهُ[٢].

* * *

---

(١) ما بين القوسين هو الوارد في التاريخ، وعليه بنينا هذه القصة.

(٢) [نُشرت في «الرسالة» السنة الثالثة (١٩٣٥) العددان (٨٥ ـ ٨٦)].

قبح جميل

دخل أحمدُ بنُ أيمنَ كاتبُ ابن طولون البصرةَ، فصَنَعَ له مُسْلِمُ بنُ عِمْرانَ التاجرُ المتأدِّبُ صنيعاً، دعا إليه جماعةً من وجوهِ التّجّارِ وأعيانِ الأدباءِ، فجاءَ ابناصاحِبِ الدعوةِ، وهما غلامان، فوقفا بين يَدي أبيهما، وجعلَ ابنُ أيمنَ يُطِيلُ النظرَ إليهِمَا، ويُعْجَبُ من حُسْنِهِمَا، وبِزَّتِهما ورُوائِهِمَا[1]، حتى كأنَّما أُفْرِغا[2] في الجَمَالِ وزينتِهِ إفراغاً، أو كأنَّما جاءا من شمْسٍ وقمرٍ، لا مِنْ أبوينِ من النّاسِ، أو هما نبتا في مثل تَهاويل[3] الزّهْرِ من زينتِهِ، التي تُبْدِعُها الشَّمسُ، ويَصْقُلُها الفَجْرُ، ويتندَّى بها رُوْحُ الماءِ العذبِ؛ وكانَ لا يَصْرِفُ نظرَهُ عنهما إلا رَجَعَ بهِ النظرُ، كأنَّ جمالَهُما لا ينتهي، فما ينتهي الإعجابُ بهِ.

وجعلَ أبوهُما يُسارِقُه النظرَ مُسارَقةً، ويبدو كالمُتَشَاغِلِ عَنْهُ، لِيَدَعَ لَهُ أنْ يَتوسَّمَ ويتأمَّلَ ما شاءَ، وأنْ يملأَ عَيْنَيْهِ ممّا أَعْجَبَهُ من لؤلؤتَيْه ومَخَايلهما؛ بَيْدَ أنَّ الحُسنَ الفاتنَ أبى دائماً إلا أن يسمعَ من ناظرِه كلمةَ الإعجابِ بهِ، حتى ليَنطقَ المرءُ بهذِه الكلمةِ أحياناً، وكأنها مأخوذةٌ من

---

(١) [منظرهما].

(٢) [صُبّا].

(٣) [ألوانه المختلفة من الأصفر والأحمر].

لسانِهِ أخذاً، وحتّى لَيُحَسَّ أنَّ غَرِيْزَةً في دَاخِلِهِ كَلَّمَهَا الحُسْنُ من كلامِهِ فردَّتْ عليهِ مِنْ كلامِها.

قال ابنُ أَيْمَنَ: سبحانَ اللهِ ما رأيتُ كاليومِ قَطُّ دُمْيَتَيْنِ لا تُفْتَحُ الأعينُ على أجملَ مِنْهُما؛ ولو نزلا من السّماءِ، وألبستْهُمَا الملائكةُ ثياباً من الجنّةِ، ما حسبتُ أنْ تَصْنَعَ الملائكةُ أَظْرَفَ ولا أَحْسَنَ مما صَنَعَتْ أمُّهُما.

فالتفتَ إليه مُسْلِمٌ وقال: أُحِبُّ أنْ تُعَوِّذَهُمَا. فمدَّ الرجلُ يدَهُ ومَسَحَ عَلَيْهِما، وعَوَّذَهُمَا بالحديثِ المأثور، ودعالَهُما، ثم قالَ: ما أراكَ إلا اسْتَجَدْتَ الأمَّ فَحَسُنَ نَسْلُكَ، وجاءَ كاللؤلُؤِ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضاً، صِغَارُه من كبارِهِ؛ وما عليكَ ألا تكونَ قد تزوجتَ ابنةَ قَيْصَرَ، فأولدتَها هذَيْنِ، وأَخْرَجَتْهُما هي لكَ في صِيْغَتِهَا الملوكية[1] مِنَ الحُسْنِ والأَدَبِ والرَّوْنَقِ، وما أرى مِثْلَهُمَا يكونان في مَوْضِعٍ إلا كانَ حَوْلَهُمَا جَلالُ المُلْكِ ووقارُه، مما يكونُ حَوْلَهُمَا مِنْ نُوْرِ تلكِ الأمِّ.

فقال مُسْلِمٌ: وأنتَ على ذلك غيرُ مُصَدِّقٍ، إذا قلتُ لك إنّي لا أُحبُّ المرأةَ الجميلةَ التي تَصِفُ، وليسَ بي هوًى إلا في امرأةٍ دميمةٍ، هي بدمامتِهَا أَحَبُّ النّساءِ إليَّ، وأخفُّهنَّ على قلبي، وأصلحُهنَّ لي، ما أعدِلُ بها ابنةَ قَيْصَر، ولا ابنةَ كِسْرَى.

فبقيَ ابنُ أيمنَ كالمشدوهِ من غرابةِ ما يسمَعُ، ثم ذكرَ أنَّ مِنَ النّاسِ من يأكلُ الطينَ ويستطيبُه لفسادٍ في طبعهِ، فلا يحلو السُّكَّرُ في فمِهِ، وإنْ كانَ مكرَّراً خالصَ الحلاوةِ؛ وَرَثَى أشدَّ الرثاءِ لأمِّ الغلامينِ أنْ يكونَ هذا الرَّجُلُ

---

(١) تَجِيءُ هذه الكلمةُ في كُتُبِ الأَدَبِ والتّارِيخ على غيرِ قاعدةِ النَّسَبِ، وهو الأَفْصَحُ في رَأْيِنَا، ومن ذلك تسميةُ الإمامِ ابنِ جني كتابَه: «التصريف الملوكي».

الجِلْفُ قد ضارَّها(١) بتلكَ الدَّمِيْمَةِ، أو تَسَرَّىٰ بها عليها؛ فقال وما يملْكُ نفسَه: أمَا واللهِ لقد كفَرْتَ النعمةَ، وغَدرْتَ، وجَحَدْتَ، وبالَغْتَ في الضُّرِّ، وإنَّ أمَّ هذين الغلامَيْنِ لامرأةٌ فوقَ النِّساءِ، إذْ لم يَتَبيَّنْ في ولدَيْهَا أثرٌ من تغيُّرِ طبعِها، وكدُورِ نفسِها، وقد كان يسعُها العُذْرُ لو جَعَلَتْهُمَا سَخْنةَ(٢) عينٍ لكَ، وأَخْرَجَتْهُمَا للنَّاسِ في مَساوِئِكَ لا في محاسِنِكَ، وما أَدْري كيفَ لا تَنِدُّ عليكَ، ولا كيفَ صَلَحَتْ بمقدارِ ما فسدْتَ أنتَ، واستقامَتْ بمقدارِ ما التويتَ، وعجيبٌ واللهِ شأنُكُما! إنَّها لتغلو في كرمِ الأصلِ والعقلِ والمروءةِ والخُلُقِ، كما تَغْلُو أنتَ في البهيميَّةِ والنزَقِ والغَدْرِ وسوءِ المكافأةِ.

قال مسلمٌ: فهو واللهِ ما قلتُ لَكَ، وما أُحِبُّ إلا امرأةً دميمةً، قد ذَهَبَتْ بي كلَّ مذهبٍ، وأَنْسَتني كلَّ جميلةٍ في النساءِ، ولئن أخذتُ أصِفُها لكَ لما جاءَتْ الألفاظُ إلا مِنْ القُبْحِ والشَّوْهَةِ والدَّمامةِ؛ غيرَ أنَّها مع ذلِكَ لا تَجِيءُ إلا دالَّةً على أَجْمَلِ معاني المرأةِ عِنْدَ رَجُلِهَا في الحَظْوَةِ والرِّضَى وجمالِ الطَّبْعِ؛ وانظرْ كيفَ يَلْتَئِمُ أنْ تكونَ الزيادةُ في القُبْحِ هي زيادةٌ في الحُسْنِ، وزيادةٌ في الحُبِّ، وكيفَ يكونُ اللفظُ الشائِهُ، وما فيه لنفسي إلا المعنى الجميل، وإلا الحِسُّ الصّادِقُ بهذا المعنى، وإلا الاهتزازُ والطَّرَبُ لهذا الحِس؟

قال ابنُ أيمنَ: واللهِ إنْ أراكَ إلا شَيْطاناً مِنَ الشّياطِيْنِ، وقد عجَّلَ اللهُ لكَ من هذه الدَمِيْمَةِ زَوْجَتَكَ التي كانتْ لكَ في الجَحِيْمِ، لِتَجْتَمِعَا معاً على تَعْذِيْبِ تلك الحوراءِ الملائكيةِ، أمِّ هذينِ الصغيرينِ، وما أدري كيفَ يَتَّصِلُ ما بيْنَكُمَا بعدَ هذا الذي أدْخَلْتَ من القُبْحِ والدَّمامة في مُعاشَرَتِهَا

---

(١) المضارّة: اتخاذ الضَرّة على الزَّوْجَةِ.
(٢) [يسوؤك النظر إليهما].

ومُعَايَشَتِهَا، وبعدَ أنْ جعلتَها لا تنظرُ إليكَ إلا بِنَظْرَتِهَا إلى تلكَ. أفَبَهِيمَةٌ هي لا تعقِلُ، أمْ انتَ رجلٌ ساحِرٌ، أم فيكَ ما ليسَ في النَّاسِ، أم أنا لا أفقَهُ شَيْئاً؟

فضَحِكَ مُسْلمٌ وقال: إنّ لي خبراً عَجِيباً: كنتُ أَنـزِلُ الأُبُـلَّـةَ(١)، وأنا مُـتَعَـيّشٌ(٢)، فحملتُ منها تجارةً إلى البَصْـرَةِ، فَـرَبِحْـتُ، ولم أزلْ أَحْمِـلُ من هذهِ إلى هذهِ، فأربـحُ ولا أَخسَرُ، حتّى كَثُـرَ مالي، ثم بدا لي أنْ أتَّـسِعَ في الآفاقِ البعيدةِ لأجمعَ التجارةَ من أطرافِها، وأبسطَ يدي للمالِ حَيْثُ يكثُرُ، وحيثُ يَـقِلُّ، وكنتُ في مَـيْعَـةِ الشَّبابِ وغُلَـوَائِه(٣)، وأولِ هَجْمـةِ الفتوّةِ على الدنيـا، وقلتُ: إنّ في ذلك خِـلالاً(٤)؛ فـأرى الأُمَـمَ في بلادِهـا ومَعَايِشِهَا، وأتقلَّبُ في التِّجارَةِ، وأَجْمَعُ المالَ والطَّرائِفَ، وأُفيدُ عِظَـةً وعِبرةً، وأعلمُ عِلْماً جَدِيْداً، ولعلّني أُصِيْبُ الزوجةَ التي أشتهيها، وأصورُ لها في نَفْسِي التَّصَاوِيْـرَ، فإنَّ أمري مِنْ أوَّلِـهِ كانَ إلى عُلُـوٍّ، فلا أريـدُ إلا الغايةَ، ولا أرمي إلا للسَّبَقِ، ولا أرضَى أن أتخلَّفَ في جماعةِ النّاسِ، وكأنّـي لم أرَ في الأُبلَّـةِ، ولا في البَصْـرَةِ امـرأةً بتلك التَّـصَاوِيْـرِ الّتي في نفسي، فتأخُذَها عيني، فَتعجِبَني، فتَصْلُحَ لي، فأتَزَوَّجَ بِهَا، وطَمِعْتُ أنْ أَسْتَـنْزِلَ نَجْماً من تلكَ الآفاقِ أُحْرِزُهُ في دارِي؛ فما زِلْتُ أَرْمِي مِنْ بَـلَدٍ إلى بَـلَدٍ حتّى دَخَلْتُ بَـلْخَ(٥) من أَجَلِّ مُـدُنِ خُراسـان، وأوسَعِها غَـلَّةً؛ تُـحْمَلُ غَلَّتُها إلى جميعِ خراسان وإلى خُوارِزْم؛ وفيها يومئذٍ ـ كان ـ عالِمُها وإمامُهَا أبو عَبْدِ اللهِ البَلْخِيُّ، وكنا

(١) [بلدة في العراق].
(٢) أي متكسب ليعيش لا ليغتني؛ وهذا يسميه العامة (المتسبب).
(٣) [قوته وعنفوانه].
(٤) [خصالاً]
(٥) موقعها اليوم في بلاد الأفغان.

نعرفُ اسمَهُ في البَصْرَةِ؛ إذ كان قد نزلها في رِحلَتِهِ، وأكثرَ الكتابةَ بها عن الرُّواة والعلماءِ؛ فاسْتَخَفَّتْني إليه نَزِيَّةٌ[1] من شوقي إلى الوطنِ، كأنَّ فيه بلدي وأهلي؛ فذهبتُ إلى حَلْقتِهِ، وسمعتُه يفسِّرُ قولَ النبيِّ ﷺ: «سَوْدَاءُ وَلُودٌ خَيْرٌ مِنْ حَسْناءَ لا تَلِدُ»[2]. فما كان الشيخُ إلا في سحابةٍ، وما كانَ كلامُهُ إلا وَحْياً يُوحَىٰ إليهِ. سمعتُ واللهِ كلاماً لا عَهْدَ لي بمثلِهِ، وأنا مِنْ أوَّلِ نَشْأَتِي أجلِسُ إلى العُلماءِ والأدباءِ، وأُداخِلُهم في فُنونٍ مِنَ المذاكَرَةِ، فما سَمِعْتُ ولا قَرَأْتُ مِثْلَ كلامِ البَلْخِيِّ، ولقد حَفِظْتُهُ حتّى ما تَفُوتني لفظةٌ منهُ، وبقي هذا الكلامُ يَعْمَلُ في نفسِي عملَه، ويدفعُني إلى معانيه دفعاً، حتى أَتَى عَليَّ ما سأحدِّثُكَ بهِ، إنَّ الكلمةَ في الذِّهْنِ لَتُوجِدُ الحادثةَ في الدُّنيا.

قالَ ابنُ أيمنَ: اطْوِ خبرَكَ إنْ شِئْتَ، ولكنْ اذكرْ لي كلامَ البلخيِّ، فَقَدْ تعلَّقتْ نفسي بهِ.

قال: سَمِعْتُ أبا عبدِ اللهِ يقولُ في تأويلِ ذلك الحديثِ: أمَّا في لفظِ الحديثِ، فهو من مُعْجزاتِ بلاغَةِ نبيِّنا ﷺ، وهو مِنْ أعجبِ الأدَبِ وأبْرَعِهِ، ما علمتُ أحداً تنبَّهَ إليه؛ فإنه ﷺ لا يريدُ السوداءَ بخصوصِهَا، ولكنَّهُ كَنَى بها عمّا تحتَ السّوادِ، وما فوقَ السّوادِ، وما هُوَ إلى السّوادِ، من الصِّفاتِ التي يَتَقَبَّحُها الرِّجالُ في خِلْقَةِ النّساءِ وصُوَرِهِنَّ؛ فألْطَفَ التعبيرَ، ورَقَّ به، رَفعاً لِشَأْنِ النّساءِ أنْ يَصِفَ امرأةً منهنَّ بالقُبْحِ والدّمامَةِ، وتنزيهاً لهذا الجنْسِ الكريمِ، وتنزيهاً للسانِهِ النبويِّ؛ كأنه ﷺ يقولُ: إنَّ ذِكْرَ قُبْحِ المرأةِ هو في نَفْسِهِ قَبِيحٌ في الأدَبِ، فإنَّ المرأةَ أُمٌّ، أو في سبيلِ الأُمومةِ؛ والجنةُ تحتَ أقدامِ الأمهاتِ؛ فكيفَ تكونُ الجنةُ التي هي أحسنُ

---

(١) [طموح القلب].

(٢) [أخرجه الطبراني عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه، وهو حديث ضعيف، كما قال في «الأحاديث الضعيفة» رقم (٣٧١١)].

ما يُتَخَيَّلُ في الحُسْنِ تحتَ قدمي امرأةٍ، ثم يجوزُ أدباً أو عَقْلاً أن توصَفَ هذه المرأةُ بالقبحِ.

أما إنَّ الحديثَ كالنَّصِّ على أنَّ مِنْ كمالِ أدبِ الرَّجُلِ إذا كانَ رَجُلاً ألاّ يَصِفَ امرأةً بقبحِ الصُّورةِ ألبتَّةَ، وألاّ يَجْرِيَ في لسانِهِ لفظُ القُبْحِ وما في معناه موصوفاً به هذا الجنسُ الذي منه أُمُّهُ، أيَوَدُّ أحدُكُمْ أن يمزِّقَ وجهَ أُمِّهِ بهذِهِ الكلمةِ الجارحةِ؟

وقد كان العَرَبُ يُفَصِّلونَ لمعاني الدمامةِ في النِّساءِ ألفاظاً كثيرةً؛ إذْ كانوا لا يَرْفَعُونَ المرأةَ عن السائمةِ والماشيةِ. أمّا أكملُ الخَلْقِ ﷺ، فما زال يوصي بالنساءِ، ويَرْفَعُ شأنَهنَّ، حتى كان آخرُ ما وصَّى به ثلاثَ كلماتٍ، كانَ يتكلَّمُ بهِنَّ إلى أن تَلَجْلَجَ لسانُه، وخَفِيَ كلامُه؛ جَعَلَ يقولُ: «الصَّلاةَ.. الصَّلاةَ، وما ملكتْ أيْمَانُكم، ولا تكلِّفوهم ما لا يطيقون؛ اللهَ اللهَ في النساءِ»[1].

قال الشَّيْخُ: كأنَّ المرأةَ مِنْ حيثُ هي إنَّما هيَ صلاةٌ تَتعبَّدُ بها الفضائِلُ، فوجَبَتْ رعايتُها وتَلقِّيها بِحَقِّها؛ وقد ذكرها بعد الرَّقِيْقِ، لأنَّ الزواجَ بطبيعتِهِ نوعُ رِقٍّ؛ ولكنّه ختمَ بها، وقد بَدَأَ بالصَّلاةِ، لأنَّ الزواجَ في حقيقتِهِ نَوْعُ عبادةٍ.

قال الشيخُ: ولو أَنَّ أُمّاً كانَتْ دَمِيْمَةً شَوْهاءَ في أَعْيُنِ النّاسِ، لكانَتْ مع

---

(١) [أخرجه أحمد (٣:١١٧) وابن ماجه رقم (٢٦٩٧) وابن حبان رقم (٦٦٠٥) عن أنس رضي الله عنه، وهو حديث صحيح، وليس فيه قوله «الله الله في النساء».
أما الوصية بالنساء عموماً فقد صح فيها حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو عند الشيخين ولفظه: «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوجَ شيءٍ في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمُه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»].

ذلكَ في أعينِ أطفالِها أجْمَلَ مِنْ مَلِكةٍ على عرشِهَا؛ ففي الدنيا مَنْ يَصِفُهَا بالجمالِ صادِقاً في حِسِّهِ ولَفْظِهِ، لم يَكْذِبْ في أحدِهما؛ فقد انتفى القبحُ إذَنْ، وصارَ وصفُهَا بهِ في رأْيِ العينِ تكذيباً لوصفها في رأي النّفسِ، ولا أقلَّ مِنْ أنْ يكونَ الوصفانِ قد تعارضا فلا جمالَ ولا دَمَامَةَ.

قال الشيخُ: وأمّا في معنى الحديثِ، فهو ﷺ يقرِّرُ للنّاسِ أنَّ كَرَمَ المرأةِ بأُمومَتِهَا، فإذا قِيْلَ: إنَّ في صورتها قُبْحاً، فالحسناءُ التي لا تَلِدُ أقبحُ مِنْهَا في المعنى، وانْظُرْ أنتَ كَيْفَ يكونُ القُبْحُ الَّذِيْ يُقالُ: إنَّ الحُسْنَ أَقْبَحُ مِنْهُ..!

فمن أينَ تناولتَ الحديثَ رأيتَهُ دائراً على تقديرِ أنْ لا قُبْحَ في صورةِ المرأةِ، وأنّها مُنَزَّهةٌ في لسان المؤمنِ أن تُوْصَفَ بهذا الوَصْفِ، فإنَّ كلماتِ القُبْحِ والحُسْنِ لغةٌ بهيميةٌ تَجْعَلُ حُبَّ المرأةِ حُبّاً على طريقةِ البهائمِ، من حيثُ تَفْضُلُها طريقةُ البهائمِ بأنَّ الحيوانَ على احتباسِهِ في غرائزِهِ وشهواتِهِ، لا يتكَذَّبُ في الغريزةِ، ولا في الشهوةِ، بتلوينِهِمَا ألواناً مِنْ خيَالهِ، ووضعِهِمَا مرّةً فوقَ الحدِّ، ومرّةً دون الحدِّ[1].

فأكبرُ الشّأْنِ هو للمرأةِ التي تَجْعَلُ الإنسانَ كبيراً في إنسانيتِه، لا الّتي تجعلُه كبيراً في حيوانيتِه، فلو كانَتْ هذِه الثانيةُ هي التي يصطلِح النّاسُ على وَصْفِها بالجمالِ، فهي القَبِيْحَةُ لا الجَمِيْلَةُ، إذ يَجِبُ على المؤمنِ الصّحيْحِ الإيمانِ أنْ يَعِيْشَ فيما يَصْلُحُ به النّاسُ، لا فيما يَصْطَلِحُ عليه النّاسُ؛ فإنَّ الخروجَ من الحدودِ الضيّقةِ للألفاظِ، إلى الحقائقِ الشاملةِ، هو الاستقامةُ بالحياةِ على طريقِها المؤدّي إلى نعيمِ الآخِرَةِ وثوابِها.

وهناك ذاتان لكلِّ مؤمنٍ: إحداهُما غائبةٌ عنه، والأخرى حاضِرةٌ فيه، وهو إنّما يَصِلُ من هذِهِ إلى تلكَ، فلا ينبغي أنْ يَحْصُرَ السماويّةَ الواسِعَةَ

(١) بسطنا هذا المعنى في كتابنا «السحاب الأحمر».

في هذه الترابيّةِ الضيّقةِ؛ والقُبْحُ إنّما هو لَفْظٌ ترابيٌّ يشارُ بهِ إلى صُورَةٍ وقعَ فيها من التشويهِ مِثْلَ معاني الترابِ، والصورةُ فانيةٌ زائلةٌ، ولكنَّ عملَها باقٍ؛ فالنظرُ يَجِبُ أن يكونَ إلى العملِ؛ فالعملُ هو لا غيرُه الذي تَتَعَاوَرُه[1] ألفاظُ الحُسْنِ والقبحِ.

وبهذا الكمال في النَّفْسِ، وهذا الأَدَبِ، قد يَنْظُرُ الرجلُ الفاضِلُ من وجهِ زوجتِه الشوهاءِ الفاضلةِ، لا إلى الشَّوْهاءِ، ولكنْ إلى الحُورِ العِيْنِ. إنّهما في رأْيِ العَيْنِ رجلٌ وامرأةٌ في صورتينِ متنافِرَتينِ جمالاً وقبحاً؛ أما في الحقيقةِ والعمل وكمالِ الإيمانِ الروحيِّ، فهما إرادتانِ متّحِدَتَانِ تَجْذِبُ إحداهُما الأخرى جاذبيةَ عِشْقٍ، وتَلْتَقِيانِ معاً في النفسينِ الواسعتينِ، المرادِ بهما الفضيلةُ وثوابُ اللهِ والإنسانيةُ؛ ولذلك اختارَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل عوراءَ على أختِها، وكانت أختُها جميلةً، فسأل: مَن أعقلُهُما؟ فقيلَ: العوراءُ، فقال: زوّجوني إيّاها. فكانت العوراءُ في رَأْيِ الإمامِ وإرادتِهِ هي ذاتَ العينينِ الكحيلتينِ، لوفورِ عقلِهِ، وكمالِ إيمانِه.

قال أبو عبد اللهِ: والحديثُ الشريفُ بعد كلِّ هذا الذي حكيناهُ يدلُّ على أنَّ الحبَّ متى كانَ إنسانيّاً جارياً على قواعدِ الإنسانيةِ العامَّةِ، متَّسِعاً لها، غيرَ محصورٍ في الخصوصِ منها ـ كان بذلكَ علاجاً من أمراضِ الخَيالِ في النفسِ، واستطاعَ الإنسانُ أن يجعَلَ حُبَّه يتناوَلُ الأشياءَ المختِلفَةَ، ويَرُدُّ على نفسِهِ من لذّاتِها، فإنْ لم يُسعِدْهُ شيءٌ بخصوصِهِ، وجدَ أشياءَ كثيرةً تُسْعِدُهُ بين السماءِ والأرضِ، وإنْ وقعَ في صورةِ امرأتِهِ ما لا يُعَدُّ جمالاً، رأى الجمالَ في أشياءَ منها غيرَ الصورةِ، وتَعَرَّفَ إلى ما لا يَخْفَى، فظهرَ له ما يَخْفَى.

وليست العينُ وحدَها هي التي تُؤامَرُ في أيِّ الشيئينِ أجملُ، بل هناك

---

(١) [تتداوله].

العقلُ والقَلْبُ، فجوابُ العينِ وحدَها إنما هو ثلثُ الحقِّ. ومتى قِيْلَ: «ثلثُ الحقِّ» فضياعُ الثُّلثين يجعلُه في الأقلِ حقّاً غيرَ كاملٍ.

فما نكرهُهُ من وَجْهٍ، قد يكونُ هو الذي نحبُّه من وجهٍ آخرَ، إذا نحنُ تركنا الإرادةَ السليمةَ تعملُ عَمَلَهَا الإنسانيَّ بالعقلِ والقَلْبِ، وبأوسعِ النظرينِ دونَ أضيقِهِمَا ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

فوثبَ ابنُ أيمنَ، وأقبلَ يدورُ في المجلسِ مما دَخَلَهُ من طَرَبِ الحديثِ، ويقول: ما هذا إلا كلامُ الملائكةِ سمعناه منكَ يا ابْنَ عمرانَ.

قال مُسْلِمٌ: فكيفَ بكَ لو سمعتَهُ من أبي عبدِ اللهِ؛ إنّه واللهِ قد حبَّبَ إليَّ السوداءَ والقبيحةَ والدميمةَ، ونظرتُ لنفسي بخيرِ النظَرينِ، وقلتُ: إنْ تزوَّجْتُ يوماً فما أبالي جمالاً ولا قُبْحاً، إنما أريدُ إنسانيّةً كاملةً مني ومنها ومِنْ أولادِنا، والمرأةُ في كلِّ امرأةٍ، ولكنْ ليسَ العقلُ في كلِّ امرأةٍ.

قال: ثُمَّ إنّي رجعتُ إلى البصرةِ، وآثَرْتُ السُّكْنى بها، وتَعَالَمَ الناسُ إقبالي، وعلمتُ أنّه لا يَحْسُنُ بي المُقامُ بغيرِ زوجةٍ، ولم يكنْ بها أجلُّ قَدْراً من جَدِّ هذين الغلامينِ، وكانَتْ له بنتٌ قد عَضَلَهَا، وتَعَرَّضَ بذلك لعداوةِ خُطَّابِها؛ فقلتُ: ما لهذِه البنتُ بُدٌّ مِنْ شأنٍ، ولو لم تكنْ أكملَ النساءِ وأجملَهُنّ، ما ضَنَّ بها أبوها رَجاوَةَ أنْ يأتيَه مَنْ هُوَ أعلى. فحدثَتْني نَفْسِي بلقائِهِ فيها، فجئْتُه على خَلوةٍ.

فقطعَ عليه ابنُ أيمنَ وقال؛ قد عَلِمْنا خَبَرَها مِنْ مَنْظَرِ هذينِ الغلامينِ، وإنما نريدُ مِنْ خَبَرِ تلكَ الدميمةِ التي تَعَشَّقْتَها.

قال: مهلاً، فستنتهي القصةُ إليها. ثم إني قلتُ: يا عمُّ، أنا فلانٌ بن فلانٍ التاجرُ.

قال: ما خَفِيَ عني محلُّكَ ومحلُّ أبيك.

فقلت: جئتُك خاطِباً لابنَتِكَ.

قال: واللهِ ما بي عنكَ رغبةٌ، ولقد خطبَها إليَّ جماعةٌ من وجوهِ البَصْرَةِ وما أجبتُهم، وإني لكارهٌ إخراجَها عن حِضْني إلى مَنْ يُقَوِّمُها تقويمَ العبيدِ.

فقلتُ: قد رفَعَها اللهُ عن هذا المَوْضِعِ، وأنا أسألُكَ أن تُدْخِلَني في عَدَدِكَ، وتَخْلِطَني بِشَمْلِكَ.

فقال: ولا بدَّ مِنْ هذا؟

قلتُ: لا بُدَّ.

قال: اغْدُ عَلَيَّ برجالِكَ.

فانصرفتُ عنه إلى مَلأٍ من التّجارِ ذوي أخطارٍ، فسألتُهمْ الحضورَ في غَدٍ؛ فقالوا: هذا رجلٌ قد رَدَّ مَنْ هو أثرَى مِنْكَ، وإنَّكَ لتُحَرِّكُنا إلى سَعْيٍ ضائعٍ.

قلتُ: لا بدَّ مِنْ ركوبِكُم معي. فركبوا على ثِقة مِنْ أنَّه سيردُّهُمْ.

فصاحَ ابنُ أيمنَ، وقد كَادَتْ روحُه تَخْرُجُ: فذهبتَ، فزَوَّجَك بالجميلةِ الرائعةِ أمْ هذينِ؛ فما خبرُ تِلْكَ الدميمةِ؟

قال مُسْلِمٌ: يا سيدي! قد صبرتَ إلى الآن، أفلا تَصْبِرُ على كلماتٍ تُنَبِّئُكَ مِنْ أينَ يَبْدأُ خَبَرُ الدَّمِيْمَةِ، فإنّي ما عرفتُها إلا في العُرْسِ. . !

قال: وغَدَوْنَا عليهِ فأَحْسَنَ الإجابةَ وزوَّجني، وأطعَمَ القومَ ونحرَ لهم، ثم قال: إنْ شئتَ أنْ تبيتَ بأهلِك فافعلْ، فليسَ لها ما يُحْتاجُ إلى التَّلوُّمِ[1] عليهِ، وانتظارِه.

فقلتُ: هذا يا سيدي ما أحبُّه. فلم يَزَلْ يُحَدِّثُني بكلِّ حَسَنٍ حتى كانتْ المغربُ، فصلاَّها بي، ثم سبَّحَ وسبَّحتُ، ودعا ودعوتُ، وبقي مقبلاً

---

(١) [الانتظار والتلبّث].

على دعائِهِ وتسبيحِهِ ما يلتفِتُ لغيرِ ذلكَ، فأمضَّني[١] - علم الله - كأنّه يرى أنّ ابنتَه مُقْبِلةٌ مني على مصيبةٍ، فهو يتضرَّعُ ويدعو. . !

ثم كانت العَتَمَةُ فصلاّها بي، وأخذَ بيدي، فأدخلني إلى دارٍ قد فُرِشَتْ بأَحْسَنِ فَرْشٍ، وبها خَدَمٌ وجوارٍ في نهايةٍ من النظافةِ؛ فما استقرَّ بي الجلوسُ حتى نهضَ، وقال: أَسْتَوْدِعُكَ اللهُ، وقدَّم الله لكما الخيرَ، وأحْرَزَ التوفيق.

واكتنفني عجائزُ مِنْ شَمْلِهِ[٢]، ليسَ فيهنّ شابّةٌ إلا مَنْ كانتْ في الستين. . فنظرتُ، فإذا وجوهٌ كوجوهِ الموتى، وإذا أجسامٌ باليةٌ يَتَضَامُّ بعضُها إلى بعضٍ، كأنها أطلالُ زمنٍ قد انقضَّ[٣] بين يديّ.

فصاح ابنُ أيمنَ: وإن دَميمتَك لعجوزٌ أيضاً. . ؟ ما أراك يا ابنَ عمرانَ إلا قتلتَ أمَّ الغلامين. . . !

قال مُسْلِمٌ: ثُمَّ جَلَوْنَ ابنتَه عَلَيَّ، وقد ملأنَ عينيَّ هَرَماً ومَوْتاً وأخْيِلَةَ شياطينٍ وظلالَ قُرودٍ؛ فما كِدْتُ أستفيقُ لأرى زوجتي، حتى أسرعْنَ فأرخَيْنَ الستور علينا؛ فَحَمِدْتُ الله لذهابِهِنَّ، ونظرتُ. .

وصاحَ ابنُ أيمنَ وقد أكلَه الغَيظُ: لقد أطلْتَ علينا، فَسَتَحْكي لنا قصتَك إلى الصّباحِ، قد علمناها وَيْلَكَ، فما خبرُ الدميمةِ الشوهاءِ؟

قال مسلمٌ: لم تكنْ الدميمةُ الشوهاءُ إلا العروسُ. . .

فزاغتْ أعينُ الجماعةِ، وأطرقَ ابنُ أيمنَ إطراقَةَ مَن وَرَدَ عليه ما حَيَّرَهُ؛ ولكنّ الرجلُ مَضى يقولُ:

ولما نظرتُهَا لم أرَ إلا ما كُنْتُ حَفِظْتُهُ عن أبي عبدِ اللهِ البلخيِّ، وقلتُ:

---

(١) [آلمني].

(٢) [جماعته].

(٣) [نهدم وتقوّض].

هي نفسِي جاءَتْ بي إليها، وكأنَّ كلامَ الشيخِ إنّما كان عملاً يعمَلُ فيَّ، ويُديرني ويُصَرّفني.

وما أسرعَ ما قامتِ المسكينةُ فأكبَّتْ على يدي؛ وقالت: يا سيدي، إني سرٌّ من أسرارِ والدي، كتمَهُ عن النّاسِ، وأفضَى بهِ إليكَ، إذ رآك أهلاً لستره عليه، فلا تَخْفِرْ ظنَّه فيكَ، ولو كان الذي يُطْلَبُ من الزوجةِ حُسْنَ صورتِهَا دَوْنَ حُسْنِ تدبيرها وعفافِهَا لعظُمتْ مِحْنَتِي، وأرجو أن يكونَ معي منهما أكثرُ مما قصَّرَ بي في حُسْنِ الصورةِ؛ وسأبلُغُ محبتَك في كلِّ ما تأمرني؛ ولو أنّك آذيتَنِي لعَدَدْتُ الأذَى منك نِعْمَةً، فكيفَ إن وسعني كرمُك وسَتْرُك؟ إنَّكَ لا تعامِلُ اللهَ بأفضلَ مِنْ أَنْ تكونَ سبباً في سعادةِ بائسةٍ مثلي. أفلا تَحْرِصُ يا سيدي، على أنْ تكونَ هذا السببَ الشريفَ...

ثم إنّها وثبتْ فجاءَتْ بمالٍ في كِيْسٍ، وقالتْ: يا سيدي، قد أحلَّ اللهُ لك معي ثلاثَ حرائرَ، وما آثرْتَهُ مِنَ الإماءِ؛ وقد سَوَّغتُكَ تزويجَ الثلاثِ، وابتياعَ الجواري من مالِ هذا الكيسِ، فقد وَقَفْتُهُ على شهواتِكَ، ولستُ أطلبُ منك إلا ستري فقط!

قال أحمدُ بنُ أيمنَ: فحلَفَ لي التاجرُ: أنها مَلَكَتْ قلبي مُلْكاً لا تَصِلُ إليهِ حَسْناءُ بِحُسْنِها؛ فقلتُ لها: إنّ جزاءَ ما قدَّمتِ ما تسمعينَهُ مني: واللهِ لأجعلنَّكِ حظِّي من دنيايَ فيما يُؤْثِرهُ الرَّجُلُ من المرأةِ، ولأضْرِبَنَّ على نفسِي الحجابَ، ما تنظرُ نفسِي إلى أنثى غيرَكِ أبداً.

ثم أتممتُ سرورَها، فحدثتُها بما حفظتُه عن أبي عبدِ اللهِ البلخيِّ. فأيقنتْ - واللهِ يا أحمدُ - أنها نزلتْ مني في أرفعِ منازلها، وجعلتْ تَحْسُنُ وتحسُنُ، كالغُصْنِ الذي كان مَجْرُوداً، ثم وَخَزَتْه الخُضْرَةُ من هنا ومن هنا.

وعاشرتُهَا، فإذا هي أَضْبَطُ النِّساءِ، وأحسنُهُنَّ تدبيراً، وأشفقُهنَّ عليَّ، وأحبُّهنَّ لي؛ وإذا راحتي وطاعتي أوّلُ أمرِها وآخرُه؛ وإذا عقلُها وذكاؤها

يُظْهِرانِ لي مِنْ جَمَالِ معانِيْهَا ما لا يَزَالُ يَكْثُرُ ويَكْثُرُ، فجعلَ القبحُ يقِلُّ ويقِلُّ، وزال القبحُ باعتيادِي رؤيتَه، وبقيتْ المعاني على جمالِها؛ وصارتْ لي هذه الزوجةُ هي المرأةَ، وفوقَ المرأةِ.

ولما ولدتْ لي، جاء ابنُها رائعَ الصورةِ؛ فحدثتْنِي أنّها كانت لا تزالُ تتمنَّى على كرمِ اللهِ وقُدْرَتِهِ أنْ تتزوَّجَ وَتَلِدَ أجملَ الأولادِ، ولم تدعْ ذلك مِنْ فكرِها قطُّ، وألَّف لها عقلُها صورةَ غلامٍ تتمثَّلُه، وما بَرِحَتْ تتمثلُه؛ فإذا هي أيضاً كانَ لها شأنٌ كشأني، وكان فكرُها عملاً يعملُ في نفسِها، ويُديرُها ويصرِّفُها.

ورزقني اللهُ منها هذين الابْنَيْن الرائعين لكَ، فانظرْ؛ أيُّ معجِزَتَيْنِ من مُعجزاتِ الإيمانِ[١] . . . !

* * *

(١) [نُشِرَت في «الرسالة» السنة الثانية (١٩٣٤) العدد (٦٨)].

رؤيــا في السماء[١]

قال أبو خالدٍ الأحولُ الزَّاهِدُ: لما ماتتْ امرأةُ شيخِنا أبي رَبيعةَ الفقيهِ الصوفيِّ، ذهبْتُ مع جماعةٍ من النّاسِ، فشَهِدنا أمرَها؛ فلما فرغوا مِنْ دَفْنِهَا وسُوِّيَ عليها، قام شيخُنا على قبرِها وقال: يَرْحَمُكِ اللهُ يا فلانة؟! الآن قد شُفِيْتِ أَنْتِ ومَرِضْتُ أنا، وعُوفِيْتِ، وابتُلِيْتُ، وتركتِني ذاكراً، وذَهَبْتِ ناسِيةً، وكان للدنيا بكِ معنًى، فستكونُ بَعْدَكِ بلا معنى؛ وكانتْ حياتُكِ لي نِصْفَ القوّة، فعادَ موتُكِ لي نِصْفَ الضَّعفِ؛ وكُنْتُ أرى الهمومَ بمواساتِك هموماً في صُوَرِها المخفَّفَةِ، فستأتِيني بعدَ اليوم في صُوَرِها المضاعَفَةِ؟ وكان وجودُكِ معي حجاباً بيني وبين مَشقَّاتٍ كثيرةٍ، فستخلُصُ كلُّ هذه المَشاقِّ إلى نفسي؛ وكانتْ الأيامُ تمرُّ أكثرَ ما تمرُّ في رِقَّتِك وحَنانِكِ، فستأتيني أكثرَ ما تأتي مُتجرِّدَةً في قَسوتها وغِلْظَتها. أمَا إني - واللهِ - لم أُرزَأْ منكِ في امرأةٍ كالنساءِ، ولكنّي رُزِئْتُ في المخلوقةِ الكريمةِ التي أَحْسَسْتُ معها أنّ الخليقةَ كانتْ تتلطَّفُ بي مِنْ أجْلِها!

قال أبو خالد: ثم استَدْمَعَ الشيخُ، فأخذتُ بيدِهِ، ورجعنا إلى دارِهِ، وهو كان أعلمَ بما يعزِّي الناسُ بعضُهم بعضاً، وأحفظَ لما وَرَدَ في ذلك؛ غيرَ أنَّ للكلامِ ساعاتٍ تَبْطُلُ فيها معانِيْهِ أو تَضْعُفُ، إذْ تكونُ النفسُ

(١) [انظر كلمة فيلكس فارس حول هذه القصة في مقدمة الكتاب ص(٣٢)].

مُسْتَغرِقةَ الهمّ في معنًى واحدٍ قد انحصرتْ فيه، إما مِنْ هَوْلِ الموتِ، أو حُبٍّ وقعَ فيه من الهَوْلِ ظِلُّ الموتِ، أو رغبةٍ وقعَ فيها ظلُّ الحُبّ، أو لَجاجةٍ وقع فيها ظِلُّ الرغبةِ. فكنتُ أحدِّثُهُ وأعزِّيهِ، وهو بعيدٌ من حديثي وتعزيَتِي؛ حتى انتهينا إلى الدار، فدخلْنا وما فيها أحدٌ؛ فنظَرَ يمْنَةً وَيسْرةً، وقَلَّبَ عيْنَيْهِ هاهنا وهاهنا، وحَوْقَلَ[1]، واسْترْجَعَ[2]، ثم قال: الآن ماتتْ الدارُ أيضاً يا أبا خالدٍ! إنَّ البناءَ كأنّما يحيا بروحِ المرأةِ التي تتحرَّكُ في داخِلِه؛ وما دامَ هو الذي يحفظُها للرَّجُلِ، فهو في عينِ الرَّجُلِ كالمُطْرَفِ[3] تلبَسُه فوقَ ثيابِهَا من فوقِ جِسْمِهَا: وانظرْ كم بَيْنَ أن ترى عيناكَ ثوبَ امرأةٍ في يدِ الدّلالِ في السّوقِ، وبينَ أنْ تراهُ عيناكَ يَلْبَسُها وتَلبَسُه! ولكنّكَ ـ يا أبا خالدٍ ـ لا تفْقَهُ مِنْ هذا شَيْئاً، فأنتَ رَجُلٌ آلَيْتَ لا تَقْرَبُ النساءَ ولا يَقْرَبْنَكَ، ونجوتَ بنفسِكَ منهنَّ وانقطعتَ بها للهِ؛ وكأنَّ كلَّ نساءِ الأرضِ قد شارَكْنَ في ولادتِكَ فَحَرُمْنَ عليكَ! وهذا مالا أَفْهَمُهُ أنا إلا ألفاظاً، كما لا تفهمُ أنتَ ما أجدُ الساعةَ إلا ألفاظاً؛ وشتَّانَ بينَ قائلٍ يتكلَّمُ مِنَ الطبعِ، وبين سامعٍ يَفْهَمُ بالتكلُّفِ.

فقلتُ له: يا أبا ربيعةَ! وما يمنعُك الآن، وقد اطَّرَحْتَ أثقالَك، وانبتَّتْ أسبابُك من النّساءِ ـ أنْ تعيشَ خفيفَ الظَهْرِ، وتفرَّغَ للنُّسْكِ والعبادةِ، وتَجْعَلَ قلبك كالسماءِ انقشعَ غَيمُها، فسطَعتْ فيها الشَّمْسُ؛ فإنّه يقالُ: إنَّ المرأةَ ولو كانَتْ صالِحةً قانِتَةً ـ فهي في مَنْزِلِ الرَّجُلِ العابدِ مَدْخَلُ الشيطانِ إليه، ولو أنَّ هذا العابدَ كان يَسْكُنُ في حَسَناتِهِ لا في دارٍ من الطوبِ والحجارةِ لكانَتْ امرأتُهُ كُوَّةً يَقْتَحِمُ الشيطانُ منها. ولقد كان

---

(١) [قال: لا حول ولا قوة إلا بالله].

(٢) [قال: إنا لله وإنا إليه راجعون].

(٣) المِطْرَفُ رداءٌ من خَزٍّ فيه نقوشٌ تلبَسُه المرأةُ في دارِها، وهو المسمى (الروب).

آدمُ في الجنّةِ، وبينَها وبينَ الأرضِ سماواتٌ وأفلاكٌ، فما منعَ ذلك أنْ تَتعلَّقَ روحُ الأرضِ بالشيطانِ، فيتعلَّقَ الشيطانُ بحوّاءَ، وتتعلَّقُ هي بآدم؛ ومَكَرَ الشيطانُ، فصوَّرَهَا لهما في صيغةِ مسألةٍ علميّةٍ، ومَكَرَتْ حوّاءُ فوضَعتْ فيها جاذبيّةَ اللحمِ والدمِ، فلم تعدْ مسألةَ علمٍ ومعرفةٍ، بل مسألةَ طبعٍ ولَجاجةٍ. فأكَلا منها، فَبَدَتْ لهما سَوْءاتُهُمَا.

وهل اجتمَعَ الرجلُ والمرأةُ مِنْ بعدِها على الأرضِ إلا كانا مِنْ نَصَبِ الحياةِ وهمومِها، وشهواتِها ومطامعِها، ومَضَارِّها ومعايبِها ـ في معنى ﴿بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]..؟

كِلانا ـ يا أبا ربيعةَ ـ ممَّنْ لهم سَيْرٌ بالباطنِ في هذا الوجودِ غيرِ السيرِ بالظَّاهرِ، وممَّنْ لهم حركةٌ بالفكرِ غيرُ الحركةِ بالجسمِ، فقبيحٌ بنا أنْ نتعلَّقَ أدنَى مُتَعَلَّقٍ بنواميسِ هذا الكونِ اللَّحْميّ، الذي يُسمَّى المرأةَ، فهو تَدلٍّ وإسفافٌ منّا.

ولعلَّك تقولُ: النَّسْلُ وتكثيرُ الآدميّةِ، فهذا إنّما كُتِبَ على إنسانِ الجوارحِ والأعضاءِ، أما إنسانُ القَلْبِ، فله معناهُ، وحُكمُ معناهُ؛ إذْ يعيشُ بباطنِهِ، فَيَعِيشُ ظاهِرُهُ في قوانينِ هذا الباطنِ، لا في قوانينِ ظاهِرِ النّاسِ. وإنَّه لشَرٌّ كلُّ ما نَقَلَكَ إلى طبعِ أهلِ الجوارحِ وشَهواتِهم، فَزَيَّنَ لك ما يُزَيِّنُ لهم، وشغَلَكَ بما يَشْغَلُهم؛ فهذا عندنا ـ يرحمُك اللهُ ـ بابٌ كأنّه من أبوابِ المجُونِ، الذي ينقُلُ الرَّجُلَ إلى طَبْعِ الصَّبيّ.

فاطْمِسْ يا أخي على موضِعِهَا من قلبِكَ، وألْقِ النُّورَ على ظِلِّها؛ فالنورُ في قَلْبِ العابدِ نُورُ التحويلِ إنْ شاءَ، ونورُ الرؤيةِ إنْ شاءَ؛ يَرى بهِ المادّةَ كما يريدُ أن تكونَ لا كما تكونُ. وأنتَ قد كانتْ فيكَ امرأةٌ، فَحَوِّلْها صلاةً، واعملْ بنورِكَ عكسَ ما يَعْمَلُ أهلُ الجوارحِ بظلامِهِم، فقد تكونُ في أحدِهم الصلاةُ فيُحَوِّلُهَا امرأةً..

قال أبو ربيعةَ: تاللهِ إنَّه لرأيٌ؛ والوَحْدةُ بعدَ الآن أرْوَحُ لقلبي، وأجْمَعُ

لهمّي؛ وقد خلَعَني اللهُ مما كنتُ فيه، وأخذَ القبرُ امرأتي وشَهَواتي معاً، فسأعِيْشُ ما بقِيَ لي فيما بقيَ منِّي، وزوالُ شيءٍ في النفسِ هو وجودُ شيءٍ آخرَ، ولقد انتهيتُ بالمرأةِ ومعانيها وأيامِهَا إلى القَبْرِ، فالبَدْءُ الآنَ من القبرِ ومعانِيْهِ وأيامِهِ.

وتَوَاثقَا على أنْ يَسِيْرَا معاً في باطنِ الوجودِ..! وأنْ يَعِيْشَا في عُمرٍ هو ساعةٌ معدودةُ اللَّحَظاتِ، وحياةٌ هي فكرةٌ مرسومةٌ مصوَّرةٌ.

قال أبو خالدٍ: ورأيتُ أنْ أبيتَ عندَهُ وفاءً بحقِّ خدمتِهِ، ودَفعاً للوحشةِ أن تُعاوِدَهُ، فَتَدْخُلَ على نفسِهِ بأفكارِها وَوَساوِسِها. وكان قد غَمَرنَا تَعَبُ يومِنا، وأعْيا أبو ربيعةَ، وخذلَتْهُ القُوَّةُ؛ فلمّا صلَّينا العِشاءَ، قلتُ: يا أبا ربيعةَ، أُحِبُّ لكَ أنْ تَنْعَسَ، فتُرِيْحَ نفسَك، ليذهَبَ ما بِكَ، فإذا استَجْمَمْتَ أيقظتُك، فقمنا سائرَ اللّيلِ.

فما هُوَ إلا أنْ اضْطجَعَ حتّى غَلَبُه النُّعاسُ. وجلستُ أفكِّرُ في حالِهِ، وما كانَ عليهِ، وما اجتهدتُ له من الرأيِ؛ وقلتُ في نَفْسِي: لعلَّني أغريتُه بما لا قِبَل له بهِ، وأشرْتُ عليهِ بغيرِ ما كانَ يَحْسُنُ بمثلِهِ، فأكونُ قد غَشَشْتُهُ. وخامرَني الشكُّ في حالي أنا أيضاً، وجعلتُ أقابِلُ بين الرَّجُلِ متزوِّجاً عابداً، وبينَ الرَّجُلِ عابداً لم يتزوَّجْ؛ وأنظرُ في ارتياضِ أحدِهِما بنفسِه وأهلِه وعيالِهِ، وارتياضِ الآخرِ بنفسِه وحدَها؛ وأخذتُ أذهبُ وأجِيءُ مِنْ فِكْرٍ إلى فِكْرٍ، وقد هَدَأَ كلُّ شَيْءٍ حولي، كأنَّ المكانَ قد نامَ، فلم ألبثْ حتى أخذتني عيني فَنِمْتُ، واستَثْقَلْتُ، كأنما شُدِدْتُ شدّاً بحبالٍ من النومِ لم يَجِيءْ مَنْ يَقْطَعُها.

ورأيتُ في نومي كأنّها القيامةُ وقد بُعِثَ النّاسُ، وضاقَ بهم المَحْشَرُ، وأنا في جُمْلَةِ الخلائقِ، وكأنّنا مِنَ الضَغْطَةِ حَبٌّ مَبْثوثٌ بين حَجَرَيْ الرَّحَى. هذا والموقفُ يَغْلِي بنا غَلَيانَ القِدْرِ بما فيها، وقد اشتدَّ الكَرْبُ، وجَهَدَنا العطشُ، حتى ما مِنّا ذو كَبِدٍ إلا وكأنَّ الجحيمَ تتنفَّسُ على كبدِهِ،

فما هو العطشُ، بل هو السُّعارُ واللَّهبُ يَحْتَدِمُ بهما الجَوْفُ ويَتأجَّجُ.

فنحنُ كذلِكَ إذا وِلْدَانٌ يتخَلَّلُونَ الجَمْعَ الحاشِدَ، عليهم مَنادِيْلُ من نُوْرٍ، وبأيديهم أباريقُ من فِضَّةٍ، وأكوابٌ من ذَهَبٍ، يملؤونَ هذِه من هذه بِسَلْسالٍ بَرُودٍ عَذْبٍ، رُؤْيَتُهُ عَطَشٌ مع العَطَشِ، حتى ليتلوَّى مَنْ رآه من الألمِ، ويَتَلَعْلَعُ[1] كأنّما كُوِيَ به على أحشائِهِ.

وجعلَ الوِلْدَانُ يَسقُونَ الواحِدَ بعد الواحِد، ويتجاوَزُوْنَ مَنْ بينَهُما، وهم كَثْرَةٌ منَ النّاسِ؛ وكأنَّما يتخلَّلُونَ الجمعَ في البحث عن أُناسٍ بأعيانِهِمْ، يَنْضَحونَ غليلَ أكبادِهم بما في تِلْكَ الأباريقِ مِنْ روحِ الجنَّةِ ومائها ونسيمها.

ومَرَّ بي أحدُهم، فمددتُ إليه يدي، وقلت: اسْقِني فقد يَبِسْتُ، واحترقتُ من العطش!.

قال: ومَنْ أنتَ؟.

قلت: أبو خالدٍ الأحولُ الزاهدُ.

قال: أَلَكَ في أطفالِ المسلمينَ وَلَدٌ افْتَرَطْتَهُ صَغِيْراً، فاحتسبتَه عندَ اللهِ؟.

قلت: لا....

قال: ألكَ ولدٌ كَبِرَ في طاعةِ اللهِ؟.

قلت: لا....

قال: ألكَ ولدٌ نالتْكَ مِنْهُ دعوةٌ صالحةٌ جزاءَ حقِّكَ عليهِ في إخراجِهِ إلى الدُّنيا؟.

قلتُ: لا...

---

(١) [يتضوَّرُ].

قالَ: أَلَكَ وَلَدٌ مِنْ غَيْرِ هؤلاءِ، ولكنَّكَ تَعِبْتَ في تقويمِه، وقُمْتَ بحقِّ اللهِ فيهِ؟.

قلتُ: يرحمُكَ اللهُ، إني كلَّما قلتُ: لا، أَحْسَسْتُ (لا) هذهِ تَمُرُّ على لساني كالمِكْواةِ الحاميةِ...

قالَ: فنحنُ لا نسقي إلا آباءَنا؛ تَعِبُوا لنا في الدُّنيا، فاليومَ نَتْعَبُ لهم في الآخرَةِ، وقدَّمُوا بينَ يديهم الطفولةَ، وإنَّما قَدَّمُوا ألسنةً طاهِرَةً للدِّفاعِ عنهم في هذا الموقف، الذي قامتْ فيه محكمةُ الحسَنَةِ والسيئةِ. وليسَ هنا بعدَ ألسنةِ الأنبياءِ أشَدُّ طلاقةً من ألسنةِ الأطفالِ، فما للطفلِ معنى من معاني آثامِكُمْ يَحْتبِسُ فيه لسانُه أو يُلَجْلِجُ بهِ.

قال أبو خالدٍ: فجُنَّ جنوني، وجعلتُ أَبْحَثُ في نفسِي عن لفظةِ (ابن)، فكأنّما مُسِحَتْ الكلمةُ من حِفظي، كما مُسِحَتْ من وجودي؛ وذكرتُ صَلاتي وصِيامي وعبادتي، فما خطرتْ في قلبي حتى ضَحِكَ الوليدُ ضَحِكاً وجدتُ في معناه بكائي ونَدَمي وخَيبتي.

وقال: يا ويلَكَ! أما سمعتَ: «إنّ مِنَ الذنوبِ ذنوباً لا تُكفِّرُها الصَّلاةُ ولا الصِّيامُ، ويُكَفِّرُها الغَمُّ بالعِيالِ»[1]. أتعرفُ مَنْ أنا يا أبا خَالِدٍ؟

قلت: مَنْ أنتَ يرحمُنا اللهُ بِكَ؟

قال: أنا ابنُ ذاكَ الرّجلِ الفقيرِ المُعِيلِ، الذي قال لِشَيْخِكَ إبراهيمَ بنَ أدهمَ العابدِ الزاهدِ: طُوبَى لكَ! فقد تفرَّغْتَ للعبادَةِ بالعزوبةِ.

فقال له إبراهيمُ: لَرَوْعَةٌ تنالُكَ بِسَبَبِ العِيالِ أَفْضَلُ مِنْ جميعِ ما أنا فِيْهِ..

---

(١) [قال في «كنز العمال» رقم (١٦٦٤٠): أخرجه ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: غريب جداً، وفيه محمد بن يوسف بن يعقوب الرقي ضعيف].

وقد جاهدَ أبي جِهادَ قلبِهِ وعقلِهِ وبدنِهِ، وحَمَلَ على نفسِهِ مِنْ مقاساةِ الأهلِ والولدِ حَمْلَهَا الإنساني العظيم، وفكّر لغيرِ نفسِه، واغتمَّ لغيرِ نَفْسِهِ، وعَمِلَ لغيرِ نفسِهِ، وآمنَ وصَبَرَ، ووثِقَ بوِلايةِ اللهِ حين تزَوَّجَ فقيراً، وبِضَمانِ اللهِ حينَ أعقبَ فقيراً؛ فهو مُجاهِدٌ في سُبُلٍ كثيرةٍ، لا في سبيلٍ واحدةٍ، كما يُجاهِدُ الغزاةُ؛ هؤلاءِ يستشهدُوْنَ مرةً واحدةً، أما هو فيستشهِدُ كلَّ يومٍ مرةً في همومِهِ بنا، واليومَ يرحمُه اللهُ بفضلِ رحمَتِهِ إيانا في الدنيا.

أمَا بَلَغَكَ قولُ ابنِ المبارَكِ وهو مع إخوانِهِ في الغَزْوِ: أتعلمونَ عملاً أفضلَ مما نحنُ فيهِ؟

قالوا: ما نَعْلَمُ ذلكَ.

قال: أَنَا أَعْلَمُ.

قالوا: فما هو؟

قال: رَجُلٌ مُتَعَفِّفٌ على فَقْرِهِ، ذو عائِلَةٍ، قد قامَ من الليلِ، فنظرَ إلى صبيانِهِ نِياماً مُتَكَشِّفِيْنَ، فَسَتَرَهُمْ وغطَّاهم بثوبِهِ، فعَمَلُهُ أفضلُ مما نحنُ فيه...

يَخْلَعُ الأبُ المسكينُ ثوبَه على صِبْيَتِهِ لِيُدْفِئَهُم بهِ، ويتلقَّى بجلده البردَ في الليل، إنّ هذا البردَ ـ يا أبا خالدٍ ـ تحفظُهُ له الجنَّةُ هنا في حَرِّ هذا الموقفِ، كأنّها مُؤتَمَنَةٌ عليه إلى أنْ تُؤدِّيَه. وإنّ ذلكَ الدفءَ الذي شملَ أولادَه ـ يا أبا خالدٍ ـ هو هنا يقاتِلُ جهنَّمَ، ويدفَعُهَا عن هذا الأبِ المسكينِ.

قال أبو خالدٍ: ويَهُمُّ الوليدُ أن يَمْضِيَ ويَدَعَنِي، فما أملكُ نَفْسِي، فأمدُّ يدي إلى الإبريقِ، فأنْشِطُه[1] من يدِهِ، فإذا هو يتحوَّلُ إلى عَظْمٍ ضَخْمٍ قد

(١) [أجذبه وانزعه].

نَشِبَ في كَفي وما يليها من أَسَلَةِ الذراع[١]. فغابتْ فيه أصابعي، فلا أصابعَ لي ولا كَفَّ. وأَبَى الإبريقُ أن يسقيَني، وصارَ مُثْلَةً بي، وتجسَّدَتْ هذه الجريمةُ لِتَشْهَدَ عليَّ، فأخذني الهولُ والفَزَعُ، وجاءَ إبريقٌ من الهواءِ، فوقعَ في يدِ الوليدِ، فتركني ومضَى.

وقلت لنفسي: ويحكَ يا أبا خالد! ما أراكَ إلا مُحاسَباً على حسناتِكَ كما يُحَاسَبُ المذنبونَ على سيئاتِهِمْ، فلا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ!

وبلغَتْني الصَّيحةُ الرهيبةُ: أينَ أبو خالدٍ الأحولُ الزاهدُ العابدُ؟

قلتُ: ها أناذا.

قيل: طَاووسٌ من طواويسِ الجنَّـةِ قد حُصَّ[٢] ذَيلُهُ، فضاعَ أَحْسَنُ ما فيهِ! أين ذَيْلُكَ من أولادِك، وأينَ محاسنُكَ فيهم؟ أَخُلِقَتْ لك المرأةُ لتتجَنَّبَها، وجُعِلَتَ نَسْلَ أبويك لتتبرَّأ أنتَ من النَّسْلِ؟

جِئْتَ من الحياةِ بأشياءَ ليسَ فيها حياةٌ؛ فما صنعتَ للحياةِ نفسها إلا أنْ هَرَبْتَ منها، وانهزمتَ عن ملاقاتِهَا؛ ثم تأْمُلُ جائزَةَ النَّصْرِ على هَزيمةٍ. . !

عَمِلَت الفضيلةُ في نفسِكَ ونشأتِكَ، ولكنَّها عَقِمَتْ فلم تَعْمَلْ بِكَ. لكَ ألفُ ألفِ ركعةٍ، ومثلُها سَجدَاتٌ من النوافلِ، ولَخَيْرٌ منها كلِّها أنْ تكونَ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ صُلبِكَ أعضـاءٌ تركَعُ وتَسْجُدُ.

قتلتَ رجولتَك، ووَأدْتَ فيها النَّسلَ، ولبثتَ طِوالَ عمرِكَ ولداً كبيراً، لم تبلغْ رتبةَ الأبِ! فلئنْ أقمتَ الشريعةَ، لقد عطَّلتَ الحقيقةَ، ولئنْ. . .

قال أبو خالد: ووقعتْ غُنَّةُ النونِ الثانيةِ في مسْمَعِي من هولِ ما خِفْتُ

---

(١) الأسلة: ما يلي الكفَّ من الذراع إلى القسم المستغلظِ منها. فالأَسَلَة هي العظمة التي تُشَدُّ عليها ساعةُ اليدِ.

(٢) حُصَّ ذيلُه: قُطِعَ وجُـذَّ.

مما بعدَها كالنَّفخِ في الصُّورِ؛ فطارَ نومي، وقمتُ فَزِعاً مشتَّتَ القلب، كمن فَتَحَ عَيْنَيْهِ بعدَ غَشْيةٍ، فرأى نفسَه في كفَنٍ في قبرٍ سُدَّ عليه. . !

وما كِدْتُ أعِي وأنظرُ حولي، وقد بَرَقَ الصبحُ في الدار، حتى رأيتُ أبا ربيعةَ يتقلَّبُ، كأنما دَحْرَجَتْهُ يَدٌ، ثم نهضَ مُسْتطارَ القلبِ من فَزَعِهِ، وقال: أهلكتَنِي يا أبا خالدٍ، أهلكتَنِي واللهِ.

قلتُ: ما بالُك يرحمُك اللهُ!

قالَ: إنّي نِمْتُ على تِلْكَ النيةِ التي عَرَفْتَ، أنْ أجمعَ قلبي للعبادةِ، وأخلُصَ من المرأةِ والولدِ، ومن المعاناةِ لهما في مَرَمَّةِ[1] المعاش، والتَّلفيقِ[2] بين رغيفٍ ورغيفٍ، وأنْ أُعْفِيَ نفسي من لأوائهم[3]، وضَرَّائهم، وبَلائِهِم، لأفرغَ إلى اللهِ، وأُقبِلَ عليهِ وحدَهُ، وسألتُ اللهَ أنْ يَخِيرَ لي في نومي؛ فرأيتُ كأنَّ أبوابَ السماءِ قد فُتِحَتْ، وكأنّ رجالاً ينزلونَ ويسيرونَ في الهواءِ، يتبعُ بعضُهم بعضاً، أجنحةً وراءَ أجنحةٍ؛ فكلّما نزلَ واحدٌ، نظر إليَّ، وقال لمن وراءه: هذا هو المشؤوم!

فيقول الآخر: نعم هو المشؤوم!

وينظرُ هذا الآخرُ إليَّ، ثم يلتفت لمن وراءه، ويقولُ له: هذا هو المشؤوم!

فيقولُ الآخرُ: نعم هو المشؤوم!

وما زالتْ «المشؤوم، المشؤوم» حتى مرُّوا؛ لا يقولونَ غيرَها، ولا أسمعُ غيرَها، وأنا في ذلك أخافُ أنْ أسألَهُم، هيبةً من الشؤم، ورجاءَ أنْ يكونَ المشؤومُ إنساناً ورائي، يُبْصِرُونَهُ ولا أبصرُه. ثم مرَّ بي آخِرُهم،

---

(١) [السعي من أجل الرزق].

(٢) [الضم].

(٣) [الجهد والمشقة].

وكان غلاماً. فقلتُ له: يا هذا، مَنْ هُوَ المشؤومُ الذي تُومِئونَ[١] إليه؟

قالَ: أنتَ!

فقلتُ: ولم ذاكَ؟

قالَ: كنّا نرفَعُ عملَكَ في أعمالِ المجاهدينَ في سبيلِ اللهِ، ثم ماتَتْ امرأتُكَ، وتحزَّنْتَ على ما فاتَكَ من القيامِ بحقِّها، فرفعْنا عملكَ درجةً أخرى؛ ثم أُمِرْنا الليلة أنْ نَضَعَ عملَك مع الخالِفِيْن، الذين فرُّوا وجَبُنوا!

إنّ سُموَّ الرَّجُلِ بنفْسِهِ عن الزّوْجَةِ والولَدِ طَيَرانٌ إلى الأعلى.. ولكنَّه طيرانٌ على أجْنِحَةِ الشَّياطين!

طَيَرانٌ بالرَّجُلِ إلى فُوَّهَةِ البُرْكانِ الَّذي في الأعلى[٢]..!

* * *

---

(١) [تشيرون].

(٢) [نشرت في «الرسالة» السنة الثانية (١٩٣٤) العدد (٦٩)].

بِنتُــه الصغيرة

فَرَغَ أبو يحيى مالكُ بنُ دينارٍ، زاهدُ البَصْرةِ وعالمُها، مِنْ كتابةِ المُصْحَفِ؛ وكانَ يَكْتُبُ المصاحِفَ للنّاسِ، ويعيشُ مما يأخُذُ مِنْ أجرةِ كتابتِهِ؛ تعفُّفاً أنْ يَطْعَمَ إلا مِنْ كَسْبِ يدهِ ـ ثم خرجَ من دارِهِ وَجْهُهُ المَسْجِدُ، فأتاه، فصلّى بالنّاسِ صلاةَ العَصْرِ، وجلسوا ينتظرونَهُ، واستوى هو قائماً، فركعَ وسَجَدَ ما شاءَ اللهُ، حتى قضى نافِلَتَه، ثم انْفَتَلَ من صلاتِهِ، فقام إلى أسْطُوانَتِهِ[1] التي يَسْتَنِدُ إليها، وتَحَلَّقَ النّاسُ حولَهُ جُموعاً خَلْفَ جُمُوْعٍ خَلْفَ جُمُوْعٍ، يذهبُ فيهم البَصَرُ مرةً هنا، ومرة هنا، مِنْ كثرتِهِم وامتدادِهم، حتّى تغطّى بهم المسجدُ على رُحْبِهِ. ومَدَّ الإمامُ عينَه فيهم، ثم أطرقَ إطراقةً طويلةً، والناسُ كأنَّ عليهم الطيرَ مما سَكَنُوْا لِهَيْبَتِهِ، ومما عَجِبُوا لخشوعِهِ؛ ثم رفعَ الشيخُ رأسَه، وقد تَندَّتْ عيناهُ، فما نَظَرَ إليهم حتّى كأنّما اطَّلعَ على أرواحِهِم فَجْرٌ رَطْبٌ من سِحْرِ ذلك النَدَىٰ.

وبَدَرَ شابٌ حَدَثٌ، فسأله: ما بكاءُ الشيخِ؟ وكان قريباً يَجْلِسُ من

---

(١) كان العلماءُ والرواةُ يجلسونَ إلى أساطينِ المَسْجِد، وهي أعمدتُهُ، كما كانَ بالأَزْهَرِ إلى عهدٍ قريبٍ.

الإمامِ في سَمْتِ بصرِه[١]، فتأمّله الشيخُ طويلاً يقلِّبُ فيه الطَّرْفَ كالمتعجِّبِ، ولَبِثَ لا يجيبُه، كأنّما عَقِدَ لسانهُ، أو أخذتْهُ من نفسِهِ حالٌ، فما يُثْبِتُ شيئاً مما يَرَى.

وازدادَ النّاسُ عَجَباً؛ فما جرَّبوا على الشّيْخِ مِنْ قَبْلِهَا حَصَراً ولا عَيّاً، ولا قَطَعَه سؤالٌ قطُّ، ولا تخلَّفَ عن جواب؛ وقالوا: إنّ له لشأناً، وما بُدٌّ أن تكونَ مِنْ وراءِ حُبْسَتِهِ شِعابٌ في نفسِه تَهْدِرُ بسَيْلِهَا وتَعْتَلِجُ؛ فما أسرعَ ما يلتقي السَّيْلُ، فيجتمعُ، فيُصَوَّبُ إلى مجراهُ، فيَتَقَاذَفُ.

وتبسَّمَ الإمامَ وقالَ: أمَا إني قد ذكرتُ ذِكرَى فبكيتُ لها، ورأيتُ رُؤْيَا فَتَبَسَّمْتُ لها؛ أما الذِّكْرَى، فهل تعلمونَ أنّ هذا المَسْجِدَ الذي يَفْهَقُ[٢] بهذا الحَشْدِ العظيمِ، وتَقَعُ فيه المدينةُ لِكُلِّ أذانٍ وتطيرُ ـ هل تعلمونَ أنّه خلا قَطُّ مِنَ النّاسِ، وقد وَجَبَت الفَريضةُ؟ قالوا: ما نَعْلَمُهُ.

قال: فَقَدْ كانَ ذلكَ لعشرينَ سنةً خَلَتْ في مَوْت الحسن[٣]، فقد ماتَ عَشِيّةَ الخَمِيسِ، وأصْبَحْنا يومَ الجُمُعَةِ، ففرغنا مِنْ أمْرِهِ، وحملناه بعدَ صلاةِ الجُمُعَةِ، فتبعَ أهلُ البصرةِ كلُّهُم جنازتَه، واشتغلوا بهِ، فلم تُقَمْ صلاةُ العَصْر بهذا المَسْجِدِ، وما تُرِكَتْ منذُ كانَ الإسلامُ إلا يومئذٍ؛ وَمِثْلُ الحسَنِ لا تموت ساعةُ موتِه مِنْ عُمْرِ مَنْ شَهِدَها، فذلك يومٌ عَجِيبٌ، قد لَفَّ نهارُه البَصْرَةَ كُلَّها في كَفَنٍ أبيضَ، فما بقيتْ في نَفْسِ رجلٍ ولا امرأةٍ شهوةٌ إلى الدُّنيا، وفَرَغَ كلُّ إنسانٍ من باطِلِه، كما يَفْرَغُ مَنْ أيقنَ أنْ ليسَ بينَهُ وبَيْنَ قبرِهِ إلا ساعة؛ وظَهَرَ لهم الموتُ في حقيقةٍ جديدةٍ بالغةِ الروعِ،

---

(١) أي أمامَهُ في الخطِّ الذي يمتَدُّ فيه البَصَرُ.

(٢) [يمتلىء].

(٣) هو الحسن البصري الإمامُ العظيم، وسيأتي وصفُه، ولد سنة (١٥) للهجرة، وتوفي سنة (١١٠) وقد توفي مالك بن دينار شيخُ هذه القصة في سنة (١٣١) فيكون تاريخ القصة في سنة (١٣٠).

لا يراها الأبناءُ في موتِ آبائِهم وأمهاتِهِم، ولا الآباءُ والأمهاتُ في موتِ مَن ولَدوا، ولا المحبُّ في موتِ حبيبِه، ولا الحميمُ في مَوْتِ حَمِيْمِهِ؛ فإنّ الجميعَ فقدوا الواحِدَ الذي ليسَ غيرُه في الجميعِ؛ وكما يموتُ العزيزُ على أهلِ بيتٍ، فيكونُ الموتُ واحداً، وتتعدَّدُ فيهم معانيه، كَذلك كانَ مَوْتُ الحَسَنِ موتاً بعَدَدِ أهلِ البَصْرَةِ!

ذاك يومٌ امتدَّ فيه الموتُ وكَبُرَ، وانكمشتْ فيه الحياةُ وصَغُرَتْ، وتحاقَرَتْ الدنيا عندَ أهلِها، حتى رَجَعَتْ بمقدارِ هذِهِ الحُفْرَةِ التي يُلْقَى فيها الملوكُ والصعاليكُ والأخلاطُ بينَ هؤلاءِ وأولئك، لا يَصغُرُ عنها الصَّغِيْرُ، ولا يَكْبُرُ عنها الكَبِيْرُ؛ لا بل دونَ ذلك، حتى رجعتْ الدُّنيا على قَدْرِ جيفةِ حيوانٍ بالعَراءِ، تَنْكَشِفُ للأبصارِ عن شَوْهَاءَ نَجسةٍ، قد أرَمَّتْ[1]، لا تُطاقُ على النَّظَرِ، ولا على الشَّمِّ، ولا على اللمسِ؛ وما تَتَفَجَّرُ إلا عَنْ آفةٍ، وما تَتَفَجَّرُ إلا لهوامِّ الأرضِ.

تلك هي الذكرى، وأما الرُّؤْيَا، فقد طالعتْني نَفْسِي مِنْ وَجْهِ هَذا الفتى، فأَبْصَرتُني حينَ كنتُ مِثْلَهُ يافعاً مُتَرَعْرِعاً، داخلاً في عَصْرِ شَـابي، فكأنّما انتبَهَتْ عيني مِنْ هذِهِ النفسُ على فاتِكٍ خبيثٍ، كان في جناياتِهِ في أغلالِهِ في سِجْنِهِ، وماتَ طويلاً ثم بُعِثَ!

إني مُخْبِرُكُمْ عنّي بما لم تُحِيْطوا به، فأَرْعُوهُ أسماعَكُمْ، وأَحْضِرُوْهُ أفهامَكُمْ، واستجمِعُوا له، فإنّه كان غَيْبَ شَيْخِكُم، وأنا محَدِّثُكُم بهِ، كَيْلا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ، ولا يَقْنَطَ يائِسٌ، فإنَّ رحمةَ اللهِ قَرِيْبٌ من المُحْسِنِيْنَ.

* * *

(١) أرمّتْ: بدأت تتعفن وتبلى.

لَقَدْ كُنْتُ في صَدْرِ أيامي شُرطيّاً، وكُنْتُ في آنِفَةِ[١] الحَداثَةِ مِنْ قَبْلِهَا أتَـفتّى[٢] وأتَـشَطَّرُ[٣]، وكنتُ قوياً مَعْصُوباً[٤] في مِثْلِ جِبلةِ الجَبَل من غِلَظٍ وشِدَّةٍ، وكُنْـتُ قاسِياً، كـأنَّ في أَضْلاعِـي جَنْدَلَـةً[٥] لا قلباً، فلا أتذمَّـمُ ولا أتَـأَثَّمُ؛ وكُنْتُ مُدْمِناً على الخَمْرِ، لأنَّها روحانيةُ مَنْ عَجَزَ أنْ تكونَ فيه روحانيةٌ، وكأنَّها أُلْهِيَّـةٌ يُزَوِّرُها الشَّيْطَانُ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ فَيَخْلُقُ بها للنَّفْسِ ما تحبُّ مما تَـكْرَهُ، ويُـثِيبُها ثوابَ ساعةٍ ليستْ في الزَّمَنِ، بل في خيالِ شارِبِهَا. وكأنَّ جَهْلَ العَقْلِ نَفْسَه في بعضِ ساعاتِ الحياةِ، هو ـ في عِلْمِ الشيطانِ وتعليمِه ـ مَعْرِفَةُ العقلِ نَفْسَه في الحياةِ!

فبينا أنا ذاتَ يومٍ أَجُوْلُ في السُّوْقِ، والنَّاسُ يَفُوْرُوْنَ في بَيْعِهِم وشرائِهِم، وأنا أرقُبُ السَّارِقَ، وأعدُّ للجاني، وأتهيَّأُ للنِّزَاعِ ـ إذْ رأيتُ اثنينِ يَتَلاحَيانِ[٦]، وقد لَبَّبَ أحدُهُمَا الآخرَ؛[٧] فأخذتُ إليهما، فسمعتُ المظلومَ يقولُ للظَّالِمِ: لقد سَلَبْتَنِي فَرَحَ بُنَـيَّاتِي، فَـسَيدْعُونَ اللهَ عليكَ، فلا تُـصِيبُ مِنْ بَعْدِهَـا خَيْراً، فإنِّي ما خَرَجْتُ إلا اتباعـاً لِقَوْلِ رسولِ اللهِ ﷺ: «مَنْ خرجَ إلى سوقٍ منْ أسواقِ المُسْلِمِيْنَ، فاشترى شَيْئـاً، فحملَهُ إلى بيتِهِ، فخَصَّ به الإناثَ دونَ الذّكورِ، نَظَـرَ اللهِ إليه»[٨].

قالَ الشيخُ: وكنتُ عَـزَبـاً لا زَوْجَـةَ لي، ولكنَّ الآدميَّـةَ انْـتَـبَهَـتْ فيَّ،

---

(١) [أولها، أو عنفوانها].
(٢) [من الفتوة وهي الغلبة].
(٣) [الشاطر من أعيا أهله ومؤدبه خبثاً].
(٤) [شديداً].
(٥) [حجارة].
(٦) [يتنازعان].
(٧) [أخذ كل واحد بنحر صاحبه].
(٨) [قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء: رواه الخرائطي بسند ضعيف»].

وطَمِعْتُ في دعوةٍ صالحةٍ من البُنَيَّاتِ المسكيناتِ، إذا أنا فرَّحْتُهُنَّ؛ ودخَلتني لهنَّ رقَّةٌ شديدةٌ، فأخذتُ للرَّجُلِ من غريمِهِ حتى رَضِيَ، وأَضْعَفْتُ له من ذات يدي، لأزيدَ في فرح بناتِهِ، وقلتُ له وهُوَ يَنْصَرِفُ: عَهْدٌ يحاسِبُكَ اللهُ عليهِ، ويستوفيه لي مِنْكَ، أَنْ تجعلَ بناتِكَ يدعونَ لي إذا رأيتَ فَرَحَهُنَّ بما تحمِلُ إليهنَّ، وقل لهنَّ: مالكُ بنُ دينارٍ.

وبِتُّ ليلتي أتقلَّبُ مُفَكِّراً في قول رسول الله ﷺ ومعانِيهِ الكثيرةِ، وحَثِّهِ على إكرامِ البناتِ، وأنَّ مَنْ أَكْرَمَ بناتِهِ كَرُمَ على اللهِ، وحِرْصِهِ أَنْ يُنَشَّأْنَ كريماتٍ فَرِحاتٍ؛ وحدّثني هذا الحديثُ ليلتي تِلْكَ إلى الصُّبْحِ، وفكَّرتُ حينئذٍ في الزّواجِ، وعلمتُ أنّ الناسَ لا يزوّجونني من طَيباتِهِم ما دُمْتُ من الخَبيثينَ؛ فلمّا أصبحتُ، غدوتُ إلى سُوقِ الجواري، فاشتريتُ جاريةً نَفِيْسَةً، ووقعتْ مني أَحْسَنَ موقعٍ، ووَلَدَت لي بنتاً، فشُغِفْتُ بها، وظهرتْ لي فيها الإنسانيَّةُ الكبيرةُ التي ليسَتْ فيَّ، فرأيتُ بُعْدَ ما بيني وبينَ صورتي الأولى؛ ورأيتُها سماويةً لا تَمْلِكُ شيئاً، وتَمْلِكُ أباها وأمَّها، وليسَ لها من الدنيا إلا شِبَعُ بَطْنِهَا وما أَيْسَرَهُ، ثم لها بعدَ ذلك سرورَ نفسِهَا كاملاً، تَشُبُّ عليه أكثرَ مما تَشُبُّ على الرَّضاعِ؛ فعلمتُ مِنْ ذلك أنّ الذي تكْتَنِفُهُ رحمةُ اللهِ يَمْلِكُ بها دنيا نفسِهِ، فما عليهِ بعدَ ذلكَ أَنْ تفوتَهُ دنيا غيرِهِ؛ وأنّ الذي يَجِدُ طهارةَ قلبِهِ يَجِدُ سرورَ قلبِهِ، وتكونُ نَفْسُهُ دائماً جديدةً على الدنيا؛ وأن الّذي يحيا بالثِّقَةِ، تُحْيِيْهِ الثقةُ؛ والذي لا يُبالي الهَمَّ، لا يُبالي الهمُّ بهِ؛ وأنَّ زينةَ الدنيا ومتاعَها وغُرُوْرَها وما تَجْلِبُ من الهمّ - كلُّ ذلك مِنْ صِغَرِ العقلِ في الإيمان حين يكبُرُ العقلُ في العلم!

كانَتْ البنيَّةُ بدءَ حياةٍ في بيتي، وبدءَ حياةٍ في نفسي، فلما دبَّتْ على الأرضِ، ازددتُ لها حُبّاً، وأَلِفَتْنِي وَأَلِفْتُهَا، فرُزِقَتْ روحي منها أطهرَ صداقةٍ في صديقٍ، تَتَجَدَّدُ للقلبِ كلَّ يومٍ، بل كلَّ ساعةٍ، ولا تكونُ إلا لمحضِ سرورِ القلبِ دونَ مطامعِهِ، فتُمِدُّهُ بالحياةِ نَفْسِها، لا بأشياءِ

الحياةِ، فلا تزيدُ الأشياءُ في المحبة، ولا تُنقِصُ منها، على خِلافِ ما يكونُ في الأصدقاءِ بعضِهم من بعضٍ، واختلافُهم على المضَرَّة والمنفعةِ.

قال الشيخُ: وجَهَدْتُ أنْ أتركَ الخمرَ، فلم يأتِ لي، ولم أستطعْهُ؛ إذْ كنتُ منهَمِكاً على شُرْبِهَا، ولكنَّ حُبَّ ابنتي وضعَ في الخَمْرِ إِثْمَهَا الذي وضعتْه فيها الشريعةُ، فكرِهتُها كُرْهاً شديداً، وأصبحتُ كالمكرَهِ عليها، ولم تَعُدْ فيها نَشْوتُها ولا رِيُّها؛ وكانتْ الصغيرةُ في تمزيقِ أخيلَتِهَا أبرعَ من الشيطانِ في هذِهِ الأخيلةِ، وكأنّما جرّتني يدُها جرّاً، حتى أبعدتْني عن المنزلةِ الخَمْرِيةِ التي كان الشيطانُ وضَعَني فيها، فانتقلتُ من الاستِهْتارِ والمكابَرةِ وعدمِ المبالاةِ، إلى النّدَمِ والتَحَوُّبِ(١) والتأثُّمِ(٢)، وكنتُ مِنْ بَعدِها كلّما وَضَعْتُ المُسْكِرَ، وهَمَمْتُ بهِ دبَّت ابنتي إلى مجلسي؛ فأنظرُ إليها، وتنتَشِرُ عليها نَفْسِي من رقَّةٍ ورحمةٍ، فأرقُبُ ما تصنَعُ، فتجيءُ، فتُجاذبني الكأسَ حتى تُهرِقَها على ثوبي، وأراني لا أغضبُ، إذْ كانَ هذا يَسُرُّها ويُضْحِكُها، فأُسرُّ لها وأضحكُ.

ودامَ هذا منّي ومنها، فأصبحتُ في المنزلةِ بين المنزلتَينِ؛ أشربُ مرةً، وأتركُ مراراً، وجعلتُ أستقيمُ على ذلك، إذْ كانت النَّشْوةُ بابنتي أكبرَ من النشوةِ بالزّجاجَةِ، وإذْ كنتُ كلّما رجعتُ إلى نفسي، وتدبَّرتُ أمري، أستعيذُ باللهِ أن تَعقِلَ ابنتي معنى الخَمْرِ يوماً، فأكونَ قد نجَّستُ أيامَها، ثم أتقدَّمُ إلى اللهِ وعليَّ ذنوبُها فوق ذنوبي، ويترحَّمُ الناسُ على آبائِهم وتَلْعَنُني، إذْ لم أكنْ لها كالآباءِ، فأكونُ قد وُجِدْتُ في الدنيا مرةً واحدةً، وهلكتُ مرتين.

---

(١) [التعبد].
(٢) [تأثم إذا ألقى الإثم عن نفسه بالعبادة].

ومضيتُ على ذلك، وأنا أَصْلُحُ بها شيئاً فشيئاً، وكلّما كَبِرَتْ كَبُـرَتْ فضيلتي، فلما تمَّ لها سنتان، ماتت!

* * *

قال الراوي: وسكتَ الشيخُ، فَعَلِقَتْ بهِ الأبْصَارُ، ووقفتْ أنفاسُ النّاسِ على شفاهِهِم، وكأنّما ماتَتْ لحظاتٌ مِنَ الزّمنِ لذِكرِ موتِ الطفلةِ، وخامَرَ المجلسَ مثلُ السُّكْرِ بهذه الكَأْسِ المُذْهِلَةِ؛ ولكنَّ الطفلةَ دبَّتْ مِنْ عالمِ الغَيْبِ كما كانَتْ تَصْنَعُ، وجذَبَتِ الكأسَ وأهرقَتْها، فانتبَه النّاسُ وصاحُوا: ماتَتْ، فكانَ ماذا؟

قال الشيخُ: فأَكْمَدَنِي الحُزْنُ عليها، وَوَهَنَ جَأْشِي، ولم يَكُنْ لي من قُوَّةِ الروحِ والإيمانِ ما أتأسّى به، فضاعَفَ الجَهْلُ أحزاني، وجَعَلَ مصيبتي مصائبَ. والإيمانُ وحدَه هو أكبرُ علومِ الحياة، يُبصِّرُكَ إنْ عميتَ في الحادثة، ويَهْدِيكَ إن ضَلَلْتَ عن السكينةِ، ويجعلُكَ صَديقَ نفسِكَ، تكونُ وإيّاها على المصيبةِ، لا عَدُوَّها تكونُ المصيبةُ وإيّاها عليكَ، وإذا أخرجَتِ الليالي من الأحزانِ والهمومِ عَسْكَرَ ظلامِهَا لقتالِ نَفْسٍ أو مُحاصَرَتِها، فما يدفعُ المالُ، ولا تردُّ القوةُ، ولا يمنعُ السلطانُ، ولا يكونُ شيءٌ حينئذٍ أضعفَ من قوّةِ القويّ، ولا أضيعَ من حِيْلَةِ المحتال، ولا أفقرَ من غِنَى الغنيّ، ولا أجهلَ من عِلْمِ العالِمِ، ويبقَى الجهدُ والحيلةُ والقُوَّةُ والعِلْمُ والغِنَى والسلطانُ ـ للإيمانِ وَحْدَهُ؛ فهو يَكْسِرُ الحادِثَ، ويُقلِّلُ مِنْ شأنهِ، ويؤيدُ النفسَ، ويضاعِفُ من قوّتها، ويَرُدُّ قَدَر اللهِ إلى حكمةِ اللهِ؛[1] فلا يلبثُ ما جاءَ أن يَرْجِعَ، وتعودُ النفسُ

(١) [هذا هو فحوى الإيمان بالقضاء والقدر، وهذه الجملة الرافعية تغني عما أفاض فيه المتكلمون من غير طائل].

من الرضا بالقَدَرَ، والإيمانِ به، كأنّما تَشْهَدُ ما يقعُ أمامَها، لا ما يقع فيها.

قال الشَّيْخُ: ورجعتُ بجهلي إلى شرٍّ مما كنتُ فيهِ، وكانتْ أحزاني أفراحَ الشَّيْطانِ؛ وأرادَ ـ أخزاهُ اللهُ ـ أن يَفْتَنَّ في أساليبِ فَرَحِهِ، فلمّا كانتْ ليلةُ النصفِ من شعبانَ ـ وكانَتْ ليلةَ جمعةٍ، وكانَتْ كأوّل نُوْرِ الفَجْرِ من أنوار رمضان ـ سوَّل ليَ الشيطانُ أنْ أسْكَرَ سَكْرةً ما مِثْلُها؛ فَبِتُّ كالميِّتِ مما ثَمِلْتُ، وقَذَفَتْنِي أحلامٌ إلى أحلامٍ، ثم رأيتُ القيامةَ والحشرَ، وقد وَلدتْ القبورُ مَنْ فيها، وسيقَ الناسُ، وأنا معهم، وليسَ وراءَ ما بي من الكَرْبِ غايةٌ؛ وسَمِعْتُ خَلْفِي زَفيراً كَفَحِيْحِ الأفْعَى، فالتفتُّ فإذا بِتِنِّينٍ عظيمٍ، ما يكون أعظمَ منه؛ طويلٌ كالنخلةِ السَّحوقِ، أسودُ أزرقُ، يُرسِلُ الموتَ من عينيه الحمراوين كالدَّمِ، وفي فمِهِ مِثْلُ الرِّماحِ مِنْ أنيابِهِ، ولِجَوْفِهِ حَرٌّ شَديدٌ، لو زفر بهِ على الأرضِ ما نبتتْ في الأرضِ خضراءُ، وقد فَتح فاه، ونَفَخَ جَوْفَهُ، وجاءَ مُسرعاً يريدُ أنْ يَلْتقِمَني، فمررتُ بين يديهِ هارِباً فَزِعاً؛ فإذا أنا بِشَيْخٍ هَرِمٍ، يكادُ يموتُ ضَعْفاً، فَعُذْتُ به، وقلتُ: أجرني وأغثني. فقال: أنا ضعيفٌ كما ترى، وما أَقْدِرُ على هذا الجبّارِ، ولكنْ مُرَّ وأسرِعْ، فلعلَّ اللهَ أنْ يُسبِّبَ لكَ أسباباً للنَّجاةِ.

فولَّيْتُ هارِباً، وأَشْرَفْتُ على النّارِ، وهي الهَوْلُ الأكْبَرُ، فرجعتُ أشتدُّ هرباً، والتِّنِّينُ على أثَرِي؛ ولقيتُ ذلك الشيخَ مرةً أخرى، فاستَجَرْتُ بهِ، فَبَكَى مِنَ الرَّحْمَةِ لي، وقال: أنا ضعيفٌ كما تَرَى، وما أقدِرُ على هذا الجبّار، ولكنْ اهربْ إلى هذا الجبلِ، فلعلَّ اللهَ يُحدِثُ أمراً.

فنظرتُ فإذا جَبَلٌ كالدّارِ العظيمةِ، له كُوًى عليها سُتُورٌ، وهو يَبْرُقُ كشعاعِ الجَوْهَرِ؛ فأَسْرَعْتُ إليه، والتِّنِّينُ من ورائي، فلما شارَفْتُ الجَبَل، فُتِحَتِ الكُوى، ورُفِعَتْ الستورُ، وأَشْرَفَتْ عليَّ وجوهُ أطفالٍ كالأقمارِ، وقربَ التنينُ منّي، وصِرْتُ في هواءِ جوْفِهِ، وهو يتَضَرَّمُ عليَّ، ولم يبقَ إلا أنْ يأخذَني؛ فتَصايَحَ الأطفالُ جميعاً: يا فاطمةُ! يا فاطمةُ!

قال الشيخُ: فإذا ابنتي التي ماتَتْ قد أشرفَتْ عليَّ، فلما رأَتْ ما أنا فيهِ صاحَتْ وبكتْ، ثم وثبتْ كَرَمْيَةِ السَّهْمِ، فجاءَتْ بين يديَّ، ومدَّتْ إليّ شِمالَها، فتعلَّقتُ بِهَا، ومدَّتْ يمينَها إلى التِّنِّينِ فولَّى هارباً، وأجلسَتْني وأنا كالميِّتِ مِنَ الخَوْفِ والفَزَعِ، وقعدَتْ في حِجْري، كما كانَتْ تَصْنَعُ في الحياةِ، وضَرَبَتْ بيدِهَا إلى لِحْيَتِي، وقالتْ: يا أبَتِ.. ﴿ ۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

فبكيتُ وقُلْتُ: يا بُنيَّةُ، أخبريني عَنْ هذا التِّنِّينِ الذي أرادَ هلاكي. قالتْ: ذاكَ عملُكَ السوءُ الخبيثُ، أنتَ قوَّيتَهُ حتى بلغَ هذا الهولَ الهائلَ، والأعمالُ تَرْجِعُ أجساماً، كما رأيتَ.

قلتُ: فذاكَ الشَّيْخُ الضعيفُ الذي استجرْتُ به ولم يُجِرْني؟

قالتْ: يا أبتِ، ذاكَ عملُكَ الصَّالِحُ، أنتَ أضعفتَه فضَعُفَ، حتى لم يكنْ له طاقةٌ أن يُغيثَك من عَمَلِكَ السيِّءِ؛ ولو لم أكنْ لكَ هُنا، ولو لم تَكُنْ اتبعتَ قولَ رسولِ الله ﷺ فيمَنْ فَرِحَ بناتِه المسكيناتِ الضعيفاتِ ـ لما كانَتْ لكَ هنا شِمالٌ تتعلَّقُ بها، ويمينٌ تَطْرُدُ عنكَ.

* * *

قال الشيخُ: وانتبهتُ من نَوْمي فَزِعاً، ألْعَنُ ما أنا فيهِ، ولا أراني أستقرُّ، كأني طَرِيْدَةُ عملي السَّيِّءِ؛ كلَّما هَرَبتُ منه هَرَبتُ بهِ؛ وأينَ المَهْرَبُ من النَّدَمِ الذي كان نائِماً في القلبِ، واستيقظَ للقَلْبِ؟

وأمَّلتُ في رحمةِ اللهِ أنْ أربَحَ مِنْ رأسِ مالٍ خاسرٍ، وقلتُ في نَفْسِي: إنَّ يوماً باقياً من العمرِ، هُوَ للمؤمنِ عُمْرٌ، ما ينبغي أن يُستهانَ بهِ؛ وصحَّحْتُ النِّيةَ على التوبةِ، لأرْجِعَ الشبابَ إلى ذلك الشَّيْخِ الضعيفِ،

وأسمَّنَ عظامَه، حتّى إذا استجزتُ به أجارني، ولم يَقُلْ: أنا ضَعِيفٌ كما ترى!.

وسألتُ، فدُلِلْتُ على أبي سعيدِ الحسَنِ بن أبي الحَسَنِ البَصْرِيّ، سيِّدِ البقيّةِ من التابعين؛ وقيل لي: إنّه جَمَعَ كلَّ علمٍ وفنٍّ، إلى الزهدِ والورعِ والعبادةِ، وإنّ لسانَه السِّحرُ، وإنّ شَخْصَهُ المِغْنَاطِيسُ، وإنّه ينطِقُ بالحكمةِ، كأنَّ في صدرِه إنجيلاً لم يُنزَّل، وإنَّ أمَّه كانتْ مولاةً لأمِّ سَلَمَةَ زوجِ النبيِّ ﷺ، فكانتْ ربَّما غابتْ أُمُّهُ في حاجةٍ فَيَبْكِي، فتُرْضِعُه أمُّ سلمةَ تُعلِّلُهُ بِثَدْيِهَا، فيدُرُّ عليهِ، فكانَتْ بينَهُ وبينَ بَرَكَةِ النبُوّةِ صلَةٌ.

وغدوتُ إلى المسْجِدِ، والحسنُ في حَلْقتِهِ يَقُصُّ ويتكلَّمُ، فجلستُ حيثُ انتهى بي المجلِسُ، وما كانَ غيرَ بعيدٍ حتى عَرَتني نَفْضَةٌ كنفضةِ الحُمَّى، إذْ قرأ الشَّيْخُ هذِهِ الآيةَ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] فلو لفظتني الأرضُ من بطنِها، وانشقَّ عني القبرُ بعدَ الموتِ، ما رأيتُ الدنيا أعجبَ مما طالعتني في تِلْكَ الساعةِ؛ وأخذَ الشيخُ يُفسِّرُ الآيةَ، فصنعَ بي كلامُهُ ما لَوْ بُعِثَ نبيٌّ مِنْ أَجْلي خاصّةً، لما صَنَعَ أكثرَ منه.

وكلامُ الحَسَنِ غيرُ كلامِ الناسِ، وغيرُ كلامِ العلماءِ؛ فإنَّه يتكلَّمُ مِنْ قلبِهِ، ومن رُوحِهِ، ومن وجهِهِ ولسانِهِ، وناهيكم مِنْ رجلٍ خاشعٍ مُتَصَدِّعٍ مِنْ خشيةِ اللهِ، لم يكنْ يُرَى مُقْبِلاً إلاّ وكأنَّه أسيرٌ أُمِرُوا بضربِ عنقه، وإذا ذُكِرَت النَّارُ فكأنَّها لم تُخْلَقْ إلا له وَحْدَهُ؛ رجلٌ كان في الحياةِ لتتكلَّمَ الحياةُ بلسانِهِ أصدقَ كلماتِها.

فصاحَ صائحٌ: يا أبا يَحْيَى، التفسيرَ التفسيرَ! وصاحَ المؤذِّنُ: اللهُ أكبرُ. فقطعَ الشيخُ، وقال: التفسيرُ إن شاءَ اللهُ في المجلسِ الآتي.

* * *

. . . وجاء مِنَ الغَدِ أبو يَحيى مالكُ بنُ دينارٍ إلى المسجدِ، فصلّى بالناسِ، ثم تحوَّلَ إلى مجلسِ درسِه، وتَعَكَّفوا حوله؛ وكانوا إلى بقيَّةِ خَبرِه في لهفةٍ، كأنَّ لها عُمُراً طويلاً في قلوبِهم، لا ظَمَأ ليلةٍ واحدةٍ.

وقالَ مِنْهُمْ قائلٌ: أيها الشيخُ! جُعِلتُ فِداك، ما كان تأويلُ الحَسَنِ لتلكَ الآيةِ مِنْ كلامِ اللهِ تعالى، وكيفَ رَجَعَ الكلامُ في نفسِكَ مَرْجِعَ الفِكْرِ تَتَّبعُه، وأصبحَ الفِكْرُ عِنْدَكَ عملاً تَخذُوْ عليهِ، واتَّصَلَ هذا العملُ، فكانَ ما أنتَ في وَرَعِكَ و. . . ؟

فَقَطَعَ الإمامُ عليهِ، وقال: هَوِّنْ عليكَ يا هذا؛ إنّ شيخَكَ لأهوَنُ مِنْ أنْ تَذْهَبَ في وصفِه يميناً أو شمالاً، وقد روى لنا الحَسَنُ يوماً ذلكَ الخبرَ الواردَ فِيْمَنْ يُعَذَّبُ في النار ألفَ عامٍ مِنْ أعوامِ القيامةِ، ثم يدركُه عفوُ اللهِ، فيخرجُ منها، فبكى الحَسَنُ وقال: «يا ليتني كنتُ ذلك الرَّجُل!» وهو الحسنُ يا بُنَيَّ، هو الحسنُ. . !

فضجَّ النّاسُ، وصاحَ منهم صائحون: يا أبا يَحيى، قَتَلْتَنا يَأْساً.

وقال الأوَّلُ: إذا كانَ هذا فأوشِكْ أن يعمَّنا اليأسُ والقُنوطُ، فلا ينفعُنا عملٌ، ولا نأتي عملاً يَنْفَعُ.

قال الشيخُ: هوِّنوا عليكم، فإنّ للمؤمنِ ظَنَّينِ: ظنّاً بنفسِه، وظنّاً بربِهِ؛ فأما ظنُّه بالنفسِ، فينبغي أنْ ينـزِلَ بها دونَ جَمَحَاتِها، ولا يفتأ ينزِلُ؛ فإذا رأى لنفسِه أنّها لم تعملْ شيئاً أوجبَ عليها أن تعملَ، فلا يـزالُ دائماً يدفُعها؛ وكلّما أكثرتْ من الخير، قال لها: أكثِري. وكلّما أقلَّتْ مِنَ الشرِّ، قال لها: أقلّي. ولا يزالُ هذا دأبَهُ ما بقي.

وأما الظنُّ باللهِ، فينبغي أنْ يعلوَ بـه فوقَ الفَتَراتِ والعِلَلِ والآثـامِ،

ولا يزالُ يعلُوْ؛ فإنّ اللهَ عِنْدَ ظنِّ عبدِه بهِ، إنْ خيراً فله، وإنْ شراً فله[(١)].

ولقد روينا هذا الخبرَ: «كان فيمنْ كانَ قبلكم رجلٌ قَتَلَ تِسْعاً وتسعينَ نفساً، فسأل عَنْ أعْلمِ أَهْلِ الأرضِ، فَدُلَّ على راهبٍ، فأتاه، فقال: إنه قَتَلَ تِسْعاً وتِسْعِينَ نَفْساً، فهل لهُ مِنْ تَوبةٍ؟ قال: لا! فقتَله، فكمَّل به مئةً!

ثم سَأَلَ عَنْ أعلمِ أهلِ الأرضِ، فدُلَّ على رجلٍ عالمٍ، فقال له: إنّه قتلَ مئةَ نفسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ توبةٍ؟ قال: نعم؛ ومَن يَحُوْلُ بينَكَ وبينَ التَّوبةِ؟ انطلِقْ إلى أرضٍ كذا وكذا، فإنّ بها أناساً يَعْبُدوْنَ اللهَ عزَّ وجلَّ، فاعْبُدِ اللهَ معهم، ولا ترجِعْ إلى أرضِكَ، فإنّها أرضُ سَوْءٍ.

فانطلَقَ، حتى إذا نَصَفَ الطريقَ، أتاه مَلَكُ الموتِ، فاختصمتْ فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذابِ؛ فقالتْ ملائكةُ الرحمةِ: جاءَ تائباً مُقْبِلاً بقلبه إلى اللهِ. وقالت ملائكةُ العذابِ: إنَّه لم يعملْ خيراً قَط. فأتاهم مَلَكٌ في صورةِ آدميٍّ، فجعلوه حَكَماً بينهم، فقال: قِيْسُوا ما بينَ الأرْضَينِ، فإلى أيّهمَا كانَ أدنى فَهُو لَهُ. فَقَاسُوْا، فوجدوه أَدْنَى إلى الأَرْضِ التي أرادَ، فَقَبَضَتْهُ ملائكةُ الرحمةِ!»[(٢)].

قال الشيخُ: فهذا رجُلٌ لمَّا مَشَى بِقَلْبِهِ إلى اللهِ، حُسِبتْ له الخطوةُ الواحدةُ، بل الشِّبْرُ الواحدُ؛ ولو أنّه طوّفَ الدنيا بقدميه، ولم يكن له ذلك القلبُ، لكانَ كالعظامِ المحمولةِ في نعشٍ؛ قبرُها في المشرقِ هو قبرُها في المغربِ، وليس لها مِنَ الأرضِ ولا للأرضِ منها إلا معنى واحدٌ لا يتغيَّرُ؛ هو أنّه بجملتِه ميّتٌ، وأنّها بجملتِها حُفْرةٌ.

---

(١) [روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، إن ظنّ خيراً فله، وإن ظنّ شراً فله» وهو حديث صحيح انظر «الأحاديث الصحيحة» رقم (١٦٦٣)].

(٢) [أخرجه البخاري في الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل رقم (٣٤٧٠) ومسلم في التوبة رقم (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه].

والإنسانُ عندَ النّاسِ بهيئةِ وَجْهِهِ وحِلْيَتِهِ التي تبدو عليه، ولكنَّهُ عندَ اللهِ بهيئةِ قلبِهِ وظنِّه الذي يَظنُّ بهِ؛ وما هذا الجسمُ مِنَ القلبِ إلا كَقِشْرَةِ البيضةِ[1] مما تحتها. فيالها سخريةً أنْ تزعم القشرةُ لنفسِها أنّ بها هي الاعتبارَ عند النّاسِ لا بما فيها، إذ كانَ ما تحويه لا يكونُ إلا فيها هي؛ ومِنْ ثَمَّ تُبْعِدُ في حماقتها فتسألُ: لماذا يرميني النّاسُ ولا يأكلونني. . ؟

إنّ هذه الأخلاقَ الفاضِلَةَ في هذا الإنسانِ لا تَجِدُ تمامَ معناها إلا في حالةٍ بعينِها مِنْ أحوالِ القلبِ، وهي حالةُ خشوعِهِ على وَصْفِها الذي شَرَحَتْهُ الآيةُ الكريمة: ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

فالأخلاقُ الفاضِلَةُ محدودةٌ باللهِ والحقِّ معاً، وهي كلُّها في خُشُوْعِ القَلْبِ لهذين؛ فإنَّ مِنْ القلبِ مخارجَ الحياةِ النفسية كلِّها.

قال الشيخُ: وأنا منذ حَفِظْتُ عنِ الحَسَنِ تأويلَ هذِهِ الآيةِ، واسْتَبَنْتُ بها، مضيتُ أعيشُ من الدنيا في تاريخِ قلبي، لا في تاريخِ الدنيا، وأدركتُ من يومئذٍ أنْ ليسَ حِفْظُ القرآنِ حِفْظَه في العقلِ، بل حفظُه في العملِ بهِ؛ فإنْ أنتَ أثبتَّ الآيةَ منه، وكنتَ تَعْمَلُ بغيرِ معناها، وتعيشُ في غيرِ فضيلَتِهَا، فهذا ـ ويحَك ـ نسيانُها لا حفظُها: وقد كانَ قومُنا الأوّلونَ بمعانيه كالشجرةِ الخضراءِ الناميةِ؛ فيها ورَقُها الأخضرُ وزهرُها، وعلى ظاهِرِها حياةُ باطنِها، فلما ثبتَ النّاسُ على الشَّكْلِ وحدَهُ، ولم يبالوا القلبَ وأحوالَه، أصبحوا كالشجرةِ اليابسةِ، عليها ورقُها الجافُّ، ليسَ في بقائِهِ ولا سقوطِهِ طائلٌ.

ما أصبحتُ ولا أمسيتُ مُنْذُ حَفِظْتُ تفسيرَ الآيةِ إلا في حياةٍ منها،

---

(١) قشرة البيضة العليا اليابسة تسمى القَيْضُ بفتح القاف وسكون الياء، والقشرةُ الداخلية الملتزقة بالبياض تسمى الغِرْقِيء بكسر الغين والقاف.

وهذه الآيةُ هي التي دلَّتني بمعانيها أنْ ليستْ الحياةُ الأرضيَّةُ شيئاً إلا ثورةَ الحيِّ على ظُلْمِ نَفْسِهِ، يَسْتَكِفُّ عنها أكثرَ مما يَسْتَجِرُّ لها، والناسُ مِنْ شقائِهم على العَكْسِ، يستجرُّونَ أكثرَ مما يستكِفُّون، وإنّما السَّعِيْدُ مَنْ وَجَدَ كلماتٍ روحانيةً إلَهيةً يَعيشُ قلبُه فيهنَّ، فذاكَ لا يَعْمَلُ أعمالَهُ كما يأتي ويتفقُ، بل يحذو على أصلٍ ثابتٍ في نفسِه، ويختارُ فيما يعملُ أحسنَ ما يعملُ، ومِنْ ثَمَّ لا يكونُ جهادُه مُرَاغمَةً أو خضوعاً في سبيلِ الوجودِ كالحيوانِ، بل في سبيلِ صِحَّةِ وجودِهِ؛ ولا يكونُ غَرَضُهُ أنْ يُلابِسَ الحياةَ كما تأخذُهُ هي وتَدَعُه، بل أنْ يحيا في شرفِ الحياةِ على ما يأخذُها هو ويَدَعُها.

إنّ الشقاءَ في هذِه الدنيا إنّما يَجُرُّهُ على الإنسانِ أنْ يعملَ في دَفْعِ الأحزانِ عن نفسِه بمقَارَفَتِه الشهواتِ، وبإحساسِهِ غرورَ القلبِ؛ وبهذا يُبْعِدُ الأحزانَ عن نفسِه ليجلبَها على نفسِه في صُوَرٍ أخرى!

* * *

قال الشيخُ: وكان مما حفظتُه من تفسيرِ الحَسَنِ قولَه:

إنَّ كلَّ كلمةٍ في الآيةِ تكادُ تكونُ آيةً، وليستْ الكلمةُ في القرآنِ كما تكونُ في غيرِه، بل السُّمُوُّ فيها على الكلامِ أنّها تحمِلُ معنًى، وتُومِىءُ إلى معنًى، وتَسْتَتْبِعُ معنًى؛ وهذا ما لَيْسَ في الطّاقةِ البشريةِ، وهو الدليلُ على أنّه ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [هود: ١][(١)].

---

(١) طريقتُنا في اكتناهِ إعجازِ القرآنِ، أنَّ الكلمةَ الواحدةَ من كلماتِه لها جهاتٌ عدة؛ كما ترى فيما نشرحُه من تفسير هذه الآية، وفيما جئنا بهِ من تفسيرِ آياتٍ سبقتْ في المقالاتِ الأخرى؛ فالبحثُ في فهمِ القرآنِ يجبُ أن يكونَ في اللفظةِ، ووجهِ اختيارِها، وسياقِ تركيبِها، وما تدلُّ عليه في كلِّ ذلك، وما يدلُّ كلُّ ذلك بها. وقد بسطنا هذا في كتابِنا: «إعجاز القرآن».

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ هذه الكلمةُ حثٌّ، وإِطْماعٌ، وجِدالٌ، وحُجَّةٌ؛ وهي في الآية تُصرِّحُ أنَّ خشُوعَ القلبِ الذي تِلْكَ صفتُه هو كمالٌ للإيمانِ، وأنَّ وقتَ هذا الخشوعِ هو كمالُ العُمرِ، وكيفَ يَعْرِفُ المؤمنُ أنه سَيأْني له أنْ يعيشَ ساعةً أو ما دونها؟ إذنْ فالكلمةُ صارخةٌ تقول: الآن الآنَ قبل ألاّ يَكُوْنَ آنٌ. أي: البدَارَ البدَارَ ما دمتَ في نَفَسٍ من العُمرِ؛ فإنَّ لحظةً بعد الآن لا يضمنُها الحيُّ. وإذا فَنِيَ وقتُ الإنسانِ انتهى زمنُ عملِه، فبقيَ الأبدَ كلُّه على ما هو؛ ومعنى هذا أنَّ الأبدَ للمؤمنِ الذي يُدْرِكُ الحقيقةَ إنْ هُوَ إلا اللحظةُ الراهنةُ من عمره التي هي الآن. فانظر ـ ويحَكَ ـ وقد جُعِلَ الأبدُ في يَدِكَ؛ انظر كيفَ تصنَعُ بهِ؟

تلكَ هي حكمةُ اختيارِ اللفظةِ من معنى (الآن) دونَ غيرِه، على كثرةِ المعاني.

ثم قال: ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وهذا كالنَّصِّ على أنَّ غيرَ هؤلاءِ لا تَخْشَعُ قلوبُهم لِذِكْرِ اللهِ ولا للحَقِّ، فلا تقومُ بهم الفَضِيْلَةُ، ولا تَسْتَقِيْمُ بهم الشَّرِيْعَةُ، وعالِمُهُم وجاهِلُهُم سواءٌ؛ لا يخشعانِ إلا للمادَّةِ؛ وكأنَّ إنسانَهُم إنسانٌ تُرابيّ، لا يزالُ يضطرِبُ على مَكْرِ الليل والنهار بين طرفينِ من الحيوانِ: عَيْشِه وموتِه؛ وما تقسو الحياةُ قسوتَها على النّاسِ إلا بِهم، وما تَرِقُّ رقَّتَها إلا بالمؤمنينَ.

وجَعل الخشوعَ للقلوبِ خاصةً، إذْ كان خشوعُ القلبِ غيرَ خشوعِ الجسمِ، فهذا الأخيرُ لا يكونُ خشوعاً، بل ذُلاًّ، أو ضَعَةً، أو رياءً أو نفاقاً، أو ما كان.

أما خشوعُ القلبِ فلن يكونَ إلا خالِصاً مُخلَصاً مَحْضَ الإرادةِ.

واشترطَ القلبَ، كأنّه يقولُ: إنّما القَلْبُ أساسُ المؤمنِ، وإنَّ المؤمنَ يَنْبُعُ مِنْ قلبه لا مِنْ غيرِه، متى كان هذا القَلْبُ خاشِعاً للهِ وللحقِ، فإنْ لم يكن قلبُه على تلك الحال، نَبَعَ منه الفاسِقُ والظّالِمُ الطاغيةُ وكلُّ ذي شرٍّ. ما أشبهَ القلبَ تتفرَّعُ منه معاني الخُلُق، بالحبَّةِ تَنسَرحُ منها الشجرة؛ فخُذْ نفسَك من قلبِكَ كما شئتَ؛ حُلواً مِنْ حُلوٍ، ومُرّاً مِنْ مُرٍّ.

وخشوعُ القَلْبِ للهِ وللحقِّ، معناه السموُّ فوقَ حُبِّ الذّاتِ، وفوقَ الأَثَرَةِ والمطامعِ الفاسِدَةِ؛ وهذا يَضَعُ للمؤمنِ قاعدةَ الحياةِ الصحيحةِ، ويجعلُها في قانونَينِ لا قانونٍ واحدٍ؛ ومتى خشعَ القلبُ للهِ وللحقِّ، عَظُمتْ فيه الصغائرُ من قوّةِ إحساسِه بها، فيراها كبيرةً كبيرةً، وإن عَمِيَ الناسُ عنها، ويراها وهي بعيدةٌ منه، بمثل عَيْنِ العُقابِ: يكونُ في لُوْحِ[1] الجَوِّ، ولا يغيبُ عن عينِه ما في الثَّرَى.

وقد تَخْشَعُ القلوبُ لبعضِ الأهواءِ خشوعاً هو شرٌّ من الطغيانِ والقَسْوَةِ؛ فتقيُّدُ خشوعِ القلبِ ﴿لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، هو في نفسِه نَفيٌ لعبادةِ الهوى، وعبادةِ الذّاتِ الإنسانيةِ في شهواتِها. وما الشهوةُ عند المخلوقِ الضعيفِ إلا إلهُ ساعتِها. فياما أحكمَ وأعجبَ قولَ النبيِّ ﷺ: «لا يزني الزاني حينَ يزني وهو مؤمنٌ، ولا يَسْرِقُ السّارِقُ حين يَسْرِقُ وهو مؤمنٌ، ولا يَشْرَبُ الخَمْرَ حينَ يَشْرَبُهَا وهو مؤمنٌ»[2]. جَعَلَ نزعَ الإيمانِ موقوتاً «بالحينِ» الذي تُقْتَرَفُ فيه المعصيةُ؛ إذْ لم يكنُ اللهُ عندَ هذا الشقيِّ هو إله ذلك الحين.

والخشوعُ لِمَا نزَلَ من الحقِّ هو في معناه نَفيٌ آخرُ للكبرياءِ الإنسانيةِ

---

(١) [بالضم: أعلى].

(٢) [أخرجه مسلم في الإيمان رقم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

التي تُفسِدُ على المرءِ كلَّ حقيقةٍ، وتَخْرُجُ به مِنْ كلِّ قانونٍ؛ إذْ تَجْعَلُ الحقائقَ العامَّةَ محدودةً بالإنسانِ وشهواتِه، لا بحدودِها هي من الحقوقِ والفضائلِ.

ويَخرُجُ من هذا وذلك تقريرُ الإرادةِ الإنسانيةِ، وإلزامُها الخيرَ والحقَّ دونَ غيرِهما، وقهرُها للذَّاتِ وشهواتِها، وجعلُها الكبرياءَ الإنسانيةَ كبرياءً على الدنايا والخسائس، لا على الحقوقِ والفضائلِ؛ وإذا تقرَّرَ كلُّ ذلك، انتهى بطبيعتِهِ إلى إقرارِ السكينةِ في النَّفْسِ، ومَحْوِ الفَوضى منها، وجَعْلِ نظامِها في إحساسِ القلبِ وحدَه؛ فيحيا القلبُ في المؤمنِ حياةَ المعنى السامي، ويكونُ نبْضُه علامةَ الحياةِ في ذاتِهَا، وخشوعُه للهِ وللحقِّ علامةَ الحياةِ في كمالها.

وقال: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ كأنَّه يقولُ: إنَّ هذا الحقَّ لا يكونُ بطبيعتِه ولا بطبيعةِ الإنسانِ أرضيّاً، فإذا هو ارتفعَ من الأرضِ، وقرَّره الناسُ بعضُهم على بعضٍ، لم يجاوِزْ في ارتفاعِه رأسَ الإنسانِ، وأفسدتْهُ العقولُ؛ إذْ كانَ الإنسانُ ظالماً متمرِّداً بالطبيعةِ، لا تحكمُهُ من أولِ تاريخِهِ إلا السماءُ ومعانِيها، وما كانَ شَبِيهاً بذلكَ مما يَجيئُـهُ مِنْ أَعْلَى؛ أيْ بالسلطانِ والقوةِ؛ فيكونُ حقّاً نازلاً مُتدَفِّعاً، كما يَتصَوَّب الثُّقْـلُ من عالٍ، ليسَ بينَهُ وبَيْنَ أن يَنفُذَ شيءٌ.

والخشوعُ لما نَزَلَ من الحقِّ ينفي خشوعاً آخر، هو الذي أفسدَ ذاتَ البينِ من النّاس، وهو الخشوعُ لما قامَ مِنَ المنفعةِ، وانصرافُ القلبِ إليها، بإيمانِ الطمعِ لا الحق.

وَبِحَمْلِ الآيةِ على ذلك الوَجْهِ يتحقَّقُ العَدْلُ والنَّصفَةُ بين النّاسِ؛ فيكونُ العدلُ في كلِّ مؤمنٍ شعوراً قلبيّاً، جارياً في الطبيعةِ، لا مُتكلَّفاً مِنَ العَقْلِ؛ وبهذا وحدَه تكونُ للإنسانِ إرادةٌ ثابتةٌ عن الحقِّ في كلِّ طريقٍ، لا إرادةٌ لكلِّ طريقٍ، وتستمرُّ هذه الإرادةُ مُتَّسقةً في نظامِها مع إرادةِ اللهِ،

لا نافرةً منها، ولا متمرِّدَةً عليها؛ وهذا، وذلك يُثبِّتُ القلبَ مهما اختلفتْ عليه أحوالُ الدنيا، فلا يكونُ من إيمانِه إلا سُموُّهُ وقوَّتُهُ وثباتُهُ، وينزِلُ العمرُ عندَه منزلةَ اللحظةِ الواحِدَةِ، وما أيسرَ الصبرَ على لحظةٍ! ما أهونَ شرَّ «الآن» إنْ كان الخيرُ فيما بعدَه.

ألمْ يأنِ، ألمْ يأنِ، ألمْ يأنِ..

* * *

قال الشيخُ: وكانَ الحَسَنُ في معانيه الفاضِلَةِ هو هذِهِ الآيةَ بعينِها؛ فما كانتْ حياتُه إلا إسلاميةً كهذا الكلامِ الأبيضِ المُشْرِقِ الذي سَمِعْتُه مِنْهُ؛ شعارُه أبداً: «الآنَ قبلَ ألاّ يكونَ آنٌ» وإمامُه: «خُذْ نفسَك من قلبِكَ» وطريقتُه «شَرفُ الحياةِ لا الحياةُ نفسُها».

وكان يرى هذِه الحياةَ كوَقْعةِ الطائرِ؛ هي جَناحينِ مُسْتوْفِزَينِ أبداً لعملٍ آخر هو الأقوى والأشد، فلا ينزِلانِ بطائرِهما على شيءٍ إلا مَطْوِيينَ على قُدْرة الارتفاعِ به، ولا يكونانَ أبداً إلا هَفْهافَينِ خَفيفينِ على الطيَرانِ؛ إذ كانا في حُكْمِ الجوِّ لا في حُكْمِ الأرْضِ.

وآلةُ الوقوعِ والطَّيَرانِ بالإنسانِ شهواتُه ورَغَباتُه؛ فإنْ حَطَّتْهُ شهوةٌ لا تَرْفَعُهُ، فقد أوبَقَتْهُ وأهلكتْهُ وقَذَفَتْ بهِ لِيُؤْخَذَ..

لقد روينا عن النبيِّ ﷺ: «لا يَبلُغُ العبدُ أنْ يكونَ مِنَ المتَّقِيْنَ حتى يدَعَ مالا بأسَ به حَذَراً مما به بأسٌ»[1]، وهذا ضَرْبٌ من خشوعِ القلبِ المؤمنِ فيما يحِلُّ له: يَدَعُ أشياءَ كثيرةً لا بأسَ عليه فيما لو أتاها؛ ليَقوَى على أنْ

(١) [أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم عن عطية السعدي، وهو حديث ضعيف، كما ذكر في «ضعيف الجامع رقم (٦٣٣٥)»].

يَدَعَ ما فيهِ بأسٌ، فإنّ الذي يتركُ ما هُوَ له يكونُ أقوى على تَرْكِ ما لَيْسَ له.

والنفسُ لا بدَّ راجعةٌ يوماً إلى الآخرةِ، وتاركةٌ أداتَها؛ فقِوامُ نظامِها في الحياةِ الصحيحةِ أنْ تكونَ كلَّ يومٍ كأنّها ذَهَبَت إلى الآخرةِ وجاءَتْ، وتِلْكَ هي الحكمةُ فيما فرضَتْهُ الشَّرِيعَةُ الإسلاميةُ من عبادةٍ راتبةٍ تكونُ جُزْءاً من عملِ الحياةِ في يومِها وليلتِهَا. فإذا لم تكن النفسُ في حياتِهَا كأنَّها دائماً تَذْهَبُ إلى مصيرِها وترجعُ منه، طَمَسَها الجسمُ، وحبَسها في إحدى الجهتين، فلم يبقَ لها فيه إلا أثرٌ ضئيلٌ لا يتجاوَزُ النُّصْحَ، كاعتراضِ المقتولِ على قاتِلِهِ: يحاوِلُ أنْ يَرُدَّ السَّيْفَ بكلمةٍ. . ! وبذلك يتضاعَفُ الجسمُ في قوّتِهِ، ويشتدُّ في صولته، ويتصرَّف في شهواته، كأنّ له بطنين يجوعانِ معاً، فَتَسْتَهْلِكُ شهواتُ المرءِ دينَه، وتقذِفُ به يميناً وشمالاً، على قصدٍ وعلى غيرِ قصدٍ، وتمضي به كما شاءتْ في مَدْرَجَةٍ مَدْرَجَةٍ من الشرّ.

ومثلُ هذا المسْرِفِ على نفسِه لا يكونُ تمييزُه في الدِّينِ، ولا إحساسُه بالخير ـ إلا كذلك السِّكّيرِ الذي زعموا أنّه أراد التوبة، وكانتْ له جَرَّتان من الخمرِ، فلما اتَّعظَ وبلغَ في النّظرِ إلى نفسِه وحظِّ إيمانِهِ، وأرادَ أنْ يطيعَ اللهَ ويتوبَ. نظر إلى الجرَّتين، ثم قال: أتُوبُ عن الشربِ مِنْ هذِه حتى تفرغَ هذِه. . . !

* * *

قال الشيخُ: ثم إنّي تبتُ على يدِ الحَسَنِ، وأخلصتُ في التوبةِ وصَحَّحْتُها، وعلمتُ مِنْ فعلِه وقولِه أنّ حقيقةَ الدِّيْنِ هي كبرياءُ النفسِ على شرِّها وظُلْمِهَا وشهواتِهَا، وأنَّ هذِه الكبرياءَ القاتِلَةَ للإثْمِ، هي في النَّفْسِ أختُ الشجاعةِ القاتلةِ للعدوِّ الباغي: يَفْخَرُ البطلُ الشجاعُ بمبلغِهِ من هذِه، ويَفْخَرُ الرَّجُلُ المؤمِنُ بمبَلغِهِ من تلكَ؛ وأنَّ خشوعَ القلبِ هو في معناهُ حقيقةُ هذِه الكبرياءِ بعَيْنِهَا.

وحَدَّثْتُ الحسنَ يوماً حديثَ رؤياي، وما شُبِّهَ لي مِنَ عملي السيء وعملي الصّالِحِ، فاستدْمَعَتْ عيناهُ، وقال:

إنّ البنتَ الطاهرةَ هي جهادُ أبيها وأمِّها في هذِه الدُّنيا، كالجهادِ في سبيلِ اللهِ، وإنّها فوزٌ لهما في معركةٍ من الحياةِ، يكونان هما والصبرُ والإيمانُ في ناحيةٍ منها قَبِيلاً، ويكونُ الشيطانُ والهمُّ والحَزَنُ في الجهةِ المُناوِحَةِ[1] قبيلاً آخرَ.

إنّ البنتَ هي أمٌّ ودارٌ، وأبَوَاها فيما يُكابِدَانِ من إحسانِ تربيتِها وتأديبِها وحياطتِها والصبرِ عليها واليَقَظَةِ لها ـ كأنّما يحمِلانِ الأحجارَ على ظهرَيْهما حجراً حجراً، لِيَبْتَنِيا تلكَ الدارَ في يومٍ يومٍ إلى عشرينَ سنةٍ أو أكثرَ، ما صَحِبَتْهُ وما بقيتْ في بيتِه.

فليسَ ينبغيَ أَنْ يَنْظُرَ الأبُ إلى بنتِه إلا على أنّها بِنْتُه، ثم أمُّ أولادها، ثم أمُّ أحفاده؛ فهي بذلك أكبرُ مِنْ نَفْسِها، وحقُّها عليهِ أكبرُ من الحقّ، فيه حُرْمتُها، وحِرمةُ الإنسانيّةِ معاً؛ والأبُ في ذلك يُقْرِضُ اللهَ إحساناً وحناناً ورحمةً، فحقٌّ على اللهِ أن يُوَفِّيه من مثلها، وأن يُضْعِفَ له.

والبنتُ ترى نفسَها في بيتِ أهلِها ـ ضعيفةً كالمنقطِعةِ وكالعالَةِ، وليسَ لها إلا اللهُ ورحمةُ أبويها؛ فإنْ رَحِمَاها، وأكرَماها فوقَ الرحمةِ، وسَرَّاها فوقَ الكرامةِ، وقاما بحقِّ تأديبِها وتعليمِها وتفقيهِها في الدينِ، وحَفِظا نفسَها طاهرةً كريمةً مسرورةً مؤدَّبةً ـ فقد وضعا بينَ يَدَيِّ اللهِ عملاً كاملاً من أعمالهما الصالحةِ، وكما وضعاه بين يدي الإنسانيةِ. فإذا صارا إلى اللهِ كان حقّاً لهما أن يجدا في الآخرة يميناً وشمالاً يذهبانَ بينهُمَا إلى عَفْوِ الله وكرمه، وكما قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانَ له ابنةٌ فأدّبَهَا فأحْسَن تأْدِيبَها، وغَذَاها فأَحْسَنَ غِذَاءَها، وأسبغَ عليها من النّعْمَةِ التي أسبغَ اللهُ عليهِ ـ

---

(١) [المقابلة].

كانتْ له مَيْمَنَةً ومَيْسَرَةً من النَّار إلى الجنَّةِ»(١).

فهذِه ثلاثٌ لابدَّ مِنْها معاً، ولا تُجْزِىءُ واحدةٌ عَنْ واحدةٍ في ثوابِ البِنْتِ: تربيةُ عقلِها تربيةَ إحسانٍ، وتربيةُ جسمِهَا تربيةَ إحسانٍ وإلطافٍ، وتربيةُ روحِها تربيةَ إكرامٍ وإلطافٍ وإحسانٍ.

قال الشيخ: واللهُ أرحمُ أنْ تضيعَ عندَهُ الرحمةُ؛ واللهُ أكرمُ أنْ يَضِيعَ الإحسانُ عندَهُ، واللهُ أكبرُ. .

وهنا صاح المؤذِّن: اللهُ أكبرُ.

فتبسَّم الشيخُ، وقام إلى الصَّلاةِ(٢).

* * *

(١) [أخرجه الطبراني والخرائطي في «مكارم الأخلاق» عن ابن مسعود، انظر «كنز العمال» رقم (٤٥٣٩١) وآخر الحديث فيه: «كانت له منعة وستراً من النار»].

(٢) [نشرت في «الرسالة» السنة الثالثة (١٩٣٥) العددان (٨٢ ـ ٨٣)].

الانتحــار[١]

حَدَّثَ المُسَيَّبُ بن رافعٍ الكوفيُّ قال: بينا أنا يوماً في مَسْجِدِ الكوفةِ، ومعي سَعِيْدُ بنُ عثمانَ، ومُجاهِدُ، وداود الأزْدِيّ، وجماعةٌ ـ أقبلَ فتًى فجلسَ قريباً منّا، وكان تلقاءَ وَجْهِي؛ لا أمُدُّ نظري إلا انطلقَ في سَمْتِهِ، ووقَفَ عليه، وكنّا نَتَحَدَّثُ، فرأيتُهُ يَتَسَمَّعُ إلى حديثِنا؛ فلما تكلَّم سعيدٌ ـ وكانَ خافتَ الصّوتِ من عِلَّةٍ به، وكنّا نُسَمّيْهِ النملةَ الصَّخّابةَ ـ رأيتُ الفتى يَتَزَحَّفُ قليلاً قليلاً، حتى صار بحيثُ يَقَعُ في سَماعِهِ حَسِيْسُ نَمْلَتِنا.

وكان سعيدُ يقولُ: اجْتَزْتُ أنا والشّعبيُّ[٢] أمسِ بعمران الخيَّاط، فمازَحَهُ الشيخُ، فقال له: عِندنا حِبٌّ[٣] مكسورٌ، تَخيطُه؟ قال: نعم، إنْ كان عِنْدَكَ خيطٌ من رِيحٍ!

---

(١) انظر سببَ إنشائِهِ هذه المقالاتِ الستُّ في «عودٌ على بدءٍ» من كتاب «حياة الرافعي» [٢٥٦].

(٢) هو الإمام العظيم عامر بن شراحيل الشعبي توفي سنة (١٠٣) للهجرة، أو حولها. عن بضعٍ وثمانين سنة، وكانَ في عصرِهِ أحدَ العلماءِ الأربعةِ في الإسلام: سعيد بنُ المسيب في المدينة ذكرناه في قصة زواج [٦٤]، والحسن البصري في البصرة ذكرناه في قصة: بنته الصغيرة [١٣٤] ومكحولٌ في الشام، والشعبي هذا في الكوفة. وكان يُشبهُ في زمانه ابنَ عباس في زمانِهِ.

(٣) الحِبُّ (بكسر الحاء): هو الزير، يُسْتَقْطَرُ الماءُ من أسفلِه، فيخرجُ صافياً، ويُقَالُ لرشحه: قَطْرُ حِبٍ.

فقلتُ أنا: فاذهبْ فَجِئْنَا بالمِغْزَلِ الذي يغزِلُ الهواءَ لِنَصْنَع لك الخيطَ.

قال مجاهد: هذا ليسَ بشيءٍ في تَنادُرِ شَيْخِنَا، وما يتَّفقُ له؛ أخبرَني أنّ رجلاً جاءَهُ في مسألةٍ، فدخلَ عليه البيتَ وهو جالِسٌ مع امرأتِهِ؛ فقال الرَّجلُ: أيُّكُمَا الشَّعْبِيُّ..؟ فأومأَ الشَّيْخُ إلى امرأتِه، وقال: هذِهِ..!

قال المُسَيِّبُ: وضَحِكْنَا جَمِيعاً، وأخذَ نظري الغلامَ، فإذا هو ناكِسٌ حُزْناً وهَمّاً، وكأنّه لا يَسَمَّعُ إلينا لِيَسْمَعَ، بل لِيَشْغَلَ نفسَه عن شيءٍ فيها، فتتوَزَّعَ خواطِرُهُ، فيتبدَّدَ اجتماعُها على همِّه بصوتٍ من هنا وصوتٍ من هنا، كما يفعلُ المحزونُ في مغالبةِ الحُزْنِ ومُدَافَعَتِهِ: يَشْغَلُ عنه بَصَرَه وقلبَه وسَمْعَه جميعاً، فيكونُ الحُزْنُ فيهِ، وكأنَّهُ بعيدٌ مِنْهُ.

فقلتُ في نَفْسِي: أمرٌ أماتَ الضَحِكَ في هذا الفتى، وكَسَرَ حِدَّتَهُ وشبابَهُ، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ إليهِ، وقلتُ: رأيتُكَ يا بنيَّ مُقْبِلاً علينا كالمُنْصَرِفِ عَنَّا؛ فما بالُكَ لم تَضْحَكْ وقد ضَحِكْنا جَمِيْعاً؟

قالَ: إليَ عنّي يا هذا؛ فأينَ منّي الضَّحِكُ، وأنا على شَفِيرِ القَبْرِ، ورُوْحُ الترابِ مالىءٌ عينيَّ في كلِّ ما أَرَى، وكأنَّ حُفْرَتي ابتلعتْ الدنيا التي أنا فيها لتأخذَني فيها، وأنا السَّاعةَ مَيْتٌ حيٌّ؛ رِجْلٌ في الدنيا، ورِجْلٌ في الآخِرَةِ!

قلتُ: فأَعْلِمْنِي ما بكَ يا بُنَيَّ؛ فَلَقَدْ احتسبْتُ وَلَداً لي كانَ في مِثْلِ سِنِّكِ وشبابِكِ، ولم أُرْزَقْ غيرَه، فقلْبِي بعدَه مريضٌ بهِ، يتوسَّمُهُ مُفَرَّقاً في لِدَاتِهِ، مُتَوَهِّماً أنَّ وجوهَهُم تَجْمَعُهُ بملامِحِه؛ فأنا مِنْ ذلك أُحِبُّهُمْ جميعاً، وأُطِيْلُ النظرَ إليهم، والتأمُّلَ في وجوهِهِم، ولستُ أرى أحداً منهم إلا كانَ لهُ ولقلبي حديثٌ! فإنْ رأيتُه حزيناً مثلَكَ تَقَطَّعتُ له مِنْ إشفاقٍ ورحمةٍ، وطالعَني فتايَ في مثلِ همِّه وَحُزْنِهِ وانكسارِهِ؛ فيعودُ قلبي كالعَيْنِ التي غَشَّاها الدمعُ، تَحْمِلُ أثرَ الحُزْنِ ومعناه وسِرَّهُ؛ فَبُثَّنِي ما تَجِدُ يا بنيَّ، فلعلَّ لي سبباً إلى كَشْفِ ضُرِّكَ أو إسعافِكَ بحاجَتِكَ؛ ولعلَّكَ تكونُ قد حَزِنْتَ

من أمرٍ قريبِ المتناوَلِ، هيِّنِ المحاوَلةِ، لم يجعلْهُ عندَكَ كبيراً أنّه كبيرٌ، ولكنْ أنك أنتَ صغيرٌ.

قال الفتَى: مهلاً يا عمِّ، فإنَّ ما نزلَ بنا مما تنقطِعُ عندَهُ الحيلةُ، ولا تَنْقادُ فيه الوسائلُ، ولا علاجَ منه إلا بالموتِ يأخذُنا ويأخذُه!

قلتُ: يا بُنَيَّ! هذِهِ كلمةٌ ما أحسِبُ أحداً يقولُها إلا مَنْ أُخِذَ للقتلِ بجنايَتِهِ، ولم يَعْفُ أهلُ الدمِ، فهل جنيتَ؛ أو جنى أبوك على أحدٍ؟

قالَ: إنَّ الأمرَ قريبٌ من قريبٍ، فإني تركتُ أبي الساعةَ مُجْمِعاً على إزهاقِ نفسِه، وقد أغلقَ عليه الدَّارَ، واستوثَقَ من البابِ!

قَالَ المَسيبُ: فكأنّما لدغتني حيةٌ بهذه الكلمة، وأكبرتُ أن يكونَ رَجلٌ مُسْلِمٌ يَقْتُلُ نفسهُ: فتَناهَضْتُ، ولكنَّ الغلامَ أَمْسَكَ بي، وقالَ: إنَّه لايزالُ حيّاً، وسيقتُلُ نفسَه متى أظلمَ الليلُ، وهَدَأَت الرِّجْلُ.

قلتُ: الحمدُ لله، إنَّ في النُّورِ عَقْلاً؛ ولكنْ ما الذي صارَ بهِ إلى ما قلتَ، وكيفَ تركْتَه لِقَدَرِهِ وَجِئْتَ؟

قال الفتى: إنّه قالَ لي: يا ولدي! لَيْسَ لكَ أبٌ بعدِي؛ فإنْ أَرَدْتَ اللَّحَاقَ بي فارجِعْ مع الليلِ لِنُسْلِمَ أنفسَنا، وإنْ آثرتَ الحياةَ؛ فارجِعْ مع الصُّبْحِ لتُسلِمَنِي إلى غاسلي!

قلتُ: أفآمِنٌ أنت ألا يكونَ أبوكَ قد أخرجَكَ عنه، لأنَّ عينَك تُمْسِكُ يدَه، وتردُّهُ عما يَهُمُّ بهِ، حتّى إذا خلا وَجْهُهُ مِنْكَ أزهقَ نَفْسَهُ؟

قالَ: لم أدَعْهُ حتى أَقْسَمَ أن يحيا إلى الليلِ، وحتّى أقسمتُ أنْ أرجعَ لأموتَ معه؛ فإنْ لم تُمْسِكْهُ يمينُه أمسكَهُ انتظاري، وقد فَرَغَتِ الحياةُ منا، فلم يبقَ إلا أنْ نَفْرَغَ منها؛ ومَنْ كان فيما كُنّا فيهِ، ثم انحدرَ إلى ما انحدرنا إليه، لم يُرِ الناسَ من نفسِه ضَعةً ولا استكانةً. وإنما خَرَجْتُ لأسألَ هذا الإمامَ الشعبيَّ وجهاً من الرأي فِيمَنْ يقتلُ نفسَهُ إذا ضاقَتْ عليه الدّنيا،

ونزلتْ به النازلاتُ، وتعذَّرَ القُوتُ، واشتدَّ الضُّرُّ، وتَدَلَّتْ به المَسْكَنَةُ إلى حَضِيضِها، وألجىءَ إلى أحوالٍ دَقَّتْهُ دَقَّ الرَّحَى لما تدورِ عليه، ولم يَعُدْ لَهُ إلا رأيٌ واحدٌ في معنى الدنيا: هو أنّهُ مكذوبٌ مزَوَّرٌ على الدُّنيا.

قلتُ: يا بنيَّ! فإنّي أراكَ أديباً؛ فمن أبوك؟

قال: هو فلانٌ التّاجرُ، ظهرَ ظهورَ القمرِ، ومُحِقَ محاقَهُ، وهو اليومَ في أَحْلَكِ الليالي، وأشدِها انطماساً؛ جَهَدَه الفقرُ، ويالَيْتَه كانَ الفقرُ وحدَه، بل انتهكتْه العِلَلُ، وليتَها لم تكنْ إلا العِلَلَ مع الفَقْرِ، بل أخذَ الموتُ امرأتَه، فماتت همّاً به وبي، ولم يكنْ له غيري وغيرُها، وكانَ كلٌّ من ثلاثتِنا يحيا للاثنين الآخَرَيْنِ، فهذا ما كانَ يجعلُ كلاًّ منا لا يفرَغُ إلا امتلاءً، ولما ذهبَتْ الأمُّ؛ ذهبتِ الحقيقةُ التي كنا نقاتِلُ الأيامَ عنها، وكانتْ هي وحدَها تُرينا الحياةَ بمعناها، إنْ جاءَتْنا الحياةُ فارغةً من المعنى، وكنَّا من أجْلِها نفهَمُ الأيامَ على أنّها مجاهَدَةُ البقاءِ؛ أما الآن، فالحياةُ عندنا قَتْلُ الحياةِ..!

قلتُ: يا بنيَّ، فإنّكَ واللهِ مع أدبك لَحَكِيمٌ، وإنّي لأنفَسُ بِكَ[1] على الموتِ، فكيفَ ردَّتْكَ حياةُ أُمِّكَ عن قَتْلِ نفسِك، ولا تردُّكَ حياةُ أبيك؟

قالَ: لو بقي أبي حيّاً لبقيتُ، ولكنَّ الدهرَ قد انتزعَ منه آخِرَ ما كانَ يَمْلِكُ من أسبابِ القوّةِ، حين أخَذَ القلبَ الشفيقَ الذي كانَ يجعلُه يرْتَعِدُ إذا فكَّرَ في الموتِ. فهو الآن كالذي يحارِبُ عن نفسِه تِلْقاءَ عدوٌّ لا يرحمُه؛ إنْ عَجِزَ عن عدوِّه، فالرأيُ قتلُ نفسِه، ليستريحَ من تَنْكِيلِ العَدوِّ بهِ.

قال المسيَّبُ بنُ رافعٍ: وأدركتُ أنَّ الفتى يُريدُ مِنْ سؤالِ الشَّيْخِ

---

(١) [لأضنّ بك].

تَحِلَّةً(١) يطمئِنُّ إليها أنْ يموتَ مُسْلِماً إذا قَتَلَ نفسَه كالمضطرِّ أو المُكْرَه؛ فأشفقتُ أنْ أَكْبِرَ نفسَه إذا أنا حدَّثْتُهُ أو أفتيتُه؛ وقلتُ: هذا مريضٌ يحتاجُ العلاجَ لا الفُتيا؛ وكان إمامُنا الشعبيُّ حكيماً لَحِناً(٢) فَطِناً، سَفَرَ بينَ أميرِ المؤمنينِ عبدِ الملكِ وعاهلِ الرّومِ، فَحَسَدَنا العاهلُ أنْ يكونَ فينا مثلُه. وقلتُ: لعلَّ اللهَ يُحْدِثُ به أمراً. فأخذتُ بيدِ الفتى إليه، ومشيتُ أكلِّمُهُ وأرفِّه عن نفسِهِ، وقلتُ له: أما تَدْرِي أنّكَ حِيْنَ فرغْتَ مِنْ سرورِ الحياةِ فرغتَ مِنْ غرورِها أيضاً، وأنّ الزاهِدَ المنقطعَ في عُزْعُزَةِ(٣) الجَبَلِ ينظرُ من صَوْمعتِهِ إلى الدّنيا، ليسَ بأحكَمَ ولا أَبْصَرَ ممَّنْ ينظرُ مِنْ آلامِه إلى الدّنيا؟

يا بنيَّ! إنّ الزاهِدَ يحسَبُ أنّه قد فرَّ من الرذائلِ إلى فضائِله، ولكنَّ فرارَهُ مِنْ مجاهَدَةِ الرّذِيْلَةِ هو في نفسِهِ رذيلةٌ لكلِّ فضائِله. وماذا تكونُ العِفَّةُ والأمانةُ والصِّدْقُ والوفاءُ والبِرُّ والإحسانُ وغيرُها، إذا كانتْ فِيْمَنْ انقطعَ في صحراء أو على رأسِ جبلٍ؟ أيزعمُ أحدٌ أنّ الصدقَ فضيلةٌ في إنسانٍ ليسَ حولَه إلا عشرة أحجارٍ؟ وأيمُ اللهِ إنّ الخاليَ من مجاهَدَةِ الرذائلِ جميعاً، لَهُوَ الخالي من الفضائلِ جميعاً!

يا بنيَّ! إنّ مِنَ النّاس مَنْ يختارُهم اللهُ فيكونونَ قَمْحَ هذِهِ الإنسانيةِ: يَنْبُتُوْنَ ويُحْصَدُونَ ويُطْحَنُونَ ويُعْجَنُونَ ويُخْبَزُوْنَ، ليكونوا غذاءَ الإنسانيةِ في بعضِ فضائِلِها. وما أراكَ أنتَ وأباكَ إلا مِنَ المختارينَ، كأنَّ في أعراقِكُمَا دَمُ نبيٍّ يُقْتَل أو يُصْلَبُ!

قال المسيَّبُ: وانتهينا إلى دارِ الشعبيِّ، فطرقتُ البابَ، وجاءَ الشيخُ،

---

(١) [حيلة ومخرجاً].
(٢) [من يفهم فحوى الكلام وخفاياه، ويقولون اليوم: فلان يقرأ ما بين السطور، أي يفهم ما وراء الكلام المنطوق].
(٣) [أعلى].

ففتحَ لنا، وسلّمنا وسلّم، ثم بَدَرْتُ فقلتُ: يا أبا عمرو! إنّ أبا هذا كان مِنْ حالِه كَيْتَ وكَيْتَ، فترادَفَتْ عليهِ المصائِبُ، وتوالتْ النكباتُ، وتواترتْ الأسقامُ. . ثم اقتصصْتُ ما قال ابنُه حرفاً حرفاً، ثم قلتُ: وإنّه الآن مُوشِكٌ أَنْ يُزْهِقَ نَفْسَه، وسيَتبعُه ابنُه هذا؛ وقد هداهُ اللهُ إليك، فجاءَ يسألُك: أيموتُ مُسْلِماً من أُلجِىءَ وأُكْرِهَ واضطُرَّ واستَضاق واختلَّ، فَتَحَسَّى سمّاً فهلكَ، أو توَجَّأ[١] بحديدةٍ فَقَضَى، أو ذَبَحَ نفسَه بنَصْلٍ فَخَفَتَ، أو حزَّ في يدِهِ بسكينٍ، فما رقأَ دمُه حتى ماتَ، أو اختنقَ في حبلٍ ففاضَتْ نَفْسُهُ، أو تردَّى[٢] من شاهقٍ فطاحَ. . !

وأدركَ الشيخُ معنى قولي: (هداهُ اللهُ إليك)، ومعنى ما أكثرتُ مِنَ الألفاظِ المترادِفَةِ على القتلِ، وما استقصيتُ من وجوهِهِ؛ فعلمَ أني لم أسألْهُ الفُتْيا والنَّصَّ، ولكني سألتُه الحكمةَ والسياسَةَ؛ فقال: هذا واللهِ رجلٌ كريمٌ، أخذتْهُ الأَنَفَةُ وعِزَّةُ النَفْسِ، وما أنا الساعةَ بمعْزَلٍ عن همِّه، فنذهبُ نكلِّمُهُ، واللهُ المستعان.

ومشينا ثلاثتُنا، فلما شارَفْنا الدارَ، قال الفتى: إنَّه لا يَفْتَحُ لي إذا رآكما، وربّما استَفَزَّ بنفسِهِ فأزهَقَها، وسأَتَسوَّرُ الحائِطَ، وأتدلَّى، ثم أفتحُ لكما، فتدخلانِ، وأنا عندَه.

ودخلنا، فإذا رجلٌ كالمريضِ مِنْ غيرِ مرضٍ، خوّارٌ مسلوبُ القوّةِ، انزعجَ قلبُه إلى الموتِ، وما بِهِ جُزْأَةٌ، وإلى الحياةِ وما به قوّةٌ؛ وصَغَّرَ إليه نفْسَهُ أنّها أصبحتْ في معاملةِ النّاسِ كالدِّرْهَمِ الزائفِ لا يقبلُه أحدٌ، وثابرَ

---

(١) [طعن].
(٢) [رمى نفسه].

عليه داءُ الحُزْنِ فأضناهُ، وتركه رُوحاً تَتَقَعْقَعُ[١] في جِلْدِها، فهي تهمُّ في لحظةٍ أن تَثِبَ وتندلِقَ[٢].

وسلَّم الشيخُ، وأقبلَ بوجهِهِ على الرَّجُلِ، ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فقطعَ عليه الرَّجلُ وقال كالمُخْنِقِ: أيُّها الشيخُ، قد صبرنا حتى جاءَ مالا صَبْرَ عليهِ؛ وقد خَلونا من معاني الكلامِ كلِّهِ، فما نَقْدِرُ عليها إلا لفظةً واحدةً نَمْلِكُ معناها، هي أن ننتهيَ!

ومدّ الشيخُ عينَهُ فرأى كُوَّةً مسدودةً في الجدارِ، فقال لي: افتحْ هذِه ودَعِ الهواءَ يتكلَّمُ معنا كلامَه. فقمتُ إليها، فعالجتُها حتى فتحتَها، ونفذَ منهاَ رَوْحُ الدُّنيا، وقال الشيخُ للرَّجُلِ: أَصْغِ إليَّ، فإذا أنا فرغتُ من الكلامِ فشأنَكَ بنفسِكَ؛

أعلمتَ أنّ رجلاً من المسلمينَ قد مَرِض، فأَعْضَلَ[٣] مرضُه، فأثبتَه على سريرِه ثلاثينَ سنةً لا يَتحرَّكُ، وطَوَى فيه الرجُلَ الذي كان حيّاً، ونشرَ منه الرجلَ الذي سيكونُ ميْتاً، فبقي لا حيّاً ولا ميتاً ثلاثين سنة..؟

قال الرَّجُلُ: وفي الدنيا مَنْ يَعِيْشُ على هذه الحالِ ثلاثينَ سنةً؟

قال الشيخُ: صَحِّحْ الكلامَ واسأَلْ: أيَصْبِرُ على هذِهِ الحالِ ثلاثينَ سنةً ولا يقولُ: (جاءَ مالا صَبْرَ عليه)! وأيُّ شيءٍ لا صَبْرَ عليه عندَ الرَّجُلِ المؤمنِ، الذي يَعْلَمُ أنَّ البلاءَ مالٌ، غيرَ أنَّه لا يُوْضَعُ في الكيسِ، بل في الجسمِ؟

---

(١) [تخلج].
(٢) [تخرج].
(٣) [امتنع على العلاج].

أفتدري مَنْ كان الصَّابِرَ ثلاثينَ سنةً على بلاءِ الحياة والموتِ مجتمعَيْنِ في عظامٍ مُمَدَّدةٍ على سريرِها؟ إنّه إمامُنا عِمْرانُ بنُ حُصَيْنٍ الخُزاعيُّ[1]، الذي أرسلَهُ عمرُ بنُ الخطابِ يُفقِّهُ أهلَ البصرةِ، وتولَّى قضاءَها، وكان الحَسَنُ البَصريُّ يَحْلِفُ باللهِ ما قَدِمَها خيرٌ لهم من عمرانَ بنِ حُصينٍ. ولقد دخلتُ عليهِ أنا وأخوه العلاء، فرأيناه مُثْبَتاً على سريرِ الجريدِ[2]، كأنّما شُدَّ بالحبالِ، وما شُدَّ إلا بانتهاكِ عَصَبِه، وذَوَبانِ لَحْمِهِ، ووَهَنِ عظامِه؛ فبكى أخوه، فقال: لِمَ تبكي؟ قال: لأني أراكَ على هذِه الحالِ العظيمةِ! قال: لا تَبْكِ؛ فإنّ أحبَّه إلى اللهِ تعالى أحبُّه إليَّ. ثم قال: إنّ هذِهِ الأرضَ تَحْمِلُ الجبالَ، فلا يَشْعُرُ مَوْضِعٌ منها بالجَبَلِ القائمِ عليه، إذْ كانَ تماسُكُ الأرضِ كلِّها قد جَعَلَ لِكُلِّ مَوْضِعٍ منها قوةَ الجميعِ، ولولا هذا لَدَكَّ الجبلُ مَوْضِعَهُ وغارَ به؛ وكذلك يَحْمِلُ المؤمنُ مثلَ الجبالِ من البلاءِ على أعضائِهِ، لا يَنْكَسِرُ لها، ولا يَتَهَدَّمُ؛ إذْ كانتْ قوةُ روحِه قوّةً في كلِّ مَوْضِعٍ، فالبلاءُ محمولٌ على هِمَّةِ الرُّوحِ لا على الجسمِ، وهذا معنى الخبرِ: «إنّ المؤمنَ بكلِّ خيرٍ على كُلِّ حالٍ، إنّ رُوحَهُ لَتُنْزَعُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ وهو يَحْمَدُ اللهَ عزَّ وجلَّ!»[3].

ثُمَّ قالَ: ولكنَّ ذاكَ هو المؤمنُ، فمن آمنَ باللهِ، فكأنّما قالَ له: امتَحِنّي!

وكيفَ تُراكَ إذا كُنْتَ بطلاً من الأبطالِ مع قائدِ الجَيْشِ، أمَا تَفْرِضُ

---

(١) [أبو نُجيد، صحابي جليل، أسلم عام خيبر، وكان فاضلاً، قضى بالكوفة] وتوفي سنة (٥٢) من الهجرة بالبصرة.

(٢) [سعفة النخل تقشر من خوصها].

(٣) [أخرجه أحمد (١: ٢٧٣) والنسائي (٣: ١١) والترمذي في «الشمائل» رقم (٢٧٩) وابن حبان رقم (٧٤٦) وهو حديث صحيح انظر «الأحاديث الصحيحة» رقم (١٦٣٢)].

عليكَ شجاعتُكَ أنْ تقولَ للقائدِ: امتحِنّي، وارْمِ بي حَيْثُ شِئْتَ.

وإذا رَمَى بِكَ فَرَجَعْتَ مُثْخَناً بالجراحِ، ونالَكَ البَتْرُ والتَشْوِيهُ، أَتُراها أوصافاً لمصائِبِكَ، أم ثناءً على شجاعَتِكَ؟

ثُمّ قالَ: إذا لم يكنْ الإيمانُ باللهِ اطمئناناً في النفس على زَلازِلها وكَوارِثها، لم يكنْ إيماناً، بل هو دعوى بالفِكْرِ أو باللِّسانِ لا يعْدُوهُمَا، كدعوى الجبانِ أنّه بطلٌ، حتّى إذا فَجَأَهُ الرَّوْعُ، أحدَثَ في ثيابِهِ مِنْ الخَوْفِ. ومِنْ ثَمَّ كانَ قَتْلُ المُؤْمِنِ نَفْسَهُ لبلاءٍ أو مرضٍ أو غيرِهما كفراً باللهِ وتكذيباً لإيمانِهِ، وكانَ عملُه هذا صورةً أخرى من طيشِ الجبانِ الذي أحدثَ في ثيابه!

والإيمانُ الصَّحيحُ هو بَشَاشةُ الرّوحِ، وإعطاءُ اللهِ الرِّضى مِنَ القلبِ، ثقةً بوعدِهِ، ورَجَاءً لما عِنْدَهُ، ومِنْ هذينِ يكونُ الاطمئنانُ. وبالبشاشةِ والرِّضَى والثقةِ والرجاءِ يُصْبِحُ الإيمانُ عقلاً ثانياً مع العقلِ؛ فإذا ابْتُلِيَ المؤمنُ بما يَذْهَبُ معه الصَّبْرُ، ويَطِيْشُ له العَقْلُ، وصار مِنْ أمرِه في مثلِ الجنونِ ـ بَرَزَ في هذه الحالةِ عقلُهُ الرُّوحانيُّ، وتولّى سياسةَ جسمِهِ حتى يُفِيْقَ العقلُ الأول. ويَجِيْءَ الخُوف من عذابِ اللهِ ونقمَتِهِ في الآخرةِ، فيَغْمرُ بهِ خوفَ النفسِ من الفقرِ أو المرضِ أو غيرِهما، فيقتلُ أقواهُما الأضعفَ، ويُخرِجُ الأعزُّ منهما الأذلَّ.

فالاطمئنانُ بالإيمانِ هو قَتْلُ الخوفِ الدُّنيويِّ بالتسليم والرِّضَى، أو تحويلُه عَنْ معناه بجعلِ البلاءِ ثواباً وحسَناتٍ، أو تجريدُه من أوهامِه باعتبارِ الحياةِ سائرةً بكلِّ ما فيها إلى الموتِ؛ وهو بهذا عقلٌ روحانيٌّ، له شأنٌ عظيمٌ في تصريفِ الدنيا، يتركُ النفسَ راضيةً مَرْضِيّةً، تقولُ لمصائبِهَا وهي مطمئنةٌ: نعم. وتقولُ لشهواتِهَا وهي مطمئنةٌ: لا.

وما الإنسانُ في هذا الكونِ؟ وما خيرُه وشرُّه؟ وما سخطُه ورضاهُ؟ إنْ

كلُّ ذلك إلا كما ترى قبضةً من الترابِ، تتكبَّر، وقد نسيتْ أنَّه سيأتي من يَكْنِسُها. . !

قال الشيخُ: وانظرْ، أما تُبْتلَى الشجرةُ الخضراءُ في بعض أوقاتِها بمثلِ ما يُبْتَلى به الإنسانُ، غيرَ أنّ لها عقلاً روحانياً مستقرّاً في داخلها، يُمسِكُ الحياةَ عليها، ويَتربَّصُ حالاً غيرَ الحال؛ ومهما يكنْ مِنْ أمرِ ظاهرِها وبَلائِه فالسعادةُ كلُّها في داخِلَها، ولها دائماً ربيعٌ على قدْرها حتى في قُرِّ الشتاء.

فالعقلُ الروحانيُّ الآتي من الإيمانِ، لا عملَ له إلا أنْ يُنْشِىءَ للنَّفْسِ غريزةً متصرِّفةً في كلِّ غرائزِها، تُكمِّلُ شيئاً، وتُنْقِصُ مِنْ شيءٍ، وتُوَجِّهُ إلى ناحيةٍ، وتَصْرِفُ عن ناحيةٍ؛ وبهذه الغريزةِ تسمو الروحُ، فتكونُ أكبرَ من مصائِبِها، وأكبرَ من لذّاتِها جميعاً.

وتلك الغريزةُ هي نفسُها معنى الرضى بالقَدَرِ خيرِه وشرِّه، وهي تأتي بالتأويلِ لكلِّ هموم الدنيا، فتضَعُ في النكبَاتِ معانيَ شريفةً، تَنْزِعُ منها شرَّها وأذاها للنفس؛ وليسَتْ المصيبةُ شيئاً لولا تأذِّي النفسِ بها، وإذا وَقَعَ التأويلُ في معاني النكباتِ أصبحتْ تَعْمَلُ عملَ الفضائلِ، وتغيرتْ طبيعتُها، فيعودُ الفَقْرُ باباً من الزُّهْدِ، والمرضُ نوعاً من الجهادِ، والخيبةُ طريقاً من الصبرِ، والحزنُ وجهاً من الرجاءِ، وهلمّ جرّا.

والنَّفسُ وحدَها كنزٌ عظيمٌ، وفيها وحدَها الفَرَحُ والابتهاجُ لا في غيرها، وما لذَّاتُ الدنيا إلا وسائلُ لإثارةِ هذا الفَرَحِ وهذا الابتهاجِ، فإنْ وُجِدا مع الفقرِ بطلتْ عِزَّةُ المال، وأصبح حجراً من الحجرِ؛ والبلبلُ يتغرَّدُ بِحَنْجرَتِهِ الصغيرةِ ما لا تُغْنِي فيه آلاتُ التَّطْريبِ كلُّها. وفي النفس حياةُ ما حَوْلَها، فإذا قَويتْ هذه النفسُ أذلَّتْ الدنيا، وإذا ضعفتْ أذلَّتْها الدنيا!

قال المسيَّبُ: ثم سكت الشيخُ قليلاً، وكنتُ أرى الرجل كأنَّما يغتسِلُ بكلامِه، وقد أشرقَ وجهُهُ وتَنضَّرَ، وانقلبَ إلى روحِهِ التي كان مُنْصَرِفاً

عنها، فعادتْ مصائِبُهُ تَضْغَطُ روحاً لينةً، كما تضغَطُ اليدُ على الماءِ، وأيقنَ أنَّ النكبةَ كلَّها هي أنْ يَنْظُرَ الإنسانُ إلى الحياةِ بعينِ شهواتِهِ، فَيُنْكَبَ أولَ ما يُنْكَبُ في صبرِه ويقينِه.

ثُمَّ قالَ الشيخُ: ولقد رأيتُ بِعَيْنَيْ رَأْسِي معجزةَ العقلِ الروحانيِّ، وكيفَ يَصْنَعُ، رأيتُ عروةَ بنَ الزبيرِ[١] وهو شيخٌ كبيرٌ عندَ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ، وقد وقعتْ في رجْلِهِ الأَكِلَةُ[٢]: فأشاروا عليه بِقَطْعِهَا لا تُفسِدُ جسدَه كلَّه، فدُعِيَ له مَنْ يَقْطَعُها، فلما جاءَ قالَ له: نَسْقِيْكَ الخمرَ حتّى لا تَجِدَ لها ألماً.

فقالَ عروةُ: لا أستعينُ بحرامِ اللهِ على ما أرجو مِنْ عافيةٍ! قال: فنسقيكَ المُرْقِدَ[٣].

فقالَ عروةُ: ما أُحِبُّ أنْ أُسلَبَ عضواً من أعضائي وأنا لا أَجِدُ ألمَ ذلكَ فأحتسبُه!

ثم دَخَلَ رجالٌ أنكرهم عروةُ، فقال: ما هؤلاء؟

قالوا: يُمسكونَكَ، فإنَّ الألَم ربّما عَزَبَ[٤] معهُ الصَّبْرُ.

قال: أرجو أنْ أكفيَكُم ذلك مِنْ نَفْسِي!

قال الشيخُ: فانظر أيُّها الضعيفُ الذي يريدُ قتلَ نفسِهِ كيفَ صَنَعَ عروةُ، وكيفَ استقبلَ البلاءَ، وكيفَ صَبَرَ، وكيفَ احتملَ. إنّه انصرفَ بحسّه إلى النفسِ، فانبسطَتْ روحُه عليهِ، وأخذَ يكبِّرُ ويهلّلُ ليبقَى مع روحِهِ وحدَها، وخَرَجَ من دنيا ظاهرِه إلى دنيا باطنِه، وغُمِرَتْ حواسُّه وأعصابُهُ بالنُّوْرِ

---

(١) [عروة بن الزبير بن العوام من فقهاء المدينة، تابعي جليل] توفي سنة (٩٢) للهجرة.

(٢) [الأَكِلة داء يقع في العضو فيأتكل منه].

(٣) [شيء يشرب فينوّم كالبنج].

(٤) [غاب].

الإلهي من معنى التكبيرِ والتهليلِ، فقطعَ القاطعُ كعبَه بالسكينِ، وهو لا يلتفتُ، حتى إذا بلغَ العظمَ وضعَ عليها المنشار، ونشَرها، وعروةُ في التكبيرِ والتهليلِ؛ ثم جيءَ بالزيتِ مغلياً في مغارفِ الحديد، فَحُسِمَ به مكانُ القطع، فَغُشيَ على عروةَ ساعةً، ثم أفاقَ، وهو يَمْسَحُ العرقَ عن وَجْهِهِ، ولم يُسْمَعْ منه في كلِّ هذِه الآلامِ الماحِقَةِ أنةٌ ولا آهةٌ، ولم يَقُلْ قبلَها ولا بعدَها ولا بَيْنَ ذلك: (جاءَ مالا صَبرَ عليه. . . !).

قال المسيَّبُ: وأُرْهِفَ بأسُ الرجلِ الضعيفِ، وقَوِيَ جَأْشُهُ، وانبعثتْ فيه الروحُ إلى عُمر جديدٍ، ونشأ له اليقينُ من عقلِهِ الروحانيِّ، وعرفَ أنَّ مالا يُمكِنُ أنْ يدرَكَ، يمكنُ أنْ يترَكَ.

وجاءَ هذا العقلُ الروحانيُّ، فمرَّ بالمِنشارِ على اليأسِ الذي كانَ في نفسِه فقطعَهُ، فما راعنا إلا أنْ وَثَبَ الرجلُ قائماً يقول: اللهُ أكبرُ مِنَ الدنيا، اللهُ أكبرُ مِنَ الدنيا!

ثم أَكَبَّ على يدِ الشيخِ، وهو يقولُ: صَدَقْتَ؛ إنْ كُلُّ ذلكَ إلا كما ترى قَبْضَةٌ من التّرابِ تتكَبَّرُ، وَقَدْ نَسِيَتْ أنّه سيأتِي مَنْ يَكْنِسُها!.

ماذا يَصْنَعُ الإنسانُ إذا غَلِطَ في مسألةٍ من مسائلِ الدنيا إلا أنْ يَتَحَرَّى الصوابَ، ويجتهِدَ في الرجوعِ إليهِ، ويصبرَ على ما ينالُه في ذلك؟ وماذا يصنَعُ الإنسانُ إذا غَلِطَتْ فيه مسألةٌ. . . ؟

٢

قالَ المُسيَّبُ بنُ رافع: وقامَ الشعبيُّ إلى الرَّجُلَ، فاعْتَنَقَه فَرَحاً بما آلَ أمرُه إليهِ، بعدَ إذْ رأى النُّورَ يجرِي على لونِهِ، ويترقرقُ في دِيباجتِهِ؛ كأنّما وَقَعَ الصلحُ بين وجهِهِ وبين الحياةِ. ثم قال له: نِعْمَ أخو الإسلامِ أنتَ، فاسْتَعِذْ باللهِ مِنْ خِذْلانِهِ، فإنَّه ما خَذَلَك إلا وضْعُكَ نفسَك بإزاءِ اللهِ تعارِضُه أو تُجارِيه في قدرتِهِ، فَيَكِلُكَ إلى هذهِ النَّفْسِ، فتنتهي بِكَ إلى العجزِ،

وينتهي العجزُ بك إلى السُخْطِ؛ ومتى كنتَ عاجِزاً ساخِطاً، محصوراً في نفسِك؛ موكولاً إلى قُدْرَتِك، كنتَ كالأسدِ الجائع في القَفَرِ، إذا ظَنَّ أنَّ قوّتَه تتناوَلُ خَلْقَ الفريسةِ؛ فيدعو ذلك إلى نفسِكَ اليأسَ والانزعاجَ والكآبَةَ وأمثالَها من هذِه المُهلِكاتِ.تقْدَحُ في قلبك الشكَّ في اللهِ، وتُثبِتُ في رُوعِكَ شرَّ الحياةِ، وتُهدِي إلى خاطِرِكَ حماقات العقلِ، وتقرِّر عندَك عجزَ الإرادةِ؛ فتنتهي مِنْ كلِّ ذلك ميِّتاً قد أزهقَتْك نفسُك قبل أنْ تُزْهِقَها!

ولو كنتَ بَدَلَ إيمانِكَ بنفسِكَ قد آمنتَ باللهِ حقَّ الإيمان، لسلَّطكَ اللهُ على نفسِكَ، ولم يسلِّطها عليكَ؛ فإذا رمتْكَ المطامعُ بالحاجةِ التي لا تَقْدِرُ عليها، رميتَها مِنْ نفسِكَ بالاستغناءِ الذي تَقْدِرُ عليه؛ وإذا جاءَتْكَ الشهواتُ من ناحيةِ الرغبةِ المقْبلَةِ، جئتَها من ناحيةِ الزُّهدِ المنصرِفِ، وإذا ساوَرَتْك كبرياءُ الدنيا، أذْلَلْتَها بكبرياءِ الآخرةِ.

وبهذا تنقلِبُ الأحزانُ والآلامُ ضُروباً من فرَحِ الفوزِ، والانتصارِ على النفسِ وشهواتِها، وكانتْ فنوناً من الخِذْلان والهمِّ، وتعودُ موضعَ فخرٍ ومباهاةٍ، وكانت أسبابَ خِزْيٍ وانكسارٍ، وعزيمةُ الإيمانِ إذا هي قويتْ حَصَرَت البلاءَ في مقدارِه، فإذا حصرتْه، لم تزل تَنقُصُ من معانيه شيئاً شيئاً. فإذا ضعفتْ هذه العزيمة، جاء البلاءُ غامراً مُتفَشّياً، يُجاوِزُ مقدارَه بما يَصْحَبُه من الخَوْفِ والرَّوْعِ، فلا تزالُ معانيه تَزِيدُ شيئاً شيئاً بما فيهِ وبما ليسَ فيهِ.

وللإيمانِ ضوءٌ في النّفسِ ينيرُ ما حولَها، فتراهُ على حقيقتِهِ الفانيةِ وشيكاً أنْ يزولَ؛ فإذا انطفأ هذا الضوءُ انْطَمَسَت الأشياءُ، فتتوهّمُها النفسُ أوهاماً مُتبايِنةً على أحوالِها المختلِفَةِ؛ كما يرى الأعمى بوهْمِه: لا عيْنُه مع الأشياءِ تكونُ في طبيعتها، ولا أشياؤه عند عينِهِ تكونُ في حقيقتِها.

قالَ المسيَّبُ: وكانَتْ الشمسُ قد طفَّلَتْ[1] للمَغِيبِ؛ فقال الإمامُ للرَّجلِ: قُمْ فتوضَّأْ، وأسْبِغِ الوضوءَ، وسأعلِّمُكَ أمراً تنتفعُ به في دينِك ودنياكَ، فإذا قمتَ إلى وُضوئِك فأيقنْ في نفسِك، واعزِمْ في خاطرِك، على أنّ في هذا الماء سرّاً روحانياً من أسرارِ الغيبِ والحياةِ، وأنّه رمزٌ للسماءِ عندَك، وأنّكَ إنما تتطهَّرُ به من ظُلماتِ نفسِك التي امتدَّتْ على أطرافِكَ؛ ثم سَمِّ اللهَ تعالى مُفيضاً اسمَه القادرَ الكريمَ على الماءِ وعلى نفسِك معاً، ثم تَمثَّلْ أنَّكَ غَسَلْتَ يديكَ مما فيهما، ومما تَعاطاه بهما من أعمالِ الدنيا، وأنَّكَ آخِذٌ فيهما من السماءِ لوجهِكَ وأعضائِكَ؛ وقرِّرْ عند نفسِك أنَّ الوضوءَ لَيْسَ شيئاً إلا مَسحةً سماويةً تُسْبِغُها على كلِّ أطرافِكَ، لِيَشْعُرَ بها جسمُكَ وعقلُكَ؛ وأنَّكَ بهذه المسحةِ السماويةِ تستقبلُ اللهَ في صلاتِكَ سماوياً لا أرضياً.

فإذا أنتَ استشعرتَ هذا، وعملتَ عليه، وصارَ عادةً لك، فإنّ الوضوءَ حينئذٍ ينزِلُ من النّفسِ منزلةَ الدواءِ، كلّما اغتممتَ، أو تكرَّهتَ، أو تَسخَّطتَ، أو غَشِيَكَ حزنٌ، أو عَرَضَ لك وَسْواسٌ؛ فما تتوضَّأُ على تلكَ النيةِ إلا غَسَلْتَ الحياةَ، وغَسَلْتَ الساعةَ التي أنتَ فيها من الحياةِ[2]، وترى الماءَ تحسَبُه هدوءاً ليِّناً لِينَ الرِّضى، وإذا هو ينسابُ في شعورِك، وفي أحوالِك جميعاً.

قالَ المسيَّبُ: وقمتُ أنا، فجدَّدْتُ وضوئي على هذه الصفةِ بتلكَ النيَّةِ؛ فإذا أنا عند نفسي مستضيءٌ بِرُوحٍ نَجْمِيَّةٍ لها إشراقٌ وسناءٌ، وإذا الوضوءُ في أضعفِ معانيه هو ما عَلمنا مِنْ أنّه الطهارةُ والنظافةُ، أما في أقوى معانيه فهو إفاضةٌ مِنَ السماءِ، فيها التقديسُ والتزكيةُ، وغَسلُ الوقتِ

---

(١) [مالت، ودنت].

(٢) هذه في رأينا حِكْمةُ تكرارِ الوضوءِ وتلك هي أسرارُه عندنا.

الإنساني مما يخالِطُهُ كلّما مرّت ساعاتٌ، وابتداؤُه للرُّوحِ كالنباتِ الأخضرِ ناضراً مطلولاً، مترَطّباً بالماءِ.

ثم صلّى بنا الشيخُ، وأمرني بالمبيتِ مَعَ الرَّجُلِ، كأنَّما خَشِيَ البَدَاوَاتِ أنْ تَبدُوَ له، فتَنْقُضَ عَزْمَه، أو هو زادني عليهِ لأُغيِّرَ شَخْصَهُ، وأبدِّلَ وحدتَه التي كانَ فيها، أو كأنَّ الشيخَ لم يأمنْ على الرَّجُلِ أن يكونَ إنسانُه الروحيُّ قد تنبَّهَ بأكمله، فوضعني كالتنبيهِ له.

وجاءنا العَشاءُ من دارِ الشَّيخِ فَطَعِمْنا، ثم قامَ الرَّجلُ فتوضَّأَ، وصلينا العَتَمة[1]، وجلسنا نتحدثُ، فاسْتَنْبَأْتُه نبأَهُ، فقال: مهلاً. ثم نَهَضَ فتوضأَ الثالثةَ، وقال: تَاللهِ ما أعرِفُ الوضوءَ بعدَ اليومِ إلا ملامَسةً بينَ السماءِ والنّفسِ، وما أَعْرِفُ وقتَهُ من الرُّوحِ إلا كساعةِ الفجرِ على النباتِ الأخضرِ.

قالَ المسيَّبُ: وأَصْبَحْنا، فَغَدَوْنا على الإمَامِ؛ ثم لزمني الرَّجُلُ في بعضِ أموري، ثم وافينا المسجدَ صلاةَ العصرِ لحضورِ درسِ الشّيخِ؛ وكان الناسُ كالحَبِّ المتراصِفِ على العُنقودِ، لا أدري مَنْ ساقَهم وجَمَعهم؛ كأنّما علمتْ الكوفةُ أنَّ رجلاً مسلماً كفَرَ باللهِ كفْرَةً صَلْعاءَ، وأنّه سيحضرُ درسَ الشَّيْخِ، وسيحضرُ الشيخُ مِنْ أجلِه، فهبَّتْ الرِّياحُ الأربعُ تسوقُ أهلَها إلى المسجدِ مِنْ أقطارِها.

وجلسَ الشيخُ مجلسَ الحديثِ فقال:

رَوَينا أنّ رجلاً كانتْ بهِ جِراحَةٌ، فأتى قَرَناً له، فأخَذَ مِشْقصاً[2] فذَبَح به نفْسَه؛ فلم يُصَلِّ عليه النبيُّ ﷺ[3]، وتركَ جنازتَهُ مطرودةً تقتحِمُ مَتْلفةَ الآخرةِ كما اقتحمتْ متلفةَ الدنيا!

---

(١) [العشاء].

(٢) القرن (بفتحتين): جعبةُ النشاب. والمِشْقَصُ: سهمٌ فيه نَصْلٌ عريضٌ.

(٣) [رواه أصحاب السنن من حديث جابر بن سمرة انظر «الفتح» (٣: ٢٢٧)].

روينا في الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «الذي يَخْنُقُ نفسَهُ يخنِقُها في النّارِ، والذي يَطْعَنُ نفسَه يطعَنُ نفسَه في النّارِ، والذي يَقْتَحِمُ يقْتَحِمُ في النّارِ!»(١).

روينا عنه ﷺ: «مَنْ قَتلَ نفسَه بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ القيامةِ!»(٢).

روينا عنه ﷺ قال: «كان رَجُلٌ بهِ جِراحٌ فقتلَ نَفْسَهُ، فقالَ اللهُ: بَدَرَني عَبْدِي بِنَفْسِه، فَحَرَّمْتُ عليهِ الجَنَّةَ!»(٣).

قال الشّعبيّ: يقولُ اللهُ: «بَدَرَني عبدي بنفسِهِ..» أيْ بدرني، وتألّه، فَجَعلَ نفسَه إلٰهَ نَفْسِهِ، فَقبضَها، وتَوفَّاها، فكان ظالماً.

بَدَرني وتألّه في آخرِ أنفاسِهِ لحظةَ يَنْقَلِبُ إليَّ، فكانَ مع ظُلْمِهِ مغروراً أحمقَ!

بَدَرني وتألّه حينَ ضاقَ، فَهوَّرَ نفسَهُ في الموتِ مِنْ عجزِهِ أن يُمْسِكَهَا في الحياةِ، فكانَ عاجِزاً مع ظُلْمِهِ وغُرُوْرِهِ وحُمْقِهِ!

بَدَرني وتألَّهَ على جَهْلِهِ بِسرِّ الحياةِ وحكمتِها، فلم يَسْتَحِ هذا المخلوقُ الظالِمُ المغرورُ في حمقِه وعجزِه وجهلِه ـ لم يستحِ أن يجيئَني في صورةِ إلهٍ!

بَدَرَني وتألَّهَ، فَطبَعَ نفسَهُ طابَعهَا الأبديَّ من غيٍّ وتَمَرُّدٍ وسَفَاهةٍ، وأرسَلَها إليَّ مقتولةً يرُدُّها عَلَيَّ.

---

(١) [أخرجه البخاري في الجنائز باب ما جاء في قاتل نفسه رقم (١٣٦٥) و(٥٧٧٨) والبيهقي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

(٢) [أخرجه البخاري في الأيمان والنذور باب من حلف بملة سوى ملة الإسلام رقم (٦٦٥٢) من حديث ثابت بن الضحاك].

(٣) [أخرجه البخاري في الجنائز باب ما جاء في قاتل النفس رقم (١٣٦٤) و(٣٤٦٣) من حديث جندب بن عبد الله البجلي].

بَدَرني وتألَّهَ، كأنّما يقولُ: إنَّ لهُ نِصْفَ الأَمْرِ، ولي النِّصْفُ: أنا أَحْيَيْتُ، وهو أماتَ. . !

بَدَرَني عَبْدي بنفسه فَحَرَّمتُ عليهِ الجنةَ!

قال الشعبيُّ: وإنّما تَحْرُمُ الجنةُ على مَنْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ، إذْ يَنْقَلِبُ إلى اللهِ وعلى رُوْحِهِ جِنايةُ يدِه، ما تُفارِقُها إلى الأبد: فهو هناكَ جِيفةٌ من الجِيَفِ مسمومةٌ أبداً، أو مخنوقةٌ أبداً، أو مذبوحةٌ أبداً، أو مهشَّمةٌ أبداً، يقول اللهُ له: أنتَ بَدَرْتني بِنَفْسِكَ، وجريتَ معي في القَدَرِ مجرًى واحداً، فَتَخْلُدُ نفسُك في الصورةِ التي هي مِنْ عملِكَ، وما قتلتَ إلا حسَنَاتِك.

قال الشعبيُّ: ولو عرف قاتلُ نفسه أنّه سَيَصْنَعُ من نفسِه جيفةً أبديَّةً، فمن ذا الذي يَعْرِفُ أنّه إذا فَعَلَ كذا وكذا، تحوَّل حماراً وبقي حماراً، فيرضَى أنْ يتحوَّلَ، ويُسْرِعَ ليتحوَّلَ؟

مِن ذلك نظرَ النبيُّ ﷺ إلى جنازةِ ذلكَ الرَّجُلِ الذي قَتَلَ نفسَهُ، كما ينظرُ إلى ذبابةٍ توجَّهَتْ بالسبِّ إلى الشَّمْسِ والكواكبِ والأفلاكِ كلِّها، ثم جاءتْهُ تقولُ لَهُ: اشهدْ لي.

قال الشَّيخُ: ومِمَّ يَقْتُلُ الإنسانُ نفسَهُ؟ أمَا إنَّ الموتَ آتٍ لا ريبَ فِيْهِ، ولا مَقْصِرَ لِحَيٍّ عنه، وهو الخيبةُ الكُبرى تُلْقَى على هذِه الحياةِ؛ فما ضررُ الخيبةِ الصغيرة في أمرٍ من أمورِ الحياةِ؟

إنَّ المرءَ لا يَقْتُلُ نفسَه مِنْ نجاحٍ، بل مِنْ خيبةٍ، فإنْ كانَتْ الخيبةُ مِنْ مالٍ، فهي الفقرُ أو الحاجةُ، وإنْ كانَتْ من عافيةٍ، فهي المرضُ أو الاختلالُ، وإنْ كانت مِنْ عِزَّةٍ، فهي الذُّلُ أو البؤسُ، وإن كانتْ مما سِوَى ذلك ـ كالنساءِ وغيرِهنَّ ـ فهي العجزُ عن الشهوةِ، أو التخيُّلُ الفاسدُ.

وليس يخيبُ الإنسانُ إلا خيبةَ عقلٍ أو إرادةٍ، وإلا فالفقرُ والحاجةُ، والمرضُ والاختلالُ، والذلُّ والبؤسُ، والعجزُ عن الشهوةِ، وفسادُ

التخيُّلِ ـ كلُّ ذلك موجودٌ في النّاسِ، يحمِلُه أهلُه راضينَ به، صابرينَ عليه، وهو الغبارُ النفسيُّ لهذِه الأرضِ على نفوسِ أهلِها.

ويا عجباً! إنَّ العُميانَ هم بالطبيعةِ أكثرُ النّاسِ ضَحِكاً وابتساماً وعبثاً وسُخْرِيةً، أفتريدونَ أنْ تخاطِبَكمُ الحياةُ بأفصحِ من ذلك؟

ليستْ الخيبةُ هي الشرَّ، بل الشرُّ كلُّه في العقلِ إذا تبلَّدَ فجمَدَ على حالةٍ واحدةٍ من الطمعِ الخائبِ، أو في الإرادةِ إذا وَهَنَت، فبقيتْ متعلقةً بما لم يُوجَدْ. أفلا ترونَ أنّه حينَ لا يُبالي العقلُ ولا الإرادةُ، لا يبقَى للخيبةِ معنًى ولا أثرٌ في النَّفْسِ، ولا يخيبُ الإنسانُ حينئذٍ، بل تَخِيْبُ الخيبةُ نفسُها؟

لهذا يأبى الإسلامُ على أهلِه التَّرَفَ العقليَّ والتخيُّلَ الفاسِدَ، ويشتدُّ كلَّ الشدةِ في أمرِ الإرادةِ، فلا يترخَّصُ في شيءٍ يتعلَّقُ بها، ولا يزالُ يُنمِّيها بأعمالٍ يوميةٍ، تشدُّ منها، لتكونَ رقيبةً على العقلِ، حارسةً له، فإنّ للعقلِ أمراضاً كثيرةً، يقيسُ فيها درجاتٍ من الطيشِ، حتى يبلغَ الجنونَ أحياناً؛ فكانتْ الإرادةُ عقلاً للعقلِ؛ هي لِينُه إذا تصلَّبَ، وهي حركتُه إذا تبلَّدَ، وهي حِلْمُه إذا طاشَ، وهي رضاهُ إذا سَخِطَ.

الإرادةُ شيءٌ بينَ الروحِ والعقلِ، فهي بينَ وجودَين؛ ولهذا يكونُ بها الإنسانُ بينَ وجودَين أيضاً، فيستطيعُ أنْ يعيشَ وهو في الدنيا كالمنفصِلِ عنها، إذ يكونُ في وجودِه الأقوى وجودُ روحِه، وأكبرُ همِّه نجاحُه في هذا الوجودِ.

وهذا النّجاحُ لا يأتي من المالِ، ولا تُحَقِّقُه العافيةُ، ولا تُيَسِّرُهُ الشهواتُ، ولا يُسَنِّيه[1] التَّخيلُ الفاسِدُ؛ ولا يكونُ من متاعِ الغُرُوْرِ،

---

(١) [يسهّله].

ولا مما عُمْرُهُ خمسونَ سنةً أو مئةُ سنة؛ بل يأتي مما عُمْرُه الخلودُ، ومما هو باقٍ أبداً في معانيه مِنَ الخيرِ والحقِّ والصّلاحِ؛ فهاهنا يُعِيْنُ المرضُ بالصَّبْرِ عليه، مما لا تُعِيْنُ الصّحةُ، ويُفيد الفقرُ بحقائِقِه؛ ما لا تفيدُ الثروةُ؛ وهنا يكونُ العَقْلُ الإنسانيُّ عاملاً أكثرَ مما هو متخيِّلٌ، وقانعاً أكثرَ مما هو طامعٌ؛ وهاهنا لا موضعَ لغلبةِ الشَّهوةِ، ولا كبرياءِ النَّفْسِ، ولا حُبِّ الذَّاتِ؛ وهذه الثلاثُ هي جالبةُ الشقاءِ على الإنسان، حتى في أحوالِ السَّعادةِ، وبدونها يكونُ الإنسانُ هانئاً حتى في أحوالِ الشقاءِ.

بالإرادةِ المؤمنةِ القويةِ يَنْصَرِفُ ذكاءُ المؤمنِ إلى حقائقِ العالَمِ، وصَلاَحِ النفسِ بها، وبغيرِ هذه الإرادة يَنْصَرِفُ الذكاءُ إلى خيالِ الإنسانِ، وفسادِ الإنسانِ.

وإذا انْصَرَفَ الذكاءُ إلى حقائق الدنيا، كانَ العقلُ سهلاً مَرِناً مِطواعاً، واستحالَ عليه أن يَفْهَمَ فكرةَ قَتْلِ النَّفسِ، أو يُقرَّها، فإنّ هذِه الفكرةَ الخبيثةَ لا تَسْتطْرِقُ إلى العقلِ إلا إذا تَحَجَّرَ، وانحصرَ في غرضٍ واحدٍ، قد خابَ وخابَتْ فيه الإرادةُ، ففرغَتْ الدنيا عندَهُ.

ولو أنَّ امْرَأً تَمَّ عزمُهُ على قَتْلِ نفسِه، ثم صابَرَ الدنيا أياماً، لا نْفَسَحَ عزمُهُ أوْ رَكَّ[1]؛ إذ يلينُ العقلُ في هذِهِ المدةِ نوعاً ما، ويجعلُ الصبرُ بينَهُ وبينَ المصيبةِ مسافةً ما، فتتغيَّرُ حالةُ النفسِ هَوْناً ما؛ فالصبرُ كالتروُّحِ بالهواءِ على العَقْلِ، الذي يكادُ يَخْتَنِقُ من احتباسِهِ في معنىً واحدٍ مُقْفَلٍ مِنْ جوانبِهِ، ومَثَلُ العَقْلِ في هذه الحالِ مَثَلُ القائِمِ في إعصارٍ لفَّهُ بالترابِ لفّاً، وسدَّ عليهِ مَنَافِذَ الهواءِ، وحبَسَهُ في هذا الترابِ الملتفِّ حَبْسَ الحشرةِ في جوفِ القَصَبةِ؛ فهو على اليقينِ أنّها حالةُ ساعةٍ طارئةٍ في الزمنِ، لا حالةُ الزّمنِ؛ وأنَّ الهواءَ الذي جاءَ بهذا الهمِّ، هو الذي يَذْهَبُ بهذا الهمِّ.

---

(١) [ضعف].

وكما أنَّ الأرضَ هي شيءٌ غيرُ هذا الإعصارِ الثائرِ منها، فالحياةُ كذلك هي أمرٌ آخرُ غيرُ شقائِهَا.

* * *

قال الإمامُ: وفي كتابِ اللهِ آيتان تدلّانِ على أنّه كتابُ الدنيا كلِّها، إذْ وَضَعَ لهذه الدنيا مثالَيْنِ:

أحدُهما: المثالُ الروحيُّ للفَرْدِ الكامِلِ.

والآخرُ: المثالُ الروحيُّ للجماعةِ الكاملةِ.

أما الآية الأولى فهي قولُه تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وأما الثانية فهي قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ففي رجاءِ اللهِ واليومِ الآخرِ يَتَسامَى الإنسانُ فوقَ هذه الحياةِ الفانيةِ، فتمرُّ همومُها حولَه ولا تَصْدِمُه، إذْ هي في الحقيقةِ تجري من تحتِه، فكأنْ لا سلطانَ لها عليهِ؛ وهذِهِ الهمومُ تَجِدُ في مثلِ هذه النَّفْسِ قوًى بالغةً تُصَرِّفُها كيفَ شاءَتْ، فلا يجيءُ الهمُّ قوةً تَسْحَقُ ضعفاً، بل قوةً تَمْتَحِنُ قوةً أخرى، أو تُثيرُها لتكونَ عملاً ظاهراً يقلِّدُهُ الناسُ، وينتفعونَ منه بالأسوةِ الحسنةِ، والأسوةُ وحدَها هي علمُ الحياةُ.

وقد ترى الفقيرَ مِنَ الناس تحسبُه مسكيناً، وهو في حقيقتِهِ أستاذٌ مِنْ أكبرِ الأساتيذِ، يلقي على النّاسِ دروسَ نفسِه القويةِ.

وفي رجاءِ اللهِ واليومِ الآخرِ يبطُلُ أكبرُ أسبابِ الشرّ في النّاسِ، وهو نظَرُ الإنسان لِمَنْ هو أحظَى منه بفتنةِ الدنيا نظراً لا يَبْعَثُ إلا الحِقدَ والسخطَ، فينظرُ المؤمنُ حينئذٍ إلى ما في النّاسِ مِنَ الخيرِ والصّلاحِ والإيمانِ والحقِّ والفضيلةِ، وهذه بطبيعتِها لا تبعثُ إلا السرورَ والغبطةَ.

ومَنْ جعَلَها في تفكيرِه أبطلَ أكثرَ الدنيا مِنْ تفكيرِه؛ وبها تَسْقُطُ الفروقُ بينَ النّاسِ عالِيْهِم ونازِلِهِم؛ كالرَّجُلِ الفقيرِ العالمِ إذا قَدِمَ على الغنيِّ العالم؛ جَمَعَ بينهما الاتفاق العقليُّ، وسَقَطَ ما عداه.

وفي رجاءِ اللهِ واليومِ الآخرِ يعيشُ الإنسانُ عُمْرَه الطويلِ أو القصير كأنّه في يومٍ يُصْبِحُ منه غادياً على الحَشْرِ والحسابِ؛ فهو مُتّصِلٌ بالخلودِ، غيرُ مَعْنِيٍّ إلا بأسبابِهِ؛ وبهذا تكونُ أمراضُه وآلامُه ومصائِبُه لَيْسَتْ مَكارِهَ من الدنيا، بل هي تلكَ المكارِهُ التي حُفَّتْ الجنةُ بها؛ ولا يضرُّهُ الحرمانُ، لأنّه قريبُ الزّوالِ، ولا يغُرُّهُ المتاعُ، لأنّه قريبُ الزّوالِ أيضاً.

وفي رجاءِ اللهِ واليومِ الآخرِ يَسُوْدُ الإنسانُ على نَفْسِهِ؛ ومَنْ كانَ سَيِّدَ نَفْسِهِ، كانَ سيدَ ما حَوْلَها يُصَرِّفُهُ بِحُكْمِه، وَمَنْ كانَ عَبْدَ نَفْسهِ، صَرَّفَه بِحُكْمِه كلُّ ما حَوْلَهُ.

قال الشعبيُّ: وأما المثالُ الروحيُّ للجماعةِ الكاملةِ، فهو في وصف المؤمنينَ بأنَّهُمْ ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] فهذا هذا، ما أحسبُه يحتاجُ إلى بَسْطٍ وبيانٍ.

إنَّ أكثرَ ما يَضِيْقُ به الإنسانُ يكونُ مِنْ قِبَلِ مَنْ حَوْلَهُ ممَّنْ يُعايِشُهُم، ويتّصِلُ بهم، لا مِنْ قِبَلِ نفسِه، فإذا قامَ اجتماعُ أمةٍ على أنَّهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] تقرَّرتْ العظمَةُ النفسيّةُ للجميعِ على السّواءِ؛ ومَنْ كانوا كذلك، لم يَحْقِروا الفقيرَ لِفقرِهِ، ولم يُعظِّموا الغنيَّ لغِناه، وإنما يُحَقِّرُونَ ويُعَظِّمون لصفات ساميةٍ أو حقيرةٍ. وبينَ هؤلاءِ يكونُ الفقيرُ الصابِرُ أعظمَ قدراً من الغنيِّ الشاكِرِ، وإعظامُ النّاسِ لفضيلةِ الفقيرِ هو الذي يجعلُ فَقْرَهُ عِنْدَ نفسِه شيئاً ذا قيمةٍ في الإنسانية.

ومتى تَصَحَّحَتْ آراءُ الجماعةِ في هذهِ المعاني المؤلمةِ للنّاسِ بَطَلَ أَلَمُها، واستحالتْ معانِيْهَا، وصارَ لا يَبْلَى معنًى من معاني الحياة في إنسانٍ إلا وَضَعَ إيمانُه معنًى جديداً في مكانِه، وتُصْبِحُ الفضيلةُ وحدَها غايةَ

النَّفْسِ في الجميعِ؛ وبذلك يَصْبِرُ الفردُ على مصائِبِهِ، لا بقُوّته وحدَه، ولكنْ بجميعِ القُوَى التي حولَهُ. أفلا تَرَوْنَ أَنَّ إعجابَ النّاسِ بالشجاعة، وتَعْظِيمَهُم صاحبَها، يَضَعُ في ألَمِ السّلاحِ لَذَّةً، يَحُسُّها لَحْمُ الشجاعِ البَطَلِ؟

قال المسيَّبُ بنُ رافعٍ: فقامَ رجلٌ مِنَ المجلسِ، فقال: أَيُّها الشيخ! وإِذَا فَسَدَ النّاسُ، وغَلُظَتْ قلوبُهم، وتَقَطَّعتْ بَيْنَهُمُ الأسبابُ، وَلَمْ يَعُوْدُوْا رحماءَ بينهم وشَمِتُوا بالفقير، وتَهَزَّؤوا بالمُبتلَى، وطرحوه في ألسنتِهِم، كما يَطرَحُ الشاعِرُ في لسانه رَجُلاً يهجوهُ، لا يكفُّ عَنْهُ ـ فما عسى أنْ يصنعَ المسكينُ حينئذٍ، وكلُّ شيءٍ يدفعُه إلى قتلِ نفسِهِ؟

قال الشعبيُّ: هاهنا الرجاءُ في اللهِ واليومِ الآخر، وهو شعورٌ لا يُشْتَرَى بمالٍ، ولا يُلتَمَسُ من أحدٍ، ولا يَعْسُرُ على مَنْ أرادَهُ؛ والفقيرُ والمُبتلى وغيرُهما إنّما يَصْنَعُ كلٌّ منهم مِثالَهُ السّامي؛ فالصَّبْرُ على هذا العَنَتِ هُوْ صبرٌ على إتمامِ المِثَالِ، وإذا وَقَعَ ما يسوءُك، أو يَحْزُنُك، فابحثْ فيهِ عن فكرتِهِ الساميةِ، فقلَّما يَخْلُوْ منها، بَلْ قلّما يجيءُ إلا بِهَا[1].

قال المسيَّبُ: فقامَ آخرُ، فقال: وكيفَ يَصْنَعُ امرُؤٌ آلتْ أحوالُ الدنيا إلى ما يُخِيفُهُ، أو بَلَغَ الهمُّ مَبْلَغَهُ من قلبِهِ فَهَمَّ أنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ؟

قال الشعبيُّ: فَلْيَجْعَلْ الخوفَ خَوْفَيْنِ: أحدُهما خوفُه عذابَ اللهِ خالداً مخلَّداً فيه أبداً؛ فيذْهَبُ الأقوى بالأضْعَفِ. وإذا ابتُلي، فليضمَّ إلى نفسِهِ مَنْ هُوَ أشدُّ بلاءً منه؛ ليكونَ همُّهُ أحدَ همَّيْنِ، فَيَذْهَبَ الأثقلُ بالأخفِّ.

إنّ الإنسانَ ونفسَه في هذه الحياةِ كالذي أُعطيَ طفلاً نَزِقاً طَيَّاشاً عارِماً متمرِّداً لِيُؤَدِّبَهُ، ويُحْكِمَ تربيتَه وتقويمَهُ، فَيُثْبِتَ بذلك أنّه أُستاذٌ، فَيُعْطَى أجرَ

(١) في كتابنا «المساكين» كلامٌ كثيرٌ في هذه المعاني.

صبرِه وعملِه، ثم يضيقُ الأستاذُ بالطّفْلِ ساعةً فيقتُلُه. أكذلكَ التأديبُ والتربيةُ؟

٣

قال المسيَّبُ بنُ رافعٍ: وكانَ الإمامُ قد شَغَلَ خاطِرَهُ بهذِهِ القصَّةِ، فأخذتْ تَمُدُّ مدَّها في نفسِهِ، ومكّنَتْ لهُ مِنْ معانيها بمقدارِ ما مكّنَ لها في هَمِّه، وتفَتَّقَ بها ذِهْنُهُ عَنْ أساليبَ عجيبةٍ، يَتَهيَّأُ بعضُها مِنْ بعضٍ، كما يَلِدُ المعنى المعنى. فلمّا قالَ الرَّجُلانِ مَقالَهُما آنِفاً، وأجابَهُمَا بتلكَ الحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحسنَةِ، انْقَدَحَ لهُ مِنْ كلامِهِمَا وكلامِه رأيٌ فقالَ:

يا أهلَ الكوفةِ! أُنْشِدُكُم اللهَ والإسلامَ، أيُّما رجلٍ مِنْكُم ضاقَ بروحِهِ يوماً فأرادَ إزْهاقَها إلا كَشَفَ لأهلِ المجلسِ نَفْسَهُ، وصَدَقَنا عَنْ أَمْرِهِ؛ ولا يَجِدَنَّ في ذلك ثَلْباً ولا عاباً[1]، فإنّما النكبةُ مذهبٌ من مذاهبِ القَدَرِ في التعليمِ؛ وقد يكونُ ابتداءُ المصيبةِ في رجلٍ هو ابتداءُ الحكمةِ فيهِ لنفسِه أو لغيرِه؛ وما مِنْ حزينٍ إلا وَهُوَ يَشْعُرُ في بعضِ ساعاتِ حُزْنِهِ أنّه قَدْ غُيِّبَتْ فيه أسرارٌ لم تَكُنْ فيهِ، وهذا من إبانةِ الحقيقةِ عَنْ نفسِها وموضِعِها كما لألأَ في سيفٍ بَرِيقُه.

وعَقْلُ الهَمِّ عَقْلٌ عظيمٌ، فلو قَدْ أُريدَ استخراجُ علمٍ يَعلَمُهُ الناسُ مِنَ اللذاتِ والنِّعَمِ؛ لكانَ مِنْ شَرْحِ هذا العلمِ من الحميرِ والبغالِ والدوابِّ ما لا يكونُ مثلُه ولا قِرابُهُ[2] في العقلاءِ، ولا تَبْلُغُهُ القُوَى الآدميةُ في أهلِها؛ بَيْدَ أنّه لو أُرِيْدَ عِلْمٌ مِنَ البُؤْسِ والألمِ والحاجةِ لما وُجِدَ شَرْحُهُ إلا في النّاسِ، ثم لا يكونُ الخاصُّ مِنْهُ إلا في الخاصَّةِ منهُمْ.

وما بانَ أهلُ النَّعْمَةِ، ولا غَمَرُوا المساكينَ في تَطاوُلِهمْ بأعناقِهِم، إلاّ

---

(١) [العيب].

(٢) [ما قارب قدره].

مِنْ أَنَّهُمْ يَعلُون أكتافَ الشياطين؛ فالشيطانُ دابّةُ الغنيِّ الذي يَجْهَلُ الحقَّ عليه في غناه، ويحسَبُ نفسَه مُخَلًّى لشهواتِهِ ونعيمِهِ؛ كما هو دابةُ العالِمِ الذي يَجْهَلُ الحقَّ عليه في علمِهِ، ويزعُمُ نفسَه مخلًّى لعقلِهِ أو رأيه، وما طالَ الطويلُ بذلك، ولا عَنْ ذلك قَصُرَ القصيرُ، وهل يَصِحُّ في الرأيِ أنْ يقالَ: هذا أطولُ من هذا، لأنّ الأولَ فوق السُّلَّمِ والآخَرُ فوقَ رجليْهِ. . ؟

قال المسيَّبُ: فقامَ شيخٌ من أقصى المجلسِ، وأقبلَ يتخطَّى الرقابَ، والناسُ يَنْفَرِجُوْنَ لَهُ، حتّى وقفَ بإزاءِ الإمامِ؛ وتَفَرَّسْتُهُ وجَعَلَتْ عيني تَعْجمُه[١]، فإذا شيخٌ تبدُوْ طلاقَةُ وجهِهِ شباباً على وجهِه، أبلجُ الغُرَّةِ، متَهَلِّلٌ، عليهِ بشاشةُ الإيمانِ، وفي أساريرِهِ أثرٌ مِنْ تقطيبٍ قديمٍ، ينطِقُ هذا وذاك أنّ الرَّجُل فيما أتى عليهِ مِنَ الدَّهْرِ قد كان أَطْفأَ المصباحَ الذي في قلبِهِ مَرَّةً ثم أضاءَه. وعجبتُ أنْ يكونَ مثلُ هذا الشيخِ قَدْ همَّ بِقَتْلِ نفسِه يوماً، وأنا أرى بعينيَّ نفسَه هذه مُنْبثقةً في الحياةِ انبثاقَ النَّخْلَةِ السَّحوق[٢].

وتكلَّمَ هذا الرجلُ فقالَ:

أمّا إذْ ناشدتنا الله والإسلامَ، وميثاقَ العلم، ووحيَ الأقدار في حكمتِهَا، فإني محدِّثُكَ بخبري على وصفِه ورصْفِه[٣]: أملقْتُ منذُ ثلاثينَ سنة، ووقفَ بي مِنَ الدَّهْرِ ما كانَ يجري، وأصبحتُ في مزاولةِ الدُّنيا كعاصِرِ الحَجَر، يريدُ أنْ يَشْربَ مِنْهُ، وعَجِزَتْ يدي، حتى لَظُفْرُ دجاجةٍ في نَبْشِها الترابَ عَنِ الحبّةِ والحشرةِ أَقْدَرُ مني؛ وطرَقَتْني النوائبُ كأنما هي

---

(١) [تخبره].
(٢) [السامقة]
(٣) [سياقه]

تُساكنُني في داري، وأكلني الدهرُ لحماً، ورماني عظاماً، فما كانَ يقفُ عليَّ إلا كلابُ الطريقِ؛ ولي يومئذٍ امرأةٌ أعقبتُ منها طِفلاً، ويلزمني حقُّهما، ولاأستطيعُه؛ وكان بيننا حُبٌّ فوقَ المعاشرةِ والأُلفةِ، قد تركني من امرأتي هذِهِ كالشّاعِرِ الغَزَلِ من صاحبتِهِ، غيرَ أنّ الشِّعْرَ في دمي لا في لساني.

فلما نَهَكتني المصائبُ، وتناولتْني مِنْ قريبٍ ومِنْ بعيدٍ؛ قلتُ للمرأةِ ذاتَ يومٍ، وقد شَحبَتْ، وانكَسَرَ وَجْهُهَا، وتقبَّضَ مِنْ هُزالِهِ: وايمُ اللهِ يا فلانةُ، لو جازَ أنْ يُؤكَلَ لحمُ الآدميّ لذبحتُ نفسي لتأكلي، وتَدرّي على الصبيِّ؛ ولقد هممتُ أنْ أركبَ رأسي، وأذهب على وجهي، لتفقداني، فتفقدا شُؤمي عليكما؛ ولكنْ رَدَّني قلبي، وهو حَبَسني في هذِهِ الدنيا الصغيرةِ التي بَيْنَكُما، فليسَ لي مِنَ الأرضِ مَشْرِقٌ ولا مَغْرِبٌ إلا أنتِ وهذا الصبيُّ. ولستُ أدري ـ واللهِ ـ ما نَصْنَعُ بالحياةِ وقد كُنّا من نباتِها الأخضر، فرجعنا من حطبِهَا اليابس، وعَادَتْ الشَّمْسُ لا تغذوها، بل تَمتَصُّ منها ما بقي، ولا تَسْتَضيءُ لها، ولكن تَسْتَوْقِدُ عليها!

إنّ مَنْ فقدَ الخير، وَوَقَعَ في الشَّرِّ، حَريٌّ أنْ يكونَ قَدْ أصابَ خيراً عظيماً إذا قَتَلَ نفسه، فَخَلَصَ مِنَ الشَّرِّ والخيرِ جَمِيعاً، لا يُكْدي، ولا يَنْجحُ، ولا يألمُ،ولا يَلَذُّ؛ وكما أنكَرْتَهُ الدنيا فَلْيُنْكِرْها. أما إنّه إنْ كانَ القبرُ، فالقبرُ، ولكنْ في بطنِ الأرضِ، لا على ظهرِها كحالِنا؛ وإنْ كانَ الموتُ، فالموتُ، ولكنْ بمرَّةٍ واحدةٍ، وفي شيءٍ واحدٍ، لا كهذا الذي نحنُ فيهِ أنواعاً أنواعاً. قَدْ ماتَتْ أيامُنا، وتُرِكنا نعيشُ كالموتَى، لا أيامَ لَهُمْ، وزادَ علينا المَوْتى في النّعمةِ والراحةِ أنَّهُمْ لا يتطفَّلُونَ على أيامِ غيرِهم، فيُطرَدُوْا عن يومِ هذا ويومِ ذاك.

قال: فاستعبرتْ المرأة باكيةً، ولما فرغتْ مِنْ كلامِ دموعِها، قالتْ:

كأنَّكَ تريدُ أنْ تَفْجَعَنا فيكَ؟ قلتُ: ما عَدَوْتِ[١] ما في نفسي؛ ولكنْ هَلْ بقيَ فيَّ مَنْ تُفْجعينَ فِيْهِ؟ أما ذَهَبَ مني ذاكَ الذي كانَ لَكِ زوجاً وكاسباً، وجاء الذي هُوَ همُّكِ، وهمُّ هذا الصبيِّ مِنْ رجلٍ كالحفرةِ لا تَنْتَقِلُ من مكانها، وتأخذُ ولا تُعطي؟

أمْ واللهِ لكأنّي خلُقتُ إنساناً خطأً، حتّى إذا تبيَّنَ الغَلَطُ أُرِيدَ إرجاعي إلى الحيوانِ، فلم يأتِ لا هذا ولا ذاكَ، وبقيتُ بينَهُمَا؛ يمرُّ النّاسُ بي، فيقولونَ: إنسانٌ مسْكينٌ، وأحسبُ لو نَطَقَتْ الكلابُ لقالتْ عنّي: كلبٌ مسكينٌ. يا عجباً! عجباً لا ينتهي! أصبحتْ الدنيا في يدِنا من العجزِ واليأسِ كأنّما هي بَعْرةٌ، نَجْهَدُ في تحويلها ياقوتةً أو لؤلؤةً...

فقالتْ المرأةُ: واللهِ لَئِنْ حَييْتَ على هذا إنَّ هذا لَكُفْرٌ قبيحٌ، ولَئِنْ مُتَّ عليهِ إنّه لأقبَحُ وأشدُّ.

فقلتُ لها: ويحَكِ، وماذا تنْظُرُ العينُ المبْصِرَةُ في الظلامِ الحالكِ إلا ما تَنْظُرُ العمياءُ؟

قالتْ: ولم لا تَنْظُرُ كما يَنْظُرُ المؤمنُ بنورِ الله؟

قلت: فانظري أنت، وخبِّريني ماذا ترَيْنَ. أترَيْنَ رغيفاً؟ أترينَ إداماً؟ أترينَ ديناراً؟

قالتْ: واللهِ إنّي لأرى كلَّ ذلك وأكثرَ من ذلك، أرى قمراً سَيَكشِفُ هذِهِ السُّدْفَةَ[٢] المظلمةَ إنْ لم يَطْلعُ فكأنْ قَدْ.

قال: فغاظتني المرأةُ، ورأيتُها حينئذٍ أشدَّ عليَّ بقلَّةِ ذات عَقْلها مِنْ قِلَّةِ ذاتِ يدي؛ ولولا حُبِيِّ إياها، ورحمتي لها، لأوقعتُ بها، واسْتَحْكَمَ في

---

(١) [ما تجاوزت].

(٢) [الليلة].

ضميري أنْ أزْهقَ نفسي، وأدَعَها لما كُتِبَ لها.

وقلتُ: إنَّ جُبْنَ المرأةِ هو نِصْفُ إيمانِها حينَ لا يَكُونُ نِصْفُ عَقْلِها، ولِلقَدَرِ يَدٌ ضعيفةٌ على النِّساءِ، تَصْفَعُهُنَّ، وتَمْسَحُ دموعَهُنّ، وله يدٌ أخرى على الرجالِ ثقيلةٌ، تَصْفَعُ الرَّجُلَ، وتأخذُ بحلقِهِ فَتعصِرُهُ.

قال: وكنتُ قَدْ سَمِعْتُ قولَ الجاهليةِ في هذِهِ الخليقةِ: أرْحَامٌ تَدْفَعُ، وأرْضٌ تبْلَعُ. فحضَرني هذا القولُ تلكَ الساعةِ وشُبِّهَ لي، واعتقدتُ أنّ هذا الإنسانَ شيءٌ حقيرٌ في الغايةِ مِنَ الهوانِ والضَّعَةِ: حملتْهُ أُمُّهُ كُرهاً[1]، وأثْقَلَتْ به كُرهاً، ووضَعَتْهُ كُرهاً؛ وهو من شؤمِهِ عليها، إذا دنا لها أنْ تَضَعَ، لم يَخْرُجْ منها حتى يضْربَها المخاضُ، فتَتَقَلَّبُ، وتَصيحُ، وتَتَمَزَّقُ، وتنْصَدِعُ؛ وربما نشبَ فيها فقتلَها، وربما التوى، فيُبْقَرُ بطنُها عنه؛ وإذا هي ولدته على أيِّ حالَيْها من عسرٍ، وتطريقٍ بمثلِ المطارقِ المحطِّمةِ، أو سراحٍ ورواحٍ كما يتيسَّرُ ـ فإنما تلِدُه في مشيمةٍ ودماءٍ وقذرٍ من الأخلاط، كأنما هو خارجٌ مِنْ جُرْحٍ. ثُمّ تتناولُه الدنيا، فتضَعُه من معانيها في أقبحِ وأقذرِ من ذلك كلِّه. ثم يستوفي مُدَّتَهُ، فيأخذُهُ القبرُ فيكونُ شرّاً عليهِ في تمزيقِهِ وتعفينِهِ وإحالتِهِ.

قال: وحضرني مع كلمةِ الجاهليةِ قولُ ذلك الجاهلِ الزِّنديقِ الذي يُعْرفُ بالبَقْليِّ، إذْ كانَ يَزْعُمُ أنَّ الإنسان كالبقْلةِ، فإذا ماتَ لم يَرْجِعْ، وقلتُ لنفسي: إنّما أنتَ بَقْلةٌ حمقاءُ ذاويةٌ في أرضٍ نَشَّاشَةٍ[2]، فقتلها مِلْحُ أرضِها أكثر مما أحياها.

قال: وثُرْتُ إلى المُدية[3] أريدُ أنْ أتوجَّأ بها، فتُبادِرُني المرأةُ،

(١) [الكُره: المشقة].

(٢) الأرض النشاشة: هي السبخة التي فيها الملح والماء.

(٣) [السكين].

وتحولُ بيني وبينَها؛ وأكادُ أبطُشُ بها مِنَ الغيظِ، وكانتْ روحُ الجَحيْم تزْفرُ مِنْ حَوْلي، لو سَمعوا سَمِعُوا لها شِهيْقاً وهي تفُوْرُ؛ فما أدري أيُّ مَلَكٍ هَبَطَ بوحي الجنةِ في لسانِ امرأتي.

قلتُ لها: إنّها عَزْمةٌ مني أنْ أقْتُلَ نفسي.

قالتْ: وما أريدُ أنْ أنقضَها، ولستُ أرُدُّكَ عَنْهَا وستُمْضِيْهَا.

قلتُ: فخلِّي بين نفسي وبين المُديةِ.

قالتْ: كلُّنا نفسٌ واحدةٌ، أنا وأنتَ والصبيُّ، فلنقْضِ معاً؛ وما بنفسي عن نفسِكَ رغبةٌ، ولاندعُ الصبيَّ يتيماً، يصفَعُهُ مَنْ يُطْعِمُهُ، ويضرِبُهُ ابن هذا وابنُ ذاك، إذْ لا يستطيعُ أنْ يقولَ في أولادِ النَّاسِ: أنا ابنُ ذلك ولا ابن هذا.

قلتُ: هذا هو الرأيُ.

قالتْ: فتعال اذبحْ الطِفْلَ. . .

قال المسيَّبُ بنُ رافع: وما بلغُ الرجلُ في قصتِهِ إلى ذبحِ صغيرِهِ حتى ضَجَّ النَّاسُ ضجةً مُنكَرةً؛ وتوهَّمَ كلُّ أبٍ منهم أنّ طفلَه الصغيرَ مُمدَّدٌ للذَّبحِ،وهو ينادي أباه.وَيَشُقُّ حلقَهُ بالصُّرَاخُ: يا أبي يا أبي؛ أدركني يا أبي.

أمّا الإمامُ فدمَعَتْ عيناهُ، وكنتُ بين يديهِ، فسمعتُهُ يقول: إنَّا للهِ، كيفَ تَصْنَعُ جهنمُ حطبَهَا؟

وأنا فما قطُّ نسيتُ هذِهِ الكلمةَ، وما قطُّ رأيتُ من بعدِها كافراً ولا فاسقاً فاعتبرتُ أعمالَهُ إلا كانَ كلُّ ذلك شيئاً واحداً، هو طريقة صنعته حطباً. . كأنَّ الشيطان ـ لعنهُ الله ـ يقول لأتباعِهِ: جفّفُوه. . .

وكانتْ هُنَيْهاتٌ، ثم فاءَ النّاسُ، ورجعوا إلى أنفسِهِم وصاحوا بالمتكلِّم: ثُمَّ ماذا؟

قال الرَّجلُ: ففتحتُ عيني وقلبي معاً، ورَمقْتُ الطِفْلَ المسكينَ، الذي

لا يَمْلِكُ إلا يديه الضعيفَتَيْنِ؛ ونظرتُ إلى مَجْرى السكين مِنْ حَلْقهِ، وإلى مَحَزِّها في رقبتِهِ الليِّنةِ؛ ورأيتُهُ كأنّما تَفرَّقَ بصرُه من الفَزعِ على كلِّ جهةٍ، ورأيتُه يتضرَّعُ لي بعينيه الباكيتينِ ألاَّ أذبَحَه، ورأيتُه يَتَوسَّلُ بيديهِ الصغيرتينِ، كأنَّهُ عَرَفَ أنَّهُ مني أمامَ قاتِلِهِ، ثم خُيِّلَ إليَّ أنّه يتلوَّى وينتفِضُ، ويصرُخُ من ألمِ الذَّبحِ تَحْتَ يدِ أبيهِ؛ تَحْتَ يدِ أبيهِ التَّعسِ.

يا ويلتاهُ! لقد أخذني ما كانَ يأخذُني لو تهدَّمتِ السماءُ على الأرضِ، وحسبتُ الكونَ كلَّهُ قد انفجَرَ صُراخاً من أجلِ الطفلِ الضعيفِ، الذي لَيْسَ له إلا ربُّه أمامَ القاتِلِ.

فهرَولْتُ مسرعاً، وتركتُ الدارَ والمرأةَ والصبيَّ، وأنا أقولُ: يا أرحمَ الرّاحمين! يامَنْ خَلَقَ الطفلَ عالَمُهُ أمُّه وأبوهُ وحدَهما، وباقي العالم هباءٌ عنده.

يا مَنْ دبَّرَ الرضيعَ، فوهَبَهُ مُلكاً ومملكةً، وغنىً وسروراً وفرحاً، كلُّ ذلك في ثَدْيِ أمِّه وصدرها لاغيرَ.

يا إلهي! أنسني مثل هذا النسيانَ، وارزقني مثل هذا الرزقَ، واكفُلْني بمثلِ هذا التدبيرِ، فإنّي منقطِعٌ إلا مِنْ رحمتِكَ انقطاعَ الرَّضيعِ إلا مِنْ أمِّهِ.

قال الرجُلُ: ولقد كنتُ مغروراً كالجيفةِ الراكدةِ تَحْسَبُ أنَّها هي تَفُورُ حينَ فارت حشَراتُها. ولقد كنتُ أحْقَرَ من الذبابِ الذي لا يَجِدُ حقائقه، ولا يلتَمِسُها إلا في أقذر القذر.

وما كدتُ أمضي كما تسوقُني رجلاي، حتى سمعتُ صوتاً ندياً مطلُولاً يُرَجِّعُ ترجيع الوَرْقاءِ[1] في تَحنانِها، وهو يُرتِّل هذه الآية: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ

---

(١) [الترجيع: الترديد بالألحان. الورقاء: الحمامة التي لونها كلون الرماد]

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]

قال: فوقفتُ أسمعُ، وماذا كنتُ أسمعُ؟ هذه شُعَلٌ لاكلمات، أحرقتْ كلَّ ما كان حولي، ولمستْ مِصباحَ رُوحي المنطفىء، فإذا هوَ يتوهَّجُ، وإذا الدنيا كلُّها تتوهَّجُ في نوره، وارتفعتْ نفسي عن الجَذْبِ الذي كنتُ فيه، وكأنَّما لفَّتْني سحابةٌ من السُّحبِ، ففي روحي نسيمُ الماءِ الباردِ، ورائحةُ الماءِ العَذْبِ.

لعنَ اللهُ هذا الاضطراب الذي يُبتلى الخائفُ بهِ، إنَّنا نحسَبُهُ اضطراباً، وما هُوَ إلا اختلاطُ الحقائقِ على النَّفْسِ، وذهابُ بعضها فِي بعضٍ، وتضَرُّبُ الشَّرِّ في الخير، والخير في الشرِّ، حتى لا يبينَ جنسٌ مِنْ جِنْسٍ، ولا يُعرَفَ حَدٌّ مِنْ حَدٍّ، ولا تمتازَ حقيقةٌ من حقيقةٍ. وبهذا يكونُ الزمنُ على المبتلى كالماءِ الذي جَمَدَ لا يتحرَّكُ ولا يتَسَايَرُ. فيلوحُ الشَّرُّ، وكأنَّه دائماً لا يزالُ في أوله، ويُنذِرُ بالأهوالِ، وقد يكونُ هولُه انتهى أو يُوشكُ.

قال الرَّجُلُ: وكنتُ أرى يأسي قد اعْتَرى كلَّ شيءٍ، فامتدَّ إلى آخرِ الكونِ، وإلى آخرِ الزمنِ؛ فلمّا سكنَ ما بي، إذا هُوَ قَدْ كانَ يأسَ يومٍ أو أيامٍ، في مكانٍ مِنَ الأمكنةِ؛ أمّا ما وراءَ هذه الأيامِ، وما خَلْفَ هذا المكان، فذلك حكمُهُ حُكْمُ الشَّمْسِ التي تطلُعُ وتغيبُ على الدنيا لإحيائِهَا، وحُكْمُ الماءِ الذي تَهْمي السماءُ بهِ لِيَسْقيَ الأرض وما عليها، وحكمُ استمرارِ هذِهِ الأجرامِ السماويةِ في مَدَارِها، لا تُمسِكُها ولا تَزِنُها إلا قوةُ خالقِها.

أينَ أثرُ الإنسانِ الدنيءِ الحقيرِ في كلِّ ذلكَ؟ وهلْ الحياةُ إلا بكلِّ ذلكَ؟

وما الذي في يدِ الإنسانِ العاجزِ من هذا النظامِ كلّه، فيَسُوغَ له أنْ يقولَ في حادثةٍ من حوادثِهِ: إنَّ الخيرَ لا يبتدِىءُ، وإنَّ الشرَّ لا ينتهي؟

تعتري المصائبُ هذا الإنسانَ لتمحوَ مِنْ نفسِه الخِسَّةَ والدناءَةَ، وتكسِرَ الشرَّ والكبرياءَ، وتَفثأ[1] الحِدَّةَ والطيشَ؛ فلا يكونُ من حُمْقِهِ إلا أنْ يزيدَ بها طيشاً وحِدَّةً، وكبرياءً وشرًّا، ودناءةً وخِسَّةً، فهذه هي مصيبةُ الإنسانِ لاتلك، المصيبةُ هي ما ينشأ في الإنسانِ مِنَ المصيبةِ.

قال: ورَدَّدْتُ الآيةَ الكريمةَ في نفسي لا أشبعُ منها، وجعلتُ أرتِّلها أحسنَ ترتيلٍ وأطربَه وأشجاهُ؛ فكانتْ نفسي تهتزُّ وترتجُّ، كأنّما هي تَبْدَأُ تنظيم ما فيها، لإقرارِ كلِّ حقيقةٍ في موضِعِهَابعدَ ذلكَ الاختلاطِ والاضطرابِ.

صَبْرُ النفسِ مع الذين يمثّلون روحانيتهَا تمثيلاً دائماً بالغداةِ والعشيِّ، وعلى نورِ الحياةِ وظلامِها، يريدون وَجْهَ اللهِ الذي سبيلُه الحبُّ، لاغيرُه من مالٍ أو متاعٍ، وتَقْييدُ العينينِ بهذا المثلِ الأعلى، كما يكونُ الأمرُ في الجمالِ والحُبِّ، والربطُ على الإرادةِ كيلا تَفلَّتَ فَتُسِفَّ إلى حقائرِ الدنيا المسمَّاةِ ـ هزُؤاوتهكُّماً ـ زينةَ الدنيا، تِلْكَ التي تُشْبِهُ حقائقَ الذبابِ العاليةِ... فتكونُ قَذِرةً نَجِسةً، ولكنّها مع ذلك زينةُ الحياةِ لهذا الخَلْقِ الذبابيِّ...

تلك واللهِ هي أسبابُ السعادةِ والقوّةِ، أمّا المصائبُ كلُّها، فهي في إغفالِ القلبِ الإنسانيِّ عن ذِكْرِ اللهِ.

قالَ: ولما صَحَّتْ تَوبتي، وقَوِيَ اليقينُ في نفسي، كَبُرَتْ روحي واتّسعتْ، وانبعثتْ لها بواعثُ من غيرِ حقائقِ الذُّبابِ، وأشرقَ فيها الجَمَالُ الإلهيُّ ساطعاً من كلِّ شيءٍ، وكانَ الصبحُ يطلعُ عليَّ كأنّه ولادةٌ جديدةٌ، فأنا دائماً في عُمرِ طِفْلٍ، وجاءني الخيرُ مِنْ حيثُ أحتَسِبُ ولا أحتسِبُ، وكأنّما نِمْتُ فانتبهتُ غنياً، وعملَ القلبُ الحيُّ في الزمنِ الحيِّ.

---

(١) [تكسِر وتُسَكِّن].

ولقد أفدْتُ من الآية طبيعةً لم تكنْ فيَّ، ولا يثبتُ معها الشرُّ أبداً، فأصبحَ من خصالي أنْ أرى الحاضِرَ كلَّه متحرِّكاً يمرُّ بما فيهِ مِنْ خيرِهِ وشرِّهِ جميعاً، وأستَشْعِرَمن حركتِهِ مثلما ترى عيناي مِنْ قطارِ الإبلِ يهتزُّ تحتَ رحالِهِ، وهو يُغِذُّ السَّيرَ.

لم أبْعِدْ قليلاً وأنا أمشي مُطْمَئِناً تائباً متوكلاً حتى دعاني رجلٌ ذو نِعْمَةٍ ومروءَةٍ وجاهٍ، وكأنّما كلَّمَهُ قلبُه، أو كلَّمَهُ وجهي في قلبه، فاستَنْبأني، وبَشْشْتُه حالي، واقْتَصَصْتُ قصتي. فقال: سيُحْيِيْكَ اللهُ بالطفلِ الذي كِدْتَ تقتُلُهُ، فارجعْ إلى دارِكَ. ثُمّ وجَّهَ إليَّ دنانيرَ، وقال: اتَّجرْ بهذِهِ على اسمِ اللهِ وبركتِهِ، فسينمو فيها طِفْلٌ من المالِ، يبلغُ أشُدَّه. وقد صدق إيمانُه وإيماني، فبَارَكَ لي الله، ونما طِفْلُ المالِ، وبلَغَ وجاوَزَ إلى شبابِهِ.

قال المسيَّبُ: وجلسَ الرَّجلُ، وكانَ كالخطيبِ على المنبرِ، فقالَ الإمامُ: ما أشْبَهَ النكبةَ بالبيضَةِ، تحسَبُ سجناً لما فيها، وهي تحوطُهُ وتربّيْهِ وتُعينُهُ على تمامِهِ، وليسَ عليهِ إلا الصَّبْرُ إلى مدةٍ، والرضى إلى غايةٍ، ثم تَنْقُفُ البيضةُ، فَيَخْرُجُ خَلقاً آخر.

وما المؤمنُ في دنياه إلا كالفَرْخِ في بَيْضتِهِ، عملُه أنْ يَتَكَوَّنَ فيها، وتمامُه أنْ يَنْبَثِقَ شخصُه الكامِلُ فَيَخْرُجَ إلى عالَمِهِ الكاملِ.

ـ ٤ ـ

قال المسيَّب بنُ رافعٍ: ومدَّ الإمامُ عينَهُ، وقد رُفع له شخصٌ من المجلسِ؛ ثم جَلى بنظرِهِ، كأنّما يتطلَّعُ إلى عجيبةٍ كالحقِّ إذا بَطَلَ، والصِّدْقِ إذا كذَبَ؛ ثم رَدَّ بصرَهُ عَلَيَّ، كأنّه يُعَجِّبُني من عَجَبِهِ؛ ثم سجّا طَرْفه، كأنّما أنكَرَ رأيَ عَيْنَيْهِ، فهو يَلْتَمِسُ رأي قلبِهِ. وتبيَّنْتُ في وجهِهِ انقباضاً، خُيِّلَ إليَّ أنَّ الشيطانَ جاءَهُ بهذا الرَّجلِ يُفْحِمُهُ بِهِ، يُرِيْهِ كيفَ

يَجْعَلُ أحدَ المؤمنينَ الصالحينَ يَتَحَمَّسُ في دينه، ليرجعَ بعدَ ذلك أصلاً لا غنى عنه في إنشاءِ قِصَّةِ كُفْرٍ!

هذا هو ضيفُنا أبو محمد البَصْري[١] يتخوَّضُ الناسَ ليجيءَ فيحدثَنا حديثَهُ في قتلِ نفسِه، والإثمِ بربّهِ: فلو قيلَ لي: إنَّ قوسَ السَّماءِ بأحمَرِه وأصفرِه وأزرقِهِ وأخضرِه قد وقعَ إلى الأرضِ، واصطبغَ مِنْ ألوانهِ أوحالاً وأقذاراً؛ لكانَ هذا كهذا في تعاظمِهِ وإنكارِهِ والعجبِ منه؛ فأبو محمدُ مِنَ الرجال الحُمْس[٢]، الذين لو كفرَ أحدُهم، ثم قِيْلَ: إنّه كفرَ، لقَصَّرَ اللفظُ أنْ يَبْلُغَ الحقيقة، أو يصفَ شنْعتَها، كما يُقصِّرُ لفظُ الجنونِ عَنْ وصفِ حكيم تألَّى أن يعملَ عملاً يخرج به من الكون، فلا يبقى في أرضٍ ولا سماء، ولا تنالُهُ يدُ الله! إنّ في لفظِ الكفرِ مع ذاك، وفي لفظِ الجنونِ مع هذا ـ شيئاً من نفاقِ العقلِ، وتأدُّبِهِ في أداء المعنى الأخرق، الذي لا يشبهُهُ جنونٌ ولا كفرٌ.

ونعوذُ باللهِ مِنْ خذلانِهِ؛ فلقد يكونُ الرجلُ المؤمنُ في تشدُّدِهِ وإيغالِهِ في الدِّينِ ـ كالذي يَصْنَعُ حبلاً يَفْتِلُهُ فَتلاً شديداً، فيُمِرُّه على طاقٍ بعدَ طاقٍ، ليكون أشدَّ له وأقوى، ثم يُجاذِبُهُ الشيطانُ حَبْلَهُ، فإذا هو كانَ في الوَهَنِ مثل العنكبوتِ اتخذتْ بيتاً في سَقْفِ حدّادٍ؛ فرأتْهُ يَصُبُّ الحديدَ المصهورَ يجعلُهُ سِلْسِلَةً حَلْقةً في حلْقةٍ، فذهبتْ تحكيهِ، وترسِلُ من لُعابِهَا خيطاً في خيطٍ، تزعُمهُ سلسلةً...!

---

(١) يعني المؤلف بأبي محمَّد البصريِّ هذا صديقنا الأستاذ محمود محمد شاكر ومن أجلِه أنشأ هذه المقالات، وقد سبقت إشارتنا إلى حادثته وخبرِه وما فعلَ بنفسِه ـ فانظرْ كلَّ ذلك في موضعه من كتابنا «حياة الرافعي»(٢٨٠) وأكثرُ ما يأتي في هذا الفصل على لسانِ «أبي محمد البصري» فهو من قوله بحروفه إلا قليلاً من قليل.

(٢) أي المتحمّسينَ في دينهم.

إنَّ معَ كلِّ مؤمنٍ شيطانَهُ يَتَرَبَّصُ به، فلهذا ينبغي للمؤمنِ أنْ يكونَ في كلِّ ساعةٍ كالذي يَشْعُرُ أنّه لم يُؤْمِنْ إلا مُنْذُ ساعةٍ، فهو أبداً مُحترسٌ متهيِّئٌ مُتَجَدِدُ الحواسِّ مُرْهَفُه!! يَسْتَقْبِلُ بها الدنيا جديدةً على نفسِهِ بين الفترةِ والفترةِ، ومن هذا حكمةُ أنْ يُؤَذِّنَ المؤذِّنُ، وأنْ تُقامَ الصّلاةُ مراراً في اليومِ، فكلَّما بَدَأَ وقتٌ قال المؤمنُ: الآنَ أبدأُ إيماني أطهرَ ما كانَ وأقْوَى.

وقال الإمامُ: هيهِ يا أبا محمد!

فقال البَصْريُّ: وقد رأى الكراهة في وجهِ الإمامِ: لا يُفْزِعَنَّكَ أيها الشيخُ؛ فإنَّ الله تعالى قد يَجْعَلُ ما يُحِبُّهُ هو فيما نَكْرَهُ نحنُ؛ وليسَ للأقدارِ لغةٌ فتجري على ألفاظِنَا؛ وقد نُسمي النازلةَ تنزلُ بنا خساراً، وهي رِبْحٌ، أو نقولُ مصيبةٌ جاءَتْ لتبديلِ الحياةِ، ولا تكونُ إلا طريقةً تيَسَّرتْ لتبديلِ الفِكْرِ. إنّما لغةُ القَدرِ في شيءٍ هي حقيقةُ هذا الشيءِ حينَ تَظْهَرُ الحقيقةُ؛ وكأيِّنْ مِنْ حادثةٍ لا تُصيبُ امرأً في نفسِهِ إلا لِتَقَعَ بها الحَرْبُ بينَ هذِهِ النفسِ وبين غرائزِها. فتكونَ أعمالُ الطبيعةِ المعاديةِ أسباباً في أعمالِ العقلِ المنتصِرِ.

وكثيرٌ مِنْ هذا البلاءِ الذي يَقْضي على الإنسانِ، لا يكونُ إلا وسائلَ من القَدَرِ، يُرَدُّ بها الإنسانُ إلى عالَمِ فكرِهِ الخاصِّ بِهِ؛ فإنَّ هذِهِ الدنيا عالَمٌ واحِدٌ لكلِّ مَنْ فيها، ولكنَّ دائرةَ الفِكْرِ والنَّفْسِ هي لصاحِبِها عالَمُهُ وحدَه. والسَّعيدُ مَنْ قرَّ في عالمِهِ هذا، واستطاعَ أنْ يَحكُمَ فيهِ كالمَلِكِ في مملكتِهِ، نافذَ الأمرِ في صغيرتِها وكبيرتِها؛ والشقيُّ مَنْ لا يزالُ ضائعاً بينَ عوالمِ النّاسِ، يَنْظُرُ إلى هذا الغنيِّ، وإلى ذاك المجدودِ[1]، وإلى ذلك الموفَّقِ؛ وهو في كلِّ هذا كالأجنبيِّ في غيرِ بلدِه، وغيرِ قومِه، وغيرِ أهلِهِ، إذْ كلُّ شيءٍ يُصْبِحُ أجنبياً عن الإنسانِ ما دامَ هو أجنبياً عَنْ نفسِه.

---

(١) [المحظوظ].

لقد كنتُ ضالاً عن نفسي وعالَمِها، فكنتُ في هذه الدنيا أستَشْعِرُ شعورَ اللِّصِّ، أشياؤُه هي أشياءُ النّاسِ جميعاً؛ واللِّصُ ينظرُ إلى أموالِ النّاسِ بعيني شاعرٍ مُتَحَبِّبٍ كَلِفٍ[1]، وهي تَنْظُرُ إليهِ بعيني مُقاتلٍ متربِّصٍ حَذِرٍ.

كنتُ واللهِ إنْ ضِقْتُ بالنّاسِ أو وَسِعْتُهُم؛ رأيتُ في ذلك معنى من ضيقِ اللِّص وسَعَته؛ هو على أيِّ حالَيه لا ينظرُ في أعماقِ نفسِه إلا شخصاً متوارياً تحتَ الظّلامِ، يتسلَّلُ في خَشْيةٍ وحذَرٍ!

وكُنْتُ نزِقاً حديدَ الطَّبْعِ، سَرِيْعَ البادِرَةِ؛ ومَنْ فقدَ عالَمَ نفسِهِ، وكان في مَثَلِ اللِّصِّ الذي ذكرتُ؛ فإنَّ هذِهِ الطباعَ تكونُ هي أسلحتُه، يَدْفَعُ بها، أو يعتدي. وما قَطُّ تمَكَّنَ إنسانٌ من نفسِهِ، وأحاطَ بها، ونَفَذَ فيها تصرُّفه؛ إلا كانَ راضياً عن كلِّ شيءٍ، إذ يتَّصِلُ مِنْ كلِّ شيءٍ بجهتِهِ الساميةِ لاغيرَها، حتّى في اتصالِهِ بأعدائِهِ مِنَ النّاسِ وأعدائِهِ من الأشياءِ؛ فما يرى هؤلاءِ ولا هؤلاءِ إلا امتحاناً لفضائلِهِ وإثباتاً لها.

وقد يكونُ عدوُّك في بعضِ الأمورِ عيناً لكَ في رؤيةِ نفسكِ؛ ففيه بَركةُ هذِهِ الحاسَّة ونعمتُها.

ولو نحنُ كنّا مسلمينَ إسلام نبيِّنا ﷺ، وإسلامَ المقتدين به من أصحابِهِ ـ لأدركنا سِرَّ الكمالِ الإنسانيِّ؛ وهو أنْ يَقَرَّ الإنسانُ في عالَمِ نفسِهِ، ويجعلَ باطنه كباطِنِ كلِّ شيءٍ إلهي، ليسَ فيهِ إلا قانونُه الواحِدُ المستمرُّ بهِ إلى جهةِ الكمالِ، المرتفعُ به مِنْ أجلِ كمالِهِ عن دوافعِ غيرِه؛ فنَظَرُ الإنسانِ إلى نقصِ غيرِه هو أولُ نقْصِهِ.

والمؤمنُ كالغُصْنِ؛ إنْ أثمرَ فَتِلْكَ ثمارُ نفسِهِ، وإنْ عَطَلَ لم يَشْحَذْ، ولم يَحْسُدْ، واستمرَّ يَعْمَلُ بقانونِهِ.

---

(١) [الكلف: المولع بالشيء].

ولقد نشأتُ في مغرِسٍ كريم، على صورةٍ مِنَ الحياةِ تُشْبِهُ صورةَ الثَمرةِ الحلوةِ، اجتمعَ لها من طبيعةِ مَغْرَسِهَا ومَرْتَبَتها ما تتعيَّنُ به من حلاوةٍ ونكْهةٍ ومَذاقٍ؛ فلما عَقَلْتُ، وعرفتُ الناسَ بعدُ، فجاريتُهم، وخالطتُهم، رأيتُني منهم كالتفَّاحةِ ملقاةً في البصَلِ. . . وكانتْ التفاحةُ حمقاءَ، فزادتْ حُمقاً، وكانتْ حديدةً فزادت حِدة، وظنَّت أنّ الحكمةَ قد مسخَتْ في الدنيا وبدَّلتْ، إذ خلقتْ البَصلةَ بعد أن خلقتْ التفاحةَ؛ وما علمَتْ الخرقاءُ أنّ الكمالَ في هذه الحياةِ مجموعُ نقائص، وأنّ للجمالِ وجهينِ: أحدُهما: الذي اسمُه القُبْحُ، لا يُعرَفُ هذا إلا مِنْ هذا؛ وأنّ البصلةَ لو أدركتْ ما يريدُ الناسُ من معناها ومعنى التفاحةِ لَسَمَّتْ نفسَها هي التفاحة، وقالتْ عن هذِهِ: إنّها هي البصلةُ!

ولما رأتْ تفّاحتي أنّها عاجزةٌ أنْ تجعلَ الشجرَ كلَّه في مثلِ مرتبتِها ومغرسِها، قالتْ: إنّ الأمرَ أكبرُ من طبيعتي، وما دامَ سِرُّ الكونِ مُغْلَقاً، فلا تعريفَ له إلا أنّه سِرٌّ مغلَقٌ، ولْيَبْقَ كلُّ شيءٍ في طبيعةِ نفسهِ، فعلى هذا يَصلُحُ كلُّ شيءٍ، ولو في نفسِه وحدَها.

قال أبو محمدٍ: ولكنْ بقيتْ وَحْشةُ الدنيا وجفوتُها، إذْ لم أكنْ اهتديتُ إلى عالَمي، ولا تأكَّدَتْ عقيدتي بنفسي؛ فكانَ كُلُّ ما حولي مُنْبَجِساً في رُوحي بِشرِّهِ، وكانتْ الدنيا بهذا كالمتطابقةِ في رأيي على معنى واحدٍ، وزادني أني كنتُ رجلاً عَزَباً متعفِّفاً؛ وما أشبه فراغَ الرجولة من المرأةِ بفراغِ العقلِ من الذكاءِ؛ هذا هو العقلُ البليدُ، وتلك هي الرجولةُ البليدةُ!

والمرأةُ تُضاعِفُ معنى الحياةِ في النَّفْسِ، فلا جَرَمَ كان الخَلاءُ منها مضاعفةً لمعنى الموتِ؛ عَلِمَ هذا مَن عَلِمَ، وجَهِلَه مَن جَهِلَ، فكنتُ أعيشُ من الكونِ في فراغٍ ميِّتٍ، وكنتُ أحسُّ في كلِّ ما حولي وحشةً عقليةً تُشعرني أنّ الدنيا غيرُ تامَّةٍ؛ وكيفَ تتمُّ في عيني دنيا أراها غيرَ الدنيا التي في قلبي؟

وعرفتُ أنّ كلَّ يومٍ يمضي على الرَّجُلِ العَزَبِ المتعفِّفِ لا يمضي حتى يهيءَ فيه مَرَضَ يومٍ آخرَ. ومِنْ هذه الأيامِ المريضةِ المتهالِكةِ، تُمِدُّ الحياةُ انتقامَها من هذا الحيِّ الذي نَقَض آيتَها، وافْتَاتَ[١] عليها، وجَعلَ نفسَه كالإلهِ لا زوجةَ لَهُ ولا صاحبة!

وايْمُ الله إن الشيطانَ لا يَفْرَحُ بالرَّجُلِ الزاني وبالمرأةِ الزانيةِ ما يَفْرَحُ بالرجلِ العَزَبِ وبالمرأةِ العزباءِ؛ لأنّه في ذينك رذيلةٌ في أسلوبها، أما في هذين، فالشيطانُ رذيلةٌ في أسلوبِ فضيلةٍ...! هناك يُلِمُّ الشيطانُ ويمضي، وهنا يأتي الشيطانُ ويقيمُ!

وقد عشتُ ما عشتُ بقلبٍ مُغْلَقٍ، وعقلٍ مفتوحٍ؛ وليتني كنتُ جاهلاً مُغلَقاً عقلُهُ وكان قلبي مفتوحاً لأفراحِ هذا الكونِ العظيمِ!

ومضت أيامي يَضربُ بعضُها في بعضٍ، ويُمْرِضُ بعضُها بعضاً، حتى انتهتْ مُنتهاها، وجاءَ اليومُ المُذْنَفُ الهالِكُ الذي سيموتُ...

أصبحتُ فقلتُ لنفسي: كم تعيشينَ ويحك في أحكامِ جَسَدٍ مُخْتَلٍّ، لا تَصْدُقُ أحكامُهُ، وما أنتِ مَعَهُ في طبيعتِكِ، ولا هو معكِ في طبيعتِهِ؛ ففيمَ اجتماعُكُما إلا على بلائي ونكدي؟

لم تصطلحا قطُّ على واجبٍ ولا لذةٍ، ولا حلالٍ ولا حرامٍ؛ فأنتما عدُوَّان لا هَمَّ لكلَيهما إلا إفسادُ المسرَّةِ التي تَعْرِضُ للآخَر. وما أدري بمن يسخَرُ الشيطانُ منكما؟ فالعابدُ الذي يُوَسْوِسُ باللذاتِ يتمنَّى اقترافَها، كالفاجرِ الذي يُواقِعُها ويقتحِمُها!

ويحكِ يا نفسُ! إني رأيتُ هذهِ الدنيا الخرقاءَ لم تُقدِّمْ لي إلا رغيفاً، وقالتْ: املأ بهذا بطنَك وعقلَك وعينَيْكَ وأذنَيْكَ ومشاعرَك. آه، آه!

---

(١) [افترى].

مُمْكِنٌ واحدٌ معه أربعةُ مستحيلاتٍ(١)؛ إنّ هذا لا يَلْبثُني أنْ يذهبَ مني بالأربعةِ التي تُمْسِكُني على الحياةِ: الأملِ والعقلِ والإيمانِ والصبرِ.

لقد استوى في هذه الكآبةِ صغيرُ همّي وكبيرُه، وما أراني إلا قد أشرفتُ على الهلكةِ التي لا باقيةَ لها، فإنّ وجهي المتكلّحَ المتقبّضَ يَدُلُّ مني على أعصابٍ مُحتضرةٍ، نَهَكَتْها أمراضُها ووساوسُها، وإنّما وجهُ الإنسانِ في قُطوبه أو تَهلُّلِه هو وجهُهُ ووجهُ دنياه تَعبُسُ أو تَبْتَسِمُ.

وتَاللهِ، لقد عجزتُ عن كِفاحِ الدنيا بهذه الأعصابِ المريضَةِ الواهنةِ؛ فإنَّ حِبالةَ الصَّيدِ ـ صيدِ الوحشِ ـ لاتكونُ من خيطِ الإبرةِ. . .! وأراني أصبحتُ كإنسانٍ حجَريٍّ، ليس في طبيعتهِ الالتواءُ إلى يمينِ الحياةِ ويسارِها؛ ويُخَيَّلُ إليَّ مِنْ صلابتي أنّي الأسدُ، ولكنّي أسدٌ من حَجَرٍ، لا تَفرِضُ قوتُه الفرارَ منه على أحدٍ!

قال أبو محمدٍ: ورأيتُ نفسي في هذا الحوارِ كالميّتةِ، لا تُجيبُ، ولا تَعْتَرِضُ، ولا تُنكِرُ، وكنتُ أظنُّها تُراودُني على الحياةِ، أو تردُّني عن غَوايتي؛ فملأني سكونُها جَزَعاً، وأيقنتُ أنّ الشيطانَ بيني وبينَها، وأنّه أَخَذَ بمنَافِذِها، فأردتُ الصلاةَ، فَثقُلْتُ عنها، ورأيتُني لا أصلحُ لها، بل خُيِّلَ إليَّ أنّي إذا قمتُ إلى الصّلاةِ، فإنّما قمتُ لأتهزَّأَ بالصّلاةِ!

وجعلَ الشيطانُ يأخذُني عَنْ عقلي، ويردُّني إليه، ثم يأَخذُني ويردُّني، حتى توهَّمْتُ أني جُنِنْتُ، وكأنما كانَ يريدُ اللعينُ بقيَّةَ إيماني، يجاذِبُني فيها وأجاذِبُهُ، فلم ألبثْ أن مسّني خَبالٌ، وألقيتُ هذه البقيةَ في يَدَيْهِ!

ثُمَّ أفَقْتُ إفاقةً سريعةً، فرأيتُ المُصْحفَ يَرقُبني من قريب، فعُذْتُ بهِ وعطفتُ عليه، وقلتُ له: امنع الضربةَ عَنْ قلبي. بَيْدَ أني أحسستُ أنه

(١) الرغيفُ يملأ البطن فهذا هو الممكن، ولكن عمله في الباقيات مستحيل.

خَصْمِي في موقفي لا ظهيري؛[١] كأنّي جعلتُه مصحفاً عند زنديقٍ، فكانَ إيماني الذي بقيَ لي في تلكَ اللحظةِ أني ضعفتُ عن حَمْلِ المُصْحَفِ، كما ثَقُلْتُ عن الصّلاةِ، فبقي الطاهِرُ طاهراً، والنَّجِسُ نَجساً.

ولم تكنْ نفسي فيَّ، ولا كنتُ فيها؛ فرأيتُ الدنيا على وجهٍ لا أدري ما هو، غيرَ أنّه هو ما يمكنُ أنْ يكونَ معقولاً من تَخاليْطِ مجنونٍ، تركَهُ عقلُه مِنْ ساعةٍ: بقايا شعورٍ ضعيفٍ، وبقايا فهمٍ مريضٍ، تَتَصاغَرُ فيهما الدنيا، ويَتَحَاقَرُ بهما العقلُ.

فلما انتهيتُ إلى هذا، لم أعقلْ ما عملتُ، وكانَتْ الموسى[٢] قد أصابتْ مِنْ يدي عِرْقاً ناشِزاً مُنْتَبِراً، ففارَ الدَّمُ، وانفجرَ منه مثلُ اليَنْبُوْعِ، ضُرِبَ عنه الصخرُ، فانشقَّ فانبثَقَ.

وتحقَّقْتُ حينئذٍ أنّه الموتُ، فنظرتُ فرأيتُ...

قال المسيَّبُ راوي القصةِ: وتجهَّمَ وجهُ الرَّجُلِ، فأطرقَ وسَكَتَ، وكانَ على وجهِهِ شَفَقٌ مُحْمَر، فأظْلَمَ بغتةً عندما قال: فنظرْتُ فرأيتُ.

وارتجَّ المَسْجِدُ بصيحةٍ واحدةٍ: فرأيتَ ماذا؟ رأيتَ ماذا؟

وبَعَثَتْ الصيحةُ أبا محمدٍ فقال: رأيتُ ثلاثةَ وجوهٍ أشرفَتْ من المُصْحَفِ، تَنْظُرُ إليَّ كالعاتبةِ، وكان أوسطُهَا كالقمرِ الطّالِـعِ، لو تمَثَّلَتْ آياتُ الجَّنَة كلُّها وجهاً لكانتْه في نَضْرَتِهِ وبشاشتهِ، وغَمْغمَت الوجوهُ الثلاثةُ بكلماتٍ لم أسمعْ منها شيئاً، ولكنَّ نظرَها إليَّ كان يؤدِّي لي معانيها، وكأنّها تقولُ: أكذلك المؤمنُ...؟.

ثم غابَتْ وتخلَّتْ عنّي، وبرزت ثلاثةُ وجوهٍ أُخرى، كأنّها نقائِضُ

---

(١) [معيني].
(٢) [السكين].

تلكَ، وأعوذُ باللهِ من أوسطِها، لو تمثَّلتْ آياتُ الجحيمِ كلُّها وجهاً لكانته في نُكْرِهِ وهَوْلِهِ، وخُيِّلَ إليَّ أنّ الوجهَ الأصغرَ منها وجهُ سُورةٍ مِنْ سُوَرِ المُصْحَفِ، ففكَّرتُ، فوَقَعَ لي مما قامَ في نفسي مِنَ اللَّعنةِ أنّها: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾

وطَمَسَ الظلامُ هذه الرؤيا، وتَغَيَّمتِ الدنيا، فأيقَنْتُ أنّ آثامي قَدْ أقبلتْ عليَّ ظُلْمَةً بعد ظُلْمَةٍ، والتمعَ شيءٌ أحمرُ، فنظرتُ فإذا الدَّمُ يتخايلُ في عينيَّ كأنّه شُعَلٌ تتلوَّى، فجزِعْتُ أشدَّ الجَزَعِ، وحسبتُها طرائقَ ممتدَّةً لرُوحي تَذْهَبُ بها إلى الجَحِيْمِ.

وماتَتْ كلُّ خواطري بعدَ ذلك إلا فكرةً واحدةً بقيتْ حيَّةً تأكلُ في قلبي أكلَ النَّارِ، وهي: كيفَ تجرَّأتُ فوَضَعْتُ بيني وبينَ اللهِ حُمْقِي؟

ويقولون: إنّ أختي قد رأتني أتشَحَّطُ في دمي فصاحَتْ، وجاءَ النّاسُ على صوتِها، وكانَ فيهم طبيبٌ، فبعدَ لأيٍ[1] ما، استطاعَ حَبْسَ الدَّمِ، واحتالَ حيلتَه، حتى أسَفَّ[2] الجُرحَ دواءً وضَمَدَه؛ فجعلتُ أثوبُ[3] نَفَساً بعد نَفَسٍ، وراجَعْتُ قليلاً قليلاً . . .

ثم طافَتْ الحياةُ على عينيَّ ففتحتُهُما، فإذا الأشياءُ تبدو لي، وليسَ فيها حقائقُ ولامعانٍ، كأنَّها تَتَخَلَّقُ جديدةً تَحْتَ بصري، وكأنّها خارجةٌ لساعَتِهَا مِنْ يدِ اللهِ!

وتماثلْتُ شيئاً بعدَ ساعاتٍ، فأحسستُ أن نفسي قد رجعتْ إليَّ ساخرةً مني تقولُ: كيفَ رأيتَ عملَ العَقْلِ أيُّها العاقِلُ؟

وبدأتْ الحياةُ تتجدَّدُ، فأقسمتُ بيني وبينَ نفسي أنْ أجدِّدَ إيماني باللهِ،

---

(١) [جهد]

(٢) [حشا]

(٣) [أعود].

ولم أَكَدْ أفعلُ حتّى أحسستُ أنَّ قوّةَ الوجودِ كلَّها مستقرّةٌ في روحي، وخُيِّلَ إليَّ أنّي أنا وحدي القويُّ على هذهِ الأرضِ قُوّةَ جبالِها وصخورِها، على حين كان جسمي ممدَّداً كالميّتِ، لا يتماسَكُ من الضَّعفِ!

فأيقنتُ حينئذٍ ما أعرفُهُ قطُّ من الدنيا، ولم أشعرْ بهِ قطُّ في الحياة، ولم يأتني به علمٌ ولا فكرٌ: أيقنتُ أنّها مُعجزةُ الإيمانِ الجديدِ الغَضِّ، المتَّصلِ باللهِ لتَوِّهِ كإيمانِ الأنبياءِ دونَ أنْ تلمِسَهُ شهوةٌ، أو تعترِضَهُ خاطرةٌ، أو تكدِّرَهُ ذرَّةٌ واحدةٌ مِنْ فكرٍ أرضيِّ دَنِسٍ.

قال المسيَّبُ: ثم جلسَ المتحدِّثُ، وكانَ النّاسُ في آخرِ كلامِهِ كأنّما غادروا الدنيا ساعةً، ورجعوا إليها على مِثْلِ حالتِهِ، ومثلِ إيمانِهِ، فسكتَ الإمامُ، ولم يتكلَّمْ، ليدعَ كلَّ نفسٍ تُكَلِّمُ صاحبَها.

ـ ٥ ـ

قال المسيَّبُ بنُ رافع: وأطرقَ النّاسُ قليلاً بعد خبَرِ أبي محمدٍ البَصْريِّ؛ إذْ كان كلٌّ منهم قد جَمَعَ بالَه لِما سَمِعَ، وأخذَ يَحْدِسُ في نفسِه، ويراجِعُهَا الرأيَ، وكان المجلسُ قد امتدَّ بنا منذُ العَصْرِ، وما يكادُ النهارُ يُشْعِرُنا بإدبارِه، حتى اعترَضَتْ في شَمْسِهِ الغُبرةُ التي تَعترِيهَا إذا دنَتْ أن تَغرُبَ. وكان إلى يساري فتى رَيّانُ الشبابِ، حسَنُ الصورةِ، وضيءٌ، مُشرِقٌ، له هيئةٌ وسَمْتٌ، أقبلَ على الأيامِ، وأقبلت الأيامُ عليه.

فسمعني أطنُّ[(١)] على أذنِ مجاهِدِ الأزْديِّ؛ وكنتُ أعرِفُهُ شاعراً في كلامِهِ وشاعراً في قلبِهِ؛ فقلتُ لهُ: إنَّه لم يبقَ من النّهارِ يا مجاهِدُ إلا مثلُ صَبْرِ المُحِبِّ دنَا له المَوْعِدُ؛ ولم يبقَ من الشَّمْسِ إلا مثلُ ما تتلفَّفُ صاحبتُه، تأخذُ عليها ثوبَها وغلائلَها، ولكن بعدَ أن تُسْقِطَها مِنْ هُنا ومِنْ هُنا، لترى جمالَ جِسْمِهَا هنا وهنا!

---

(١) [أهمس].

فاهتزَّ الفتى لهذه الكلماتِ، وسالَتْ الرِّقَّةُ في أعطافِهِ، وقال: يا عمّ! أما ترى ما بقيَ مِنَ النّهارِ، كأنّه وجهُ باكٍ، مَسَحَ دموعَه، وليسَ حولَهُ إلا كآبةُ الزَّمنِ. . . ؟

قلتُ: كأنَّ لكَ خبراً يا فتى، فإنْ كانَ شأنُكَ مما نحنُ فيه فقصَّهُ علينا، وعَلِّلْنا[1] بهِ سائرَ الوقتِ إلى أنْ تجِبَ[2] الشَّمْسُ، ولعلَّكَ طائرٌ بنا طَيرةً فوقَ الدنيا.

قال: فَمَه؟

قلتُ: تقومُ فتتكلَّمُ، فإنّي أرى لك لساناً وبياناً.

قال: أو يَحْسُنُ أنْ أتكلَّمَ في المَسْجِدِ عَنْ صَرْعةِ الحُبِّ وصريعِهِ، وعاشقةٍ وعاشقٍ؟

فبادَرَ مجاهدٌ فقال: وَيْحَكَ يا فتى! لقد تَحَجَّرْتَ واسِعاً؛ إنَّ المؤمنَ ليصلي بينَ يدي الله وكتاب سيئاتِهِ في عنقِهِ منشورٌ مقروءٌ، وهلْ أوقاتُ الصَّلاةِ إلا ساعاتٌ قلبيَّةٌ لكلِّ يومٍ من الزَّمَنِ، تأتي الساعةُ مما قبْلَها كما تأتي توبةُ القلب مما عَمِلَ الجسْمُ؟ إنما يتلَقَّى المسجدُ مَنْ يدخلُه لساعتِهِ التي يدخلُه فيها، ولو أنَّه حاسَبه عَنْ أمسِ، وأوَّلَ منه، وما خلا مِنْ قبلُ، لطَرَدَهُ مِنَ العتَبَةِ! إنّ المَسْجِدَ يا بنيَّ إنّما يقولُ لداخلِهِ: ادخلْ في زمني، ودَعْ زمنك، وتعالَ إليَّ أيُّها الإنسانُ الأرضيُّ، لتتحَقَّقَ أنَّ فيكَ حاسَّةً من السماءِ، وجئْني بقلبِكَ وفكرِكَ، ليَشْعُرا ساعةً أنَّهُما فيَّ لا فيكَ[3]. ولسنا

---

(١) [حدثنا]

(٢) [تغيب]

(٣) ستأتي فلسفة المسجد في مقالات أخرى مما يجمع كتاب «وحي القلم»، وانظر مقالة «الله أكبر» في «وحي القلم» (١ : ٣٥٣)

الآنَ يا بنيَّ في مُتَحَدَّثِ كنَديّ[1] القوم، يتطارحونَ فيه أخبارهَم، بل نحنُ في مجلس عالمٍ تكلمتْ فيه رَقَبةُ هذا ورقبةُ هذا بما سمعتَ؛ فقُم أنتَ، فاذكرْ علمَ قلبك، وقُصَّ علينا خبر طيْشِ الحُبِّ والشبابِ الذي يُشْبِهُ الكلامُ فيه أنْ يكونَ كلاماً عن الصعود إلى القمرِ، والقبضِ من هناك على البرْق!

قال المسيَّبُ: فانتهضَ الفتى، ورأيتُ مجاهداً يتنهَّدُ، كأنما انصدعتْ كَبِدُه: فقلتُ: ما بالُكَ؟ قال: إنّ شبابي قَدْ مَرّ عليَّ الساعة، فنَسَمْتُ منهُ في بُردةِ هذا الفتى، ثم فقدْتُه فقداً ثانياً، فهَرِمْتُ هَرَماً ثانياً، وجاءَني الحزنُ من إحساسي بأني شيخٌ، حُزْنَ مَن هَمَّ أنْ يَدْخُلَ بابَ حبيبٍ ثم رُدَّ. . . !

وتحدَّثَ الفتى، فإذا هو يديرُ بينَ فَكَّيْهِ لسانَ شاعرٍ عظيمٍ، يتكلَّمُ كلامَه بنفسينِ: إحداهما بَشَريةٌ، تصنَعُ المعنى واللفظَ، والأخرى عُلْويةٌ، تُلقي فيها النار والنورَ.

قال: إنّ لي قصةً أيُّها الشَّيْخُ، لم يبقَ منها إلا الكلامُ الذي دُفنتْ فيه معانيها؛ وقد تأتي القصةُ من أخبارِ القلبِ مُفْعَمَةً بالآلامِ والأحزانِ، لا يُرادُ بآلامِهَا وأحزانِهَا إلا إيجادُ أخلاقٍ للقلبِ، يعيشُ بها، ويتبدَّلُ. والذي قُدِّرَ عليه الحبُّ لا يكونُ قد أحبَّ غيره أكثر مما يكونُ قد تعلَّمَ كيفَ ينسى نفسَه في غيرِهِ، وهذِهِ كما هي أعلى درجاتِ الحُبِّ، فهي أعلى مراتب الإحسانِ.

ومتى صَدَقَ المرءُ في حُبِّه كانتْ فكرتُه فكرتينِ: إحداهما فكرةٌ، والأخرى عقيدةٌ تَجْعَلُ هذِهِ الفكرةَ ثابتةً لا تتغيَّرُ؛ وهذِهِ كما هي طبيعةُ الحُبِّ فهي طبيعة الدِّينِ.

---

(١) [مجلسهم ومجتمعهم].

ولا شيءَ في الدنيا غيرُ الحُبِّ يستطيعُ أنْ يَنْقُلَ إلى الدنيا ناراً صغيرةً وجنَّةً صغيرةً بقدْرِ ما يكفي عذابَ نفسٍ واحدةٍ أو نعيمَها! وهذه حالةٌ فوق البَشرية.

والفضائلُ عامَّتُها تَعْمَلُ في نقلِ الإنسانِ من حيوانيتِه، وقد لا تَنْقُلُ إلا أقلَّهُ، ويبقى في الحيوانيّةِ أكثرُهُ: ولكنَّ الحبَّ الصادقَ يقتلِعُ الإنسانَ من حيوانيتِهِ بمرَّةٍ واحدةٍ، بَيْدَ أنَّهُ لايكونُ كذلكَ إلاّ إذا قَتَلهُ بآلامِهِ؛ فهو كأعلى النُّسُكِ والعبادةِ.

كانَ من خبري أنّي دُعيتُ يوماً إلى ما يُدعَى لمثْلِه الشَّبابُ في مجلسِ غناءٍ وشراب. يالَهُ من مجلسٍ! وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] والبعوضةُ في قصتي أنا كانتْ امرأةً نَصرانيّةً... قَيْنَةَ فلانٍ المغنيّةَ الحاذقةَ المحْسِنَةَ المتأدّبةَ، تحفظُ الخبرَ وتروي الشّعرَ، وتتكلَّمُ بألفاظٍ فيها حَلاوةُ وجهها، وتخلُقُ النّكتةَ إذا شاءَتْ خَلْقَ الزهرةِ المتفتّحَةِ عليها سَقيطُ الندى؛ وتَجِدُ بالحديث ما شاءَتْ وتَهْزِلُ، فتجعلُ للكلامِ عقلاً وشهوةً تُضاعِفُ بهما مَنْ تحدِّثُهُ في شهواتِهِ وعقلِه!

وستجري في قصتها ألفاظُ القصة نفسها، لا أتأثَّمُ من ذلكَ ولا أتذمَّمُ؛ فقد ذَكَرَ اللهُ الخمرَ بلفظِ الخمرِ، ولم يَقُل: الماءَ الذي فيه السُّكْرُ، ووصف الشيطانَ ولم يقل: المَلكَ الذي عملَ عَمَلَ المرأةِ الحسناءِ في تكبُّرها، وذكر الأصنامَ بأنّها الأصنام، ولم يُسمِّها: حاملةَ السماءِ التي يصنعُها الإنسانُ بيديهِ، وحكايةُ ما بينَ الرّجلِ والمرأةِ هي كلامٌ يقبِّلُ بعضُه بعضاً، ويلتزمُ ويتعانَقُ!

قال المسيَّبُ: فتبّسمَ إمامُنا، ونظرتْ عيناه تسألان سؤالاً، أما مجاهِدٌ

الأزديُّ فكانَ مِنْ هِزّةِ الطَّرَبِ كأنَّهُ على قِتْبِ[١] بَعيرٍ، وقال: للهِ دَرُّهُ فتًى، إنَّ هذا لبيانٌ كحيلُ العَيْنِ.

ثم قال الفتى: وذهبتُ إلى المجلسِ، وقد جعلتْه هذه المغنّيةُ من حواشيهِ وأطرافِهِ كأنّه تفسيرٌ لها هي، أما هي فجعلتْ نفسَها تفسيراً لكلمةٍ واحدةٍ هي: «اللذّة..»

قال المسيَّبُ: وطَرِبَ مجاهِدٌ طرباً شديداً، وسمعتُه يُخافِتُ بصوتِهِ، يقولُ: لله درُّها امرأةً؛ هذه، هذِه عَدُوّةُ الحُورِ العينِ!.

ثم قال الفتى: وتَطَرَّبَ جماعةُ أهلِ المجلسِ إلى الشُّرْبِ، وما ذقتُ خَمْراً قطُّ، ولنْ أتذوقَها؛ ولو شَربَها النّاسُ جميعاً؛ ولن أذوقَها؛ ولو انقطع الغَيْثُ، ولم تَمْطُرْ السماءُ إلا خمراً؛ فإنّي مُذْ كنتُ يافعاً رأيتُ أبي يشربُها، وكانَتْ أُمي تلُومُه فيها، وتشتدُّ في تعنيفِهِ وتَحْتَدِمُ، وكانا يتشاحنان، فينالُهَا بالأذى.ويَنْدَرِئُ[٢] عليها بالسَّبِّ وفُحشِ القَوْلِ. وسكِرَ مرةً، وغلبه السُّكْرُ، حتى ثارتْ أحشاؤه، فَذَرَعَه[٣] القيءُ، فتوهَّمني وعاءً، وجاء إليَّ وأنا جالِسٌ، فأمسك بي.وقاء في حِجْري، حتى أفرغَ جوفَه؛ وثارتْ أمي لتنتزعه، وأنشأت تُعالِجُهُ عنّي، فتَصارَعَ جنونُه وعقلُها، حتى كفأتْه[٤] على وجهه كالإناءِ؛ فالتوى كالحيّةِ بطناً لظهرٍ، واستجْمَعَ كالقُنْفُذِ في شوكهِ، ثم لكَزَها[٥] برجلِه أسفل بطنها فانقلبَتْ، وأصابَ رأسُها إجَّانَةَ[٦] العجينِ، فتثلَّمَ تثليمَ الإناءِ، كأنما شُدِخَ ضرباً

---

(١) [رحل، وهو كالسرج للفرس].
(٢) [اندفع]
(٣) [غلبه وسبقه]
(٤) [قلبته]
(٥) [ضربها].
(٦) هي ما يعجنُ فيه العجينُ، وتغسَلُ فيه الثيابُ، وقد يوضع فيها الماء ليتُوضأ=

بحجرٍ، وانتثرَ دماغُها على الأرضِ أمام عينيَّ، ورأيتُها لم تزدْ على أنْ دَفَعَتْ بإحدَى يديها في الهواءِ، وضمَّتْ بالأخرى إلى صَدْرِها، تتوهَّمُ أنها تحميني وتدفعُهُ عنّي؛ ثم سكنَتْ، ولو لم تَمُتْ من الشَّجَّةِ في رأسهَا لماتتْ من الضربةِ في بَطْنِهَا!

قال المسيَّبُ: وأطرقَ الفتى هُنَيهةً، وأطرقَ النّاسُ مَعَهُ؛ فرفعَ مجاهِدٌ صوتَه وقال: رَحِمَها الله! فقال الناسُ جميعاً: رحمَها الله.

ثم قال الفتى: وكانَ عامَّةُ مَن في المجلسِ يعرفونَ ذلك منّي، ويعرفونَ أنَّهُ لو ساغَ لإنسانٍ أنْ يشربَ دمَ أمِّهِ ما شربتُ أنا الخمرَ. فقالوا للمغنِّية: إنَّ هذا لا يدخُلُ في ديواننا[1]. فنظرتْ إليَّ، وهربْتُ أنا من نظرتِهَا بإطراقةٍ؛ ثم قالتْ: تشْرَبُ على وجهي؟

فقلتُ لها: إنَّ وجهَكِ يقولُ لي: لا تَشْرَبْ...

فتضاحَكَتْ وقالت: أهو يقولُ لك غيرَ ما يقولُ لهؤلاءِ؟

فهربتُ مِنْ كلامها بإطراقةٍ أخرى، ووَصلَتْ الإطراقتانِ مابيني وبينَ قلبها؛ وتنبَّهَ فيها مِثْلُ حُنوِّ الأمِّ على طفلها إذا آذتْهُ بلسانِها.فأطرقَ ساكتاً يشكوها إلى قلبِهَا!

والتفتتْ لمنْ حَضَرَ، وقالت لهم: لستُ أطيَبُ لكم، ولا تنفعونَ بي إلا أنْ تشربوا لي ولهُ ولأنفسِكُم، وانحطَّ عليهم الساقي، فشربوا أرطالاً وأرطالاً، وهي بين ذلك تغنِّيهم، وقد أقبلتْ عليهم، وخلا وجهُهَا لهم من دُوني، وإنّما تُخالِسُني النظرةَ بعد النظرةِ.

فوسوسَ لي شيطاني أنْ تَشدَّدْ مَعْ هذِهِ بمثل عَزْمتِكَ مع الخَمْرِ، فإنّما

= منه، وتتَّخذُ من حجرٍ أو خزف أو غيرهما.

(١) تعبيرٌ قديم كانوا يريدون به الشرب، كأنه ديوانُ ملك.

هما شيءٌ واحدٌ. ولكنّي كنتُ أجِدُّ النظر إليها، فمرّةً أرامِقُها[١] نظرةَ المحبِّ للحبيبِ، ومرةً أُغْضي عنها بنظرةٍ لا تنظرُ؛ وكأني بذلك كنتُ آخذُها وأدعُها، وأصِلُها وأهجرُها. فقالت لي كالمُنكِرةِ عليَّ: ما بالُكَ تنظُرُ إليَّ هكذا؟ ولكنَّ هيئةَ وجهِهَا جعلتْ المعنى: لا تنظرْ إليَّ إلا هكذا. . . !

وأسرعَ الشرابُ في القومِ، وأفرطَ عليهم السُّكرُ؛ فبقيتُ لي وحدي، وبقيتُ لها وحدَها؛ ثم تناولتْ عودَها، وضمَّتْهُ إليها ضماً شديداً أكثرَ من الضَّمِّ. . . وألمستْهُ صَدْرها ونَهْدَيْهَا، ثم رَنَّتْ إليَّ بمعنىً، فما شككتُ أنَّها ضمَّةٌ لي أنا والعود؛ ثم غنَّتْ هذا الصوتَ:

ألا قـاتـلَ اللهُ الحمـامـةَ غُـدْوةً
على الغُصْنِ ماذا هيَّجَتْ حِيْنَ غَنَّتِ؟
فمـا سَكَتَـتْ حتّـى أَوَيْـتُ لِصَـوْتِهَـا،
وقُلْـتُ: تُـرى هـذي الحمـامةُ جُنَّـتِ؟
ومـا وجْـدُ أعـرابيـةٍ قَـذَفَـتْ بِهـا
صُرُوْفُ النوى مِنْ حَيْثُ لم تَكُ ظَنَّتِ
إذا ذَكَـرتْ مـاءَ العضـاهِ وطِيْبَـهُ،
وبَرْدَ الحِمى من بَطنِ خِبْتٍ، أَرنَّتِ. .[٢]
بـأكثـرَ منّـي لَـوْعَـةً، غيْـرَ أنَّنـي
أُجَمْجِـمُ أحشـائي على مـا أجَنَّـتِ![٣]

وغَـنَّتْهُ غناءَ من قلبٍ يَئِنُّ، وَصَدْرٍ يَتَـنَهَّدُ، وأحشاءٍ لا تُخفي ما أجنَّتْ؛

---

(١) [رامقها: نظر إليها. وفي الأصول (وامقها) أي: أحب كل منها الآخر لغير ريبة، ولا وجه لذلك].
(٢) [العضاه: نوع من الشجر في بلاد العرب، خِبْت: اسم موضع، أرنت: ناحت]
(٣) [أجمجم: أخفي. اجنت: سترت]

وكانت ترتفعُ بالصوت، ثم كأنّما يهمي الدمعُ على صوتِها، فيرتعشُ ويتنزَّلُ قليلاً قليلاً، حتى يَرِنَ أنينَ الباكيةِ، ثم يعتلِجُ في صدرِها مع الحُبِّ، فيتردَّدُ عالياً ونازلاً، ثم يرفضُّ(١) الكلامُ في آخرِه دموعاً تجري.

قال المسيَّبُ: فنظرَ إليَّ مجاهِدٌ، وقال: عَدُوَّةُ الجنة والله هذِهِ يا أبا محمَّدٍ، لا تَقْبلُ الجنةُ مَنْ يكونُ معها، تقولُ لَهُ: كُنْتَ مع عَدوَّتي!

ثم قال الفتى: وكانَ القومُ قد انتَشَوا، فاعتراهُم نِصْفُ النَّوْمِ، وبقي نِصْفُ اليَقْظَةِ في حواسِّهم، فكلُّ ما رأوْهُ منّا رأوه كأحلامٍ لا وجودَ لها إلا خَلْفَ أجفانِهِم المُثْقلةِ سُكراً ونُعاساً. ووَثَبَتْ المغنيةُ، فجاءَتْ إلى جانبي والتصقت بي، وأسرعَ الشيطانُ فَوَسْوَسَ لي: أن احذرْ فإنّكَ رَجُلُ صدقٍ، وإذا صَدَقْتَ في الخمرِ، فلا تكذبنَّ في هذه، ولئنْ مَسسْتَها إنّها لَضَياعُكَ آخرَ الدَّهْرِ!

فعجبتُ أشدَّ العَجَبِ أنْ يكونَ شيطاني أسْلَمَ، وأُعنْتُ عليه، كما أُعِيْنَ الأنبياءُ على شياطينِهِم. ولكنَّ اللعينَ مضى يصُدُّني عن المرأةِ دونَ معانيها، وكان منّي كالذي يُدني الماءَ من عَيْنَي القتيلِ المتلهِّبِ جَوفُه، ثمَّ يجعلهُ دائماً فَوْتَ(٢) فمِه، ولقد كنتُ من الفُحولة بحيثُ يبدو لي مِنْ شدَّةِ الفورة في دمي وشبابي أنّي أجمعُ في جسمي رجالاً عِدَّة، ولكنْ ضَرَبني الشيطانُ بالخَجَلِ فلم أستَطِع أنْ أكونَ رَجُلاً مع هذِهِ المرأةِ.

وعجبتْ هي لذلك، وما أسرع ما نَطَقَ الشيطانُ على لسانها بالموعظةِ الحسنةِ. . . ! فقالتْ: أحببتُكَ ما لم أحِبَّ أحداً، وأحببتُ خَجلك أكثر مِنْكَ، فما يسرُّني أنْ تأثَمَ فيَّ، فتدخُلَ النارَ بحبي، ولو أنَّكَ ابتعتني مِنْ مولاي؟

---

(١) [ينحدر]
(٢) [يراه ولا يصل إليه]

فقلت: بكم اشتراكِ؟

قالتْ: بألفِ دينارٍ!

قلتُ: وأين هي منّي، وأنا لو بِعْتُ نفسي ما حَصلتْ لِي؟

فتمَّمَ الشيطانُ موعظته، وقالتْ وأشارتْ إلى قلبِهَا: إنّ قلبي هذا قَبلَكَ غنياً كنتَ أو فقيراً، وأحسَّ بِكَ وحدَك حُبَّ العذراء أوّلَ ما تُحِبُ، وأنا ـ كما تراني ـ أعيشُ في السيئاتِ كالمُكرَهة عليها، فأعملُ على أنْ تكونَ أنتَ حَسَنَتِي عند اللهِ، أذهبُ إليه حاملةً في قلبي حُبي إياكَ، وعفتي عَنْكَ، ولئِنْ كانتْ عِفَّةُ مَنْ لا يشتهي ولا يجدُ تعدُّ فضيلةً كاملةً، إنّ عفةَ مَنْ يَجدُ ويشتهي لَتُعدُّ دِيناً بحاله. ولا يزالُ حبّي بِكراً، ولا أزالُ في ذلك عذراء القَلْبِ، وهؤلاء قد نزعوا الحياءَ عنّي منْ أجلِ أنفسِهِم، فألبَسنيه أنت من أجلِكَ خاصّةً؛ وإنَّ قوةَ حبي كالذي سيتألّمُ بكَ، ويتعذَّبُ مِنكَ لِطولِ ما يَصْبِرُ عنك، ستكونُ هي بعينها قوةً لفضيلتي وطهارتي.

ثم تناولتْ عُوْدَها وسوَّتْهُ وغَنَّتْ:

فلــو أنَّــا عَلَــى حَجَـرٍ ذُبحْنــا   جرى الدّمَيَانِ بالخَبَرِ اليقينِ[1]

وجعلتْ تتأوّهُ في غنائها، كأنّها تُذبَحُ ذبحاً، ثم وضعَتْ العودَ جانباً وقالتْ: ما أشقاني! إذا اتفقتْ لي ساعةُ زواجي في غيرِ وقتِها، فجاءَتْ كالحلُمِ يأتي بخيالِ الزمنِ، فلا يكونُ فيه مِنَ الأشياءِ إلا خيالُ الأشياءِ.

ثم سألتني: ما بالُكَ لم تشرَبِ الخمرَ، ولم تدخلْ في الديوانِ؟ فبدرَ شيطاني المؤمنُ. . . وساقَ في لساني خبرَ أمي وأبي، فانْتَضَحَتْ[2] عيناها باكيةً، وتمَّ لها رأيٌ فيَّ كرأيي أنا في المُنْكِرِ؛ وكانَ شيطانُها بعدَ ذلك

---

(١) كانت العربُ تزعُمُ أنّه إذا قُتِلَ اثنان، فجرى دمياهُما على طريقٍ واحدٍ ثم التقيا، حُكِمَ عليهما أنّهما كانا متحابَّين، فإنْ لم يلتقيا، حُكِمَ عليهما أنهما كانا متشانئين. وما أجملَها خرافةً وأشعرَها.

(٢) [رشحت].

شيطاناً خبيثاً مع أصحابِهَا، وبطْريقاً(١) زاهداً معي أنا وحدِي!

ورأيتها لا تجالسني إلا مُتَزايلةً كالعذراء الخَفِرَةِ إذا انقبضتْ وغَطَّتْ وَجْهَها، وصارت تخافني، لأنّها تُحبُّني، وهَيَّبَني الشيطان إليها، فعادَتْ لا ترى فيَّ الرجلَ الذي هو تحتَ عينيها الثَّيِّبتين. . . ولكنْ القدّيس الذي تَحتَ قلبِها البِكر.

ولم يَعُد جمالي هو الذي يُعْجِبُها ويُصْبِيها(٢)، بل كان يُعْجِبُها منّي أنّي صنعةُ فضيلتِهَا التي لم تصْنَعْ شيئاً غيري. . .

وانطلقَ الشيطانُ بعدَ ذلكَ فيَّ وفيها بدهائِهِ وحُنْكَتِهِ، وبكلِّ ما جرَّبَ في النساءِ والرجالِ مِنْ لَدُنْ آدم وحوّاءَ إلى يومِي ويومِها! . . . . فكانَ يجذبُني إليها أشدَّ الجَذْبِ، ويدفَعُهَا عنّي أقوى الدفعِ، ثمَ يُغريني بكلِّ رذائلِها، ولا يغرِيْها هي إلا بفضائلي. وألْقى منها في دمي فكرة شهوةٍ مجنونةٍ متقلِّبةٍ، وألقَى مني في دمها فكرةَ حكمةٍ رزينةٍ مستقرَّةٍ، وكنتُ ألقاها كلَّ يومٍ، وأسمَعُ غناءَها؛ فما هو بالغناءِ، ولكنّه صوتُ كلِّ ما فيها، لكلِّ ما فيَّ، حتى لو التصقَ جسمُها بجسمي، وسَارَّ البَدَنُ البدنَ، وهَمَس الدمُ للدمِ، لكانَ هو هذا الغناءُ الذي تغنّيْهِ.

وأصبحتُ كلَّما استقمتُ لحبِّهَا تَلَوَّتْ(٣) عَلَيَّ؛ إذْ لستُ عندَها إلا الأملَ في المغفرةِ والثوابِ، وكأنّما مُسِخْتُ حَبْلاً طولُه مِنْ هنا إلى الجنةِ لتتعلَّقَ بِه. وعادَ امتناعُها منّي جنوناً دينياً ما يفارِقُها، فابتلاني هذا الجنونُ في حبِّها من كَلَفٍ(٤) وشَغَفٍ.

---

(١) [رئيس رؤساء الأساقفة].

(٢) [يجعلها تشوق إليه].

(٣) [تنحرف عني وتمتنع]

(٤) [ولع]

وانحصرتْ نفسي فيها، فرجعتُ معها أشدَّ غباوةً من الجاهلِ ينظرُ إلى مَدِّ بصرِهِ من الأفقِ، فيحكُمُ أنّ هاهنا نهايةَ العالَم، وما هاهنا إلا آخرُ بصرِه، وأوّلُ جَهْلِهِ. وانفلتَ مني زمامُ روحي، وانكَسَرَ ميزانُ إرادتي، واختلَّ استواءُ فكري، فأصبحتُ إنساناً من النقائضِ المتعاديةِ، أَجْمَعُ اليقينَ والشكَّ فيه، والحبَّ والبغضَ له، والأملَ والخيبةَ منه، والرغبةَ والعُزُوفَ عنها، وفي أقلَّ مِنْ هذا يُخْطَفُ العقلُ، ويَتَدَلَّهُ مَنْ يتدلَّه[1].

ثم ابتُليتُ مع هذا اللَّمَمِ[2] بجنونِ الغيظِ من ابتذالِها لأصحابِهَا وعِفَّتِها معي، فكنتُ أتطايرُ قِطعاً بينَ السماءِ والأرضِ، وأجِدُ[3] عليها، وأتنكَّرُ لها، وهي في كلِّ ذلك لاتزيدُني على حالةٍ واحدةٍ من الرهبانيةِ؛ فكان يطيرُ بعقلي أنْ أرى جِسْمَهَا ناراً مشتعلةً، ثم إذا أنا رُمْتُهُ استحالَ ثَلْجاً، وقرَّحَتْ الغَيْرَةُ قلبي، وفَتَّتَت كبدي من عابدةِ الشيطانِ مع الجميعِ، الراهبةِ مَعَ رجلٍ واحدٍ فقط! . . .

ورجعتْ خواطري فيها مما يُعْقَلُ وما لايُعْقَلُ؛ فكنتُ أرى بعضَها كأنَّهُ راجِعٌ من سفرٍ طويلٍ عن حبيبٍ في آخر الدنيا، وبعضَها كأنَّهُ خارِجٌ من دارِ حبيبٍ في حواري، وبعضَها كأنَّه ذاهبٌ بي إلى المارستان[4]. . . . !

ورأيتُنَا كأنَّنا في عالَمَيْنِ لا صلةَ بينَهُما، ونحنُ معاً قلباً إلى قلبٍ، فذهبَ هذا بالبقيةِ التي بَقِيَتْ من عقلي؛ ولم أرَ لي مَنْجاةً إلا في قَتْلِ نفسي لأزْهِقَ هذا الوحشَ الذي فيها.

---

(١) [يذهب عقله ويجنُّ عشقاً أو غماً]
(٢) [الجنون]
(٣) [أغضب]
(٤) [المشفى]

وذهبتُ فابتعتُ شَعيراتٍ مِنَ السَّمِّ الوَحِيِّ[١]، الذي يُعْجِلُ بالقتلِ، وأخذتُها في كفّي، وهممتُ أن أَقْمَحها[٢] وأبتلِعَهَا، فذكرتُ أمي، فَظَهَرَتْ لخيالي مشدوخةَ الرأسِ في هيئةِ موتِها، وإلى جانبِها هذه المرأةُ في هيئةِ جمالِها، وثَبَتَتْ على عيني هذه الرؤيا، وأدْمَنتُ النظرَ فيها طويلاً، فإذا أنا رَجُلٌ آخرُ غيرُ الأوّلِ، وإذا المرأةُ غيرُ تِلْكَ، وطَغتْ عبرةُ الموتِ على شهوةِ الحياةِ فمحتْها، وصَحَّ عندي من يومئذٍ أن لا علاجَ مِنْ هذا الحُبِّ إلا أنْ تُقرَنَ في النفسِ صورةُ امرأةٍ ميتةٍ إلى صورةِ المرأةِ الحيّةِ، وكلَّما ذُكِرَتْ هذه جِيءَ لها بتلكَ، فإذا استمرَّ ذلك، فإنّ الميّتةَ تُميتُها في النفسِ، وتُميتُ الشهوةَ إليها، ما مِنْ ذلك بُدٌّ، فليجرِّبْهُ من شَكَّ فيهِ.

وانفتحَ لي رأيٌ عجيبٌ، فجعلتُ أتأمَّلُ كيفَ آمنَ شيطاني، ثم كَفَرَ بَعْدُ، على أنّ شيطانَها هي كَفَرَ في الأوّلِ، ثم آمن في الآخر؟ فواللهِ ما كنتُ إلا غبياً خامِدَ الفطنة، إذا لم يَسْنَحْ لي الصوابُ، حتى كِدْتُ أُزهِقُ نفسي، وأخسَرِ الدنيا والآخرة؛ فإنّ الشيطانَ ـ لعنهُ الله ـ إنما ردّني عن الفاحشة وهي ذنبٌ واحدٌ، ليرميني بعدَها في الذنوبِ كلِّها؛ بالموتِ على الكُفْرِ!

وردَّ إليَّ هذا الخاطِرُ ما عَزَبَ[٣] من عقلي. ومَن ابْتُليَ ببلاءٍ شديدٍ يُزَلْزِلُ يقينَه، ثم أبصرَ اليقينَ، جاءَ منه شخصٌ كأنَّما خُلِقَ لساعتِهِ؛ فلعنْتُ شيطاني، واستعذْتُ باللهِ من مَكْرِهِ، وألقيتُ السَّمَّ في الترابِ، وغيَّبْتُه فيه، وقلتُ لنفسي: وَيْحَكِ يا نفسُ! إنّ الحياةَ تعملُ عملاً بالحي، أفترضَيْنَ أنْ تعملَ الحياةُ بأبطالها ورجالِها ما عرفتِ وما علمتِ، ثم يكونُ عملُها بكِ أنتِ القعودَ ناحيةً، والبكاءَ على امرأةٍ؟

(١) [السريع]
(٢) [أخذها في راحته ولطعها بلسانه]
(٣) [غاب]

أيَّتُها النفسُ، ما الفرقُ بين سرقةِ لحمٍ من دُكّانِ قصَّاب، وبين سرقةِ لحمِ امرأةٍ من دارَ أبيها، أو زوجها، أو مولاها. . . ؟

أيتها النفسُ، إنَّ إيمانَ أسلافنا معنا؛ إنّ الإسلامَ في المُسْلِمِ.

قال المسيَّبُ: وهنا طاشَ مجاهِدٌ، واستخفَّهُ الطربُ، فصاحَ صيحةَ النَّصْرِ: اللهُ أكبرُ! وجاوبه أهلُ المسجدِ في صيحةٍ واحدةٍ: اللهُ أكبرُ! ولم يَكَدْ يهتِفُ بها النّاسُ حتى ارتفعتْ صيحةُ المؤذِّنِ لصلاةِ المغربِ: اللهُ أكبرُ. . .

ـ ٦ ـ

قال المسيَّبُ بنُ رافعٍ: وانفضَّ مجلسُ الشَّيْخِ، ودَرَجَتْ بعدَهُ أعوامٌ في عِدَّةِ الشهورِ مِنْ حَمْلِ المرأة[1]، بلغتْ فيها أمورُ النّاسِ مَبْلغَها مِنْ خيرِ الدنيا وشرِّها، مما أعرفُ وما لا أعرِفُ؛ ودخلْتُ البصرةَ أنا ومجاهِدٌ الأزديّ، نسمَعُ الحَسَنَ[2] ونأخذُ عنه؛ فإنّا لسائرانِ يوماً في سِكَّةِ[3] بني سَمُرَة، إذ وافقنا الفتى صاحِبَ النصرانيةِ مُقبلاً علينا، وكنّا فقدناهُ تلكَ المدةِ، فأسرعَ إليهِ مجاهِدٌ فالتزمَهُ، وقال: مرحباً مرحباً بذي نَسَبٍ إلى القلبِ، وسلَّمتُ بعدَهُ وعانقتُهُ، ثم أقبلنا نسألُه، فقلتُ له: ما كانَ آخرُ أوَّلِكَ؟ قال مجاهِد: بلْ ما كانَ آخرُ أولها هي؟

فضحكَ الرَّجُلُ وقال: ألنَّصرانيةَ تعني؟ قال: آخرُها مِنْ أولها كهذا مني؛ وأومأ إلى ظلِّهِ في الأرضِ ممدوداً مشبوحاً مختلِطاً غيرَ متميِّزٍ؛ كأنَّهُ ثوبٌ منشورٌ ليسَ فيه لابِسُهُ، وكنّا في الساعةِ التي يصيرُ فيها ظِلُّ كلِّ شيءٍ مثليْهِ، فهو مَزْجُ المَسْخِ بالمسْخِ. . .

---

(١) [أي مضت تسع سنوات]

(٢) الحسن البصري: الإمام العظيم.

(٣) [الزقاق].

قال مجاهِدٌ: ما أفظَّ جوابَكَ، وأثقلَه يا رجلُ! كأنَّكَ واللهِ تاجِرٌ لا صلةَ له بالأشياءِ إلا مِنْ أثمانِها؛ فنظرُه إلى فَراهةِ[1] الدابةِ مِنَ الدّوابِّ وإلى فراهةِ[2] الجاريةِ من الرقيقِ سواءٌ.

قال الرجلُ: فأنا واللهِ تاجِرٌ، وأنا الساعة على طريقِ الإيوانِ[3] الذي يلتقي فيه تجارُ العراقِ والشامِ وخراسانِ؛ وقد ضربتُ في هذه التجاراتِ وحَسُنتْ بها حالي، وتأثَّلتُ[4] منها؛ غيرَ أنَّ قلبَ التاجر غيرُ التاجرِ، فليسَ يَزِنُ ولا يقبِضُ، ولا يبيعُ ولا يشتري. أما (تلك) فأصبحتْ نسياناً ذهَبَ لسبيلِهِ في الزمنِ!

قال مجاهِدٌ: فكيفَ كنت تراها، وكيفَ عُدْتَ تنظرُ إليها؟

قال: كنتُ أنظرُ إليها بعينيَّ وأفكاري وشهواتي؛ فكانتْ بذلك أكثرَ مِنْ نفسِها ومِنَ النساءِ، وكانتْ ألواناً ألواناً ما تنقضي، فلمّا دخلَ بيني وبينها الزمنُ والعقلُ، أبعدَها هذا عن قلبي، وأبعدَها ذاك عن خيالي؛ فَنَظَرْتُ إليها بعينيَّ وحدَهما، فرجعتْ امرأةً ككلِّ امرأةٍ؛ وبنزولها من نفسي هذه المنزلةَ، رجعتْ أقلَّ مِنْ نفسِها ومن النساءِ، وهذه القِلَّةُ فيما عرفتُ لا تُصيبُ امرأةً عند محبِّها إلا فعلتْ بجمالِها مثل ما تفعلهُ الشيخوخةُ بجسمِها، فأدبرَتْ بهِ ثُمَّ أدبرتْ واستمرّتْ تُدْبِرُ!

وأنتَ فإذا أبصرتَ امرأةً شيخةً، قد ذهبَتْ التي كانَتْ فيها... وأخطرتَ في ذِهْنِكَ نيّةً مما بينَ الرجالِ والنساءِ، فهل تُراكَ واجِداً الشهوةَ والميلَ إلا النُّفْرَةَ والمعْصيةَ؟ إنّ هذا الذي كانَ الحبَّ والهوى والعشقَ، هو بعينِه الذي صارَ الإثم والذنبَ والضلالةَ!

---

(١) [قوتها ونشاطها]
(٢) [جمالها وحسنها]
(٣) هذه الكلمةُ خيرُ ما يعبَّرُ بها عن (البورصة)، وكذلك كانوا يستعملونها.
(٤) [جمعت]

قال مجاهدٌ: كأنّكَ لما ذهبتَ تقتُلُ نفسَك مِنْ حُبِّها قتلتها هي في نفسكَ؟

قال: يا رحمةً قد رَحِمَتْ بها نفسي يومئذٍ! أما واللهِ إنّ الذي يقتُلُ نفسَه مِنْ حُبِّ امرأةٍ لَغبيٌّ. ويَحَهُ! فليتخلَّصْ من هذا الجزءِ من الحياةِ لا مِنَ الحياةِ نفسِها. وقد جعلَ اللهُ للحُبِّ طرفينِ: أحدُهما في اللذّةِ، والآخرُ في الحماقةِ؛ ما منهما بدٌّ. فهذا الحُبُّ يُلقي صاحبَه في الأحلامِ، ويُغشي بها على بصرِه، ثم إنْ هو اتجهَ بطرْفِهِ السعيدِ إلى حظِّه المقبلِ، واتفقت اللذّةُ للمحبِّ، أيقظتْهُ اللذةُ من أحلامِه؛ وإن اتَّجَهَ الحبُّ بطرفِهِ الشقيِّ إلى حظِّهِ المُدبرِ، وقعتْ الحماقاتُ فنوناً شتَّى بين الحبيبينِ، وفعلتْ آخراً فعلَ اللذة، فأيقظتْ العاشقَ من أحلامِهِ أيضاً. وهذا تدبيرٌ من الرحمةِ في تلك القوّةِ المدمِّرةِ المسماة الحُبّ. أفلا يدلُّ ذلك على أنَّ اللذةَ وهمٌ من الأوهامِ ما دامَ تحقُّقُها هو فناؤُها؟

خذْ عنّي يا مجاهدُ هذه الكلمة: ليسَ الكمالُ من الدنيا، ولا في طبيعتها، ولاهو شيءٌ يُدْرَك، ولكن من عظمةِ الكمالِ أنَّ استمرارَ العملِ لهُ هو إدراكُه.

قال مجاهدٌ: لقد علمتَ بعدنا علماً، فمن أينَ لك هذا، وعمَّنْ أخذتَ؟

قال: عن السماءِ!

قال: ويلك! أينَ عقلُك، فهل نَزل عليكَ الوحيُ؟

قال الرجل: لا، ولكنْ تَعَالَيَا معي إلى الدارِ فأحدِّثُكما.

قال المسيَّبُ: وذهبنا معه؛ فأُتينا بطعامٍ نَظيفٍ فأكلْنا، وأشعرتنا الدارُ أنّ ربَّها قد وقعَ فيما شاءَ من دنياه، وتواصلَتْ عليه النِّعمةُ؛ فلما غسلنا أيديَنا، قال مجاهدٌ: هيه يا أبا... يا أبا مَن؟ قال: أبو عُبَيدٍ. قال: هيهِ يا أبا عبيدٍ.

فأفكَرَ الرجلُ ساعةً، ثم قال: عَهْدُكما بي منذُ تسْعٍ في مجلسِ الإمامِ الشعبيِّ بالكوفةِ؛ وقد كنتُ في بقيةٍ من النِّعمةِ أتجمَّلُ بها، وكانتْ تُمسِكُني على موضعي في أعينِ النّاسِ؛ فما زالتْ تلكَ البقيةُ تَدقُّ[1]، وتنْفَضُّ[2]، حتى نكدَ عيشي، ووقعْتُ في الأيام المقعدةِ التي لا تمشي بصاحبها، وانقلبَ الزمنُ كالعدوِّ المُغيرِ، جاء ليصْطَلِمَ[3]، ويُخَرِّبَ، ويُفسِدَ، فأثَّرَ فيَّ أقبحَ آثارِه، فبِعتُ ما بقِيَ لي، وتحملتُ عنِ الكوفةِ إلى البصرةِ، وقلتُ: إنْ لم تتغيَّرْ حالي، تغيَّرتْ نفسي، ولاأكونُ في البصرةِ قد انتهيتُ إلى الفقرِ، بل أكونُ قد بدأتُ من الفَقْرِ كما يبدأُ غيري، وأدعُ الماضي في مكانِهِ، وأمضي إلى ما يستقبلُني.

فالتمستُ رُفقَةً، فالتأمْنا عشرينَ رجلاً، فلما كُنّا في الطريقِ، سَلَبنا اللّصوصُ، وحازوا القافلةَ وما تَحويهِ، ونجوتُ أنا راكباً فرسي وعُمْرِي، وأدركتُ حينئذٍ أنّ الحياةَ وحدَها مُلْكٌ عظيمٌ، وأنّها هي الأداةُ الإلهيّةُ، والباقي كلُّه هو من أنفسِنا لأنفسِنا، والأمرُ فيه هيِّنٌ، والخَطْبُ يسيرٌ.

وقلتُ: لو أنّ اللصوصَ قد مَرُّوا بنا كما يمرُّ الناسُ بالنّاسِ لما نكبونا، ولكنَّهُم عرضوا لنا عُروضَ اللصِّ للمالِ والمتاعِ لا للنّاسِ، فوضعوا فينا الأيديَ الناهبةَ؛ ومنْ هذا أدركتُ أنْ لَيْسَ الشرُّ إلا حالةً يتلبَّسُ بها مَنْ يستطيعُ أن يتخلَّصَ منها. فإذا كان ذلك، فأصلُ السعادةِ في الإنسانِ ألا يَعْبَأَ بهذه الحالاتِ متى عَرَضَتْ له؛ وهو لا يستطيعُ ذلك إلا إذا تمثَّلَ الشرَّ كما يراهُ واقعاً في غيرِه؛ فالمرأةُ العفيفةُ إذا عرضَتْ لها حالةٌ من الفُجورِ، ونظرتْ إلى نفسِها وحَظِّ نفسِها، فقد تعمى وتَزِلُّ؛ ولكنّها إذا نظرتْ إلى

(١) [نقل]
(٢) [تتفرق]
(٣) [ليستأصل]

ذلك في غيرها، وإلى أثرِهِ على الفاجِرةِ، كانتْ كأنّما زادتْ على نفسِها نَفْساً أخرى تُريها الأشياءَ مجردةً كما هي في حقائقها.

قالَ: ومضيتُ على وجهي، تتقاذفني البِقاعُ والأمكنةُ، وأنا أعاني الأرضَ والسماءَ، وأخشَى الليلَ والنهارَ، وأكابِدُ الألمَ والجوعَ، حتى دخلتُ البصرةَ دخولَ البعيرِ الرازح[1]، قَطَعَ الصحراءَ، تأكلُ منهُ ولا يأكلُ مِنْها، فأنضاهُ[2] السفر، وحَسَره الكلالُ[3]، ونحتَه الثِّقَلُ الذي يحملُه، فجاءَ بِبِنْيَةٍ غير التي كانَ قد خَرَجَ بها. وكانت أيامي هذِهِ عمراً كاملاً من الشقاءِ، جعلتني أوقنُ أنَّ هؤلاءِ النّاسِ في الحياةِ إنْ هم إلا كالدَّوابِ تحتَ أحمالِها: لا تختارُ الدابّةُ ما تحمِلُ ولا مَنْ تَحْمِلُ، ولا يُترَكُ لها مَعَ هذا أنْ تختارَ الطريقَ ولا مُدَّةَ السيرِ؛ وليس للدَابّةِ إلا شيئان: صبرُها وقُوّتُها؛ إنْ فقدتْهُما هلكتْ، وإن وَهَنا فيها كان ضعفُها بحسبِ ذلكَ.

إن هناك أوقاتاً من الشقاءِ والبؤسِ تَقْذِفُ بالإنسانِ وراءَ إنسانيتِه وإنسانيةِ البشرِ جميعاً، لا تبالي كيفَ وقعَ وفي أيِّ وادٍ هَلَكَ، فلا ينفعُ الإنسانَ حينئذٍ إلاّ أنْ يَعْتَصِمَ بأخلاقِ الحيوانِ، في مثلِ رضاهُ الذي هو أحكمُ الحكمةِ في تلكَ الحال، وصبرِه الذي هو أقوى القوّةِ، وقناعتِه التي هي أغنى الغنى، وجهلِه الذي هو أعلمُ العِلْمِ، وتوكُّلهُ الذي هو إيمانُ فطْرتِهِ بفطرتِهِ. لا يبالي الحيوانُ مالاً ولانعيماً، ولا متاعاً ولا منزلةً، ولا حظاً ولا جاهاً، ولن تَجِدَ حمارَ المَلِك يَعْرِفُ مِنَ المَلِكِ أكثر مما يَعْرِفُ حمارُ السَّقَّاءِ من السَّقَّاءِ؛ ولعلَّكَ لو سألتَهما وأطاقا الجوابَ لقال لكَ الأوّلُ: إنّ الذي فوقَ ظهري ثقيلٌ مَقيتٌ بغيضٌ؛ ولقالَ لك الثاني: إنّ الذي يَرْكَبهُ خفيفٌ سَهْلٌ سَمْحٌ!

(١) [رزح: سقط إعياءً أو هزالاً]
(٢) [أهزله]
(٣) [التعب]

ولكنَّ بلاءَ الإنسـانِ أنَّهُ حِيْنَ يُطَوِّحُهُ البؤسُ والشقاءُ وراءَ الإنسانيةِ، لا ينظرُ لغيرِ النّاسِ، فيزيدُه ذلك بؤساً وحسرةً، ويَمْحَقُ في نفسِه ما بقيَ مِنَ الصَّبْر، ويقلِبُ رضاه غيظاً، وقناعتَه سخطاً، ويبتليهِ كُلُّ ذلك بالفكرةِ المُهْلِكةِ أعجزَها أنْ تُهْلِكَ أحداً، فلا تَجِدُ مَنْ تُدَمِّرُه غيرَ صاحِبِها؛ فإذا هي وَجَدَتْ مَسَاغاً إلى النَّاسِ، فأهلكتْ وعاثَتْ وأفْسَدَتْ، جعلتْ صاحِبَها إمّا لِصاً أو قاتلاً أو مُجْرِماً، أيَّ ذلك تَيَسَّرَ!

قالَ: وكُنْتُ أعرِفُ في البصرةِ فلاناً التاجرَ مِنْ سَراتِها ووجوهِ أهلِها، فاستطرقْتُه(١)؛ فإذا هو قد تحوّلَ إلى خُراسان، وليس يعرفني أحدٌ في البصرةِ، ولا أعرفُ أحداً غيرَه؛ فكأنَّما نُكِبتُ مرةً ثانيةً بغارةِ شرٍّ من تلكَ، غيرَ أنَّها قطعتْ عليَّ في هذهِ المرَّةِ طريقَ أيامي، وسلبتني آخر ما بقيَ لنفسي، وهو الأملُ!

ورأيتُ أنَّهُ ما مِنْ نزولي إلى الأرضِ بُدٌّ، فأكونَ فيها إنساناً كالدابّةِ أو الحشرةِ: حياتُها ما اتفقَ، لا ما تريدُ أنْ يتفِقَ؛ وأنَّه لارأيَ إلا أنْ أسْخَرَ مِنَ الشهواتِ، فأزهدَ فيها، وأنا القويُّ الكريمُ، قبلَ أنْ تَسْخَرَ هي مني إذا جئتُها وأنا الطامعُ العاجِزُ!

وفي الأرضِ كفايةُ كلّ ما عليها ومَنْ عليها، ولكنْ بطريقتِها هي لا بطريقةِ النّاسِ؛ وما دامتْ هذِهِ الدنيا قائمةً على التغييرِ والتبديلِ، وتحوُّلِ، شيءٍ إلى شيءٍ، فهذا الظَّبيُ الذي يأكلُه الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ أنَّهُ قد أُكلَ، ولا أنه افْتُرِسَ ومُزِّقَ، بل هو عِنْدَها قد تحَوّلَ قوةً في شيءٍ آخرَ ومضى؛ أمّا عندَ النّاسِ فذلِكَ خَطْبٌ طويلٌ في حكايةِ أوهامٍ من الخَوْفِ والوَجَلِ؛ كما لو اخترعتَ قصةً خرافيةً تَحْكِيْهَا عن أسدٍ قَدْ زَرَعَ لحماً... فَتَعَهَّدَهُ، فأَنبتَهُ، فحصدَه، فأكلَه، فذهبَ الزرعُ يحتجُّ على آكلِهِ، وجعلَ

(١) [أتيته ليلاً]

يشكو، ويقول: ليس لهذا زرعْتَني أنتَ، وليسَ لهذا خرجتُ أنا تحتَ الشَّمْسِ، وليسَ من أجلِ هذا طلعتْ الشَّمْسُ عليَّ وعليكَ!

والإنسانُ يرى بعَيْنيْهِ هذا التغيير واقعاً في الإنسانيةِ عامتِها، وفي الأشياءِ جميعِها؛ فإذا وقعَ فيه هُوَ ضجَّ وسَخِطَ، كأنَّ له حقاً ليسَ لأحدٍ غيره، وهذا هو العجيبُ في قصّةِ بني آدم، فلا يزالُ فيها على الأرضِ كلماتٌ من الجَّنَةِ لاتقالُ هنا، ولاتُفهم هنا؛ بل مَحلُّ الاعتراضِ بها حينَ يكونُ الإنسانُ خالداً لايقعُ فيه التغييرُ والتبديلُ، ومن هذا كانَ خيالُ اللذةِ في الأرضِ هو دائماً باعثُ الحماقةِ الإنسانيةِ.

قال أبو عُبيدٍ: وذهبتُ أعتَمِلُ بيديَّ وجسمي على آلامٍ من الفاقةِ والضُّرِّ، ومن الخيبةِ والإخفاقِ، ومن إلْجاءِ المسكنَةِ، وإحواجِ الخَصَاصَةِ[1]؛ فلقد رأيتُني وإنَّ يدي كيدِ العبدِ، وظهري كظهرِ الدّابةِ، ورجلي كرجلِ الأسيرِ، وعُنقي كعنقِ المغلول، ويطلعُ قرصُ الشَّمس على الدنيا، ويغيبُ عنها، وما أعتملُ إلا بقُرْصٍ من الخبزِ، ولقد رأيتُني أبذُلُ في صيانةِ كل قطرةٍ من ماءِ وجهي سحابةً من العرقِ حتى لا أسألَ النّاس، ويا بؤساً لي إن سألتُ وإنْ لم أسألْ!

وماكان يُمسِكني على هذه الحياةِ المُرَمَّقَةِ، تأتي رَمقاً بعد رَمَقٍ في يومٍ يوم ـ إلا كلامُ الشعبيِّ الذي سمعتُه في مسجدِ الكوفةِ، وقولُه فيمن قَتَلَ نفسَه؛ فكانَ كلامُه نوراً في صدري، يُشرِقُ منه كلَّ يومٍ مع الصُّبحِ صبحٌ لإيماني، ولكن بقيتْ أيامُ نعمتي الأولى، ولها في نفسي ضَرَبَانٌ من الوجَع، كالذي يجدهُ المجروحُ في جرحِه إذا ضَرَبَ عليه، فكانَ الشيطانُ لا يَجِدُ منفذاً إليَّ إلا منها. وفقدتُ الصديقَ وعونَه، فما كانَ يُقْبِلُ عليَّ صديقٌ إلا في أحلامي من وراءِ الزمنِ الأولِ!

---

(١) [الفقر]

قال مجاهد: والحبيبُ؟

فتبسَّمَ الرجلُ وقال: إذا فرغَتْ الحياةُ من الذي هو أقلُّ من الممكنِ، فكيفَ يكونُ فيها الذي هو أكثرُ من الممكنِ؟ إنّ جوعَ يومٍ واحدٍ يجعلُ هذه الحياةَ حقيقةً جافيةً لا شعرَ فيها، ويتركُ الزمنَ وما فيه ساعةً واحدةً مُعَطرةً... والبؤسُ يَقَظةٌ مُؤْلِمةٌ في القلبِ الإنسانيّ تُحرِّمُ عليه الأحلامَ؛ وما الحُبُّ مِنْ أوَّله إلى آخرِه إلا أحلامُ القلوبِ بعضها ببعضٍ!

قال أبو عبيدٍ: وتَضَعْضَعْتُ لهذه الحياةِ المخزيةِ، وأبرَمَتْني أيامُها، وحملتُ فيَّ الميِّتَ والحيَّ، ورأيتُ الشيطانَ ـ لعنهُ اللهُ ـ كأنّما اتخذني وعاءً مُطَّرَحاً على طريقهِ، يُلقي فيه القُمامةَ...، وظهر لي قلبي في وساوسه كالمدينةِ الخَربةِ، ضَرَبَها الوباءُ، فأعمرُ ما فيها مَقْبَرَتُها؛ وعادَ البؤسُ وقَاحَ الوجهِ لا يستحي، فلا أراهُ إلا في أرذلِ أشكالِه وأبردِها؛ ولقد يكونُ البؤسُ لبعضِ النّاسِ على شيءٍ من الحياءِ، فيأتي في أسلوبِ معتذرٍ كالمرأةِ الدميمةِ في نقابِهَا.

وقلتُ لنفسي: ما هو واللهِ إلا القتلُ، فهذا عُمرٌ أراهُ كالأسيرِ أقيمَ على النِّطْعِ، وسُلَّ عليه السيفُ، فما ينتقِمُ منه المنتقمُ بأفظعَ مِنْ تأخيرِ الضربةِ، وما يرحمُه الراحمُ بأحسنَ من تعجيلِهَا!

وبثَّ أوَامرُ هذه النفس في قتلها، وأحدُثُها حديثَ الموتِ، فسدَّدتْ رأيي فيه، وقالتْ: ما تصنعُ بجسمٍ كالمتعفِّنِ، أصبحَ كالمقبورِ، لا أيامَ له إلا أيامَ انقراضهِ وتفتيتِهِ؟ بَيْدَ أني ذكرتُ كلامَ الشعبيِّ في ذلك المجلسِ، وأنا أحفظُه كلَّه، فجعلتُ أهُذُّهُ[1]، ما أتركُ منه حَرْفاً، وأتخذتُه متكلّماً مع نفسي لا كلاماً، كنتُ كلَّما غلبني الضعفُ رفعتُ به صوتي، وأصغيتُ كما أصغي إلى إنسانٍ يُكلّمني، فرأيتُ الشيطانَ بعدَ ذلك كاللصِّ إذا طمعَ في

(١) الهذ: الإسراع في القراءة.

رجلٍ ضعيفٍ منفردٍ، ثم لما جاءَهُ وجدَ معه رجلاً ثانياً قوياً فهربَ!

قال أبو عبيدٍ: ونالني رَوْحٌ من الاطمئنان، وجدتُ له السكينةَ في قلبي فنمتُ، فإذا الفزعُ الأكبرُ الذي لا ينساهُ مَنْ سمعَ بهِ، فكيفَ الذي رآه بعينيهِ؟

رأيتُني ميّتاً في يد غاسِلِه، يُقلِّبُهُ، ويغسلُهُ كأنّه خرقةٌ؛ ثم حُملتُ على النعش، كأنَّ الحاملينَ قد رفعوني، يقولون: انظروا أيها النّاسُ كيفَ يصيرُ النّاسُ؛ ثم صلّى عليَّ الإمامُ الشعبيُّ في مسجدِ الكوفةِ، ثم دُليتُ في قعْرِ مُظْلِمةٍ، وهيلَ الترابُ عليَّ، وتُرِكْتُ وحيداً، وانصرفوا!

وما أدري، كم بقيتُ على ذلك؛ ثم رأيتُ كأنّما نُفِخَ في الصُّور، وبُعْثرتْ الأمواتُ جميعاً، فَطِرْنا في الفضاءِ، وكانَتْ النجومُ غباراً حولنا، كترابِ العاصفةِ في العاصفةِ؛ وإذا نحنُ في عَرَصَاتِ القيامةِ، وفي هولِ الموقفِ!

وتوجَّهتُ بكلِّ شَعْرَةٍ في جسمي إلى الرجاءِ في رحمةِ اللهِ ورأيتُ أعمالي رؤيةً أحزنَتْني، فهي كمدينةٍ عظيمةٍ كلُّ أهلِهَا صعاليكُ، إلا قليلاً مِنَ المستورين، أرى منهم الواحدَ بعد الواحدِ في الساعةِ بعد الساعةِ ندَروا، وتَبَعْثَروا وضاعوا كأعمالي الصالحة!

وذكرتُ أني كِدْتُ أقتلُ نفسي فراراً بها من العُمرِ المؤلم؛ فنظرتُ، فإذا الزمنُ قد ظهرَ في أبديَّتِهِ، ورجعَ الماضي حاضراً بكلِّ ما حَوَى، كأنَّه لم يَمْضِ، وإذا عمري كلُّهُ لا يكادُ يبلغُ طرفةَ عينٍ مِنْ دهرٍ طويلٍ، فحمدتُ اللهَ أني لم أفتَدِ ألمَ اللحظةِ القصيرةِ القصيرةِ، بعذابِ الأبدِ الآبد الخالدِ الخالدِ الخالدِ.

وجيءَ على أعينِ الخلْقِ بأنعمِ أهلِ الدنيا، وأكثرِهم لذّاتٍ في تاريخِ الدنيا كلِّه، فصاحَ صائحٌ: هذا أنعمُ مَنْ كانَ على الأرضِ مُنذُ خَلقَها اللهُ إلى أنْ طواها. ثم غُمسَ هذا المنعَّمُ في النارِ غَمْسَةً خفيفةً كنَبضَةِ البرقِ،

وأُخرجَ إلى المَحْشَرِ، وقِيْلَ له والناسُ يسمعونَ: هل ذُقتَ نعيماً قطّ؟ قال: لا واللهِ.

ثُمّ جيءَ بأتعسِ أهلِ الأرضِ، وأشدِّهم بُؤساً منذُ خُلِقَتْ الأرضُ، فَغُمِسَ في الجنةِ غمسَةً أسرعَ من النَّسِيْمِ، تحرَّكَ ومَرَّ، ثُمَّ أُخرِجَ إلى المحشرَ، وقيل له: هَلْ ذُقْتَ بُؤْساً قَطُّ؟ قال: لا واللهِ[1].

وسمعنا شهيقَ جهنمَ وهي تفوُر، تكادُ تَميَّزُ من الغيظِ؛ فأيقنتُ أنّ لها نفْساً خُلِقَتْ مِنْ غضبِ اللهِ. وخرجَ منها عُنُقٌ عظيمٌ هائِلٌ، لو تضرَّمتْ السماءُ كلُّها ناراً لأشبهتْهُ، فجعلَ يلتقِطُ صِنْفاً صِنفاً من الخلقِ، وبدأ بالملوكِ الجبابرةِ، فالتقطهم مرَّةً واحدةً كالمغناطيس لتُرابِ الحديدِ؛ وقَذَفَ بهم إلى النّارِ؛ ثُمَّ انبعثَ، فالتقطَ الأغنياءَ المفسدين، فأطارهم إليها؛ ثم جعلَ يأخذُ قوماً قوماً، وقد ألجمني العرَقُ مِنَ الفزعِ؛ ثم طِرتُ أنا فيه، ونظرتُ، فإذا أنا مُحْتَبَسٌ في مُظلمةٍ ناريةٍ كالهاويةِ، ليسَ حولي فيها إلا قاتلو أنفسِهم. ولو أنَّ بحارَ الأرضِ جُعلَ فيها البحرُ فوقَ البحرِ فوقَ البحرِ، إلى أنْ تجتمعَ كلُّها، فيكونُ العمقُ كبعْدِ ما بينَ الأرضِ والسماءِ، ثم تُسْجَرُ ناراً تَلَظَّى، لكانتْ هي الهاويةُ التي نحنُ في أعماقِها؛ وكنتُ سمعتُ مِنْ إمامنا الشعبيِّ: أنَّ عصاةُ المؤمنين الموحِّدينَ إذا ماتوا على إيمانهم كانوا في النار أحياءً، وجوارحُهم مَوتى؛ لأنَّ هذِهِ الجوارحَ قد أطاعَت الله، وسبَّحتْهُ، فكرُمتْ بذلك حتى على جهنم، ثم يعذَّبونَ عذاباً فيه الرحمة، ثم يُخْرَجُونَ، وينتظرُهُم إيمانُهم على بابِ النّارِ، فكانَ إلى جانبي رجلٌ قتلَ نفسَهُ، فسمعَ قائِلاً مِنْ بعيدٍ يقول لمؤمنٍ: اخرجْ، فإنَّ إيمانَكَ ينتظِرُكَ. فصاح الذي إلى جانبي: وأنا، أفلا ينتظُرني إيماني؟ فقيل له: وَهَلْ جِئْتَ بِهِ؟

---

(١) [معنى حديث صحيح رواه مسلم برقم (٢٨٠٧)]

ورأيتُ رجلاً ذَبَحَ نفسَه يريدُ أن يَصْرَخَ يسألُ الله الرحمةَ، فلا يَخْرُجُ الصوتُ مِنْ حَلْقِهِ، إذْ كان قَدْ فَرَاهُ، وبقيَ مَفْرِيّاً!.

وأبصرتُ آخرَ قد طَعَنَ في قلبه بمُديةٍ، فهو هناك تَسْلَخُ الزبانيةُ قلبَهُ، تبحَثُ هل فيه نيةٌ صالحةٌ، فلا تزالُ تَسْلَخُ، ولا تزالُ تَبْحَثُ!

ورأيتُ آخرَ كان تَحسَّى من السَّمِّ، فماتَ ظمآنَ يتلظَّى جوفُه، فلا تزالُ تَنْشَأُ له في النّارِ سحابةٌ رَوِيّةٌ تَبْرُقُ بالماءِ، فإذا دَنَتْ منه ورَجاها، انفجرتْ عليه بالصواعقِ، ثم عادَتْ تَنْشَأُ وتَنْفَجِرُ!

وقال رجلٌ: إنما كنتُ مجنوناً ضعيفاً عاجزاً فأزهقتُ نفسِي. فنوديَ: أو ما علمتَ أنّ الله يحاسِبُكَ على أنَّكَ عاقلٌ لا مجنونٌ، وقويٌ لا ضعيفٌ، وقادرٌ لا عاجزٌ؟ كنتَ تَعْقِلُ بالأقلِّ أنَّكَ ستموتُ، وكنتَ تقوى على أنْ تَصْبِرَ، وكنتَ تَقْدِرُ أنْ تتركَ الشرَّ.

وقال رجلٌ عالِمٌ قَدْ حَزَّ في يدِهِ بسكينٍ فمات: لَمْ يكنْ الكمالُ من الدنيا ولا في طبيعتها ولا هُوَ شيءٌ يدرَكُ.

فصرخَ فيه صوتٌ رهيبٌ: ولكنَّ مِنْ عَظَمةِ الكمالِ أنّ استمرارَ العملِ لَهُ هو إدراكُه!.

قال أبو عُبيدٍ: ثم انتصبَ بإزائي شيطانٌ ماردٌ أحمرُ، يلتمِعُ التماعَ الزجاجِ فيه الخمرُ، فقام في وجهي، وقال: بماذا جئتَ إلى هنا يا عدوَّ الخَمْرِ؟ فما كان إلا أنْ سمعتُ النداءَ: شفَعَتْ فيكَ الخمرُ التي لم تَشْرَبْها، اخرجْ، إنّ إيمانَك ينتظرُكَ

فصحتُ: الحمدُ للهِ! وتحرَّكَ بها لساني، فانتبهتُ.

لقد علمتُ أنَّ الصبرَ على المصائبِ نِعْمَةٌ كبرى، لاينعِمُ اللهُ بها إلاّ في المصائِبِ[1].

---

(١) [نشرت في «الرسالة» السنة الثالثة (١٩٣٥) الأعداد (٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠)].

السمكــة

١

حدَّث أحمدُ بنُ مسكينٍ الفقيهُ البغداديُّ قال: حصَلت في مدينةِ بَلْخ سنةَ ثلاثينَ ومئتينِ، وعالِمُها يومئذٍ شَيْخُ خُراسانَ أبو عبد الرحمن[١] الزاهدُ صاحبُ المواعظِ والحكَمِ؛ وهو رجلٌ قلبُه مِنْ وراءِ لسانه، ونفسُه مِنْ وراءِ قلبِه، والفَلَكُ الأعلى مِنْ وراءِ نفسِه، كأنَّه يُلَقَّى عليه فيما زعموا.

وكان يقالُ له عندهم لُقمانُ هذِهِ الأُمَّةِ؛ لِمَا يُعْجِبُهُم من حِكَمِه في الزهدِ والموعظةِ، وقد حضرتُ مجالسَه، وحفظتُ من كلامِهِ شيئاً كثيراً، كقوله: مَن دَخَلَ في مَذْهَبِنا هذا ـ يعني الطريقَ ـ فليجعلْ على نفسِه أربعَ خصالٍ من الموتِ: موتٌ أبيضُ، وموتٌ أسودُ، وموتٌ أحمرُ، وموتٌ أخضرُ؛ فالموتُ الأبيضُ: الجوعُ، والموتُ الأسودُ: احتمالُ الأذى، والموتُ الأحمرُ: مخالفةُ النفسِ، والموتُ الأخضرُ: طرحُ الرِّقاعِ بعضِها على بعضٍ (يعني لبس المرقَّعَةِ، والخَلَقِ من الثيابِ)

وقلتُ يوماً لصاحبِهِ وتلميذِه أبي تراب، وجارَيْتُه في تأويل هذا الكلامِ: قد فهمنا وَجْهَ التسميةِ في الموتِ الأخضرِ ما دامتْ المرقعةُ خضرَاءَ؛ فما الوجهُ في الأبيضِ والأسودِ والأحمرِ؟ فجاءَ بقولٍ لم أرضَهُ، وليس معه دليلٌ، ثم قال: فما عِنْدَكَ أنتَ؟ قلتُ: أما الجوعُ فيُمِيْتُ النفسَ

(١) هو حاتم بن يوسف شيخُ خراسان وواعظها، توفي سنة (٢٣٧) للهجرة.

عن شهواتِهَا ويتركها بيضاءَ نقيةً، فذلك الموتُ الأبيضُ؛ وأما احتمالُ الأذى فهو احتمالُ سوادِ الوَجْهِ عندَ النّاسِ، فهو الموتُ الأسودُ؛ وأما مخالفةُ النفسِ، فهي كإضْرَامِ النَّارِ فيها، فذاك الموتُ الأحمرُ.

قال أحمدُ بنُ مسكينٍ: وكنتُ ذاتَ نهارٍ في مسجد بَلْخٍ،والناسُ مُتَوافرون ينتظرونَ لقمانَ الأمة ليَسْمَعوه، وشغَلَه بعضُ الأمرِ فراثَ[1] عليهم، فقالوا: مَنْ يَعِظُنا إلى أنْ يجيءَ الشيخُ؟ فالتفتَ إليَّ أبو ترابٍ، وقال: أنتَ رأيتَ الإمامَ أحمدَ بنَ حَنْبل، ورأيتَ بِشْراً الحافي، وفلاناً، وفلاناً، فقُمْ فحدِّثِ النّاسَ عنهم، فإنّما هؤلاءِ وأمثالُهم هم بقايا النبوَّةِ. ثم أخذَ بيدي إلى الأسطوانةِ[2] التي يَجْلِسُ إليها إمامُ خراسانَ، فأجلسني ثَمَّةَ، وقعد بين يديَّ.

وتطاولَتِ الأعناقُ، ورماني الناسُ بأبصارِهم، وقالوا: البَغْدادي! البغدادي! وكأنّما ضُوعِفَتْ عندَهم بمجلسي مرةً، وبنِسْبَتي مرةً أخرى، فقلتُ في نفسي: واللهِ ما في الموتِ الأحمرِ ولا الأخضرِ ولا الأسودِ موعظةٌ، ولو لَبِسَ عزرائيلُ[3] قَوْسَ قُزَحَ لأفسدَ شِعْرُ هذه الألوانِ معناه، وإنّما يجبُ أن يكونَ كما يجبُ أن يكونَ؛ ولا موعظةَ في كلامٍ لم يمتلىءْ مِنْ نفس قائلِه، ليكونَ عملاً فيتحوَّلَ في النفوسِ الأخرى عملاً، ولا يبقى كلاماً؛ وإنّه ليسَ الوعظُ تأليفَ القولِ للسامعِ يَسمَعُهُ، لكنَّهُ تأليفُ النَّفْسِ لنفسٍ أُخرى تراها في كلامها، فيكونُ هذا الكَلامُ كأنّه قَرابةٌ بين النَفْسَيْنِ، حتّى لكأنَّ الدمَ المتجاذِبَ يجري فيه، ويدورُ في ألفاظِهِ.

وكنتُ رأيتُ رؤيا بِبَلْخٍ تتصل بقصةٍ قديمةٍ في بغدادَ، فقصصتُها

(١) [أبطأ]

(٢) [العمود]

(٣) [لم يرد اسم ملك الموت هذا إلا في الكتاب ولا في السنة، إنما هو شيء درج على ألسنة العامة!]

عليهم، فكانتْ القِصَّةُ كما حكيتُها: أني امتُحِنْتُ بالفَقْرِ في سنة تسعَ عشرةَ ومئتين؛ وانحَسَمَتْ[١] مادتي، وقَحِطَ منزلي قَحطاً شديداً، جَمَعَ عليَّ الحاجةَ والضُّرَّ والمسكنَةَ؛ فلو انكمشتِ الصحراءُ المُجدِبَةُ، فصَغُرتْ، ثم صغُرتْ، حتى تَرْجِعَ أذرُعاً في أذرعٍ، لكانتْ هي داري يومئذٍ في محلَّةِ بابِ البَصْرَةِ من بغدادَ.

وجاءَ يومٌ صَحْراويٌّ، كأنما طلعتْ شَمْسُه مِنْ بينِ الرملِ، لا مِنْ بينِ السُّحُبِ، ومرَّتِ الشَّمْسُ على داري في بغدادَ مرورَها على الورقةِ الجافَّةِ المعلَّقةِ في الشجرةِ الخضراءَ؛ فلم يكنْ عندنا شيءٌ يُسيغُهُ حَلْقُ آدميٍّ، إذْ لم يكنْ في الدَّارِ إلا ترابُها وحجارتُها وأجذاعُها؛[٢] ولي امرأةٌ، ولي منها طفلٌ صغيرٌ، وقد طَوَينا[٣] على جوعٍ يَخْسِفُ بالجَوْفِ خَسفاً، كما تَهْبِطُ الأرضُ؛ فَلَتَمَنَّيْتُ حينئذٍ لو كُنّا جُرْذاناً فنَقْرِضُ الخشبَ! وكان جُوْعُ الصبيِّ يزيدُ المرأةَ ألماً إلى جُوْعِها، وكنتُ بهما كالجائع بثلاثةِ بطونٍ خاويةٍ.

فقلتُ في نفسي: إذا لم نأكلِ الخَشَبَ والحِجارةَ فلنأكلْ بثمنِهَا. وجمعتُ نيتي على بيعِ الدَّارِ والتحوُّلِ عنها، وإنْ كانَ خروجي منها كالخروجِ مِنْ جلدِي: لا يُسمَّى إلا سَلْخاً ومَوْتاً؛ وبتُّ ليلتي؛ وأنا كالمُثْخَنِ حُمِلَ من معركةٍ، فما يتقلَّبُ إلا على جِراحٍ تعملُ فيه عملَ السيوفِ والأسنَّةِ التي عملتْ فيها.

ثم خرجتُ بغَلَسٍ[٤] لصلاةِ الصُّبْحِ؛ والمسجدُ يكونُ في الأرضِ، ولكنَّ السماءَ تكونُ فيه، فرأيتني عندَ نفسي كأنّي خرجتُ من الأرضِ ساعةً، ولما قُضِيَتُ الصلاةُ رفعَ الناسُ أكفَّهم يدعونَ الله تعالى، وجرى

---

(١) [ذهبت]
(٢) [خشب السقف]
(٣) [خلت بطوننا]
(٤) [ظلمة آخر الليل]

لساني بهذا الدعاءِ: اللهمَّ بِكَ أعوذُ أنْ يكونَ فقري في ديني، أسألُكَ النفعَ الذي يُصْلِحُني بطَاعَتِكَ، وأسألُكَ بركةَ الرِّضا بقضائِكَ، وأسألُكَ القوّةَ على الطّاعةِ والرِّضا يا أرحمَ الراحمين.

ثم جلستُ أتأمّلُ شأني، وأطلتُ الجلوسَ في المَسْجِدِ، كأني لم أعُدْ من أهلِ الزَّمنْ، فلا تجري عليَّ أحكامُه، حتّى إذا ارتفعَ الضُّحى، وابيضَّت الشَّمْسُ، جاءَتْ حقيقةُ الحياةِ، فخرجتُ أتسبَّبُ لبيعِ الدّارِ، وانبعثتُ وما أدري أينَ أذهبُ، فما سِرْتُ غيرَ بعيدٍ حتى لقيني أبو نصرٍ الصيادِ، وكنتُ أعرِفُه قديماً، فقلتُ: يا أبا نصرٍ! أنا على بيعِ الدارِ؛ فقد ساءَتْ الحالُ، وأحْوَجَتِ الخَصاصَةُ[1]، فأقْرِضْني شيئاً يُمَسِكُني على يومي هذا بالقوامِ من العيش، حتى أبيعَ الدّارَ وأوفيك.

فقال: يا سيدي! خُذْ هذا المنديلَ إلى عيالِكَ، وأنا على أثَرِك لاحقٌ بِكَ إلى المنزلِ. ثم ناوَلني منديلاً فيه رُقاقتان بينهما حلوى، وقال: إنَّهُما واللهِ بركةُ الشَّيْخِ.

قُلت: مَنْ الشيخُ، وما القصة؟

قال: وقفتُ أمسِ على بابِ هذا المسجدِ، وقد انصرفَ النّاسُ من صلاةِ الجُمعةِ، فمرَّ بي أبو نصرٍ بِشْرٌ الحافي[2] فقال: مالي أراكَ في هذا الوقتِ؟

قلتُ: ما في البيتِ دقيقٌ ولاخبزٌ ولا دِرْهَمٌ ولا شيءٌ يُباعُ.

فقال: اللهُ المستعانُ؛ احمِلْ شبكَتَك، وتعالَ إلى الخَندقِ.

فحملتُها وذهبتُ معه، فلمّا انتهينا إلى الخندقِ قال لي: توضَّأْ وصَلِّ

---

(١) [الفقر]

(٢) هو الزاهد العظيم بشر بن الحارثِ المعروفِ بالحافي، توفي سنة (٢٢٧) للهجرة، وكان واحدَ الدنيا في ورعه وتقواه؛ وقيل له: (الحافي) لأنه كان في حداثتِه يمشي إلى طلب العلم حافياً، إجلالاً لحديثِ النبي ﷺ.

ركعتين. ففعلتُ، فقال: سَمِّ الله تعالى، وألقِ الشبكةَ. فسمَّيتُ وألقيتُها، فوقعَ فيها شيءٌ ثقيلٌ، فجعلتُ أجرُّهُ فشقَّ عَلَيَّ؛ فقلتُ له: ساعِدني، فإني أخافُ أنْ تَنقَطِعَ الشبكةُ، فجاءَ وجرَّها معي، فخرجتْ سمكةٌ عظيمةٌ، لم أرَ مثلَها سِمَناً وعِظَماً وفَراهةً. فقالَ: خُذْها، وبِعْها، واشترِ بثمنها ما يُصْلِحُ عيالك. فحملتُها، فاستقبلني رجلٌ اشتراها، فابتعتُ لأهلي ما يحتاجونَ إليهِ، فلمّا أكلتُ وأكلوا، ذكرتُ الشيخَ، فقلتُ: أهدي لَهُ شيئاً، فأخذتُ هاتينِ الرقاقتينِ، وجعلتُ بينهما هذه الحلوى، وأتيتُ إليهِ، فطرقتُ البابَ، فقالَ: مَنْ؟ قلتُ: أبو نصرٍ! قالَ: افْتَحْ، وضَعْ ما معك في الدهليز، وادخلْ. فدخلتُ، وحدثتُه بما صنعتُ، فقال: الحمدُ لله على ذلك، فقلتُ: إني هيأتُ للبيتِ شيئاً ما، وقد أكلوا وأكلتُ، ومعي رقاقتانِ فيهما حلوى.

قالَ: يا أبا نصرٍ! لو أطعمنا أنفسَنا هذا ما خرجتِ السمكةُ! اذهبْ كلْهُ أنتَ وعيالُك.

قال أحمدُ بنُ مسكينٍ: وكنتُ من الجوعِ بحيثُ لو أصبتُ رغيفاً لحسبتُه مائدةً أُنزلتْ من السماءِ، ولكنَّ كلمةَ الشَيْخِ عن السمكةِ أشبعتني بمعانيها شِبَعاً ليسَ مِنْ هذه الدنيا، كأنَّما طَعِمْتُ منها ثمرةً من ثمارِ الجنةِ؛ وطَفِقْتُ أردِّدُها لنفسي، وأتأملُ ما تَفْتُقُ الشهواتُ على النّاسِ، فأيقنتُ أنَّ البلاءَ إنما يصيبنا مِنْ أننا نفسِّرُ الدنيا على طولها وعرضِها بكلماتٍ معدودةٍ، فإذا استقرَّ في أنفسِنا لفظٌ من ألفاظِ هذه الشهواتِ، استقرَّتْ به في النفسِ كلُّ معانيهِ من المعاصي والذنوبِ، وأخذتْ شياطينُ هذه المعاني تَحومُ على قلوبنا، فنُصْبِحُ مُهَيَّئِينَ لهذه الشياطين، عاملينَ لها، ثم عاملينَ معها، فتُدْخِلُنا مَداخِلَ السُّوءِ في هذِهِ الحياةِ، وتُقْحِمُنا في الوَرْطةِ بعدَ الورطةِ، وفي الهلَكةِ بعد الهلَكةِ.

وما هذه الشياطينُ إلا كالذُّبابِ والبعوضِ والهَوامِّ، لا تحومُ إلا على

رائحةٍ تجذبُها، فإنْ لَمْ تَجدْ في النفسِ ما تَجْتَمِعُ عليه، تفرَّقَتْ ولم تَجْتَمِعْ، وإذا ألمَّت الواحدةُ منها بعدَ الواحدةِ لم تثبتْ. فلو أننا طردنا مِنْ أنفسِنا الكلماتِ التي أفسدَتْ علينا رؤيةَ الدنيا، كما خُلِقَتْ، لكانَ للدنيا في أنفسِنا شكلٌ آخرُ أحسنُ وأجملُ مِنْ شَكْلِها، ولكانتْ لنا أعمالٌ أخرى أحسنُ وأطهرُ من أعمالِنا.

فالشيخُ لم يكنْ في نفسِه معنىً لكلمةِ التلذُّذِ، وبطردِه من نفسِه هذا اللفظَ الواحدَ، طَرَدَ معاني الشَّرِّ كلِها، وصَلحَ له دينُه، وخلصَتْ نفسُه للخيرِ ومعاني الخيرِ.

ولو أنَّ رجلاً وضعَ في نفسِه امرأةً يَعْشَقُها، لصارَتْ الدنيا كلُّها في نفسِه كالمخْدَعِ، ما فيه إلا المرأةُ وحدَها بأسبابها إليه وأسبابِه إليها...

وقد كنتُ سمعتُ في دَرْسِ شيخِنا أحمدَ بنِ حنبلَ هذا الحديثَ: «لولا أنَّ الشياطينَ يَحُوْمُوْنَ على قلوبِ بني آدم لنَظروا إلى ملَكُوتِ السّماواتِ»[1]. فما فهمتُ واللهِ معناه إلا مِنْ كلمةِ الشيخِ في السَّمكةِ، وقد علَّمنيها هذا الصيَّادُ العاميُّ؛ فالشياطينُ تَنْجَذِبُ إلى المعاني، والمعاني يُوْجِدُها اللفظُ المستقرُّ في القلبِ استقرارَ غَرَضٍ أو شهوةٍ أو طَمَعٍ؛ فإذا خلا القلبُ من هذِهِ المعاني، فقد أمِنَ مُنازَعَتَها له، وشَغْلَهَا إياه، فيصبحُ فوقَها لا بينها؛ ومتى صارَ القلبُ فوقَ الشهواتِ، ولم يَجدْ من ألفاظِها ما يُعْميه، ويعترضُ نظرَه إلى الحقائقِ، فانكشَفَ له المَلَكُوْتُ؛ فإذا وقعَ بعدُ في واحدةٍ من اللّذاتِ، ولو كالرقاقتين والحلوى، استَعْلَتْ الأشياءُ عليه، فحجبتْه، وعادَ بينها أو تحتها، وعَمِي عَمَى اللَّذةِ؛ والحجابُ على البَصَرِ، كأنه تعليقُ العَمَى على البصرِ.

وكنتُ لا أزالُ أعْجَبُ من صبرِ شيخِنا أحمدَ بنِ حنبلَ، وقد ضُرِبَ بين

---

(١) [أخرجه أحمد (٢: ٣٥٣) بسند ضعيف].

يدي المعتصم بالسِّياطِ حتّى غُشِيَ عليهِ[١] فلم يتحوّلْ عن رأيهِ؛ فعلمتُ الآن مِنْ كلمةِ (السمكة) أنّه لم يجعلْ في نفسِهِ للضَّرْبِ معنى الضَّرْبِ، ولا عَرَفَ للصبرِ معنى الصبرِ الآدميّ؛ ولو هو صَبَرَ على هذا صَبْرَ الإنسانِ لَجَزِعَ وتحوَّل، ولو ضُرِبَ ضَرْبَ الإنسانِ لتألَّم وتغيَّرَ؛ ولكنّه وَضَعَ في نفسِهِ معنى ثباتِ السنَّةِ وبقاءِ الدّينِ، وأنّه هو الأُمّةُ كلهالا أحمد بن حنبل، فلو تحوَّلَ لتحوَّلَ الناسُ، ولو ابتَدَعَ لابتدعوُا؛ فكانَ صبرُه صبرَ أمةٍ كاملةٍ، لا صَبْرَ رجلٍ فَرْدٍ، وكان يُضْرَبُ بالسياطِ، ونفسُه فوق معنى الضَّرْبِ، فلو قَرَضُوه بالمقَارِيْضِ، ونشروه بالمنَاشِيْرِ، لما نالوا منه شيئاً؛ إذْ لم يكنْ جِسْمُهُ إلا ثَوْباً عليهِ، وكانَ الرجلُ هو الفِكْرَ، ليس غَيْر.

هؤلاءِ قومٌ لا يروْن فضائِلَهُم فضائلَ، ولكنَّهُم يَرونها أماناتٍ، قد ائْتُمِنُوا عليها مِنَ اللهِ، لتبقى بهم معانيها في هذِه الدنيا؛ فهم يُزْرَعُوْنَ في الأممِ زَرعاً بِيدِ اللهِ، ولا يَمْلِكُ الزرعُ غيرَ طبيعتِهِ، وما كانَ المعتصمُ وهو يريدُ شيخنا على غيرِ رأيهِ وعقيدتِهِ إلا كالأحْمَقِ يقولُ لشجرةِ التفّاحِ: أثْمِري غيرَ التفاحِ.

قال أحمدُ بنُ مسكينٍ: وأخذتُ الرُّقاقتينِ، وأنا أقولُ في نفسي: لَعَنَ اللهُ هذِهِ الدنيا! إنَّ مِنْ هَوانِها على اللهِ أنّ الإنسانَ فيها يَلْبِسُ وَجْهَهُ كما يَلْبِسُ نَعْلَهُ. فلو أنَّ إنساناً كانت له نظرةٌ ملائكيةٌ، ثم اعترضَ الخلقَ ينظُر في وجوهِهِم، لرأى عليها وحولاً وأقذاراً كالتي في نعالِهم، أو أقذرَ، أو

---

(١) كان هذا في سنة (٢١٩) وقد أرادوا الإمامَ العظيم على القول بخلق القرآن، فلم يقل به، فأفتى القاضي ابن أبي دؤاد بقَتْلِه، وشغب عليه، ثم ضرب بين يدي المعتصم، فلما صمَّمَ ولم يجب أطلقه المعتصم، وندم على ضربه[انظر عن محنة خلق القرآن كتاب«أحمد بن حنبل إمام أهل السنة» للمستشار عبد الحليم الجندي (٣٣١ـ٤٤١)]

أقبحَ، ولعلَّه كان لا يرى أجملَ الوجوهِ التي تَشْتَهيمُ الناسَ وتَتَصَبَّاها[1] مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ، إلا كالأحذيةِ العتيقةِ . . .

ولكني أحْسَسْتُ أنَّ في هاتين الرقاقتينِ سِرَّ الشيخِ، ورأيتُهما في يدي كالوثيقتين بخيرٍ كثيرٍ؛ فقلتُ: على بركةِ اللهِ. ومضيتُ إلى داري؛ فلما كنتُ في الطريقِ لقيتني امرأةٌ معها صبيٌّ، فنظرتْ إلى المنديل، وقالت: يا سيدي! هذا طفلٌ يتيمٌ جائعٌ، ولا صبرَ له على الجوع، فأطعمْهُ شيئاً يرحمُك الله. ونظر إليَّ الطفلُ نظرةً لا أنساها؛ حسبتُ فيها خُشوعَ ألفِ عابدٍ يعبدون الله تعالى، منقطعينَ عن الدنيا، بل ما أظنُّ ألفَ عابدٍ يستطيعونَ أن يُرُوا الناسَ نظرةً واحدةً كالتي تكونُ في عينِ صبيٍّ يتيمٍ جائعٍ يسألُ الرحمةَ، إنَّ شدةَ الهمِّ لتجعلُ وجوهَ الأطفالِ كوجوهِ القديسين، في عينِ مَنْ يراها من الآباءِ والأمهاتِ، لَعَجْزِ هؤلاءِ الصغارِ عن الشرِّ الآدميِّ، وانقطاعِهم إلا مِن اللهِ والقلبِ الإنسانيِّ، فيظهرُ وَجْهُ أحدِهم كأنَّه يَصْرُخُ بمعانيه يقول: ياربَّاه يا ربَّاه!

قال أحمدُ بن مسكينٍ: وخُيِّلَ إليَّ حينئذٍ أنَّ الجنةَ نزلتْ إلى الأرضِ تَعْرِضُ نَفْسَها على مَنْ يُشْبِعُ هذا الطفلَ وأمَّهُ، والناسُ عُمْيٌ لا يُبصرونَها، وكأنَّهم يمرونَ بها في هذا الموطنِ مرورَ الحميرِ بقصرِ الملكِ، لو سُئِلتْ فَضَّلتْ عليهِ الإصْطَبلَ الذي هي فيه . . .

وذكرتُ امرأتي وابنَها، وهما جائعانِ مُذْ أمسِ، غيرَ أني لم أجدْ لهما في قلبي معنى الزوجةِ والولدِ، بل معنى هذِهِ المرأةِ المحتاجةِ وطفلِها، فأسقطتُهما عن قلبي، ودفعتُ ما في يدي للمرأةِ، وقلتُ لها: خذي وأَطعمي ابنَك، وواللهِ ما أمْلِكُ بيضاءَ ولا صفراءَ، وإنَّ في داري لَمنْ هو أحوجُ إلى هذا الطعامَ؛ ولولا هذِهِ الخَلَّةُ بي لتقدمتُ فيما يُصْلِحُك.

---

(١) [تستهويها]

فَدَمَعت عيناها، وأشرقَ وَجْهُ الصبيِّ، ولكنْ طمَّ على قلبي ما أنا فيه، فلم أجِدْ للدَّمعةِ معنى الدمعةِ، ولا للبسمةِ معنى البَسْمَةِ.

وقلتُ في نفسي: أما أنا فأطوي إنْ لم أُصبْ طعاماً، فقد كان أبو بكرٍ الصديقُ يطوي ستةَ أيامٍ، وكان ابنُ عُمَر يطوي، وكان فلانٌ وفلانٌ ممَّنْ حفظنا أسماءَهم، وروينا أخبارَهم، ولكنْ مَنْ للمرأةِ وابنِها بمثلِ عَقْدي ونيَّتي؟ وكيفَ لي بهما؟

ومشيتُ، وأنا مُنْكَسِرٌ منقَبِضٌ، وكأنّي كنتُ نسيتُ كلمةَ الشيخِ: «لو أطْعَمْنا أنفسَنا هذا ما خَرَجَت السمكةُ». فذكرتُها، وصرفتُ خاطري إليها، وشَغَلْتُ نفسي بتدبُّرها، وقلتُ: لو أني أشبعتُ ثلاثةً بجوعِ اثنينِ لحُرِمْتُ خمس فضائِلَ[1]، وهذه الدنيا محتاجةٌ إلى الفضيلةِ، وهذه الفضيلةِ محتاجةٌ إلى مثلِ هذا العملِ، وهذا العملُ محتاجٌ إلى أن يكونَ هكذا، فما يستقيمُ الأمرُ إلا كما صنَعْتُ.

وكانت الشَّمْسُ قد انبسطتْ في السماء، وذلك وقتُ الضُّحى الأعلى، فمِلْتُ ناحيةً، وجلستُ إلى حائطٍ أفكِّرُ في بيعِ الدّارِ ومَنْ يبتاعُها، فأنا كذلك إذ مرَّ أبو نصرٍ الصياد، وكأنَّه مُستَطَارٌ فَرحاً، فقال: يا أبا محمد! ما يُجلِسُك هاهنا وفي دارِكَ الخيرُ والغنى؟

قلتُ: سبحان اللهِ! مِنْ أينَ خَرَجَتْ السمكةُ يا أبا نصرٍ؟

قال: إني لفي الطريقِ إلى منزلك، ومعي ضَرورةٌ من القُوتِ أخذتُها لعيالِكَ، ودراهمَ استَدَنتُها لكَ، إذا رجلٌ يَسْتَدِلُّ الناسَ على أبيك، أو أحدٍ من أهلِهِ، ومعه أثقالٌ وأحمالٌ، فقلتُ له: أنا أدلُّكَ. ومشيتُ معه أسألُه عن خبرِهِ، وشأنِه عندَ أبيكَ، فقال: إنّه تاجرٌ مِنَ البصرةِ، وقد كان أبوكَ

---

(١) يريد: جوعَ نفسِهِ، وجوعَ امرأته، وجوعَ ابنِهِ؛ ثم شبعَ هذه المرأةِ، وشبعَ ابنها. فهذه خمسُ فضائل.

أوْدَعَهُ مالاً من ثلاثينَ سنة، فأفلسَ وانكسرَ المالُ، ثم تركَ البصرةَ إلى خُراسانَ، فَصَلَحَ أمرُه على التجارةِ هناك، وأيْسَرَ بعد المِحْنَةِ، واستَظْهَرَبعد الخذلانِ، وأقبلَ جَدُّهُ[1] بالثَّراءِ والغنى؛ فعادَ إلى البصرةِ، وأراد أنْ يتحلَّلَ، فجاءَكَ بالمالِ، وعليه ما كانَ يَرْبَحُهُ في هذه الثلاثينَ سنةً، وإلى ذلك طرائفُ وهدايا.

قال أحمدُ بنُ مسكينٍ: وأنقلبُ إلى داري، فإذا مالٌ جَمٌّ، وحالٌ جميلةٌ! فقلتُ: صدَق الشيخُ لو أطعمنا أنفسَنا هذا ما خرجت السمكةُ! فلو أنّ هذا الرجلَ لم يلقَ في وجهِهِ أبا نصرٍ في هذه الطريقِ في هذا اليوم، في هذه الساعة، لما اهتَدى إليَّ؛ فقد كان أبي مغموراً، لا يعرفُه أحدٌ وهو حيٌّ، فكيفَ بِهِ مَيْتاً من وراءِ عشرين سنةً؟

وآليتُ لَيعلمَنَّ اللهُ شكري هذِهِ النعمةَ؛ فلم تكنْ لي همةٌ إلا البحثَ عَنْ المرأةِ المحتاجةِ وابنِها، فكفيتُهما، وأجريتُ عليهما رزقاً، ثم اتَّجرْتُ في المالِ، وجعلتُ أَرُبُّه[2] بالمعروفِ والصَّنِيعَةِ والإحسانِ، وهو مُقْبِلٌ يزدادُ ولا ينقصُ، حتى تموَّلْتُ وتأثّلْتُ[3].

وكأنّي قد أعجبتني نفسي، وسرّني أنّي قد ملأتُ سجلاتِ الملائكةِ بحسناتي، ورجوتُ أنْ أكونَ قد كُتبتُ عندَ اللهِ في الصالحينَ، فنمتُ ليلةً، فرأيتُني في يومِ القيامةِ،والخَلْقُ يموجُ بعضُهم في بعضٍ، والهولُ هولُ الكونِ الأعظمِ على الإنسانِ الضعيفِ، يُسْألُ عَنْ كلِّ ما مَسَّهُ من هذا الكونِ. وسمعتُ الصائحَ يقولُ: يا معشرَ بني آدم! سَجَدْت البهائمُ شكراً للهِ أنّه لم يجعلْها من آدم.

---

(١) [حظه]

(٢) [أنمّيهِ]

(٣) [التأثل اتخاذ أصل المال]

ورأيتُ الناسَ وقد وُسّعتْ أبدانُهم، فهم يَحمِلُون أوزارَهم على ظُهورِهم مخلوقةً مجسَّمةً، حتى لكأنَّ الفاسقَ على ظهرِه مدينةٌ كلُّها مُخْزِياتٌ!

وقيل: وُضِعَتْ الموازينُ، وجيءَ بي لِوزْنِ أعمالي، فَجُعلتْ سيئاتي في كفَّةٍ، وألقيتْ سجلاّتُ حسناتي في الأُخرى، فطاشتْ[1] السجلاتُ، ورَجَحَتْ السيئاتُ، كأنَّما وزنوا الجبلَ الصخريَّ العظيمَ الضخمَ بلُفافةٍ من القُطْنِ..

ثم جعلوا يُلْقَون الحسنةَ بعدَ الحسنةِ مما كنتُ أصْنَعُهُ، فإذا تحتَ كُلِّ حسنةٍ شهوةٌ خفيةٌ من شهواتِ النفسِ؛ كالرِياءِ والغرورِ وحُبِّ المحْمَدةِ عندَ النّاسِ وغيرِها، فلم يَسْلمْ لي شيءٌ، وهلكتْ عني حُجَّتي، إذ الحجةُ ما يُبيِّنُهُ الميزانُ، والميزانُ لم يدلَّ إلا على أنّي فارغٌ.

وسمعتُ الصوتَ: ألم يبقَ له شيءٌ؟ فقيل: بقيَ هذا.

وأنظرُ لأرى ماهذا الذي بقيَ، فإذا الرقاقتان اللتان أحسنتُ بهما على المرأةِ وابنِها! فأيقنتُ أنّي هالِكٌ؛ فلقد كُنْتُ أُحْسِنُ بمئةِ دينارٍ ضَرْبةً واحدةً، فما أغنتْ عنّي. ورأيتُها في الميزانِ مع غيرِها شيئاً معلَّقاً، كالغمامِ حِيْنَ يكونُ ساقطاً بين السماءِ والأرضِ: لا هُو في هذِهِ ولا هو في تِلْكَ.

ووُضِعَتْ الرقاقتان، وسمعتُ القائِلَ: لقد طارَ نِصْفُ ثوابهما في ميزانِ أبي نصرٍ الصيادِ. فانخذَلْتُ انخذالاً شديداً، حتى لو كُسِرْتُ نصفينِ لكانَ أخفَّ عليَّ وأهونَ، بيْدَ أني نظرتُ، فرأيتُ كفَّةَ الحسناتِ قد نزلتْ منزِلةً، ورَجَحَتْ بعضَ الرُّجحانِ.

---

(١) [خفت]

وسمعتُ الصوتَ: ألم يبقَ له شيءٌ؟ فقيل: بقي هذا.

وأنظرُ ما هذا الذي بقيَ، فإذا جوعُ امرأتي وولدي في ذلك اليوم! وإذا هو شيءٌ يُوضعُ في الميزانِ، وإذا هو ينزِلُ بكفَّةٍ، ويرتفعُ بالأخرى، حتى اعتدلتا بالسَّويَّةِ. وثبَتَ الميزانُ على ذلك، فكنتُ بين الهلاكِ والنَّجاةِ.

وأسمعُ الصوتَ: ألم يبقَ له شيءٌ؟ فقيل: بقي هذا.

ونظرتُ فإذا دموعُ تلكَ المرأةِ المسكينةِ حين بكتْ مِنْ أثرِ المعروفِ في نفسِها، ومِنْ إيثاري إياها وابنَها على أهلي. ووُضعَتْ غَرْغَرَةُ عينيها في الميزان، فَفَارَتْ، فطمَّتْ، كأنها لُجَّةٌ، مِنْ تَحْتِ اللُّجَّةِ بَحْرٌ؛ وإذا سمكةٌ هائلةٌ قد خرجتْ من اللُّجةِ، وقعَ في نفسي أنّها رُوْحُ تلكَ الدموعِ، فجعلتْ تَعْظُمُ، ولا تزالُ تَعْظُمُ، والكفَّة ترجَحُ، ولا تزالُ ترجَحُ، حتى سمعتُ الصوتَ يقولُ: قد نجا!

وصِحْتُ صيحةً انتبهتُ لها، فإذا أنا أقولُ: «لوأطعمنا أنفسَنا هذا ماخرجتِ السمكةُ!»[1].

* * *

(١) [نشرت في «الرسالة» السنة الرابعة (١٩٣٦) العدد (١٣٧)]

الزاهــدان

٢

قالَ أحمدُ بنُ مسكين: انتشَرَ حديثُ السَّمَكَة في أَهْلِ بَلْخٍ واستفاضَ بينَهُم، وكنتُ قصَصْتُهُ عليهم يومَ السَّبْتِ، فلما دارَ السَّبْتُ من أسبوعهِ، لَقيني شيخُهُم حاتمُ بنُ يوسفَ لقمانُ الأُمَّة، ومعه صاحبُه أبو ترابٍ، فقال: يا أحمدُ! لكأنَّكَ في هذهِ المدينة قمرٌ طَلَعَ بليْلٍ، فلا يعظُ الناسَ في يومِ السَّبتِ غيرُك؛ ومَنْ سَمِعَ فكأنَّهُ عاينَ، وليسَ على ألسنةِ أهلِ بَلْخٍ منذُ تحدثتَ إلا بِشْرٌ وابنُ حنبل، ولا على بالِ أحدٍ منهم إلا موعظَتُكَ وحديثُكَ.

والكلامُ عنِ الصّالحينَ في مثلِ ما وصفتَ وحكيتَ قُرْبٌ من حقائقِهم، وسمُوٌّ إلى معانيهِم؛ وليسَ في القولِ بابٌ له موقعٌ كموقعِ القِصَّةِ عن هؤلاءِ الذين يَخْلُقُهُم الله في البشريةِ خَلْقَ النُّورِ: يُضيءُ ما حولَه من حيثُ يُرى، ويَعْمَل فيما حولَه مِنْ حيث لايُرى، وفي ظاهرهِ الجمالُ والمنفعةُ، وفي باطنهِ القوةُ والحياةُ. ولستُ أقولُ لكَ: اذهبْ فحدِّثِ الناسَ، ولكني أقولُ: اذهبْ فأعطِ النّاسَ عقلاً من الحديثِ.

قال ابنُ مسكينٍ: فلمّا صلينا العَصْرَ، قدَّمني أبو ترابٍ، فجلستُ في مجلسي ذاك، وهتَفَ بي الناسُ يريدونَ الحديثَ عن بشْرٍ الحافي، وما سَقَطَ لي من أخبارهِ، على الطريقةِ التي حدثتُهُم بها مِنْ قَبْلُ، فابتدأتُ بذكرِ

موتهِ رحمَهُ اللهُ، وأنّ يومَه كأنمَا اجتمعَ لهُ أهلُ خمسٍ وسبعينَ سنة[١]، إذ خرجتْ جنازتُه بعدَ صلاةِ الصُّبْحِ، فلم يحصلْ في قبرِه إلا في الليلِ، مما احتشدَ في طريقهِ من الخَلْقِ، حتّى لكأنَّ في نَعشهِ سِراً من أسرارِ الجنةِ، يطالعُهُم بهِ الموتُ، فخرجُوا ينظرونَ إليهِ، وكانوا يَصيْحُوْنَ في جنازتهِ: هذا واللهِ شَرفُ الدنيا قبل شَرَفِ الآخرةِ.

* * *

ثم قلتُ: حدَّثني حسينٌ المغازلي[٢]: أنّ بِشراً رحمهُ الله كان لا يأكلُ إلا الخبزَ تورُّعاً عن الشبهاتِ، واكتفاءً لضرورةِ الحياةِ بالأقلِّ الأيْسَرِ، وكانَ يقولُ في ذلِكَ: يدٌ أقصرُ من يدٍ، ولقمةٌ أصغَرُ من لقمةٍ

وسئل مرةً: بأي شيءٍ تأكلُ الخبزَ؟.

فقال: أذكرُ العافية فأجعلُها إداماً.

وقد أعانَهُ على ذَلِكَ أنَّه لم يتزوَّجْ، وكان يَرى هذا نَقْصاً في نفسهِ، حتى فضَّل الإمامَ أحمدَ بن حنبل بأشياءَ: منها أنّ له أهلاً؛ غير أنّه قِيْلَ له ذاتَ يومٍ: لو تزوجتَ تَمَّ نُسُكُكَ[٣]. فقال: أخافُ أنْ تقومَ الزوجةُ بحقي، ولاأقومُ بحقِّها. فكانَتْ هذه النيةُ في نفسهِ أفضلَ من زواجِه[٤].

وكان مع هذا لا يؤاكلُ أحداً، ولا يسعى إلى لقاءِ أحدٍ، حتّى إنّه لمّا رغبَ في مؤاخاةِ الزاهدِ العظيمِ معروفٍ الكرَخي، أرسلَ إليه الأسودَ بنَ سالم، وكان صديقاً لهما، فقال لمَعروفٍ: إنّ بشرَ بنَ الحارثِ يريدُ

---

(١) مات رحمة الله عن خمسٍ وسبعينَ سنةً.

(٢) نسبةً إلى عمل المغازل، وكان حسينٌ هذا صديقاً لبشر، وكان بشرٌ يعمَلُ المغازِلَ، ويعيشُ من ثمنها، ومن كلامه لابن أختِه عمر: يا بني! اعمل بيدِكَ؛ فإنَّ أثَره في الكفين أحسنُ من أثرِ السجدةِ بين العينينِ. هكذا كانوا رحمهم الله.

(٣) [النسك: العبادة]

(٤) [انظر قصة رؤيا من السماء ص (١٢٤)].

مؤاخاتك، وهو يستحي أن يُشافِهك بذلكَ، وقد أرسلني إليكَ يسألُكَ أنْ تَعْقد له فيما بينَه وبينَكَ أخُوَّةً يَحتسِبُهَاويعتدُّ بها؛ إلا أنَّه يشترِطُ فيها شروطاً: أولُها: أنّه لا يحبُّ أن يشتهر ذلك، وثانيها: ألا يكونَ بَيْنكَ وبينَهُ مُزاوَرَةٌ ولا مُلاقاةٌ.

فقال معروف: أما أنا فإذا أحببتُ أحداً لم أحب أن أفارقه ليلاً ولا نهاراً، وأزورُه في كلِّ وقتٍ، وأوثرهُ على نفسي في كلِّ حالٍ؛ وأنا أعْقِدُ لبشر أخوةً بيني وبينه، ولكني أزورُه متى أحببتُ، وآمُرُه بلقائي في مواضع نلتقي فيها إذا هو كره زيارتي.

قال حسينٌ المغازلي: وكان هذا كلُّه من أمر بشرٍ معروفاً في بغداد، لا يجهلُه أحدٌ من أهلِها، إذ لم يكن لبغدادَ إمامٌ غيرُه وغيرُ ابن حنبل؛ فما كان أكثر عجبي حين كنتُ عنده يوماً، وقد زاره فَتْحٌ المَوْصِلي، فقامَ فجاءَ بدراهِمَ ملءَ كفِّه، ودفعها إليّ وقال: اشترِ لنا أطيبَ ما تَجِدُ من الطعامِ، وأطيبَ ما تَجِدُ من الحلوى، وأطيبَ ما تَجِدُ من الطِّيْبِ. وما قال لي مثل ذلك قط، وهو الذي رأى الفاكهةَ يوماً فقال: تَرْكُ هذهِ عبادةٌ! وهو القائِلُ لأبي نصرٍ الصياد: لو أطعمنا أنفسَنا هذا ما خرجت السمكةُ[1].

فذهبتُ، فاشتريتُ، وانتقيتُ، وتخيَّرتُ، ثم وضعتُ الطعامَ بين أيديهمَا، فرأيتُه يأكلُ معه، وما رأيتُهُ أكلَ مع غيره، ورأيتُهُ منبسطاً إليه، وما لي عهدٌ كان بانبساطه إلى أحدٍ. وقد كنتُ أخبرتُه في ذلك النهارِ بخبرِ أحمدَ بن حنبل، علمتهُ من إدريسَ الحدادِ: فإنَّه لما زالت المحنةُ بعدَ أن ضُرِبَ بين يدي المعتصم، وصُرفَ إلى بيته، حُمِلَ إليه مالٌ كثيرٌ مِنْ سَرَواتِ بغدادَ وأهلِ الخيرِ فيها، فردَّ جميعَ ذلك، ولم يقبلْ منه قليلاً ولا كثيراً، وهو محتاجٌ إلى أيسره، وإلى الأقلّ من أيسره، وإلى الشيءِ من

(١) مرَّ هذا في مقال «السمكة» ص (٢١٨) من هذا الكتاب.

أقلَّه، فجعلَ عمُّه إسحاقُ يَحسُبُ ماوردَ ذلك اليوم، فكان خمسينَ ألف دينارٍ، فقالَ له الإمامُ: يا عمّ، أراكَ مشغولاً بحسابِ ما لايفيدُك. قال: قد رددتَ اليومَ كذا وكذا ألفاً، وأنتَ محتاجٌ إلى حبةٍ من دانقٍ[1]. فقال الإمام: يا عم، لو طلبناه لم يأتِنا، وإنما أتانا لمّا تركناهُ.

* * *

قال المغازلي: فنمتُ تلكَ الليلة، وأنا أفكّرُ في صنيعِ الشيخِ، وقد تعلّقَ خاطري بهِ: كيفَ انقلبتْ الحالُ معهُ، وأيُّ شيءٍ هذه الحالُ؟ وجعلتُ أكدُّ ذهني لأعرفَ الحقيقةَ العقليةَ التي سَلّطتْ عليهِ هذه الضرورة، فتسلَّط النعيمُ على نفسهِ، وأنا أعلمُ أنّ للقومِ علوماً روحانيةً لَيْسَتْ في الكتبِ، فمنها مالا يتعلَّمونه إلا من الفقرِ، ومنها ما لا يتعلّمونهُ إلا من البلاءِ، ومنها، ومنها، ولكنْ ليسَ منها ما يتعلَّمونَه من اللذاتِ والشهواتِ، وذهبَ قلبي إلى أوهامٍ كثيرةٍ ليس في جميعِها طائلٌ، ولابها معرفةٌ، حتى غلبتْني عينايَ، وأنا مِنْ وهَجِ الفكرِ نائمٌ كالمريضِ، وقد ثقُلَ رأسي، واختلطَ فيه ما يعقل بما لا يُعقَلُ.

فرأيتُ أولَ ما رأيتُ مَلِكاً جباراً، يحكُمُ مدينةً عظيمةً، وقد أطلقَ المنادي في جَمْعِ كلِّ أطفالِ مدينتهِ، فجيءَ بهم مِنْ كلِّ دارٍ، ثم رأيتُهُ قد جلسَ على سريره، وفي يده مِقراضٌ عظيمٌ، قد اتخذه على هيئة نَصْلَيْن عريضَيْن، لو وُضعتْ بينهما رقبةٌ لفصلاها عن جسمِها؛ فكانَ هذا الجبارُ يتناولُ الطِفْلَ مِنْ أولئك، فيضعُ أصابع إحدى قدميه في شقيِّ المقراضِ فيقرضُها، فإذا هي تتناثرُ أسرعُ مما يقرِضُ المقَصُّ الخيطَ، ثم يرمي بالطفلِ مغشياً عليهِ، ويتناولُ غيره، فيبتُرُ أصابعه، والأطفالُ يصرخونَ، وأنا أرى كلَّ ذلكَ، ولا أملكُ إلا غيظي على هذا الجبارِ مِنْ حيثُ لا

---

(١) [سدس الدرهم].

استطيعُ أن أمضي فيه هذا الغيظ، فأقْرِضَ عنقَه بمقراضِهِ.

ثم رأيتُه يأخذُ طفلاً صغيراً، فلما جاءَتْ قدمُ الطفلِ بين شقَّي المقراضِ صاحَ: ياربِّ، ياربِّ. فإذا المقراضُ يلتوي، فلا يَصْنَعُ شيئاً، وكأنَّ فيه حَجَراً صَلْداً لاقَدماً رَخْصَةً[1]. فتميَّزَ الجبارُ من الغيظِ، وقال: من هذا الطفلُ؟ فسمعتُ هاتِفاً يهتِفُ: هذا بشرُ الحافي! لا يبلغُ تاجُ مَلِكٍ في الأرضِ أن يكونَ لقدمِهِ الحافيةِ نعلاً عند اللهِ!

وكان إلى يميني رجلٌ يتَوَضأُ وجهُهُ صلاحاً وتقوى، فقلتُ له: من هذا الطاغيةُ؟ ولم اتخذَ المقراضَ لأقدامِ الأطفالِ خاصةً؟

فقال: يا حسينُ! إن هذا الجبارُ هو ذُلُّ العيشِ، وهذا وَسْمهُ لأهلِ الحياةِ على الأرض، يحققُ به في الإنسانِ معنى البهيمةِ أول ما يدبُّ على الأرضِ، حتى كأنَّهُ ذو حافرٍ لا ذو قدمٍ.

قلتُ: فما بالُ هذا الطفلِ لم يعملْ فيه المِقْراضُ؟

قال: إنَّ للهِ عباداً استخصَّهم لنفسِه، أولُ علامتِهِ فيهم أنَّ الذلَّ تحتَ أقدامِهِم، وهم يجيئونَ في هذه الحياةِ لإثباتِ القدرةِ الإنسانيةِ على حُكْمِ طبيعةِ الشهواتِ التي هي نفسُها طبيعةُ الذُّلِ؛ فإذا اطرحَ أحدُهم الشهوات، وزَهِدَ فيها، واستقامَ على ذلك في عَقْدِ نيةٍ، وقوة إرادةٍ، فليسَ ذلك بالزاهدِ كما يصفُهُ النّاسُ، ولكنَّهُ رجلٌ قويٌّ، اختارته القدرةُ ليحملَ أسلحة النَّفْسِ في معارِكِهَا الطاحنةِ، كما يَحْملُ البطلُ الأروعُ أسلحةَ الجسمِ في معاركِهِ الداميةِ: هذا يُتَعلَّمُ منه فنٌّ، وذاك يُتَعلَّمُ منه فنٌّ آخر، وكلاهما يُرمَى به على الموتِ لإيجادِ النوعِ المستعزِّ من الحياةِ، فأولُ فضائِلِهِ الشعورُ بالقوةِ، وآخرُ فضائِلِهِ إيجادُ القَوةِ.

* * *

---

(١) [لينة ناعمة]

قال المغازلي: وضَربَ النومُ على رأسي ضربةً أخرى، فإذا أنا في أرضٍ خبيثةٍ داخِنَةٍ، قد ارتفعَ لها دُخانٌ كثيفٌ أسودُ، يتضرَّبُ بعضُهُ في بعضٍ، وجعلتُ أرى شُعَلاً حُمْراً، تذهبُ وتَجْيءُ، كأنَّها أجسامٌ حيةٌ، فوقع في وهمي أنَّ هؤلاءِ هم الشياطينُ: إبليسُ وجنودُهُ، وسمعتُ صارخاً يقول: يا بُشرى! فلتبْكِ السماءُ على الأرضِ، لقد أكلَ بشر الحافي من أطيبِ الطعامِ، وأطيبِ الحلوى، بعدَ على أن استوى عِنْدَهُ حَجَرُها ومَدَرُها، وذهبُها وفضَّتُها! فعارضَه صائحٌ أسمعُ صوتَه ولا أرى شخصَهُ: ويلك يا زَلَنْبورُ[1] ! إنّ هذا شرٌّ علينا مِنْ عامَّةِ نُسُكِهِ وعبادتِهِ؛ فهذا ويحَكَ هو الزهدُ الأعلى، الذي كان لا يطيقهُ بشرٌ؛ إنّه إعناتٌ سلَّطه على نفسِهِ، فإني دفعتُ هذا المغَازليَّ الأعمى القَلْبِ، ليزَيّنَ له ما فَعَلَ أحمدُ بنُ حنبل من ردِّهِ خمسينَ ألف دينارٍ على حاجتهِ، زهداً وورعاً، وقوةَ عزمٍ، ونفاذَ إرادةٍ؛ وقلتُ: عسى أن تتحرَّكَ في نفسِه شهوةُ الزُّهْدِ، فَيَحْسُدَ أو يَغارَ، أو تُعْجِبَهُ نفسُه فيكون لي من ذلك لَمَّةٌ بقلبهِ فأوَسْوسُ لهُ، فإنَّا نأتي هؤلاءِ من أبوابِ الثواب، كما نأتي غيرَهم من أبواب المعاصي، ونتورَّعُ مع أهلِ الورعِ كما نَتَسخَّفُ مع أهلِ السُّخفِ؛ ولكنَّ الرجلَ رجلٌ، وفيه حقيقةُ الزاهدِ، فقد أُعْطِيَ القوةَ على جعلِ شهواتِ نفسه أشخاصاً حيةً يعادِيها ويقاتُلها، فإذا أنا جعلتُ شهوتَه في اللذةِ قتل اللذةَ، وإذا جعلتُها في الكآبةِ قتلَ الكآبةَ، وليس الزاهدُ العابدُ هو الذي يتقشَّفُ ويتعفَّفُ، ويتخفَّفُ ويتلفَّفُ، فإنَّ كثيراً ما تكونُ هذه هي أوصافَ الذلِّ والحُمْقِ، ويكونُ لها عملُ العبادةِ، وفيها إثمُ المعصيةِ، ولكنَّ الزاهدَ حقَّ الزاهدِ مَنْ أدارَ في هذهِ الأشياء عيناً، قد تعلَّمَت النظرَ بحقِهِ، والإغضاءَ بحقهِ؛ فهذا لا يُخْطىءُ معنى الشَّرِّ إنْ لبساهُ عليه في صورةِ الخيرِ، ولامعنى الخيرِ إنْ

---

(١) هذا اسم بعضِ وُلَدِ إبليسَ فيما يُروَى، وفي بعض النُّسَخِ التي بأيدينا أنّه خنزبٌ لا زلنبور. . .

زوَّرناه في صورةِ الشَّرِّ، وبذلك يضعُ نفسه في حيثُ شاءَ من المنزلةِ، لا في حيثُ شاءَتِ الدنيا أنْ تضعَهُ من منازلِها الدنيئةِ.

وما أكلَ بشرٌ هذه الطيِّباتِ إلا ليُبادِرَ بها وسوستي، ويردَّني عن نفسه، وعن اللَّمَّةِ بقلبِهِ، فلو أنَّهُ أعجبَهُ زهدُ ابنِ حنبل، ونظر من ذلك إلى زهدِ نفسِهِ لحبطَ أجرُه؛ فبهذِه الطيباتِ عالجَ نفسَه علاجَ مريضٍ، وقد غيَّرَ على جوفهِ طعاماً بطعامٍ، كما يبدِّلُ على جلدِهِ ثوباً بثوبٍ؛ ولا شهوة للجلدِ في أحدِهما.

* * *

قال المغازليُّ: وثقُلَ النومُ عليَّ ثقلةً أخرى، فرأيتُني في وادٍ عظيمٍ، وفي وَسَطِهِ مثلُ الطَّوْدِ من الحجارة، قد رُكِمَ بعضُها على بعضٍ؛ ورأيتُني مع بشرٍ أقصُّ عليه خبرَ أحمدَ بن حنبل؛ فقال: انظر ويحَكَ؛ إنَّ النَّاسَ يسمونها خمسينَ ألفَ دينارٍ، وهي هنا في وادي الحقائقِ خمسونَ ألفَ حجرٍ، لو أصابَتْ أحمدَ لقتلتهُ، ولكانَتْ قبرَه آخرَ الدَّهرِ.

إنَّ المالَ يا بنيَّ هو ما يعملُهُ المالُ لا جوهرةُ مِنْ الذَّهبِ والفضةِ، فإذا كنتَ بِمفَازةٍ، ليس فيها مَنْ يبيعُكَ شيئاً بذهبِكَ، فالترابُ والذهبُ هناكَ سواءٌ؛ والفضائلُ هي ذهبُ الآخرةِ؛ فهنا تُجدِّدُ بالمالِ دنياك التي لا تبقى أكثر مِنْ بقائِكَ، وهناك تجدِّدُ بالفضائلِ نفسَكَ التي تخلُدُ بخلودها.

ومعنى الغنى معنى مُلْتبسٌ على العقولِ الآدمية، لاجتماعِ الشهوات فيهِ، فحينَ يردُّ أحمدُ بن حنبل خمسين ألفاً، يكونُ هذا المعنى قد صَحَّحَ نفسَه في هذا العمل وَجْهاً من التَّصْحيْح.

* * *

قال حسينٌ المغَازِليُّ: وغطَّني النومُ في أعماقِهِ غطَّةً أُخرى؛ فإذا أنا في المسجدِ في دَرْسِ الإمام أحمدَ، وهو يحدِّثُ بحديثِ النبيِّ ﷺ: «إذا عَظَّمتْ أمتي الدينارَ والدِّرْهَمَ، نُزِعَ منها هيبةُ الإسلامِ؛ وإذا تَرَكُوا

الأمرَبالمعروفَ والنَّهيَ عن المُنكرِ حُرِمُوا بركةَ الوحي»[١] وهمَّ أن يتكلَّمَ في تفسيره[٢]، ولكنَّهُ رآني فأمسك عَنْهُ، وأقبلَ عليَّ، فقال: يا حسينُ! إذا اجْتَزأ شيخُك بالرغيفِ، فهذا عندَهُ هو قدرُ الضرورةِ؛ فإنْ أكلَ الطيباتِ، فقد عَرَضَتْ حالٌ جَعلتْ هذه الطيباتِ عندَهُ هي قدْرُ الضرورةِ؛ وفي هذهِ النفوسِ السماويةِ لايكونُ الجزءُ الأرضيُّ إلا محدوداً، فلا يكونُ محصولُه إلا ما ترى مِنْ قَدْرِ الضرورةِ.

ولما صَغُرَ الجزءُ الأرضيُّ في نفوسِ المسلمينَ الأولينَ مَلكوا الأرضَ كلَّها بقوةِ الجزءِ السماويِّ فيها، إذ كانتْ إرادتُهم فوقَ الأطماعِ والشهواتِ، وكانَتْ بذلك لا تَذِلُّ، ولا تَضْعُفُ ولا تَنْكَسِرُ؛ فالآدميةُ كلُّها تنتهي إلى بعضِ صُوَرٍ، وهؤلاءِ هم الذين محلُّهُم في أعلاها.

يا حسينُ! ألا وإنّ ردَّ خمسينَ ألف دينارٍ هو كذلك قَدْرُ الضرورة.

قال حسينُ: وذهبتُ أعترضُ على الإمام بما كان في نفسي مِنْ أنَّ هذا المالَ، وإنْ لم يَكُنْ مِنْ كَسبِهِ، فقد كان يتحوَّلُ في يدهِ عملاً من أعمالِ الخير؛ وأُنسيتُ أنَّ هذه الصَّدقات هي أوساخُ النّاسِ وأقذارُ نفوسِهم؛ فلم أكَدْ أفْتَحُ فمي، حتّى رأيتُ الكلامَ يتحوَّلُ طيناً في فمي ليذكِّرَني بهذا المعنى؛ وكِدْتُ أختَنِقُ، فانتفضْتُ أتنفَّسُ، فطارَ النومُ والحلمُ[٣].

* * *

(١) [أخرجه الحكيم الترمذي عن أبي هريرة، وهو حديث ضعيف، انظر الأحاديث الضعيفة رقم (٢٥٧٨)]

(٢) سيأتي تفسيرُه في مجلسٍ آخرَ من مجالسِ ابنِ مسكين ص (٢٤٧).

(٣) [نشرت في «الرسالة» السنة الرابعة (١٩٣٦) العدد (١٣٨)]

إبليسُ يعلّم. . .(١)

٣

قال أحمدُ بنُ مسكين: ودار السبتُ الثالثُ، وجلستُ مجلسي للنّاسِ، وقد انتظمتْ حلَقَتُهُم؛ فقام رجلٌ من عُرْض المجلسِ، فقال: إنَّ الحسنَ بن شُجاعٍ البلخيَّ تلميذُ الإمامِ أحمدَ بن حنبل(٢)، كان منذُ قريبٍ يحدِّثُنا بأحاديثَ عن الشيطانِ، حفظنا منها قوله ﷺ: «إنَّ المؤمنَ يُنْضي شيطانَه كما يُنْضِي أحدُكم بعيرَه في سفرِه.»(٣) وكان الحسنُ يقول في تأويلهِ: إنّ شيطانَ الكافرِ دَهِيْنٌ سمينٌ كاسٍ، وشيطانُ المؤمنِ مهزولٌ أشعثُ أغبرُ عارٍ. فهل يأكلُ الشيطانُ ويدَّهنُ ويَلْبَسُ ليكونَ له أنْ يَجُوعَ مع المؤمنِ ويعرَى ويَتَشَعَّثَ ويغبرَّ؟

قال ابنُ مسكينٍ: فقلتُ في نفسي: لا حَوْلَ ولا قوّةَ إلا باللهِ! ما أرى السائلَ إلا شيطانَ هذا السائل؛ فإنّ إبليسَ إذا أرادَ أنْ يسْخَرَ من العالمِ

---

(١) انظر الفصلين السابقين.

(٢) توفي ابن شجاع هذا سنة ٢٤٤هـ، وكان من حفاظ بلخ.

(٣) [أخرجه أحمد(٢: ٣٨٠) والحكيم الترمذي وابن أبي الدنيا في «مكايد الشيطان. . .» عن أبي هريرة رضي الله عنه: وهو حديث ضعيف انظر«الأحاديث الضعيفة» رقم (٣٢١٦) قوله (أنضى بعيره) أهزله]

ويُسمعهُ طَنْزَه[١] وتهكمَه، حرَّكَ من يسألهُ عنهُ، ما هو، وكيفَ هُوَ؛ كأنمّا يقولُ له: تَنبَّهْ وَيْحَكَ على معناي، فأنتَ تتكلَّمُ، وأنا أعملُ، وأنتَ صورةٌ من الردِّ عَلَيَّ، ولكنّي حقيقةٌ من الرَّد عليكَ، وما أنتَ في محاربتِكَ لي بالوعْظِ إلا كالذي يريدُ أن يَضْرِبَ عُنُقَ عدوِّهِ بمئةِ اسمٍ وُضِعَتْ للسيفِ...

* * *

قالَ: وكنتُ قد سمعتُ خبراً عجيباً عن أبي عامر قبيصةَ بن عُقْبَةَ الكوفي المحدِّث الحافظِ الثقةِ أحدِ شيوخِ أحمدَ بن حنبل[٢]؛ وهو الرجلُ الصالحُ العابدُ الذي كانَ يُقال لهُ: راهبُ الكوفةِ؛ منْ زهدِه وعبادتهِ واحتباسِ نفسـهِ في داخلِه، كأنّما جَسَدُهُ جدارٌ بينَ نفسـهِ وبينَ الدنيا، فقلتُ: واللهِ لأُغيْظَنَّ الشيطانَ بهذا الخبر، فإنَّ أسماءَ الزهَّادِ والعُبَّادِ والصالحينَ هي في تاريخِ الشياطينِ كأسماءِ المواقعِ التي تَنهزِمُ فيها الجيوشُ، وما الرَّجُلُ العابدُ إلا صاحبُ الغَمَراتِ مع الشيطانِ، وكأنَّهُ يحتمِلُ المكارِهَ عنِ أُمّةٍ كاملةٍ؛ بل عَنِ البشريةِ كلِّها، حيثُ كانَتْ مِنَ الأرضِ، فالناسُ يحسبونَهُ قد تخلّى من الدنيا، ويظنونَ التَرْكَ أيسرَ شيءٍ، وما عَلِمُوا أنَّ الزُّهْدَ لا يستقيمُ للزَّاهِدِ حتى يجعلَ جِسْمَهُ كأنّهُ في نظامٍ آخرَ غير نظامِ أعضائهِ؛ ولا أشقَّ مِنْ ذلك على النفس. ومعجزةُ الزَّاهِدِ أنَّهُ مكلَّفٌ أنْ يُخْرِجَ للناسِ أقوى القوةِ من المعاني التي هي عندَ النّاسِ أضعفُ الضَّعْفِ؛ ولو أنَّ مَلِكاً عظيماً تَعِبَ في جمعِ الدنيا وفتحِ الممالكِ، حتى حِيزَتْ له جوانبُ الأرضِ، لكانَ عملُهُ هذا هو الوجهُ الآخرُ لِتَعَبِ الزاهدِ في مُجاهَدَةِ هذِهِ الدنيا وتركِها.

---

(١) الطنز: التهزُّؤ والتهكُّم، ولعل منه كلمة (طظ) عند العامة.

(٢) توفي سنة (٢١٥)هـ.

قال أحمدُ بنُ مسكينٍ: وقَصَصْتُ عليهم القصةَ فقلتُ: كان أبو عامرٍ قبيصةُ بن عُقبةَ كثيرَ الفكرِ في الشيطانِ، يَودُّ لو رآهُ، وناقلَه[١] الكلامَ؛ وكان يتدبَّرُ الأحاديثَ التي صحَّ ورودُها فيه، ويفسِّرُ معنى الشيطانِ بأنَّه الروحُ الحيُّ للخطأِ على الأرض؛ والخطأُ يكونُ صواباً محوَّلاً عن طريقتِهِ وجهتِهِ، ولهذا كان إبليسُ في الأصلِ ملَكاً من الملائكةِ، وتحوَّلَ عن طبيعتِهِ حينَ خُلِقَ آدمُ عليه السلام، أي وُجِدَ في الكونِ روحُ الخطأِ حينَ وُجِدَ فيه الروحُ الذي سيُخْطِىءُ.

فلما هبطَ آدمُ من الجنةِ، وحُرِمَها هو وزوجُه وذرّيتُه، كان إبليسُ لعنه الله هو معنى بقاءِ هذا الحرمانِ، واستمراره على الدهرِ، فكأنَّ هذه الآدميةَ أُخرجَتْ من الجنةِ، وأُخرجَتْ معها قوةٌ لا تزالُ تَصُدُّها عنها، ليضطربا في الكفاح مَلِيًّا من زمنٍ هو عُمر كلِّ إنسانٍ، وهذا هو العدلُ الإلهيُّ؛ لم يَعرِفْ آدمُ حقَّ الجنةِ، فَعُوقِبَ ألا يأخذَها إلا بحقِّها، وأنْ يقاتلَ في سبيلِ الخيرِ قوةَ الشَّرِّ.

وباتَ أبو عامرٍ ذاتَ ليلةٍ يفكِّرُ في هذا ونحوهِ بعدَ أنْ فَرَغَ من صلاتهِ وقراءتهِ، ثم هَوَّمَ، فكانَ بينَ اليقظةِ والنَّوْمِ، وذلكَ حينَ تكونُ العينُ نائمةً والعقلُ لا يزالُ مُنْتبهاً، فكأنَّ العينَ متراجِعةٌ تُبْصِرُ مِنْ تحتِ أجفانِهَا بَصَراً يُشارِكُها فيه العَقْلُ.

فرأى شيخُنا أبو عامرٍ صورةَ إبليس جاءهُ في زيِّ رجلٍ زاهدٍ، حسَنِ السَّمْتِ، طيِّبِ الرِّيحِ، نظيفِ الهيئةِ، وكادَ يُشبَّهُ[٢] عليه، لولا أنّه قَدْ عَرَفَهُ من عَيْنَيْهِ، فإنَّ عينيْ الكاذبِ تصدُقانِ عنهُ، وقد عَلِمَ اللهُ أنَّ الكاذبَ آدميٌّ قفرٌ كالمتَاهَة من الأرضِ، فجعلَ عينيه كالعلامات لِمَنْ خاضَ الفلاةَ.

---

(١) [حدثه وحدثك]

(٢) [شبَّه عليه: اختلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره]

وظهرَ الشيطانُ زاهِداً عابداً تقياً نقياً، كأنّه دينٌ صحيحٌ خُلقَ بَشراً، فصرَخَ فيه أبو عامرٍ: عليك لعنةُ اللهِ! أمعصيةٌ في ثوبِ الطاعةِ؟

قال إبليسُ: يا أبا عامرٍ! لو لم تَقُلِ المعصيةُ إنّها طاعةٌ لم يُقارِفْها[1] أحدٌ، وهل خُلِقَت الشهواتُ في نفسِ الإنسانِ وغريزتِهِ إلا لتقريبِ هذه المعاصي مِنَ النفس، وجَعْلِ كُلٍّ منها طاعةً لشيءٍ ما؛ فتقعُ المعصيةُ بأنّها طاعةٌ، لابأنّها معصيةٌ؟ أوَ لا ترى يا أبا عامرٍ أنَّ الحيلةَ مُحَكَّمةٌ في الداخلِ من الجسم أكثرَ مما هي مُحكَّمَةٌ في الخارجِ عنه، وأنّه لولا أنّ هذا الباطنَ بهذا المعنى وهذا العَمَلِ لما كان لظاهرِ الوجودِ كلِّه في الإنسانِ معنى ولا عملٍ؟

قال الشيخُ: عليكَ لعنةُ اللهِ! فما أرى الموتَ قد خُلقَ إلا ردًّا عليك أنتَ، ليتبيَّنَ الناسُ أنّكَ المُمْتَلىءُ الممتلِىُء، ولكنّكَ الفارغُ الفارغُ؛ بل كلُّ شهواتِكَ سخريةٌ منكَ ورَدٌّ عليكَ، فلا طعمَ للذةِ من لذاتكَ إلا وهي تموتُ، وإنّما تمامُ وجودِها ساعةَ تنقضي، ومتى قالتْ اللذةُ: قد انتهيتُ. فقد وصفتْ نفسَها أبلغَ الوصفِ.

قال إبليسُ: يا أبا عامرٍ، ولكنَّ اللذةَ لا تموتُ حتى تلدَ ما يُبقيها حيةً، فهي تَلِدُ الحنينَ إليها، وهو لا يسكنُ حتى يعودَ لذةً تنقضي وتَلِدَ.

قال الشيخُ: معاني التراب، معاني التراب؛ كلُّ نبْتةٍ فيها بذرتُها، ولكنْ ـ عليك لعنة الله ـ لماذا جئتني في هذه الصورة.

قال إبليسُ: لأني لا ألبسُ إلا محبةَ القلبِ الآدميِّ، ولو لا ذلك لطردتْني القلوبُ كلُّها، وبطل عملي فيها، وهل عملي إلا التلبيسُ والتزويرُ؟ أفتدري يا أبا عامرٍ أني لا أعتري الحيوان قط

قال الشيخُ: لأنَّ الحيوانَ لا ينظرُ إلى الشيءِ إلا نظرةً واحدةً، هي نظرةُ

---

(١) [يفعلها]

وفهمهُ معاً، فلا محلَّ للتزويرِ مع هذه النظرةِ الواحدةِ؛ وصدقَ اللهُ العظيمُ. ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ـ٢٢٢] فأنت أيها الشيطانُ التزويرُ، والتزويرُ موضعُه الكَذِبُ؛ فمنْ لَمْ يكذِبْ في الفِكْرِ، ولا في النَّظَرِ، ولا في الفَهْمِ، ولا في الرَّجاءِ فليسَ لك عنده عملٌ.

قال إبليسُ: يا أبا عامر! وهل ترى ـ رحمك الله ـ أعجبَ وأغربَ وأدعى إلى الهُزءِ والسخريةِ مِنْ أنَّ أعظمَ العقلاءِ الزُّهَّادِ العُبَّادِ، هو في جملةِ معانيه حيوانٌ ليسَ له إلا نظرةٌ واحدةٌ في كلِّ شيءٍ؟

قال الشيخُ: عليكَ وعليكَ... ؛ إنّ الحيوانَ شيءٌ واحدٌ، فهو طبيعةٌ مسخَّرةٌ بنظامها، ولكنَّ الإنسانَ أشياءُ متناقضةٌ بطبيعتِهَا، فألوهيتُه[1] أن يُقرَّ النظام بين هذه المتناقضاتِ، كأنَّما امتُحن، فأعطيَ من جسمه كوناً فيه عناصرُ الاضطراب، وحوله عناصرُ الاضطرابِ، ثم قيل له:دبِّره.

فَضَحكَ إبليسُ.

قال الشيخُ: ممَّ ضَحكْتَ لعنكَ الله؟

قال: ضَحِكْتُ مِنْ أنَّكَ أعلمتني حقيقةَ الإبليسيةِ، فالزهَّادُ هم الصالحون لأنْ يكونوا أعظمَ الأبالسةِ...

قال الشيخُ: عليكَ لعنةُ اللهِ، فما هي تِلْكَ الحقيقةُ التي زعمتَ؟

قال إبليسُ: والله يا أبا عامرٍ! ما غلا إنسانٌ في زَعْمِ التقوى والفضيلةِ إلا كانَتْ هذهِ هي الإبليسيةُ؛ وسأعلِّمُكَ يا أبا عامر حقيقةَ الزهدِ والعبادةِ. فلا تقل إنَّها ألوهيةٌ تُقِرُّ النظامَ بين متناقضاتِ الإنسانِ، ومتناقضاتِ الطبيعةِ.

---

(١) [تأله: تنسّك وتعبّد]

قال الشيخُ: وتسخرُ مني لعنكَ اللهُ؟ فمتى كُنْتَ تعلم الحقيقةَ والفضيلةَ؟

قال إبليسُ: أو لم أكنْ شيخَ الملائكةِ؟ فمن أجدرُ مِنْ شيخِ الملائكةِ أنْ يكونَ عالِمَها ومعلِّمَها؟

قال: عليكَ لعنةُ اللهِ؛ فما هي حقيقةُ الزُّهْدِ والعبادةِ؟

قال إبليسُ: حقيقتُها يا أبا عامرٍ، هي التي أعجزتني في نبيِّكُم.

قال الشيخُ: صلّى الله عليه وسلم؛ فما هي؟

قال إبليسُ: هي ثلاثٌ بها نظامُ النفسِ، ونظامُ العالمِ، ونظامُ اللّذاتِ والشهواتِ؛ أنْ تكونَ لك تقوى، ثُمّ يكونَ لك فِكْرٌ من هذه التقوى، ثم يكونَ لك نَظَرٌ إلى العالم مِنْ هذا الفِكْرِ. ما اجتمعتْ هذه الثلاثُ في إنسانٍ إلا قَهَرَ الدنيا، وقهرَ إبليسَ.

فإنْ كانتْ التقوى وحدَها - كتقوى أكثرِ الزُّهَّادِ والرُّهبانِ - فما أيسرَ أنْ أجعلَ النظرَ منها نظرَ الغفلةِ، والجُبْنِ، والبلادَة، والفضائلِ الكاذبةِ، وإنْ كانَ الفِكْرُ وحده - كَفِكْرِ العلماءِ والشعراءِ - فما أهونَ أنْ أجعلَ النظرَ به نَظَرَ الزَّيْغِ والإلحادِ والبهيميّةِ والرذائلِ الصريحة.

قال الشيخُ: صدق الله العظيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]

قال إبليسُ: يا أبا عامرٍ! ما يضرُّني - واللهِ - أن أفسِّرَ لك، فإنّ قارورةً من الصِّبْغِ لا تَصْبغُ البحرَ، وأنا أعُدُّ الزُّهادَ والعلماءَ المصلِحينَ، فأضعُ في النَّاسِ بجانبِ كلِّ واحدٍ منهم مئةَ ألفِ امرأةٍ مفتونةٍ، ومئةَ ألفِ رجلٍ فاسقٍ، ومئةَ ألفِ مخلوقٍ ظالمٍ، فلو أنّكَ صَبَغْتَ البحرَ بملءِ قارورةٍ حمراءَ لما صبغتَ البحرَ الإنسانيَّ بالزاهدِ والمصلحِ، ما دامَ المُصْلحُ شيئاً غيرَ السيفِ، وما دامَ الزَّاهِدُ شيئاً غيرَ الحاكمِ.

قال الشيخُ: لعنكَ اللهُ مِنْ شيطانٍ عارمٍ، فإذا وَضَعْتَ المُصْلِحَ بين مئةِ ألفِ فاسدٍ، فهل هذهِ إلا طريقةٌ شيطانيةٌ لإفسادِهِ؟

قال إبليسُ: ومئةِ ألفِ امرأةٍ فتّانةٍ مفتونةٍ يا أبا عامر، كلٌّ واحدةٍ تحسِبُ جسْمَها. . .

فصرخ الشيخُ: اغْرُبْ عني عليك لعنةُ اللهِ!

قال إبليسُ: ولكن الآيةَ الآيةَ يا أبا عامر. لقد لقيتُ المسيحَ وجرَّبْتُهُ، وهو كان تفسيرَها.

قال الشيخُ: عليه السلام! وعليك أنتَ لعنةُ اللهِ! فكيفَ قالَ؟ وكيفَ صنعَ؟

قال إبليسُ: ألقيتُ به جائعاً في الصحراء، لا يجدُ ما يَطْعَمُهُ، ولا يظنُّ أنَّهُ يَجِدُ، ولا يرجو أنْ يَظُنَّ؛ ثم قلتُ له: إنْ كنتَ رُوحَ الله وكلمتَهُ كما تَزْعُمُ، فمُرْ هذا الحجَرَ ينقلبُ خبزاً. فكانَ تقياً، فتذكَّرَ، فإذا هوَ مُبْصِرٌ، فقال: ليسَ بالخبْزِ وحدَه يحيا الإنسانُ، فَمِثْلُ هذا لو ماتَ جوعاً لم يتحوَّلْ، لأنَّ الموتَ إتمامُ حقيقتِهِ الساميةِ فوقَ هذه الدنيا، ولو مُلِئتْ له الدنيا خبزاً وهو جائعٌ لم يتحوَّلْ، لأنَّ له بَصراً مِنْ فوق الخبزِ إلى حقيقتِهِ السماويةِ؛ فليسَ بالخبزِ وحدَهُ يحيا؛ بل بمعانٍ أخرى، هي إشباعُ حقيقتِهِ السماويةِ التي لا شهوةَ لها.

ثم ارتقيتُ به إلى ذِروةِ جبلٍ، وأريتُهُ ممالكَ الخافقينِ، كشفتُها كلَّها لعينيهِ وقلتُ له: هذا كلُّه لك إذا أنتَ سجدتَ لي. فكان متقياً، فتذكَّرَ، فإذا هو مُبْصِرٌ: أبصرَ حقيقة الخيالِ الذي جسمتُهُ له، وعَلِمَ أنَّ الشيطانَ يُعطي مثل معاني هذه الممالكِ في جرعةِ خمْرٍ، كما يُعطيها في ساعةِ لذةٍ، كما يُعطيها في شفاءِ غيظٍ بالقتل والأذى؛ ثم لا يبقى مِنْ كلِّ ذلك باقٍ غيرُ الإثمِ، ولا يصحُّ منه صحيحٌ إلا الحرام. ومن ملك الدنيا نفسَها، لم يبقَ

لها إذا بقيت، فهي خيالٌ في جرعةِ الحياةِ، كما هي خيالٌ في جرعةِ الخمرِ.

يا أبا عامر! إنَّ هذا النظرَ، الذي وراءه التذكُّرُ، الذي وراءَهُ التقوى، التي وراءها الله - هذا وحدَه هو القوةُ التي تتناولُ شهواتِ الدنيا، فتصفّيها أربعَ مراتٍ، حتى تعودَ بها إلى حقائقها الترابيةِ الصغيرةِ التي آخرُها القبرُ، وآخرُ وجودِها التلاشي.

فبالبَصَرِ الكاشِفِ الذي يُجرّدُ الأشياءَ من سِحرِها الوهمي، هذا هو كلُّ السِّرِّ.

قال الشيخُ: لعنكَ اللهُ؛ فكيفَ مع هذا تَفْتِنُ المؤمنَ؟

قال إبليسُ: يا أبا عامر! هذا سؤالٌ شيطانيٌّ... تريدُ ويحك - أنْ تحتالَ على الشيطانِ؟ ولكنْ ما يَضُرُّني أنْ أفسرَها لكَ.

لَيْسَ الإيمانُ هو الاعتقادُ ولا العملُ، ولو كانَ مِنْ هذين لما شقَّ عليَّ أحدٌ، ولصلُحتْ الدنيا وأهلُها؛ إنّما الإيمانُ وضعُ يقينٍ خفيٍّ يكونُ مع الغريزةِ في مقرِّها، ويصلُحُ أنْ يكونَ في مقرِّها،لتَصدُرَ عنه أعمالُ الغريزةِ؛ وهذا اليقينُ لا يصلُحُ كذلك إلا إذا كان يقيناً ثابتاً بما هو أكبرُ من الدنيا، فيرجِعُ إليه الإنسانُ فيتذكَّرُ فيُبْصِرُ. هناك ميراثٌ من الآخرةِ للمؤمنِ، فاليقينُ بهذا الميراثِ هو سِرُّ الإيمانِ.

والعملُ الشيطانيُّ لا يكونُ إلا في إفسادِ هذا اليقين، ومعارضَةِ الخيالِ العظيمِ الذي فيه بالحقائقِ الصغيرةِ التي تظهرُ للمغفَّلِ عظيمةً، كما تُشبُّ نارٌ أكبرُ من قُرْصِ الشَّمْسِ، ثم يقال للأبلهِ: انظر بعيْنَيْكَ، فيُصَدِّقُ أنّها أكبرُ من الشَّمسِ.

ومتى صغُر هذا اليقينُ، وكانت الحقائقُ الدنيوية أكبرَ مِنْه في النفسِ،

فأيسرُ أسبابِ الحياةِ حينئذٍ يُفسِدُ المعتقَدَ، ويُسقِطُ الفضيلةَ؛ وبدرهمٍ واحدٍ يُوجدُ اللصُّ حينئذٍ.

أما إذا ثبتَ اليقينُ، فالشيطانُ مع الإنسانِ يَصْغُرُ ثم يَصْغُرُ، ويَعْجَزُ ثم يَعْجَزُ، حتى ليرجعَ مثل الدرهمِ إذا طَمع الطامعُ أنْ يجعلَ الرجلَ الغنيَّ الكثيرَ المالِ لصًّا من اللصوص بهذا الدرهمِ.

قال الشيخُ: لعنكَ الله! فإنْ لم تستطعْ إفسادَ هذا اليقينِ فكيفَ تصنَعُ في فتنةِ المؤمنِ؟

قال إبليسُ: يا أبا عامرٍ! إنْ لم أستَطِعْ إفسادَ اليقينِ زدتُـهُ يقيناً فيفسُدُ، واستحسانُ الرَّجُلِ لأعمالِهُ السامية قد يكونُ هو أولُ أعمالِهِ السافلةِ؛ وبأيِّ عجيبٍ يكونُ الشيطانُ شيطاناً إلا بمثل هذا؟

قال أحمدُ بن مسكينٍ: وغَضِبَ الشيخُ، فمدَّ يدَه، فأخذَ فيها عنُقَ إبليسَ، وقد رآه دقيقاً، ثم عصَرَهُ عصْراً شديداً يريدُ خنْقَهُ؛ فقَهْقَهَ الشيطانُ ساخراً مِنْهُ، ويتنبَّهُ الشيخُ، فإذا هو يشدُّ بيدِهِ اليمنى على يدهِ اليُسرى. . . [1]

* * *

(١) [نشرت في «الرسالة» السنة الرابعة (١٩٣٦) العدد (١٣٩)]

الدينـار والدرهـم

٤

قال أحمدُ بنُ مسكينٍ: وأزِفَ تَـرَحُّلِي عن بَلْخٍ، وتهيَّأْتُ للخروجِ، ولـم يَـبْقَ من مدةِ مَقيلي[1] بها إلا أيامٌ يجيءُ فيها السبتُ الرابعُ، وكانَ قَدْ وقعـتْ ممـاراةٌ بيني وبين مفتي بَـلْخٍ أبي إسحـاقَ إبراهيـمَ بـن يوسفَ الباهلي[2] تلميذِ أبي يوسفَ صاحبِ الإمام أبي حنيفةِ، ويزعمونَ أنَّـهُ شحيحٌ على المالِ، وأنه يتَغَـلَّلُـهُ من مستَغلاتٍ كثيرة[3]، فكأنَّما غشيتْـهُ غمامتي، فهو لا يرى أنْ أتكلَّمَ في الزُّهْـدِ، ويحسبُ هذا الزُّهْـد تماوُتَ العُبَّـادِ، ونَفْضَ الأيدي من الدنيا، وسُوءَ المصاحبةِ لما ينعِمُ الله بهِ على العبدِ، وخذلانَ القوةِ في البدنِ، وما جرى هذا المجرى مِنْ تزويرِ الحياةِ بالأباطيلِ، التي زَعَم أنها أباطيلُ الطاعاتِ، وما أقربهَا مِنْ أباطيلِ المعصيةِ، ولم يكنْ هذا المفتي قد سمعني، ولا حَضَرَ مجلسي، ولولا الذي لم يعرفهُ مِنْ ذلكَ لقدَ كانَ عَرَفَ.

وجادلتُـهُ، فرأيتُهُ واهِنَ الدَّليلِ، ضعيفَ الحُجَّـةِ، يُخَمِّنُ تخمين فقيهٍ،

(١) [إقامتي]

(٢) توفي مفتي بلخ هذا سنة (٣٣٩) هـ.

(٣) المستغلات: أصول الأموال، وتغلّل واستغل بمعنى.

وينظرُ إلى الخفايا مِنْ حقائقِ النفوسِ نظر صاحِبِ النصِّ إلى الظاهر، كأنَّ الحقيقةَ إذا أُلقيتْ على النَّاسِ مضتْ نافذةً كفتوى المفتي. . . ويزعُمُ أنَّ الوعظ وعظَ الفقهاءِ، يقولون: هذا حرامٌ. فيكون حراماً، لا يُقارِفُه أحدٌ، وهذا حلالٌ، فيكونُ حلالاً، لا يتركهُ أحدٌ، وهو كانَ بعيداً عن حقيقةِ الوعظِ ومَدَاخلِهِ إلى النفسِ، وسياستهِ فيها، ولا يعرفُ أنّ الحقيقةَ كالأنثى: إنْ لم تُزَيَّنْ بزينتها لم تَشْتَهو أحداً؛ وأنَّ الموعظةَ إنْ لم تَتَأدَّ في أسلوبها الحيِّ كانتْ بالباطلِ أشبهَ، وأنَّهُ لايغيِّرُ النفسَ إلا النفسُ التي فيها قوةُ التحويلِ والتغيير، كنفوسِ الأنبياءِ، ومَنْ كان في طريقةِ رُوحِهم، وأنَّ هذِهِ الصناعةَ إنما هي وَضْعُ نورِ البصيرةِ في الكلامِ، لا وضعُ القياس والحُجَّةِ، وأنَّ الرجلَ الزاهدَ الصحيحَ الزُّهْدِ إنما هو حياةٌ تلبَسُها الحقيقةُ لتكونَ بهِ شيئاً في الحياةِ والعملِ، لا شيئاً في القولِ والتوهُّمِ، فيكونُ إلهامُها فيهِ كحرارةِ النّارِ في النّارِ؛ مَنْ واتاها أحسَّها.

ولعَمري، كَمْ مِنْ فقيهٍ يقولُ للنَّاسِ: هذا حرامٌ. فلا يزيدُ هذا الحرامَ إلا ظهوراً وانكشافاً، ما دام لا ينطِقُ إلا نطقَ الكُتُبِ، ولا يُحْسِنُ أنْ يَصِلَ بين النفس والشّرع، وقد خلا من القوةِ التي تجعلُهُ روحاً تتعلَّقُ الأرواحُ بها، وتضعُهُ بينَ النَّاسِ في موضعٍ يكونُ به في اعتبارهم كأنَّهُ آتٍ من الجنةِ منذُ قريبٍ، راجعٌ إليها بعد قريبٍ.

والفقيهُ الذي يتعلَّقُ بالمالِ وشهواتِ النفسِ، ولايجعلُ هَمَّه إلا زيادةَ الرزقِ وحظَّ الدنيا ـ هو الفقيهُ الفاسِدُ الصورة في خيالِ النَّاسِ، يُفْهِمُهُم أولَ شيءٍ ألا يفهموا عنْهُ؛ إذْ حِرْصهُ فوقَ بصيرتهِ، وله في النفوسِ رائحةُ الخبزِ، وله معنى خمسٌ وخمسَ عشرة[1]. . . . وكأنَّ دنياهُ وضعتْ فيه

---

(١) يريدُ أنّه في هذه الدنيا عمليةٌ حسابيةٌ. . . ، وفي أيامِ ضعفة الدينِ يكون الفِقْهُ استخراجَ الدراهمِ من النصوصِ. . .

شيئاً فاسداً غريباً، يُفسِدُ الحقيقةَ التي يتكلَّمُ بها؛ ولستُ أدري ما هو هذا الشيءُ، ولكنّي رأيتُ فقهاءَ يعظونَ، ويتكلَّمونَ على الناسِ في الحرامِ والحلالِ، وفي نصِّ كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولهِ ﷺ، ثم لَمْ أجِدْ لِكلامهم نفعاً ولا رَدّاً، إذ يُلْهِمُوْنَ الناسَ بأرواحِهم غير المعنى الذي يتكلَّمُونَ فيه؛ وتسْخرُ الحقيقةُ منهم ـ على خطَرِهم وجلالِ شأنهم ـ بذاتِ الأسلوبِ الذي تَسْخرُ بهِ منْ لصٍّ يَعِظُ لصاً آخرَ فيقول له: لا تَسْرقْ.

* * *

قال ابنُ مسكينٍ: فلما دارَ يومُ السَّبتِ أقبلَ النّاسُ على المسجدِ أفواجاً، وكانوا قد تعَالَمُوا إزْمَاعي[1] الرحيلَ عن بلدِهم ـ وجاء لقمانُ الأُمَّةِ في أشياعِهِ وأصحابِهِ، وجاءَ أبو إسحاق المفتي في جماعتِهِ؛ واستقرَّ بي المجلسُ فنفذتُ الناسَ بنظري، فكأنَّهُم من كثرتهم نَبَاتٌ غطَّى الأرضَ، فأذكرني هذا شيخَنا السَّريَّ بن مُغلِّسٍ السقطيَّ[2]، وكانَ قد لَزِمَ دارَه في بغدادَ، لا يخرجُ منها ولايراهُ إلا مَنْ قَصَدَ إليهِ، وهَمَمْتُ أنْ أجعلَ الموعظةَ في شَرْحِ كلمتِهِ المشهورةِ: «لا تَصِحُّ المحبةُ بين اثنين حتى يقولَ أحدُهما للآخر: يا أنا». وما نقلوا عنه مِنْ أنَّهُ قال مرَّةً لبعضِ أصحابِهِ: منذُ ثلاثينَ سنة، وأنا في الاستغفارِ مِنْ قولي: الحمدُ لله.

فقال صاحبُه: وكيفَ ذلك؟

قال: وَقَعَ ببغدادَ حريقٌ، فاستقبلني رجلٌ، فقال: نجا حانوتُك. فقلتُ: الحمدُ للهِ. فأنا نادمٌ مِنْ ذلك الوقتِ على ما قلتُ؛ إذ أردتُ لنفسي خيراً من النّاسِ!

---

(١) [عزمي]

(٢) السقط: ردىء المتاع(روبابيكيا)، وبائعه: السقطي. وهذا الإمام العظيم كان أوحدَ أهلِ زمانِهِ في الورعِ، وله كلامٌ إلهيٌّ مشرقٌ، وقد توفي عن سنٍّ عاليةٍ في سنة (٢٥٣)هـ.

قال ابنُ مسكينٍ: ولكني أحببتُ أنْ أكلِّمَ المفتي، ومالَ المفتي؛ فحدَّثتُهُم حديثَ معرفتي بالسَّريِّ: أني سمعتُ يوماً غَيْلانَ الخياط يقول: إنّ السَّريَّ كان اشترى كُرَّ لوزٍ[١] بستين ديناراً، وأثبتَه في رزنامجِهِ[٢] وكتبَ أمامَهُ: رِبْحُهُ ثلاثةُ دنانيرَ[٣]؛ فلم يلبثْ أنْ غلا السعرُ، فبلغ تسعينَ ديناراً؛ فأتاه الدلالُ الذي كان اشترى له، فقال: أريدُ ذلك اللوزَ.

قال الشيخُ: خُذْهُ.

قال: بكم؟

فقال: بثلاثة وستين ديناراً.

وكانَ الدلّالُ رجلاً صالحاً، فقال للشّيخِ: إنّ اللوزَ قد صارَ الكُرُّ بتسعينَ.

قال السَّريُّ: ولكني عقدتُ بيني وبين الله عقداً لا أحلُّه، فلستُ أبيعُ إلا بثلاثة وستين ديناراً.

فقال الدلّالُ: وأنا قد عَقَدْتُ بيني وبينَ الله عَقْداً لا أحلُّه، ألا أغشَّ مسلماً، فلست أشتري منك إلا بتسعينَ؛ فلا الدلال اشترى منه، ولا السَّريُّ باعه..!

قال أحمدُ بنُ مسكينٍ: فلما سمعتُ ذلك لم تكنْ لي هِمَّةٌ إلا أنْ ألقى الشيخَ وأصْحبَهُ وآخذَ عنه، فلم أعرِّجْ على شيءٍ حتى كنتُ في المسجدِ الذي يصلّي فيه، فأجدُه في حلقتِهِ،وعندَهُ ممَّنْ كنت أعرِفُهُم: عبدَ الله بنَ أحمدَ بن حنبل، وإدريسُ الحداد، وعليُّ بنُ سعيد الرازي، وحَولَهُ خلقٌ

(١) الكُر (بضم الكاف): مكيالٌ عظيم، يقدرون به في الحساب، وهو أربعون إردباً مصرياً. [قلت: والكر يعادل (٣٠٠٠) كغ، والإردب (١٥٠) كغ فعليه يكون الكر عشرين إردباً].

(٢) أي دفتر حسابه.

(٣) خمسة في المئة.

كثيرٌ، وهو فيهم كالشجرةِ الخضراءِ بين الهشيم تعلوه نضْرةُ روحِهِ، وكأنَّما يُمدُّه بالنورِ عِرْقٌ من السَّماءِ، فهو يتَلألأُ للعينِ؛ ولا يملِكُ الناظرُ إليه إلا أنْ يُحِسَّ في ذاتِ نفسِه أنه الأدنى، من رؤيتهِ في ذاتِ نفسه أنّ هذا هو الإنسانُ الأعلى.

ورأيتُ على وجهِهِ آلاماً تمسحُهُ مسحةَ الأشواقِ لا مسْحةَ الآلامِ، فهي آثارُ ما يَجِدُهُ في رُوحِهِ القويةِ، لا كآلامِ النّاسِ التي هي آثارُ الحِرمانِ في أرواحِهِم الواهِنةِ الضعيفةِ، فلا تمسحُ وجوههم إلا مسْحةَ الغَمِّ والكآبةِ.

وما يُخْطِىءُ النظرُ في تميزِ آلامِ السماءِ على هذهِ الوجوهِ السعيدةِ من آلامِ الأرضِ في الوجوهِ الأخرى، فإنَّ الأولى تَتَنَدَّى على روُحِ الناظرِ بمثلِ الطَّلِّ إذا قَطَّره الفَجْرُ، والأخرى تَتَوَرُّ في روحهِ كما تَهِيْجُ الغَبَرَةُ إذا ضَرَبَتِ الريحُ الأرضَ.

كان الشيخُ في وجودٍ فوقَ وجودِنا؛ فلا تتلوَّنُ له الأشياءُ، ولا تعدو عِنْدَه ما هي في نفسها، ولا يحملُ الشيءُ له إلا معناهُ مِنْ حيثُ يَصْلُحُ أولا يَصْلُحُ، ومن حَيْثُ ينبغي أو لا ينبغي. فإنّما تتلوَّنُ الأشياءُ عند ما يضَعُ الشيطانُ عينَه في عينِ الناظرِ إليها؛ وإنما تزيدُ وتنقُصُ في القلبِ عند ما يكونُ روحُ الشّيطانِ في القلبِ؛ وإنما يشتبهُ ما ينبغي وما لا ينبغي عندما يأتي الشيءُ من جهتين: جِهَتِهِ من طبيعتِهِ هو، وجهتِهِ من طبيعتنا نحنُ. وبهذا قد يجمَعُ الإنسانُ المالَ، ثم لا يجدُ في المال معنى الغنى، وقد تَتَّفِقُ أسبابُ النعيمِ، ولا يكونُ منها إلا الذُّلُّ. وكم مِنْ إنسانٍ يَجِدُ، وكأنه لم يَجِدْ إلا عكس ما كان يبغي، وآخر لم يَجِدْ شيئاً، ووجَدَ بذلك راحته.

قال ابنُ مسكينٍ: وما كانَ أشدَّ عجبي حينَ تكلَّمُ الشيخُ، فقد أخذَ يُجِيْبُ عَمَّا في نفسي، ولم أسألْهُ، كأنّ الذي في فكري قد انتقلَ إليه؛ فروى الحديثَ: «إذا عظَّمَتْ أمتي الدينارَ والدِّرْهَمَ، نُزِعَ منها هيبةُ

الإسلامِ؛ وإذا تركوا الأمْرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ، حُرِمُوا بركةَ الوحيِ»[١].

ثم قال في تأويله: إنّ مَلَكَ الوحيِ ينزلُ بالأمرِ والنهي ليُخْضِعَ صولةَ الأرضِ بصولةِ السماءِ، فإذا بقيَ الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ، بقي عملُ الوحيِ، إلا أنّهُ في صورة العقلِ، وبقيتْ روحانية الدنيا، إلا أنّها في صورةِ النظامِ، وكان مع كلِّ خطأٍ تصحيحُه؛ فيصبحُ الإنسانُ بذلك تنفيذاً للشريعة بين آمر مُطاعٍ، ومأمورٍ مطيعٍ، فيتعاملُ النّاسُ على حالةٍ تجعلُ بعضهم أستاذاً لبعضٍ، وشيئاً منهم تعديلاً لشيءٍ، وقوةً سنداً لقوةٍ؛ فيقومُ العزمُ في وجهِ التهاونِ، والشِّدَّةُ في وجهِ التراخي، والقدرةُ في وجهِ العَجْزِ؛ وبهذا يكونون شركاءَ متعاونين، وتعودُ صفاتُهمُ الإنسانيةُ وكأنَّها جيشٌ عاملٌ يناصِرُ بعضُهُ بعضاً، فتكونُ الحياةُ مفسَّرةً ما دامتْ معانيها الساميةُ تأمرُ أمرها، وتُلهِمُ إلهامها، وما دامتْ ممثَّلةً في الواجبِ النافذِ على الكُلِّ.

والناسُ أحرارٌ متى حَكَمتْهُم هذه المعاني، فليسَتْ حقيقةُ الحريةِ الإنسانيةِ إلا الخضوع للواجبِ الذي يَحْكُمُ، وبذلك لا بغيره يتَّصِلُ ما بين الملك والسُّوقة[٢]، وما بينَ الأغنياء والفقراء، اتصالَ الرحمةِ في كلِّ شيءٍ، واتصالَ القسوة في التأديبِ وحدَه. فبركةُ الوحي إنّما هي جعلُ القوةِ الإنسانيةِ عملاً شرعياً لا غير.

أما تعظيمُ الأمةِ للدينار والدرهم، فهو استعبادُ المعاني الحيوانية في النّاسِ بعضُها لبعض، وتقطُّعُ ما بينهم مِنَ التشابُكِ في لُحْمة الإنسانيةِ، وجَعْلُ الكبير فيهم كبيراً، وإن صغُرتْ معانيه، والصغير فيهم صغيراً، وإن

---

(١) [تقدّم تخريجه ص (٢٣٧)].

(٢) [الرعية].

كَبُرَ في المعاني؛ وبهذا تموجُ الحياة بعضُها في بعضٍ، ولا يستقيمُ الناسُ على رأي صحيح؛ إذ يكونُ الصحيحُ والفاسدُ في ملكِ الإنسان لا في عملِ الإنسانِ، فيكنِزُ الغنيُّ مالاً، ويكنزُ الفقير عداوةً، كأنَّ هذا قتل مال هذا، وكأنَّ أعمالاً قتلتْ أعمالاً، وترجعُ الصفاتُ الإنسانيةُ متعاديةً، وتُباعُ الفضائلُ وتُشترى، ويزيدُ مَنْ يزيدُ، ولكنْ في القسوةِ، ويَنْقُصُ من يَنْقُصُ، ولكن في الحريةِ، وتكونُ المنفعةُ الذاتيةُ هي التي تأمرُ في الجميع وتنهى، ويدخُلُ الكَذِبُ في كلِّ شيءٍ حتّى في النظرِ إلى المالِ، فيرى كلُّ إنسانٍ كأنَّما درْهَمُهُ ودينارُه أكبرُ قيمةً من دينار الآخر ودرهمِهُ، فإذا أعطَى نقص فغشَّ، وإذا أخذَ زادَ فسرق؛ وتُصبحُ النفوسُ نفوساً تجاريَّةً، تُساوِمُ قبل أنْ تنبعثَ لفضيلةٍ، وتُماكِسُ[1] إذا دُعيتْ لأداءِ حقٍّ، ويتعاملُ الناس في الشَّرفِ على أصولٍ من المعدَةِ لا من الرُّوحِ، فلا يقالُ حينئذٍ: إنَّ رغيفينِ أكثرُ من رغيفٍ واحدٍ، كما هي طبيعةُ العددِ، بل يقال: إنَّ رغيفينِ أشرفُ من رغيف، كما هي طبيعةُ النِّفاق.

أما التجارةُ ـ وهي التفسيرُ الظاهرُ لمعاني النفوس ـ فتُصبحُ بين الغشِّ والضَّرَرِ والمماكرةِ، وتكونُ يقظةُ التاجِرِ مِنْ غفلةِ الشاري، وتفسُدُ الإرادةُ فلا تُحدِثُ إلا آثارها الزائفةِ. وما التاجرُ في الأمةِ القويةِ إلا أستاذٌ لتعليم الصِّدقِ والخُلقِ في الموضعِ المتقلِّبِ، فكلمتُه كالرَّقم من العددِ، لا يحتملُ أزيد ولاأنقصَ مما فيهِ، ويُمتحنُ بالدينار والدرهمِ أشدّ مما يُمْتَحَنُ العابِدُ بصلاتِهِ وصيامِه.

وقد شَهِدَ رجلٌ عند عمرَ بنِ الخطابِ في قضيةٍ، فقال له عمرُ: ائتني بمن يعرِفُكَ. فأتاه برجلٍ أثنى عليه خيراً، فقال لهُ عُمر: أنت جارُه الأدنى الذي يعرفُ مَدْخلَه ومخرجه؟

---

(١) [تساوم].

قال: لا.

قال: فكنت رفيقه في السَّفرِ الذي يُسْتدلُّ به على مكارِمِ الأخلاق؟

قال: لا.

قال: فعاملتَهُ بالدينار والدرهمِ الذي يسْتبيْنُ به ورَعُ الرَّجلِ؟

قال: لا.

قال عمر: أظنُّكَ رأيته قائماً في المسجدِ يُهمْهِمُ بالقرآن، يخفضُ رأسه طوراً، ويرفعه أخرى؟

قال: نعم.

قال: فاذهب فلستَ تَعْرفُه!

وإنّما التاجرُ صورةٌ مِنْ ثقةِ النّاسِ بعضهم ببعضٍ، وإرادةٌ الخير، واعتقادٌ الصدقِ، وهو في كلِّ ذلك مظهرٌ تُوْضَعُ اليدُ عليهِ، كما تَجُسُّ اليدُ مَرَض المريضِ وصحته.

فإذا عظَّمتِ الأمة الدينارَ والدرهَمَ، فإنَّما عظَّمتْ النفاق والطمع والكَذِبَ والعداوة والقسوة والاستعبادَ؛ وبهذا تقيمُ الدنانيرُ والدراهمُ حدوداً فاصلةً بينَ أهلها، حتى لتكونَ المسافةُ بين غنيٍّ وفقيرٍ كالمسافة بين بلدين قد تباعدَ ما بينهما.

وإنما هيبةُ الإسلام:

في العزةِ بالنفس لا بالمالِ.

وفي بذل الحياةِ لا في الحرصِ عليها.

وفي أخلاقِ الرُّوحِ لا في أخلاقِ اليدِ.

وفي وَضْعِ حدودِ الفضائلِ بين الناس، لا في وَضْعِ حدود الدراهمِ.

وفي إزالة النقائصِ من الطِّباعِ لا في إقامتها.

وفي تعاونِ صفاتِ المؤمنين لا في تعاديها، وفي اعتبار الغنى ما يُعمَلُ بالمال، لا ما يُجمعُ مِنَ المال.

وفي جَعْل أولِ الثروةِ العقلُ والإرادةُ، لا الذهبُ والفِضَّةُ.

هـذا هـو الإسلامُ الـذي غلـبَ الأمـمَ، لأنَّـهُ قبـل ذلك غـلَبَ النفـسَ والطبيعـةَ[1].

* * *

(١) [نشرت في «الرسالة» في السنة الرابعة (١٩٣٦) العدد (١٤١)]

الشيطان[١] . . .

قال الشيخُ أبو الحسنِ ابنُ الدقّاقِ: كان شيخي أبو عبد الله محمد الأزهريُّ العجميُّ رضي الله عنه رجلاً صاحبَ آياتٍ وخوارقَ مما فوقَ العقلِ، كأنّما هو سِرٌ من الأسرارِ الجاريةِ في هذا الكونِ، قد بلغَ بنفسِه رتبةَ النّجمِ في أفُقهِ البعيدِ؛ ففيهِ أهواءُ الإنسانِ وشهواتُه وطباعُه، إلا أنّها كنُورِ النَّجْمِ في تألُّقِه ولألائِهِ من إشراقِ روحِه وصفائِها؛ وقد ارتفعَ بآدميتهِ فوق نفسِها؛ فأصبحَ في النّاسِ ومعه سماؤه، يجعلُها بين قلبِه وبين الدنيا.

والرجلُ إذا بلغَ هذا المبلغَ كان حياً كالميتِ ساعة احتضاره، ينظرُ إلى كلِّ ما في الحياةِ نظرةَ من يتركُ لامَنْ يأخذُ، ومن يعتبرُ لامن يَغْتَرُّ، ومن يلفظُ لامن يتذوقُ، ومن يُدرِكُ السرَّ لامن يتعلّقُ بالظاهرِ؛ ويرى الشهواتِ كأنّها من لغةٍ لا يعرفُها، فهي ألفاظٌ فيها معاني أهلها لا معانيهِ، وإنما تلبَسُ كلماتُنا معانيها من أنفسنا. وفي النفوسِ مثلُ الهشيمِ: إذا وقعتْ فيه المعاني المشتعلةُ استطارَ حريقاً وتضرّمَ[٢]، وفيها على المجاهدةِ مثلُ الماءِ؛ فإذا خالطتهُ تلك المعاني انطفأتْ به وخمدتْ.

وقد سألتُ الشيخَ مرةً: كيفَ تحدُثُ الكراماتُ والخوارقُ للإنسانِ؟ فقالَ: يا ولدي إنَّ الإنسانَ من النّاسِ المحجوبينَ يتصرَّفُ في جسمِهِ، ولا

---

(١) انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي» [ص (٢٥٦)]

(٢) [تأجج]

يكادُ يَمْلِكُ لروحانيتِه شيئاً، فإذا أبلى في المجاهدةِ، ووقعَ في قلبه النُّورُ ـ تصرَّفَ في روحانيته، ولايكادُ يملكُ لجسمِه شيئاً، فمن أطاقَ أن يَنْسَلِخَ من بشريتِه، واتسعتْ ذاتُه في معاني السماء بمقدار ما ضاقت من معاني الأرض، وكان مُعدًّا لأن يتحققَ في روحانيته، مُعاناً على ذلك بطبيعةٍ فوق الاعتدالِ ـ فقد شاع في الكونِ، وأصابَ له وجهاً ومذهباً إلى تلك القوةِ التي تهْدِمُ في العالم وتبني، وتُفرِّق وتجمَعُ، وتنقلُ الصُّورَ بعضَها إلى بعضٍ؛ فإن الكونَ كله جوهرٌ واحدٌ هو النورُ، حتى الجبلُ هو نورٌ صخريٌ، وحتى البحرُ هو نورٌ مائيٌ، وحتى الحديدُ والذهبُ والترابُ، كلُّ ذلك نورٌ[1] صرَّفتهُ القدرةُ الإلهيَّةُ تصريفَها المعجزَ، فكان على ما نرى؛ ظاهِرٌ مخيَّلٌ، يلائِمُ نقصنا وعجزنا، وحقيقةٌ قارَّةٌ على غير ما نرى، ومَنْ ذا يَعْقِلُ أنّ الصَّخْرَ نورٌ متجمِّدٌ إذا لم يكن له إلا عقلُ عَيْنِهِ وحواسِّه؟ ومَنْ ذا يُطِيْقُ أن يَفْهَمَ بحواسِّه وعينيه قولَ الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ﴾ [النمل: ٨٨] فالجبالُ جامدةٌ ثابتةٌ، غير أنَّها تمرُّ بأرضِها، وتموجُ في نفسِها؛ ومتى تأذَنَ الله أنْ ينكشفَ نورُ كلامهِ للعقلِ الإنسانيِّ، فستكونُ هذه الآيةُ عِلْماً جديداً في الأرضِ، يُثْبِتُ أنَّ السحابَ والجبلَ مادةٌ واحدةٌ وصُنعٌ واحدٌ.

ويا لها سُخريةٌ بالإنسانِ وجهلِهِ! فإنّه إذا كانتْ الحقيقةُ غير ما نرى،

---

(١) كلمة النور هذه هي التي يعبَّر عنها اليومَ بالكهرباء [الطاقة]، وقد ثبتَ أنَّ الكونَ كلَّه هو هذه الكهرباءُ متجمدةٌ على ما شاء اللهُ أن تكونَ [فالذرة التي هي الوحدة الأساسية في كل مخلوق مؤلفة من إلكترونات وبروتونات ونترونات، وتختلف المواد بإختلاف أعداد مكونات الذرة، فالأوكسجين تحتوي ذرته على الكترونين وبروتونين، بينما الحديد تحتوي ذرته على ٢٦ الكتروناً و ٢٦ بروتوناً ويسمى هذا العدد العدد الذري]

فكلُّ شيءٍ في الدنيا هو ردٌّ على النظرِ الإنسانيِّ، ويكادُ الجبلُ العظيمُ يكونُ كلمةً عظيمةً تقولُ للإنسانِ: كذَبْتَ!

فالشأنُ في الخوارقِ والكراماتِ راجعٌ إلى القدرةِ أنْ يُسَلِّطَ الإنسانُ الروحانيُّ ما فيهِ مِنْ سِرِّ النُّورُ على ما في بعضِ الأشياءِ من هذا السِّرِّ، وتلك هي طاعةُ بعضِ الكونِ لِمن ينصرفُ عن المادةِ، ويتَّصلُ بخالِقِها.

فإذا بقِيَ في الرَّجُلِ الروحانيِّ شيءٌ من أمرِ جسمه يقول: أنا...، لم يكن في الرَّجُلِ من تلك القدرةِ ذرةٌ؛ فإن هو حاولَ أن يَخرقَ العادةَ، أبى الكونُ أنْ يعرفَه إلا كما يَعْرِفُ حجراً مُلقىً، يحاوِلُ أن يتصرَّفَ بالجبلِ الذي هو منه، فينقلَه، أو يزحزِحَه، أو يزلزِلَه.

ولا خيرَ على الأرضِ مطلقاً، إلا وهو أخذٌ من حقوقِ هذه الـ«أنا..» في إنسانِهَا، ولا شرَّ على الأرضِ مطلقاً إلا وهوَ إضافة حقوقٍ إليها: فحينَ لا يبقى لها حقٌّ في شيءٍ عندَ نفسِها، يجب لها الحقُّ عندئذٍ على كلِّ شيءٍ، وهذه هي الكرامةُ؛ تُكرِمُ الخليقةُ مَنْ أكرمَهُ الخالِقُ.

فمن أرادَ أنْ تَتَّصلَ نفسُه باللهِ، فلا يكنْ في نفسه شيءٌ مِنْ حَظِّ نفسِهِ، ولا يُؤمِنْ إيمانَ هؤلاءِ العامَّةِ؛ يكونُ إيمانُهم بالله فكرةً تُذْكَرُ وتُنْسى، أما عملُهُم فهو إيمانهُم الراسخُ بالجسمِ وشهواتِهِ يذْكَرُ ولا ينسى.

وأنتَ ترى رجالَ الروحِ يأكلونَ ويشربونَ ويلبَسُونَ، ولكنّ هذا كلَّه ليسَ فيه ذرَّةٌ من أرواحِهِم، على خلاف غيرهم من النَّاسِ؛ فهؤلاءِ كلُّ أرواحِهم في مطاعمِهِم ومناعِمهم؛ ومن ثَمَّ لا يجري الشيطانُ من الأولين إلا في مجارٍ ضيقةٍ أشدَّ الضِّيْقِ، لا يكادُ ينفذُ منها إلى فكرٍ أو شهوةٍ أو حُلُمٍ من أحلام الدنيا، أما الآخرون فالشيطانُ فيهم هو تيَّارُ الدم، يعُبُّ عُبابَهُ في الأسفلِ والأعلى.

قال أبو الحسنِ: وكنّا يومئذٍ في دمشقَ، فنبهني كلامُ الشيخِ عن الشّيطانِ إلى ما قرأتُه عن كثيرينَ ممَّنْ رأوا الشيطان، أو حاوَرُوهُ أو

صارعوهُ؛ فقلتُ للشيخ: إنّ من حقِّكَ عليَّ أن أسألك حقيَّ عليكَ، وما في نفسي أحبُّ إليَّ ولاأعجبُ مِنْ أنْ أرى الشيطانَ وأكلِّمَهُ وأسمعَهُ؛ وأنتَ قادرٌ أنْ تنقلني إليه، كما نقلتني إلى ما دخلتَ بي عليه من عوالم الغيبِ.

قال الشيخُ: وماذا يردُّ عليك أنْ ترى الشيطانَ وتكلِّمَهُ؟

قلتُ: سبحان الله! لا يُجدي عليَّ شيئاً إلا أنْ أسْخَرَ منْهُ.

قال الشيخُ: فإني أخشى يا ولدي، أنْ يكون الشيطانُ هو الذي يريدُ أنْ تراهُ وتسمعهُ. . . !

قلتُ: فإني أريدُ أنْ أسألَه عن سِرِّهِ، فيكونُ عِلْماً لا سُخْريةً.

قال: لو كشفَ لك عن سِرِّهِ لما كان شيطاناً، فإنّما هو شيطانٌ بسِرِّه لابغيرِهِ.

قلتُ: فأريدُ أن أرى الشيطانَ لأكونَ قد رأيتُ الشيطانَ!

قال الشيخُ: لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ! لو كنتَ يا أبا الحسنِ بأربعِ أرجلٍ لهربتَ من الشيطان بثلاثٍ منها، وتركتَهُ يجرُّك من واحدةٍ!

قلتُ: يا سيدي، فلو كنتَ حماراً لبطلَ عملُ الشيطانِ في أرجلي الأربع كلِّها، إذ لا حاجةَ به إلى إغواءِ حمارٍ!

فتبسَّمَ الشيخُ وقال: ولابدَّ أن ترى الشيطانَ وتكلِّمَهُ؟

قلت: لابدَّ.

قال: إنَّه هو يقولُها، فقُم!

قال أبو الحسنِ: وكان الشيخُ إذا مشى إلى أمرٍ خارقٍ بقيتُ معه غائباً عن الحِسِّ، كأنَّهُ يُبْطِلُ منّي ما أنا به أنا، فأُصْبِحُ ظلاً آدمياً معلَّقاً بهِ. ولا تقعُ الخوارقُ إلا لمن وَجَدَ القوةَ المُكمِّلةَ لروحِهِ، وهذِهِ القوةُ تُستمَدُّ من الشيخِ الواصلِ، فلا بدَّ من إمامٍ يأخذُ عن إمامٍ، كأنَّها سلسلةٌ نفسيّةٌ

متميّزةٌ في الأرضِ، فتغيّرَ الواحدةُ منها بالواحِدَةِ، إذ تقعُ في جوِّها فتُورِقُ وتُثمِرُ؛ كالشجرةِ: جَوٌّ يكسُوها، وجوٌّ يُذبِلُها، وجَوٌّ يسْلبُها سلباً؛ وكذلك تفعلُ النفسُ إذا كان لها جوٌّ.

وخرجنا من دمشقَ، وأنا خلفَ الشيخِ كالمحمولِ، فرأيتُنا وقد أشرفنا على بناءٍ عظيمٍ، ورأيتُ أقواماً يتَلقَّوْنَ الشيخَ، ويسلِّمونَ عليه، ويتبرَّكون بمقدَمِه؟

فأنكرتْهُم نفسي، ووجدتُ منهم وَحْشةً، فالتفتَ إليَّ الشيخُ وقال: هؤلاءِ من الجنِّ، وما إليهم قصْدُنا، فلا تَشْتَغِلْ بما ترى، واشتغل بي.

ثم ننتهي إلى البناءِ العظيمِ، فتستقبلنا طائفةٌ أخرى، ويُدخِلونَ الشيخَ وأنا خلفَهُ، ويمرونَ بنا على دنيا مخبوءةٍ تُعْجِزُ الوَصْفَ، مما لاعينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعت؛ فيقولون: هذهِ كنوزُ سليمانَ وذخائِرُهُ، ويطوفونَ بالشَّيْخِ يَعْرِضونها عليه كنزاً كنزاً؛ فرأينا ثَمَّ نعيماً ومُلكاً كبيراً، ثم انتهينا آخراً إلى مغارةٍ خَسِيْفَةٍ، كأنها عِرْقٌ من عُروقِ جِسْمِ الأرض، يتفجَّرُ منها دويٌّ كالرَّعْد القاصفِ، إلا أنَّه في السمعِ كخوارِ الثوْرِ، إلا أنَّه ثورٌ خُيّل إليَّ أنَّ رأسَه في قدْرِ جبلٍ عظيمٍ، يتعلَّقُ به غَبغبٌ[1] في قدرِ جبلٍ آخرَ، على جسمٍ يَسُدُّ الخافقينِ، فخُوارُهُ كأنَّهُ صُراخُ الأرضِ، وإذا أنا بأقبحِ مكانٍ مَنْظَراً، وأنتنِه رِيْحاً، كأنَّه سِجْنٌ بناؤهُ من الجيفِ.

فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا سِجْنُ إبليسَ، وهو هنا في هذهِ المغارةِ منذُ زمنِ سليمانَ عليه السلام.

قلتُ: أفَمَسْجونٌ هُوَ؟

قالوا: وإنَّه مع ذلك مُوقرٌ بأمثال الجبالِ حَديْداً، يَرْبِضُ[2]

---

(١) غبغب الثور وغبيه: ما تثنّى من لحمِ ذقنِه من أسفل.

(٢) [لا يستطيع المشي ولا الحراك]

به في مخبَـئِهِ، فلا يتزحزحُ ولا يتَحَلْحلُ.

قلتُ: وإنّه مع ذلك قَدْ مَلأَ الدنيا فساداً، فكيفَ به لو كانَ طليقاً؟

قالوا: فلو أنَّه كان طليقاً لا سْتحوذَ على الناسِ كافَّةً؛ فيجتمعُ أهلُ الأرضِ على شهوةٍ واحدةٍ لا شيءَ غيرُها، فيبطلُ مع هذِهِ الشهوةِ الواحدةِ كلُّ تدبيرٍ بينهم، فلا تقومُ لهم سياسةٌ، ولا يكونُ بينهم وازعٌ؛ فيرجعون كالكلابِ أصابها الكلَبُ، وهاج بها، فأنيابُها في لحمِها، لا يزالُ يعضُّ بعضُها بعضاً، فليسَ لجَميْعِها إلا عملٌ واحدٌ يُسلِمُها إلى الهلاكِ، ويُصْبحُ ظَهْرُ الأرضِ أعرى من سراةِ أديمٍ[1].

وإنما يَصلحُ الناسُ باختلافِ شهواتِهم وتَنَافُرِها وتنازُعِها: فبعضُها يَحْكُمُ بعضاً، وشيءٌ منها يَزَعُ شيئاً، ومَنْ تَخَلَّصَ مِنْ نزوةٍ قمعَ بها نَزوةً أخرى؛ كالمتزوِّجِ المُحصَنِ يَحكُمُ بالجَلْدِ والرَّجْمِ على مَنْ ليستْ له امرأةٌ فزنا؛ وكالغنيِّ الواجِدِ يَحْكُمُ على اللِّصِ الذي لَمْ يَجِدْ فسرقَ، وهلمَّ جرا.

وما ينشأ الناسُ في ثلاثةِ أعمارٍ، فيشبُّونَ ويكتَهِلونَ ويهرَمُون، إلا لِتَخْتَلِفَ شهواتُهم، وتختلفَ مقاديرُ الرغبة فيها، فتتحقَّقُ مِنْ ثَمّ تلك الحِكْمةُ الإلهيَّةُ في التدبيرِ، ويَجِدُ الشرعُ محلَّه بينَهُم، كما يَجِدُ العصيانُ بينهم محلَّهُ.

ولو أنَّ أمةً كلَّها أطفالٌ أو كهُولٌ أو شيـوخٌ، لبادتْ في جيلٍ واحدٍ؛ وإنّه ليسَ أسمج من الرذيلةِ تكونُ وحدَها في الأرضِ إلا الفضيلَةُ تكونُ وحدَها، فلابدَّ مِنْ شيءٍ يَظْهَرُ بهِ شيءٌ غيرهُ، كالضدِّ والضدِّ؛ والمعركةُ إذا انتصرَ كلُّ مَنْ فيها كانتْ هزلاً، وكانَتْ شيئاً غير المعركةِ.

قال أبو الحسن: وقلتُ لهم: فإذا كانَ الشيطانُ سَجيْناً قد ربضَتْ به

---

(١) [الأرض الجرداء]

أثقالُه، حتى لَهُوَ في سجنٍ من سجنٍ مبالغةً في كفِّه والتضييقِ عليه ـ فكيفَ يفتِنُ الناسَ في أرجاءِ الأرضِ، ويُوسْوِسُ في قلوبهم، حتى لَهُوَ يَدٌ بينَ كلِّ يدَينِ، وحتّى لَهُوَ العينُ الثالثةُ لعيني كلِّ إنسانٍ؟

قالوا: إنّ في روحهِ الناريةِ قوةً تَفْصِلُ منها، وتَـنْـتَشِرُ في الأرضِ، كشُعاعِ الشَّمْسِ من الشَّمْسِ: هذهِ كُـرَةٌ نارِيـةٌ ميِّـتـةٌ معلَّقـةٌ على الأجسامِ مُرْصَدَةٌ لها، وتلكَ كرةٌ ناريةٌ حيَّةٌ معلَّقةٌ على النفوسِ مُرصدةٌ لها، وبهذهِ وتلكَ عمارُ الدنيا وأهلِ الدنيا.

قلتُ: لعلَّكُم أردتم أنْ تقولوا: خرابُ الدنيا وأهلِ الدنيا فغَلِطتم، فكانَ ينبغي أنْ يَجيءَ بَدَلُ الغَلَطِ. . .

فقال أحدُهم: يا أبا الحسنِ: خرَقَ الثوبُ المسمارَ. جازَ هنا لأَمْنِ اللَّبسِ أنْ يكونَ المفعولُ به ـ وهو الثوبُ ـ مرفوعاً فاعلُه ـ وهو المسمارُ ـ منصوباً، هل جئتَ ـ ويحكَ ـ تطلبُ النحو أو تطلبُ الشيطانَ. . . ؟

قال أبو الحسنِ: فقطعني الجنيُّ ـ والله ـ وأخجلني، ونظرتُ خِلْسةً إلى الشيخِ أراهُ كيفَ يَسْخرُ منّي، فإذا الشيخُ قد املَّس[١] فلا أراه، وإذا أنا وحدي بَيْنَ الجنِّ، وبإزاءِ هذا الساحِرِ وُضعتْ عينُه في جبهتِهِ، وشُقَّ فمهُ في قفاهُ. . ! فَسُرِّيَ عني، وزالَ ما أجدُه، وقلتُ في نفسي: الآنَ أبلُغُ أربي من الشَّيطانِ، ويكونُ الأمرُ على ما أريدُ، فلا أجدُ مَنْ أحتشِمُ منه، ولا تقطعُني هيبةُ الشيخِ. . !

ووقع هذا الخاطِرُ في نفسي، فاستعذتُ بالله، ولعنتُ الشيطان، وقلتُ: هذا أولُ عبثِه بي، وجَعْلُه إياي من أهلِ الرياءِ، كأنَّ لي شأناً في حضورِ الشيخ وشأناً في غيابه، وكأنّي مُنافقٌ أعلِنُ غيرَ ما أُسِرُّ، وقلتُ: إنّا للهِ! كِدتَ يا أبا الحسن تَـتَشيطنُ!

---

(١) [ملس الرجل ذهب سريعاً].

ثم هممتُ أنْ أنكصَ على عقبيَّ، فقد أيقنتُ أنَّ الشيخَ إنما تخلَّى عنّي لأكونَ هنا بنفسي لابهِ، وما أنا هنا إلا به لا بنفسي، فيوشكُ إذا بقيتُ في موضعي أنْ أهلكَ! بَيْدَ أنَّ المغارةَ انكشفتْ لي فجأةً فما ملكتُ أنْ أنظُرَ؛ ونظرتُ فما ملكتُ أنْ أقِفَ، ووقفتُ أرى، فإذا دخانٌ قد هاجَ فارتفعَ يثورُ ثوَرَانَه حتى تملأَ المكانُ به، ثم رقَّ ولطُف.

واسْتَضْرَمَتْ منه نارٌ عظيمةٌ، لها وهجانٌ شديدٌ، يضطرمُ بعضُها في بعضٍ، ويُسمَعُ من صوتها مَعمعَةٌ قويةٌ، ثم خَمدت.

وانفجر في موضِعها كالسَّدِّ المنْبثِقِ مِنْ ماءٍ كثيفٍ أبيضَ أصفرَ أحمرَ، كأنَّهُ صديدٌ يتَقَيَّحُ في دمٍ، ثم غاضَ.

وتَنبَّعَتْ في مكانِهِ حماةٌ مُنْتِنَةٌ، جعلتْ تربوْ وتعظمُ حتى خفتُ أنْ تبتلعَني وأذهبَ فيها، فسميتُ الله تعالى، فغارتْ في الأرضِ.

ثم نظرتُ، فإذا كَلْبٌ أسودُ مُحْمَرُّ الحماليقِ، هائلُ الخِلْقةِ، مسْتأسِدٌ، قد وقفَ على جيفةٍ قذرةٍ، غابَ فيها خَطْمُه[1] يَعُبُّ مما تسيلُ به.

فقلتُ: أيها الكلبُ، أأنتَ الشيطان؟

وأنظرُ فإذا هو مَسْخٌ شائهٌ، كأنَّه إنسانٌ في بهيمةٍ، قد امتزجا، وطغى منهما شيءٌ على شيءٍ، أما وجهه فأقبحُ شيءٍ منظراً، تحسَبُه قد لبِسَ صورةَ أعمالِهِ..

ونطقَ فقالَ: أنا الشيطانُ!

قلتُ: فما تِلْكَ الجيفةُ؟

قال: تلك دنياكُم في شهواتها، وأنا ألْتَقمُ قلبَ الفاسقِ أو الآثم منكم، كما ألتقمُ دودةً مِنْ هذِهِ الجيفةِ.

---

(١) [الخطم من الدابة: مقدم أنفها وفمها].

قلتُ: عليك لعنةُ اللهِ وعلى الفاسقينَ والآثمينَ، فكيفَ كنتَ دخاناً، ثم انقلبتَ ناراً، ثم رَجَعْتَ قيحاً، ثم صِرْتَ حَمْأةً[1]، ثم كُنْتَ كلباً على جيفةٍ؟

قال: لا تلعنِ الفاسقين والآثمينَ؛ فإنَّهم العُبَّادُ الصالحون بأحدِ المعنيينِ، وأنْتَ وأمثالُك عبَّادٌ صالِحُوْنَ بالمعنى الآخر، أليس في الدنيا حياةٌ ووقاحةٌ؟ فأولئكَ يا أبا الحسنِ هُم وقاحتي أنا على الله! أنا منكم في زُهْدِكُمْ حرمان الحرمان، وفقرُ الفقرِ، ولقد أهلكتموني بؤساً؛ غير أنّي معهم لذةُ اللذة، وشهوةُ الشهوةِ، وغنى الغنى، لاتتمُّ لذةٌ في الأرض، ولا تحلو لذائقها، وإنْ كانت حلالاً، إلا إذا وضعتُ أنا فيها معنىً من معانيَّ، أو وقاحةً من وقاحتي! حتى لأجعلَ الزوجةَ لزوجها مثل الشّعْرِ البليغ إذا استعارَ لها معنى مني، وكلُّ ما فسدتْ به المرأةُ فهو مجازي واستعارتي لها أجعلها به بليغةً. . .

وأنتم يا أبا الحسنِ تقطعونَ حياتَكُم كلَّها تجاهِدُوْنَ إثمَ ساعةٍ واحدةٍ من حياةِ عُبَّادي، فانظر ـ رحَمك اللهُ ـ لئنْ كانتْ ساعةٌ من حياتِهم هي جهنَّمكُم أنتم، فكيف تكونُ جهنمُ هؤلاءِ المساكينِ؟

إنكَ رأيتَني دخاناً، لأنّي كذلك أنبعثُ في القلبِ الإنساني، فمتى تحركتُ فيه حركة الشرّ كنتُ كالاحتيال لإضرام النّارِ بالنفخِ عليها؛ فمن ثَمَّ أكونُ دُخاناً، فإذا غَفلَ عني صاحِبُ القلبِ تضرَّمتُ في قلبهِ ناراً تطلُبُ ما يُطْفِئُها؛ ثم يُواقِعُ الإثمُ والمعصية، ويقضي نَهْمتَه، فأبردُ عن قلبهِ، فيكونُ في قلبهِ مثل الحَرقِ الذي بَرد، فتأكّلَ موضعُه، فتقيَّحَ، ثم يختلِطُ قيحُ أعمالِهِ بمادتِهِ الترابيةِ الأرضيةِ، فينقلِبُ هذا المسكينُ حماةً إنسانيةً لا تزالُ تربو وتَنْتَفِخُ كما رأيتَ.

---

(١) [الطين الأسود المنتن]

قلتُ: أعوذُ باللهِ مِنْكَ! أفلا تَعْرِفُ شيئاً يردُّكَ عن القلبِ وأنتَ دخانٌ بعْدُ؟

فقهقه اللعينُ وقال: ما أشدَّ غفلتَك يا أبا الحسنِ، إذْ تَسْأَلُ الشيطانَ أنْ يخترِعَ التوبةَ! أما لو أنَّ شيئاً يَختَرِعُ التوبةَ في الأرضِ لاخترعها القبرُ الذي يدفِنُ فيه بعضُكم بعضاً كلَّ طَرْفَةِ عينٍ من الزَّمن، فتُنزِلون فيه الميت المسكين قد انقطعَ مِنْ كلِّ شيءٍ، وتتركونهُ لآثامِهِ، وحسابِ آثامِهِ، والهلاكِ الأبديِّ في آثامِهِ؛ ثم تعودونَ أنتم لاقترافِ هذهِ الآثامِ بعينها!

قلتُ: عليكَ وعليكَ أيها اللعينُ؛ ولكنْ ألا يتبدَّدُ هذا الدخان إذا ضربته الريحُ أو انطفأ ما تحتَهُ!

قالَ: أوّه! لقد أوجعتني كأنما ضربتني بِحبْلٍ من نارٍ، إنّ نبيَّكم عرفَها، ولكنكم أغبياءُ؛ تأخذونَ كلام نبيِّكُم كأنّما هو كلامٌ لا عملٌ، وكأنّهُ كلامُ إنسانٍ في وقتِهِ، لا كلامُ النبوّةِ للدَّهْرِ كلِّهِ وللحياةِ كلِّها؛ ولهذا غلبتُ أنا الأنبياءَ على النَّاسِ، فإني أضعُ المعاني التي تعملُ، لا الحكمةَ المتروكةَ لمن يَعْمَلُ بها ومَنْ لا يَعْمَلُ.

أتدري يا أبا الحسنِ، لماذا أعجزَني أسلافُكُم الأوّلونَ مثل: عُمَرَ وأبي بكرٍ؟ حتى كان إسلامُهُم مِنْ أكبرِ مصائبي، فتركوني زمناً ـ وأنا الشيطانُ ـ أرتابُ في أنّي أنا الشيطانُ. . . ؟

قلت: لماذا؟

قال: أراكَ الآن لم تَلْعَنْ، فلستُ قائلَها إلا إذا ترَحَّمْتَ عليَّ.

قلتُ: عليكَ وعليكَ مِنْ لَعَنَاتِ الله! قُل لماذا؟

قال: أسائلٌ ويأمُرُ؟ وطُفيْليٌّ ويقترِحُ؟ لابدَّ أنْ تترحَّمَ!

قلتُ: يرحمُنا الله منك! قل لماذا؟

قال: وهذه لعنةٌ في لفظةِ رحمةٍ؛ لا، إلاّ أنْ تترحَّم عليَّ أنا إبليسُ الرَّجيمُ؟

قلت: فيُغني الله عَنْ عِلْمِكَ؛ لقد ألهمَتْنِيهَا روحُ النبيِّ ﷺ: إنَّ النبوّةَ كانتْ هي بأعمالها وصفاتها تفسيراً للألفاظِ على أسمَى الوجوهِ وأكملِهَا، فكانَ روحُ النبيِّ ﷺ لتلكَ الأرواحِ كالأمِّ لأبنائها؛ وقد رأوْهُ لا يغضبُ لنفسِه ولالحظِّ نفسه، وذلك لا يستقيمُ إلا بالقصدِ في أمرِ النفسِ، وجَعْلِ ناحيةِ الإسرافِ فيها إسرافاً في العملِ لسعادةِ النّاسِ.

وكلَّما ارتدَّ الإنسانُ لنفسِه وحظوظِها ارتدَّ إليكَ ـ أيُّها اللعين ـ وأقبلَ على شقاءِ نفسِه، وكلَّما عَمِلَ لسعادةِ غيرِهِ ابتعَد عنك ـ أيها الرجيم ـ وأقبلَ على سعادةِ نفسه، وتركُ الغَضَبِ وحظوظِ النفسِ هو الصَّبْرُ، وصبرُ الأنبياءِ والصديقينَ ليسَ صبراً على شيءٍ بعينه في الحياة بل هو الصبرُ على حوادثِ العُمرِ كلِّه، كصبر المسافرِ إنْ كان عزيمةً مدة الطريقِ كلِّها، وإلا كان فساداً في القوةِ، ووقعَ به الخذلانُ.

فهذا الصبرُ المُعتزِمُ المصمِّمُ، الذي يُوطِّنُ به الرَّجُلُ نفسَه أنْ يكونَ رجلاً إلى الآخرِ ـ هو تعبُ الدنيا، ولكنَّهُ هو رَوْحُ الجنةِ مع الإنسانِ في الدنيا.

والمؤمنُ الصَّابِرُ رجلٌ مُقْفَلٌ عليهِ بأقفالِ الملائكةِ، التي لا يقتحمُهَا الشيطانُ، ولا تَفتَحها مصائبُ الدنيا؛ ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ المؤمنَ يُنْضِي شيطانَهُ كما يُنْضي أحدُكُمْ بعيرَه في سَفَرِهِ»[1]. كأنَّهُ يقولُ: لَوْ لَمْ يصبِرِ المسافرُ دائباً معتزماً مدةَ سفرِهِ كلِّها لما أنضى بعيرَه، ولو لم يصبِرِ المؤمنُ دائباً معتزماً مدةَ حياته كلِّها لما أنضى[2] شيطانَهُ.

---

(١) [تقدّم تخريجه ص (٢٣٨)].

(٢) [أهزل]

فصاحَ الشيطانُ: أوَّه، أوَّه! ولكنْ قُل لي يا أبا الحسنِ: ماصَبْرُ رَجُلٍ مُؤمنٍ قويِّ الإيمانِ، قد استطاعَ بقوةِ إيمانِهِ أنْ يُفيقَ مِنْ سُكرِ الغنى، فتخلَّصَ من نزواتِ الشياطينِ الذهبيةِ الصغيرةِ التي تسمُّونها الدنانير؛ وقد أردتُه على أنْ يكذِبَ، فرأى الإيمانَ أن يَصْدقَ؛ وجهَدْتُ به أنْ يَغْضَبَ، فرأى الحكمةَ أنْ يَهْدأَ؛ وحاولتُ منه أنْ يَطْمَعَ، فرأى الراحةَ أن يَرْضى؛ وسوَّلتُ له أنْ يَحسُدَ، فرأى الفضيلةَ ألاَّ يُبالي؛ وأخذَ لنفسِه من كلِّ شيءٍ في الحياةِ بما يثقُ أنَّه الإيمانُ والصبرُ والهدوءُ والرضا والقناعةُ؛ وأحاطَ نفسَه من هذه الأخلاقِ بالسعادةِ القلبيةِ، واجتزأ[1] بها؛ وقَصَرَ نظرَه على الحقيقةِ؛ وَوَجَدَ الجمالَ في نفسه الطيِّبةِ الصافيةِ؛ وأجرى ما يُؤلِمهُ وما يَسُرُّه مجرىً واحداً؛ ونظرَ إلى العمر كلِّه كأنَّه يومٌ واحدٌ، يرقبُ مغربَ شمسِه؛ وأخذَ مِنْ إرادتِهِ قوةً أنستْهُ ما لم تُعطهِ الدنيا، فلم يَحفَلْ بما أعطتْ الدنيا وما منَعَتْ؛ وعاشَ على فقرِهِ بكلِّ ذلك كما يعيشُ المؤمنُ في الجنةِ: هذا في قصرٍ من لؤلؤةٍ أو ياقوتةٍ أو زَبَرْ جَدَةٍ، وذاكَ في قصرٍ من الحكمةِ أو مِنَ الإيمانِ أو من العقلِ.

قال الشيطانُ: فلما أعجزني صلاحاً، ورضىً، وصبراً، وقناعةً، وإيماناً، واحتساباً، وكان رجلاً عالماً فقيهاً ـ سوَّلتُ له أنْ يَخْرُجَ إلى المسجدِ ليعظَ الناسَ، فينتفعوا به، ويُبَصِّرُهُم بدينِهِم، ويتكلَّمَ في نصِّ كلامِ اللهِ؛ فعَقَدَ المجلسَ، ووعظَ، وانصرفوا، وبقي وحدَهُ.

فجاءت امرأةٌ تسألُه عن بعضِ ما يحتاجُ إليه النساءُ في الدينِ من أمرِ طبيعتِهِنَّ؛ وكانتْ جزلةً غضَّةً رابيةً، يهتزُّ أعلاها وأسفلُها، وتمشي قصيرة الخطوِ، مُثَّاقلةً، كالمتضايقة من حَمْلِ أسرارِ جمالها وأسرارِ بدنها الجميلِ؛ فبعضُ مشيتها يقظةٌ، وبعضُها نومٌ فاترٌ تخالِطُهُ اليقظةُ؛ ولا يراها

(١) [اكتفى]

الرجلُ الفَحْلُ التامُّ الفُحولةِ إلا رأى الهواءَ نفسَه قد أصبحَ مِنْ حولها أنثى، مما تَعْصِفُ بهِ رِيحُها العطرة عطر زينتِها وجسمِهَا.

وكان الواعظُ قد ترمَّلَ مِنْ أشْهُرٍ، وكانت المرأةُ قد تأيَّمَتْ من سنواتٍ؛ فلما رآها غَضَّ طرفَه عنها؛ ولكنَّها سألَتْهُ بألفاظها العذبةِ عن أمور هي من أسرارِ طبيعتها، وسألتْهُ عن طبيعتها بألفاظِها؛ فَسَمِعَ منها مثلَ صوتِ البِلَّوْرِ، يتكسَّر بعضُه على بعضٍ.

وتحدّثتْ له، وكأنَّها تتحدَّثُ فيه: فَسَمِعَ بأذنه ودمِه، ثم كانَ غضُّ عينه أقوى لرؤيةِ قلبهِ وجَمْعِ خواطرِهِ.

ورأى صوتها يشْتَهي؛ وعانقته رائحتُها العطريةُ النفَّاذةُ؛ وأحاطتْه بجوٍ كجوِّ الفِراشِ؛ وعادَتْ أنفاسُها كأنَّها وسوسةُ قُبَلٍ؛ وصارَتْ زفراتُها كالقِدْرِ إذا استجْمعتْ غلياناً؛ وطَلَعَتْ في خيالِهِ عُريانة، كما تطلُعُ للسكرانِ من كأسِ الخمرِ حُوريَّةٌ عُريانةٌ، لها جِسْمٌ يبدو من اللِّينِ والبضاضةِ والنَّعمةِ كأنَّهُ من زَبَدِ البَحْرِ؟

قال أبو الحسنِ: وكنتُ كالنائمِ، فما شعرتُ إلا بصوتِ كصكِّ الحَجَرِ بالحَجَرِ، لا كتكسُّرِ البِلَّوْرِ بعضه على بعضٍ، وسمعتُ شيخي يقولُ: أفسَقْتَ[1]...؟

* * *

---

(١) [نشرت في «الرسالة» السنة الثالثة (١٩٣٥) العدد (٨٨)]

الأســد

جَلَسَ أبو عليٍّ أحمدُ بنُ محمَّدٍ الرُّوذَباريُّ البغـداديّ[١] في مجلسِ وَعْظِهِ بمصرَ بعد وفاةِ شيخِه أبي الحسنِ بُنَانٍ الحمّال الزاهد الواسطي شيخِ الديارِ المصريةِ[٢] وكانَ يُضْرَبُ المثلُ بعبادتِهِ وزهدِه، وقد خرجَ أكثرُ أهلِ مصرَ في جنازتِه، فكان يومُه يوماً كالبرهانِ من العالمِ الآخرِ لأهل هذِهِ الدنيا؛ ما بقيَ أحدٌ إلا اقتنَعَ أنَّه في شهواتِ الحياةِ وأباطيلِها كالأعمى في سوءِ تمييزِه بينَ لونِ الترابِ ولونِ الدقيقِ؛ إذ ينظُرُ كلُّ امرىءٍ في مصالِحِهِ ومنافعِهِ مثل هـذه النظـرةِ، باللَّمْـسِ لا بـالبصرِ، وبالتوهُّـمِ لا بالتحقيقِ، وعلى دليلِ نفسِهِ في الشيءِ لا على دليلِ الشيءِ في نفسِه، وبالإدراكِ من جهةٍ واحدةٍ، دونَ الإدراكِ من كلِّ جهةٍ؛ ثم يأتي الموتُ، فيكونُ كالماءِ صُبَّ على الدقيقِ والترابِ جميعاً، فلا يرتابُ مُبْصرٌ ولا أعمى، ويَبْطُلُ ما هو باطلٌ، ويَحَقُّ الذي هو حقٌّ.

وتكلَّمَ أبو عليٍّ فقال: كنتُ ذاتَ يومٍ عِنْدَ شَيْخِنا الجُـنَيْدِ[٣] في بغدادَ،

---

(١) توفي سنة (٣٢٢).
(٢) توفي سنة (٣١٦).
(٣) توفي سنة (٢٩٨).

فجاءَهُ كتابٌ من يوسفَ بن الحسن شيخِ الري والجبال في وقته[١] يقول فيه: لا أذاقَكَ الله طعمَ نَفْسِكَ، فإنَّكَ إنْ ذُقتَها لم تَذُقْ بعدَها خيراً أبداً!

قال: فجعلتُ أُفَكِّرُ في طعم النَّفْسِ ما هو، وجاءني ما لم أرضَهُ من الرأي، حتى سمعتُ بخبرِ بُنَان رحمه الله مع أحمدَ بن طولون أميرِ مِصْرَ، فهو الذي كان سَبَبَ قدومي إلى هنا، لأرى الشيخَ وأصحبَه وأنتفعَ بهِ.

والبلدُ الذي ليسَ فيه شيخٌ من أهلِ الدينِ الصَّحيحِ، والنفسِ الكاملةِ، والأخلاقِ الإلهيةِ ـ هو في الجَهْلِ كالبلدِ الذي ليسَ فيه كتابٌ من الكتبِ ألبتةَ، وإنْ كانَ كلُّ أهلِهِ علماءَ، وإنْ كان في كلِّ محلةٍ منه مدرسةٌ، وفي كلِّ دارٍ من دُورِهِ خِزانَةُ كُتُبٍ، فلا تغني هذه الكتبُ عن الرجالِ؛ فإنّما هي صوابٌ أو خطأٌ ينتهي إلى العقلِ، ولكنَّ الرَّجُلَ الكامِلَ صوابٌ ينتهي إلى الرُّوحِ، وهو في تأثيره على النَّاس أقوى من العلمِ، إذْ هو تفسيرُ الحقائقِ في العملِ الواقعِ وحياتها عاملةً مرئيةً داعيةً إلى نفسِها.

ولو أقامَ النَّاسُ عشرَ سنينَ يتناظرونَ في معاني الفضائلِ ووسائلِها، ووضعوا في ذلك مئةَ كتابٍ، ثم رأوا رجلاً فاضلاً بأصدق معاني الفضيلةِ، وخالطوه وصحبوه ـ لكانَ الرَّجلُ وحدَه أكبرَ فائدةً من تلك المناظرة، وأجدى على النَّاسِ منها، وأدلَّ على الفضيلةِ من مئةِ كتابٍ، ومن ألفِ كتابٍ، ولهذا يرسِلُ الله النبيَّ مع كلِّ كتابٍ مُنْزَلٍ، ليعطيَ الكلمةَ قوةَ وجودِها، ويُخْرِجَ الحالةَ النفسيةَ من المعنى المعقولِ، ويُنْشِىءَ الفضائلَ الإنسانية على طريقةِ النَّسْلِ من إنسانِهَا الكبيرِ.

وما مَثَلُ الكتابِ يتعلَّمُ المرءُ منه حقائقَ الأخلاقِ العاليةِ، إلا كَوَضْعِ الإنسانِ يدَهُ تحتَ إبطِهِ ليرفعَ جسمَهُ عن الأرضِ؛ فَقَدْ أنشأ يَعْملُ، ولكنَّهُ لن يَرْتَفِعَ.

---

(١) كانت وفاته (٣٠٤).

ومنْ ذلك كان شَرُّ النَّـاسِ هُمُ العلماءَ والمعلمينَ إذا لم تَـكُنْ أخلاقُهم دروساً أخرى. تعمَلُ عملاً آخرَ غيرَ الكلام.

فإنَّ أحدَهُمْ ليجلسُ مجلسَ المعلِّمِ، ثم تكونُ حولَهُ رذائِلُهُ تعلِّمُ تعليماً آخرَ من حيثُ يدري ولا يدري، ويكونُ كتابُ الله مع الإنسانِ الظاهرِ مِنْهُ، وكتابُ الشيطانِ مع الإنسانِ الخفيِّ فيهِ.

قال أبو عليٍّ: وقَدِمْتُ إلى مِصْرَ لأرى أبا الحسنِ، وآخذَ عنه، وأُحقِّقَ ما سمعتُ مِنْ خبَرِه مع ابن طولون؛ فلما لقيتُه لقيتُ رجلاً من تلاميذِ شيخِنا الجُنَيدِ، يتلألأُ فيه نورُه، ويعمَلُ فيه سِرُّهُ؛ وهما كالشمعةِ والشمعةِ في الضوء، وإنْ صَغُرَتْ واحدةٌ وكبُرتْ واحدةٌ؛ وعلامةُ الرَّجلِ مِنْ هؤلاءِ أنْ يعملَ وجودُه فيمَنْ حولَهُ أكثرَ مما يعملُ هو بنفسِه، كأنَّ بين الأرواحِ وبينَهُ نسباً شابكاً، فله معنى أبوةِ الأب في أبنائِهِ: لا يراهُ مَنْ يراهُ منهم إلا أحسَّ أنَّه شخصُه الأكبرُ؛ فهذا هو الذي تكونُ فيه التكملةُ الإنسانيةُ للنَّاسِ، وكأنَّهُ مخلوقٌ خاصةً لإثباتِ أنَّ غيرَ المستطاع مستطاعٌ.

ومن عَجيبِ حكمةِ الله أنَّ الأمراضَ الشديدةَ تَعْمَلُ بالعدوى فيمَنْ قاربَها أو لامَسَها، وأنَّ القوى الشديدةُ تعمَلُ كذلِكَ بالعدوى فيمَنْ اتصلَ بها أو صاحبَها، ولهذا يخلقُ الله الصالحين، ويجعلُ التقوى فيهم إصابةً كإصابةِ المرضِ: تَصْرِفُ عن شهواتِ الدنيا، كما يَصْرِفُ المرضُ عنها، وتكسِرُ النفسَ كما يكسِرُها ذاك، وتُفقِدُ الشيءَ ما هو بهِ شَيْءٌ، فتتحوَّلُ قيمتُه، فلا يكونُ بما فيهِ من الوهمِ، بل بما فيه من الحقِّ.

وإذا عَدمَ النَّاسُ هذا الرجلَ الذي يعديهم بقوته العجيبة، فقلَّما يصلحونَ للقوة، فكبارُ الصَّالحين، وكبارُ الزعماءِ، وكبارُ القوادِ، وكبارُ الشجعانِ، وكبارُ العلماءِ وأمثالُهم ـ كلُّ هؤلاءِ من بابٍ واحدٍ، وكلُّهم في الحكمةِ ككبارِ المرضى.

* * *

قال أبو عليٍّ: وهممتُ مرةً أنْ أسألَ الشيخَ عن خبره مع ابن طولون، فقطعتني هيبتُه، فقلتُ: أحتالُ بسؤالِهِ عَنْ كلمةِ شيخِ الرَّي: لا أذاقكَ الله طَعْمَ نفسِك

وبينما أُهيِّئُ في نفسي كلاماً أجري فيه هذِهِ العبارةَ، جاءَ رَجُلٌ فقال للشيخِ: لي على فلانٍ مئةُ دينارٍ، وقد ذهبتِ الوثيقةُ التي كُتِبَ فيها الدَّيْنُ، وأخشَى أن يُنْكِرَ إذا هو عَلِمَ بضياعها؛ فادعُ الله لي وله أن يُظْفِرَني بديني، وأنْ يُثَبِّتَهُ على الحق.

فقال الشيخُ: إني رجلٌ قد كبرتُ وأنا أحبُّ الحلوى، فاذهبْ فاشترِ رطلاً منها، وائتني به حتى أدعوَ لك!

فذهبَ الرجلُ، فاشترى الحلوى، ووضعَها له البائعُ في ورقةٍ، فإذا هي الوثيقةُ الضائعةُ، وجاءَ إلى الشيخِ، فأخبرَهُ، فقال له: خذْ الحلوى فأطعمْها صبيانك، لا أذاقنا الله طعم أنفسِنا فيما نَشْتَهِي! ثم إنّه التفتَ إليَّ، وقال: لو أنَّ شجرةً اشتهتْ غيرَ ما بهِ صِحَّةُ وجودِها، وكمالُ منفعتِها، فأُذيقتْ طَعْمَ نفسِها، لأكلتْ نفسَها وذوتْ.

قال أبو عليٍّ: والمعجزاتُ التي تَحْدُثُ للأنبياءِ، والكراماتُ التي تكونُ للأتقياءِ، وما يَخْرُقُ العادةَ ويَخْرُجُ عن النَّسقِ ـ كلُّ ذلك كقولِ القدرةِ عن الرجلِ الشاذِّ: هو هذا.

فلم تبقَ بي حاجةٌ إلى سؤالِ الشيخ عن خبره مع ابن طولون، وكنتُ كأنّي أرى بعيني رأسي كلَّ ما سمعتُ، بَيْدَ أني لم أنصرِفْ حتى لقيتُ أبا جعفر القاضي أحمدَ بنَ عبدِ الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينوري[1] ذاك الذي يحدِّثُ بكتبِ أبيه كلِّها مِنْ حِفْظِهِ، وهي واحدٌ وعشرون مصنَّفاً، فيها

(١) توفي سنة (٣٢٢).

الكبيرُ والصغيرُ؛ فقال لي: لعلك اشتفيتَ مِنْ خبرِ بُنان مع ابن طولون، فمن أجله زعمتَ جئتَ إلى مصر.

قلتُ: إنَّه تواضعَ فلم يخبرني، وهبتُهُ فلم أسألْهُ. قالَ: تعالَ أحدثْكَ الحديثَ.

كان أحمدُ بنُ طولونَ[1] من جاريةٍ تركيةٍ، وكانَ طولونُ أبوه مملوكاً، حمله نوحُ بنُ أسدٍ عاملُ بخارَى إلى المأمون فيما كان موظفاً عليه من المال والرقيق والبراذين وغير ذلك؛ فوُلِدَ أحمدُ في منصبِ ذِلَّةٍ تَسْتَظْهِرُ بالطغيانِ، وكانَتْ هاتان طبيعتَيْهِ إلى آخرِ عمره، فذهبَ بهمَّتِهِ مذهباً بعيداً، ونشأ من أول أمرِهِ على أن يُتمَّ هذا النقصَ، ويكونَ أكبرَ من أصلِهِ، فطلبَ الفروسيةَ والعِلْمَ والحديثَ، وصَحِبَ الزُّهادَ وأهلَ الورعِ، وتميَّزَ على الأتراكِ، وطَمِحَ إلى المعالي، وظَلَّ يرمي بنفسِه، وهو في ذَلك يكبُرُ ولا يزال يكبُرُ، كأنَّما يريدُ أن ينقطِعَ من أصلهِ، ويلتحقَ بالأمراءِ، فلما التحقَ بهم ظَلَّ يكبُرُ ليلحقَ بالملوكِ، فلما بلغَ هؤلاءِ كانتْ نيتُه على ما يعلمُ الله.

قال: وكان عقلُه مِنْ أثرِ طبيعتيْهِ كالعقلين لرجلين مختلفينِ، فله يدٌ مع الملائكةِ، ويدهُ الأخرى مع الشياطينِ، فهو الذي بنى المارستان، وأنفقَ عليه، وأقامَ فيه الأطباءَ، وشرطَ إذا جِيءَ بالعليلِ أنْ تُنْزَعَ ثيابُه، وتحفَظَ عند أمينِ المارستان، ثم يُلْبَسَ ثياباً، ويفرَشَ له، ويُغْدَى عليه ويراحَ بالأدويةِ والأغذيةِ والأطباءِ حتى يبرأَ، ولم يكنْ هذا قبل إمارتِهِ؛ وهو أول مَنْ نظرَ في المظالمِ مِنْ أمراءِ مصرَ؛ وهو صاحِبُ يومِ الصَّدَقَةِ: يُكْثِرُ من صدقاتهِ كلما كثرتْ نعمةُ الله عليه، ومراتِبُهُ لذلك في أسبوعٍ ثلاثةُ آلافِ دينارٍ، سوى مطابخه التي أقيمتْ في كلِّ يومٍ في دارِهِ وغيرِهاً، يذبَحُ فيها البقرَ والكباشَ، ويغرفُ للناسِ، ولكلِّ مسكينٍ أربعةُ أرغفةٍ، يكونُ في

(١) كانت إمارة ابن طولون نحو (٢٦٠) سنة، وتوفي سنة (٢٧٠). [ولي ابن طولون مصر سنة (٢٥٤)].

اثنين منها فالوذجُ(١) وفي الآخَرين من القدورِ، وينادَى: مَنْ أَحَبَّ أنْ يَحْضُرَ دارَ الأميرِ فَلْيَحْضُرْ! وتُفْتَحَ الأبوابُ، ويَدْخُلُ النَّاسُ، وهو في المجلسِ ينظرُ إلى المساكينِ، ويتأمَّلُ فرحَهُم بما يأكلون ويحملونَ، فيسُرُّه ذلك، ويحمدُ الله على نعمتِهِ؛ وكان راتِبُ مطبخِهِ في كلِّ يومٍ ألفَ دينارٍ؛ واقتدى به ابنه خمارويه، فأنشأ بعدَهُ مطبَخَ العامةِ(٢)، ينفِقُ عليه ثلاثةَ وعشرينَ ألفَ دينارٍ كلَّ شهرٍ.

وقد بلغَ ما أرسلَهُ ابن طولون إلى فقراءِ بغدادَ وعلمائِها في مدةِ ولايته ألفي ألف ومئتي ألفَ دينار(٣) وكانَ كثيرَ التلاوةِ للقرآنِ، وقد اتخذَ حُجْرةً بقربِهِ في القَصْرِ وضعَ فيها رِجالاً سمّاهُمْ بالمكبِّرينَ، يتعاقبونَ الليلَ نُوَباً، يكبِّرونَ ويُسبِّحُونَ، ويَحْمَدُونَ ويهلِّلُونَ، ويقرَأونَ القرآنَ تطريباً، ويُنْشِدُونَ قصائدَ الزُّهدِ، ويؤذِّنون أوقات الأذانِ، وهو الذي فتحَ أنطاكية في سنة خمسٍ وستينَ ومئتين، ثم مضى إلى طرسوس، كأنَّه يريدُ فتحَها، فلما نابذَه أهلُها، وقاتلَهم، أمرَ أصحابَهُ أن ينهزموا عنها، ليبلُغَ ذلك طاغيةَ الروم، فيعلمَ أنَّ جيوشَ ابن طولون على كثرتها وشِدَّتها لم تَقُمْ لأهلِ طرسوس، فيكونُ بهذا كأنَّه قاتلهُ وصدَّهُ عن بلدٍ من بلادِ الإسلامِ، ويجعلُ هذا الخبرَ كالجيشِ في تلك الناحية!

* * *

ومع كلِّ ذلكَ فإنَّه كان رجلاً طائشَ السَّيْفِ، يجورُ ويعسِفُ، وقد أحصي مَنْ قتلهمُ صَبْراً، أو ماتوا في سجنِهِ ـ فكانوا ثمانيةَ عشرَ ألفاً؛ وأمر بسَجنِ قاضيه بكّار بن قتيبة في حادثةٍ معروفةٍ، وقال له: غرَّك قولُ النَّاسِ ما في الدنيا مثل بكّار؟ أنت شيخٌ قد خرفتَ! ثم حبسَهُ، وقيَّدَهُ، وأخذ منه

(١) نوع من الحلوى، وهو ما يسميه العامة (البالوظة).

(٢) هذا هو الأصل في مطعم الشعب.

(٣) الدينارُ نِصْفُ جنيهٍ مصري، فعِدةُ ذلك مليون ومئةُ ألفُ جنيهٍ، صدقاتُه على بغداد وحدَها رحمه الله.

جميعَ عطاياه مدة ولايتِهِ القضاءِ، فكانتْ عشرةَ آلافِ دينارٍ، قيل: إنّها وُجِدَتْ في بيت بكّار بِخَتْمِهَا لم يمسَّها زُهْداً وتورعاً.

ولما ذهبَ شيخُكَ أبو الحسنِ يعنّفُه، ويأمرُهُ بالمعروفِ وينهاهُ عن المُنْكَر، طاشَ عقلُه، فأمرَ بإلقائِهِ إلى الأسـدِ، وهو الخبرُ الذي طارَ في الدنيا حتى بلغَكَ في بغداد...

قال: وكنتُ حاضرَ أمرهم ذلك اليومِ، فَجيءَ بالأَسَدِ مِنْ قصر ابنه خمارَوَيْهِ، وكان خمارويه هذا مشغوفاً بالصيد، لايكادُ يسمَعُ بسَبُعٍ في غَيْضَةٍ[1]، أو بطنِ وادٍ إلا قصدَه ومعه رجالٌ عليهم لبودٌ[2]، فيدخلونَ إلى الأسدِ، ويتناولونه بأيديهم مِنْ غابِهِ عنوةً وهو سليمٌ، فيضعونَهُ في أقفاصٍ من خشبٍ محكمةِ الصنعةِ، يسعُ الواحدُ منها السَّبُعَ وهو قائمٌ.

وكان الأسدُ الذي اختاروه للشيخ أغلظَ ما عندهم، جسيماً، ضارياً، عارمَ الوحشيَّةِ، متزيِّلَ[3] العضل، شديدَ عَصَبِ الخَلْقِ، هرَّاساً، فرَّاساً أهرتَ الشِّدْق[4] يلوحُ شِدْقُهُ من سَعتِهِ وروعتِهِ كفتحةِ القبرِ، ينبىءُ أنَّ جوفَهُ مقبرةٌ، ويظهَرُ وجهُهُ خارجاً من لبدتِهِ، يَهُمُّ أن ينقذِفَ على مَنْ يراهُ فيأكلُهُ!

وأجلسوا الشيخَ في قاعةٍ، وأشرفوا عليه ينظرونَ، ثم فتحوا بابَ القفصِ مِنْ أعلاه، فجذبوه فارتفعَ؛ وهَجْهَجوا بالأسدِ يزجرونه، فانطلقَ يُزَمْجِرُ، ويَزْأَرُ زئيراً تنشقُّ له المرائرُ، ويتوهَّمُ مَنْ يَسْمَعَهُ أنَّه الرَّعْدُ وراءَه الصاعقةُ!

ثم اجتمع الوحشُ في نفسِهِ واقشعرَّ، ثم تمطَّى كالمنجنيقِ يقذفُ

---

(١) [الشجر الملتف].
(٢) [أكسية صوفية سميكة تقي من براثن الأسود].
(٣) [متحرك].
(٤) [واسع الفم].

الصخرة، فما بقي من أجَلِ الشيخِ إلا طرفةُ عينٍ؛ ورأيناهُ على ذلك ساكناً مطرِقاً لا ينظرُ إلى الأسدِ ولا يحفِلُ بهِ، ومامنّا إلا منْ كادَ ينهتكُ حجابُ قلبِهِ من الفزعِ والرُّعْبِ والإشفاقِ على الرَّجُلِ.

ولم يرعنا إلا ذهولُ الأسدِ عن وحشيتِهِ، فأقعى[1] على ذنبِهِ، ثم لَصِقَ بالأرضِ هُنيهةً، يفترشُ ذراعيه، ثم نهضَ نهضةً أخرى، كأنَّه غيرُ الأسدِ، فمشى مترفِّقاً، ثقيلَ الخَطْوِ، تُسْمَعُ لمفاصِلِه قعقعةٌ من شدَّتِهِ وجسامتِهِ، وأقبلَ على الشَّيْخِ وطفقَ يحتكُّ به، ويلحظُهُ، ويشمُّه، كما يصنَعُ الكَلْبُ مع صاحبِهِ الذي يأنسُ بهِ، وكأنَّهُ يُعْلِنُ أنَّ هذِهِ ليستْ مصاولةً بين الرَّجُلِ التقيّ والأسدِ، ولكنَّها مبارَزَةٌ بين إرادةِ ابن طولون وإرادةِ الله!

وضربتْهُ روحُ الشيخِ، فلم يبقَ بينهُ وبين الآدمي عملٌ، ولم يكن منْهُ بإزاءِ لحمٍ ودمٍ، فلو أكلَ الضوءَ والهواءَ والحجرَ والحديدَ، كان ذلك أقربَ وأيسرَ مِنْ أنْ يأكلَ هذا الرَّجُلَ المتمثِّلَ في روحانيتِهِ، لا يُحِسُّ لصورةِ الأسدِ معنى من معانيها الفاتكةِ، ولا يرى فيه إلا حياةً خاضعةً مسخَّرةً للقوة العظمى التي هو مؤمنٌ بها، ومتوكِّلٌ عليها، كحياةِ الدّودةِ والنّملةِ وما دُونَها منَ الهوامِ والذَّر!

وَوَرَدَ النُّورُ على هذا القلبِ المؤمنِ يكشِفُ له عَنْ قُرْبِ الحقّ سبحانه وتعالى، فهو لَيْسَ بين يدي الأسدِ، ولكنَّهُ هو والأسدُ بين يدي اللهِ، وكان مُنْدَمِجاً في يقينِ هذه الآية: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]

ورأى الأسدُ رجلاً هو خوفُ اللهِ، فخاف منه، وكما خَرَجَ الشيخُ من ذاته ومعانيها الناقصةِ، خرجَ الوحشُ من ذاتهِ ومعانيها الوحشيةِ، فليس في الرَّجُلِ خَوْفٌ، ولا همٌّ، ولا جَزَعٌ، ولا تعلُّقٌ برغبةٍ، ومِنْ ذلكَ ليس في الأسدِ فَتْكٌ ولا ضراوةٌ، ولا جوعٌ، ولاتعلُّقٌ برغبةٍ.

---

(١) [جلس]

ونسيَ الشيخُ نفسَه، فكأنَّما رآهُ الأسَدُ ميتاً، ولم يجد فيه (أنا) التي يأكلُها، ولو أنَّ خطرةً مِنْ هَمِّ الدنيا خطَرَتْ على قلبِهِ في تلك الساعةِ أو اختلجَتْ في نفسِه خالجةٌ مِنَ الشَّكِ، لفاحتْ رائحةُ لحمِهِ في خياشيمِ الأسدِ فتمزَّقَ في أنيابِهِ ومخالبِهِ.

قال: وانصرفنا عن النَّظَر في السَّبُعِ إلى النظر في وجهِ الشيخِ، فإذا هو ساهِمٌ مفكِّرٌ، ثم رفعوهُ، وجعلَ كُلٌّ منا يظنُّ ظناً في تفكيره، فمنْ قائلٍ: إنّه الخوفُ أذهلهُ عَنْ نفسِهِ، وقائلٍ: إنّه الانصرافُ بعقلِهِ إلى الموتِ، وثالثٍ يقولُ: إنُّه سكونُ الفِكرةِ لِمَنْعِ الحركةِ عن الجسمِ فلا يضطربُ، وزَعَمَ جماعةٌ أنَّ هذِهِ حالةٌ من الاستغراقِ يَسْحَرُ بها الأسدَ؛ وأكثرنا في ذلك، وتجارينا فيه، حتّى سأله ابن طولون: ماالذي كانَ في قلبكَ، وفيم كنتَ تفكِّرُ؟

فقال الشيخُ: لم يكنْ عليَّ بأسٌ، وإنّما كُنْتُ أفكِّرُ في لُعابِ الأسدِ، أهو طاهرٌ أم نَجِسٌ[١]...

* * *

---

(١) [نشرت في «الرسالة» السنة الخامسة (١٩٣٧) العدد (١٩٩)]

أمـراء للبيــع

قالَ الشيخُ تـاجُ الدِّيْـنِ محمَّدُ بنُ عليٍّ الملقَّبُ طُويـرَ الليلِ، أحدُ أئمـةِ الفقهاءِ بالمدرسةِ الظاهريةِ بالقاهرة[١]:

كان شيخُنا الإمامُ العظيمُ شيخُ الإسلام تقيُّ الدين بنُ مجدِ الدين بن دقيقِ العيدِ[٢] لا يُخَاطِبُ السلطانَ إلا بقولـه: يا إنسـانُ! فما يخشـاهُ، ولا يتعبَّـدُ له، ولا يُـنْحِلُهُ ألقابَ الجبروتَ والعظمةِ، ولا يُـزَيِّـنُـهُ بالنفاقِ، ولا يُـداجِيْهِ كما يَصْنَعُ غيرُه من العلماءِ؛ وكانَ هذا عَجيبـاً؛ غيرَ أنَّ تمـامَ العَجَبِ أنَّ الشيـخَ لم يكنْ يخاطبُ أحداً قـطُّ من عامَّـةِ النَّـاسِ إلا بهـذا اللفظِ عَـيْـنِه: يا إنسـانُ؛ فما يعلو بالسلطانِ والأمراءِ، ولا ينزلُ بالضعفاءِ والمساكينِ، ولا يرى أحسـنَ ما في هؤلاءِ وهؤلاءِ إلا الحقيقةَ الإنسانيةَ!

ثم كان لا يعظِّـمُ في الخطابِ إلا أئمـةَ الفقهاء، فإذا خاطبَ منهم أحداً قال له: يا فقيهُ؛ على أنّه لم يكنْ يسمَحُ بهذا إلا لمثل شيخِ الإسلام نَجْمِ الدِّينِ ابن الرِّفعة[٣]، ثم يخصُّ علاءَ الدِّين ابنَ الباجيّ وحدَه بقوله: يا إمامُ؛ إذ كان آيةً من آياتِ الله في صناعةِ الحُجَّةِ، لا يكادُ يقطعُه أحدٌ في

---

(١) توفي سنة (٧١٧) هـ.

(٢) كانت وفاته سنة ٧٠٢.

(٣) توفي سنة ٧١٠.

المناظرةِ والمباحثةِ؛ فهو كالبرهانِ، إجلالُهُ إجلالُ الحقِّ، لأنَّ فيه المعنى، وتثبيت المعنى.

وقلتُ له يوماً: يا سيدي! أراكَ تخاطِبُ السلطانَ بخطاب العامَّةِ، فإنْ علَوتَ قلتَ: يا إنسانُ، وإنْ نزلتَ قلت: يا إنسانُ؛ أفلا يُسخِطُهُ هذا منْكَ، وقد تذوَّقَ حلاوةَ ألفاظِ الطاعةِ والخضوعِ، وخصَّهُ النفاقُ بكلماتٍ، هي ظلُّ الكلماتِ التي يوصَفُ الله بها، ثم جعلَهُ المُلكُ إنساناً بذاتِهِ في وجودِ ذاتِهِ، حتى أصبحَ مِنْ غيرِه كالجبلِ والحصاةِ: يستويانِ في العُنْصُرِ، ويتباينانِ في القدرِ، وأقلُّه مهما قلَّ هو أكثرُها مهما عَظُمَتْ، ووجودُه شيءٌ، ووجودُها شيءٌ آخر؟

فتبسَّمَ الشيخُ وقال: يا ولدي، إيش هذا؟ إنّنا نفوسُ ألفاظٍ، والكلمةُ مِنْ قائِلِها هي بمعناها في نفسِهِ، لا بمعناها في نفسِهَا؛ فما يَحْسُنُ بحاملِ الشريعةِ أنْ ينطِقَ بكلامٍ يردُّهُ الشَّرعُ عليهِ؛ ولو نافقَ الدِّينُ لبطلَ أنْ يكونَ ديناً، ولو نافَقَ العالِمُ الدِّينيُّ، لكانَ كُلُّ منافقٍ أشرفَ منْهُ؛ فلطخةٌ في الثَّوْبِ الأبيضِ لَيْسَتْ كلطخةٍ في الثَّوبِ الأسودِ، والمنافقُ رجلٌ مغطًى في حياتِهِ، ولكنَّ عالِمَ الدِّينِ رجلٌ مكشوفٌ في حياتِهِ، لا مغطًّى؛ فهو للهدايةِ لاللتلبيسِ، وفيه معاني النُّورِ، لا معاني الظُّلْمةِ؛ وذاكَ يتَّصِلُ بالدِّيْنِ من ناحيةِ العملِ، فإذا نافقَ فقد كَذَبَ؛ والعالِمُ يتَّصِلُ بالدِّينِ من ناحيةِ العملِ وناحيةِ التَّبيينِ، فإذا نافقَ فقدْ كَذَبَ وغَشَّ وخانَ.

وما معنى العلماءِ بالشرعِ إلا أنَّهُم امتدادٌ لِعَمَلِ النبوَّةِ في النَّاسِ دهراً بعد دهرٍ، ينطقونَ بكلِمَتِها، ويقومونَ بِحُجَّتِهَا، ويأخذونَ من أخلاقِهَا كما تأْخُذُ المرآة النُّوْرَ: تحويه في نفسها، وتلقيه على غيرِها، فهي أداةٌ لإظهارِه وإظهارِ جمالِه معاً.

أتدري يا ولدي ما الفرقُ بين علماءِ الحقِّ وعلماءِ السُّوءِ، وكلُّهم آخذٌ من نورٍ واحدٍ لا يختلِفُ؟ إنَّ أولئكَ في أخلاقِهِم كاللَّوْحِ من البلَّوْرِ: يُظْهِرُ

النُّورُ نفسَه فيه، ويظهرُ حقيقتَهُ البِلّوريّة، وهؤلاءِ بأخلاقِهم كاللوحِ من الخشب، يظهرُ النورُ حقيقتَهُ الخشبيةَ لاغير!

وعالِمُ السوءِ يفكِّرُ في كُتُبِ الشريعةِ وحدَها؛ فَيَسْهُلُ عليهِ أن يتأوَّلَ، ويحتالَ، ويغيِّرَ، ويبدِّلَ، ويُظْهِرَ، ويُخْفي؛ ولكنَّ العالِمَ الحقَّ يفكِّرُ مع كُتُبِ الشريعةِ في صاحبِ الشريعةِ، فهو معه في كلِّ حالةٍ يَسألُهُ ماذا تَفْعَلُ وماذا تقولُ؟

والرَّجُلُ الدينيُّ لا تتحوَّلُ أخلاقُه، ولا تتفاوتُ، ولا يجيءُ كل يومٍ من حوادثِ اليومِ، فهو بأخلاقِهِ كلِّها، لا يكونُ مرةً ببعضها، ومرةً ببعضِها، ولنْ تراهُ مع ذوي السلطانِ وأهلِ الحُكْمِ والنِّعْمةِ كعالِمِ السوءِ، هذا الذي لو نطقتْ أفعالُه لقالَتْ لله بلسانِهِ: هُمْ يعطونني الدراهمَ والدنانير، فأينَ دراهمُكَ أنتَ ودنانيرُكَ؟

إنَّ الدينارَ يا ولدي إذا كان صحيحاً في أحدِ وجهيهِ دونَ الآخرِ، أو في بعضِهِ دونَ بعضِهِ، فهو زائفٌ كلُّهُ؛ وأَهْلُ الحُكْمِ والجاهِ حينَ يتعاملونَ مع هؤلاءِ يتعاملونَ مع قوةِ الهَضْمِ فيهم... فينزلون بذلك منزلة البهائم: تقدِّمُ أعمالَها لتأخذَ لبطونِها: والبطنُ الآكِلُ في العالِمِ السوءِ يأكُلُ دينَ العالِمِ فيما يأكلُهُ...

فإذا رأيتَ لعلماءِ السوءِ وقاراً فهو البلادةُ، أو رِقَّةً فسمِّها الضعفُ، أو مُحاسَنةً فقلْ إنَّها النفاقُ، أو سكوتاً عنِ الظُّلْمِ فتلكَ رشوةٌ يأكلونَ بها!

* * *

قال الإمامُ: وما رأيتُ مثلَ شيخي سلطانَ العلماءِ عزَّ الدينِ بن عبدِ السّلامِ[١]، فلقد كانَ الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ شيئاً تصنعُهُ

---

(١) هو الإمام العظيمُ شيخُ الإسلام عبد العزيز بن عبد السلام بركةُ الدنيا في عصره، توفي سنة (٦٦٠)

طبيعتُه، كما يَصْنَعُ جِسْمُهُ الحياةَ، فلا يبالي هَلَكَ فيه أو عاشَ، إذْ هو في الدَّمِ كالقَلْبِ: لا تنالُه يَدُ صاحِبِهِ ولا يدُ غيرِهِ؛ ولم يتعلَّقْ بمالٍ ولا جاهٍ ولا ترفٍ ولا نعيمٍ، فكانَ تجرُّدُه من أوهامِ القوةِ لايُغْلَبُ؛ وانْتُزِعَ خوفُ الدنيا من قلبِهِ فعمَّرَتْهُ الرّوحُ السماويةُ التي تُخيفُ كلَّ شيءٍ ولا تخافُ؛ وكانَ بهذِهِ الرّوحِ كأنَّهُ تحويلٌ وتبديلٌ في طباعِ النّاسِ، حتى قالَ الملكُ الظّاهرُ بيبرس، وقد رأى كثرةَ الخَلْقِ في جنازَتِهِ حينَ مرَّتْ تَحْتَ القلعةِ: الآنَ استقرَّ أمري في المُلْكِ، فلو أنّ هذا الشيخَ دعا النَّاسَ إلى الخروجِ عليَّ لانْتَزَعَ مني المملكةَ!

وكان السلطانُ[1] في دمشقَ الصالحَ إسماعيلَ، فاستنجدَ بالإفرنجِ على الملِكِ نجمِ الدين أيوب سلطانِ مصرَ؛ فَغَضِبَ الشيخُ، وأسقطَ اسمَ الصّالحِ من الخُطْبةِ، وخَرَجَ مهاجراً، فأتْبَعَهُ الصّالحُ بعضَ خواصِّه يتلطَّفُ به، ويقولُ لهُ: ما بينَك وبينَ أنْ تعودَ إلى مناصِبكَ وما كنت عليهِ وأكثرَ مما كنتَ عليه إلا أنْ تَتَخَشَّعَ للسلطانِ وتقبِّلَ يدَهُ. فقال له الشيخُ: يا مسكينُ! أنا لاأرضى أن يقبِّلَ السلطانُ يدي! أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ!

ثُمَ قَدِمَ إلى مصرَ في سنة (٦٣٩) فأقبلَ عليهِ السلطانُ نَجْمُ الدِّينِ أيوب، وتحفَّى[2] به، وولاّه خطابَة مصرَ وقضاءَها، وكان أيوبُ مَلِكاً شديدَ البأسِ، لا يَجْسُرُ أحدٌ أنْ يخاطِبَهُ إلا مجيباً، ولا يتكلَّمُ أحدٌ بحضرتِهِ ابتداءً؛ وقد جَمَعَ من المماليك التركِ ما لم يَجْتَمِعْ مِثْلُهُ لغيرِهِ مِنْ أهلِ بيتِهِ، حتّى كانَ أكثرُ أمراءِ عسكرِهِ منهم، وهُمْ معروفونَ بالخشُونَةِ والبأسِ والفظاظةِ والاستهانةِ بكُلِّ أمرٍ؛ فلمّا كانَ يومُ العيد، صعدَ إليهِ الشيخُ، وهو يعرِضُ الجندَ، ويُظْهِرُ مُلْكَهُ وسطوتَهُ، والأمراءُ يقبِّلونَ الأرضَ بينَ

---

(١) [في الأصل: سلطانه]

(٢) [بالغ في بره]

يديهِ؛ فناداهُ الشيخُ بأعلى صوتِهِ لِيسْمَعَ هذا الملأُ العظيمُ: يا أيوبُ! ثم أمَرهُ بإبطالِ مُنْكَرٍ انتهى إلى علمِهِ في حانةٍ تُباعُ فيها الخَمْرُ؛ فرَسَمَ السلطانُ لوقتِهِ بإبطالِ الحانةِ واعتذرَ إليهِ.

فحدثني الباجيُّ قال: سألتُ الشيخَ بعدَ رجوعِه مِنَ القلعةِ، وقد شاعَ الخبرُ، فقلتُ: يا سيدي! كيفَ كانتْ الحالُ؟

قال: يا بنيَّ! رأيتُهُ في تلك العظمةِ، فخشيتُ على نفسِه أنْ يدخلَها الغرورُ فتُبْطِرُهُ، فكان ما بادَيْتُهُ بهِ.

قلتُ: أما خفْتَهُ؟

قال: «يا بنيَّ! استحضرتُ هيبة الله تعالى فكانَ السلطانُ أمامي كالقطِّ»[1]. ولو أنَّ حاجةً من الدنيا كانَتْ في نفسي لرأيتُهُ الدُّنيا كلَّها؛ بيدَ أنِّي نظرتُ بالآخرةِ فامتدتْ عيني فيه إلى غيرِ المنظورِ للنّاسِ، فلا عظمةَ ولا سلطانَ ولا بقاءَ ولا دنيا، بل هُوَ لا شيء في صورةِ شيءٍ.

نحنُ يا ولدي مع هؤلاءِ كالمعنى الذي يصحِّحُ معنىً آخر، فإذا أمرناهم، فالذي يأمُرهم فينا هو الشرعُ لا الإنسانُ، وهم قومٌ يرونَ لأنفسِهِم الحقَّ في إسكاتِ الكلمةِ الصحيحةِ أو طَمْسِهَا أو تحريفِها؛ فما بدَّ أنْ يقابَلوا من العلماءِ والصالحينَ بمَنْ يرون لأنفسِهم الحقَّ في إنطاقِ هذِه الكلمةِ وبيانِها وتوضيحِها؛ فإذا كانَ ذلك فهاهنا المعنى بإزاءِ المعنى؛ فلا خوفَ ولا مبالاةَ ولا شأنَ للحياةِ والموتِ.

وإنّما الشَّرُّ كلُّ الشَّرِّ أنْ يتقدَّمَ إليهم العالِمُ لحظوظِ نفسِهِ ومنافِعِها، فيكونُ باطلاً مزوَّراً في صورةِ الحقِّ؛ وهاهنا تكونُ الذَّاتُ مع الذَّاتِ، فيخشعُ الضعفُ أمامَ القوةِ، ويَذِلُّ الفَقْرُ بين يدي الغنى، وترجُو الحياةُ

---

(١) هذه كلمات الشيخ بحروفها.

لنفسها، وتَخْشى على نفسِها؛ فإذا العالِمُ مِنَ السلطان كالخشبةِ الباليةِ النَّخِرَةِ حاولتْ أن تقارِعَ السَّيْفَ!

كلا يا ولدي! إنَّ السُّلطانَ والحكَّامَ أدواتٌ يجبُ تَعيينُ عَمَلِهَا قبلَ إقامتِها، فإذا تفككتْ، واحتاجَتْ إلى مسامير، دقَّتْ فيها المساميرُ، وإذا انفتقَ الثوبُ فَمِنْ أينَ للإبرةِ أنْ تَسْلُكَ بالخيطِ الذي فيها إذا هي لم تَخُزْهُ؟

إنَّ العالِمَ الحقَّ كالمسمارِ؛ إذا أُوجِدَ المسمارُ لذاتِه دونَ عملِه كفرتْ به كلُّ خشبةٍ . . .

* * *

قال الإمامُ تقيُّ الدين: وطغى الأمراءُ من المماليكِ، وثقلتْ وطأتهُم على النَّاسِ؛ وحيثما وُجِدَتِ القوةُ المسلَّطةُ المستبِدَّةُ جَعَلَتْ طغيانها واستبدادَها أدباً وشريعةً؛ إلاّ أنْ تقومَ بإزائِهَا قوةٌ معنويةٌ أقوى منها؛ ففكَّرَ شيخُنا في هؤلاء الأمراءِ وقال: إنَّ خِدَاعَ القوةِ الكاذبةِ لشعورِ النَّاسِ بابٌ من الفسادِ؛ إذْ يحسبونَ كلَّ حَسَنٍ منها هو الحَسَنُ، وإن كان قبيحاً في ذاتهِ ولا أقبحَ مِنْهُ؛ ويرونَ كلَّ قبيحٍ عندَها هو القبيحُ، وإن كان حسناً ولا أحسنَ منه.

وقال: ما معنى الإمارة والأمراء؟ وإنّما قوةُ الكلِّ الكبيرِ هي عمادُ الفردِ الكبيرِ، فلكلِّ جُزْءٍ من هذا الكلِّ حقُّه وعمَلُه؛ وكانَ ينبغي أنْ تكونَ هذه الإمارةُ أعمالاً نافعةً قد كَبُرَت وعَظُمَتْ، فاستحقتْ هذا اللقبَ بطبيعةٍ فيها كطبيعةِ أنَّ العشرةَ أكثرُ من الواحدِ، لا أهواءَ وشهواتٍ ورذائِلَ ومفاسد تَتَّخِذُ لقبها في الضعفاءِ بطبيعةٍ كطبيعةِ أنَّ الوحشَ مفترِسٌ.

وفكَّرَ الشيخُ، فهداه تفكيرهُ إلى أنَّ هؤلاءِ الأمراء مماليكٌ، فَحُكْمُ الرِّقِّ مُسْتَصْحَبٌ عليهم لبيتِ مالِ المسلمينَ، ويجِبُ شَرْعاً بَيْعُهُم كما يُباعُ الرَّقيْقُ!

وبلغهم ذلك، فَجَزِعُوا له، وعَظُمَ فيهِ الخطبُ عليهِمْ؛ ثم احتدَمَ[1] الأمراءُ، وأيقنوا أنّهم بإزاءِ الشَّرع، لا بإزاءِ القاضي ابنِ عبدِ السّلام.

وأفتى الشيخُ أنّه لا يصحُّ لهم بيعٌ، ولا شراءٌ، ولا زواجٌ، ولا طلاقٌ، ولا معاملةٌ، وأنَّهُ لا يُصحِّحُ لهم شيئاً منْ هذا حتى يُباعوا، ويحصلَ عتقُهم بطريقٍ شرعي!

ثم جعلوا يتسبَّبُونَ إلى رضاه، ويتحمَّلونَ عليه بالشفاعاتِ، وهو مصرٌّ لا يعبأ بجلالةِ أخطارِهم، ولا يخشى اتسامَهُ بعداوتِهم، فرفعوا الأمرَ إلى السلطانِ، فأرسلَ إليه، فلم يتحوَّلْ عن رأيِهِ وحُكْمِهِ.

واستشنعَ السلطانُ فعلَهُ، وحنَقَ عليه، وأنْكَرَ منه دخولَهُ فيما لا يَعْنِيْهِ، وقَبَّحَ عملَهُ وسياستَهُ وما تطاول إليهِ، وهو رجلٌ ليسَ له إلا نفسَه وما تكادُ تصِلُ يدُهُ إلى ما يقيمُهُ. وهم وافرون، وفي أيديهم القوةُ، ولهم الأمرُ والنهيُ.

وانتهى ذلك إلى الشيخِ الإمامِ، فغضِبَ، ولم يبال بالسلطانِ، ولا كَبُرَ عليه إعراضُه، وأزمَعَ الهجرةَ منْ مِصْرَ، فاكترى حَميْراً أركبَ أهلَهُ وولدَهُ عليها، ومشى هو خلفَهُم، يريدُ الخروجَ إلى الشامِ؛ فلم يُبْعِدْ إلا قليلاً نحوَ نِصْفِ بريدٍ حتّى طارَ الخبرُ في القاهرةِ، ففزِعَ النّاسُ، وتبعوه، لا يتخلَّفُ منهم رجلٌ ولا امرأةٌ ولا صبيٌّ، وصارَ فيهم العلماءُ والصلحاءُ والتجّارُ والمحترفونَ، كأنّ خروجَه خروجُ نبيٍّ مِنْ بينِ المؤمنين به؛ واستعلَنَتْ قوةُ الشَّرْعِ في مَظْهرِها الحاكِمِ الآمرِ مِنْ هذِهِ الجماهيرِ، فقيلَ للسلطانِ: إنْ ذَهَبَ هذا الرجلُ ذَهَبَ مُلْكُكَ!

فارتاعَ السلطانُ، فركبَ بنفسِه، ولحقَ بالشيخِ يترضَّاهُ، ويستدفعُ بهِ غَضَبَ الأمةِ، وأطلقَ له أنْ يأمُرَ بما شاءَ، وقد أيقَنَ أنّهُ ليسَ رجلَ الدِّينارِ

---

(١) [تملكهم الغيظ]

والدِّرْهَم، والعيشِ والجاهِ، ولُبْسِ طَيْلَسانِ العلماءِ كما يُلْصَقُ الريشُ على حَجَرٍ في صورةِ الطائرِ.

ورجعَ الشيخُ، وأمرَ أنْ يُعْقَدَ المَجْلسُ، ويُجْمَعَ الأمراءُ، وينادَى عليهم للمساومةِ في بيعِهِم، وضَرَبَ لذلك أجلاً بعدَ أنْ يكونَ الأمرُ قد تعالمه كلُّ أهلِ القاهرةِ، ليتهيَّأَ مَنْ يتهيَّأُ للشِّراءِ والسَّومِ في هذا الرقيقِ الغالي!

وكان منْ الأمراءِ المماليكِ نائبُ السلطنةِ، فبعثَ إلى الشَّيْخِ يلاطِفُهُ ويسترضِيهِ، فلم يَعْبأ الشيخُ بهِ؛ فهاجَ هائِجُهُ وقال: كيفَ يَبِيْعُنا هذا الشيخُ، وينادي علينا، ويُنْزِلُنا منزلةَ العبيد، ويُفْسِدُ محلَّنا مِنَ النَّاسِ، ويَبْتَذِلُ أقدارَنا، ونحنُ ملوكُ الأرضِ؟ وماالذي يفقِدُ هذا الشيخُ من الدنيا فيدرِكُ ما نحنُ فيهِ؟ إنَّهُ يَفْقِدُ ما لا يَمْلِكُ، ويَفْقِدُ غيرَ الموجودِ، فلا جرم لا يبالي، ولا يرجع عن رأيهِ ما دامَ هذا الرأيُ لا يمرُّ في منافِعِه، ولا في شهواتِهِ، ولا في أطماعِهِ، كالذينَ نراهم من علماءِ الدنيا؛ أما واللهِ لأضربَنَّهُ بسيفي هذا، فما يموتُ رأيُهُ وهو حيٌّ.

ثم ركبَ النّائِبُ في عَسْكَرِهِ، وجاء إلى دارِ الشَّيْخِ، واستلَّ سيفَهُ، وطرق البابَ، فخرج ابنُه عبدُ اللطيفِ، ورأى ما رأى، فانقلَبَ إلى أبيهِ وقال له: انْجُ بنفسِكَ، إنَّهُ الموتُ، وإنَّهُ السَّيْفُ، وإنّه وإنّه. . .

فما اكترثَ[١] الشيخُ لذلكَ، ولاجَزِعَ، ولاتغيَّرَ، بل قال لهُ: يا ولدي! أبوك أقلُّ مِنْ أنْ يُقْتَلَ في سبيل الله!

وخرج لا يعرفُ الحياةَ ولا الموتَ، فليسَ فيهِ الإنسانيُّ، بل الإلهيُّ؛ ونظرَ إلى نائبِ السلطنةِ، وفي يدِهِ السَّيْفُ، فانطلقتْ أشعةُ عَيْنَيْهِ في أعصابِ هذِهِ اليدِ، فيبسَتْ، ووقعَ السيفُ منها.

---

(١) [لم يبالي]

وتناولَهُ بروحِهِ القويةِ، فاضطربَ الرجلُ، وتزلزلَ، وكأنَّما تكسَّرَ مِنْ أعصابِهِ، فهو يُرْعِدُ، ولا يستقرُّ ولا يَهْدأُ.

وأخذَ النائبُ يبكي ويسألُ الشيخَ أنْ يدعُوَ لَهُ؛ ثُمَّ قال: يا سيّدي! ما تصنَعُ بنا؟

قال الشيخُ: أنادي عليكُم وأبيعُكُم!

ـ وفيمَ تَصْرِفُ ثمنَنَا؟

ـ في مصالحِ المسلمين

ـ ومَنْ يقبضُه؟

ـ أنا.

وكان الشرعُ هو الذي يقول (أنا)، فتمَّ للشيخِ ما أرادَ، ونادى على الأمراءِ واحداً واحداً، واشتطَّ في ثمنِهِم، لا يبيعُ الواحدَ منهم حتَّى يبلغَ الثمنُ آخِرَ مايبلغُ؛ وكانَ كلُّ أميرٍ قد أعدَّ من شيعتِهِ جماعةً يستامونَهُ ليشتروه...

ودُمِغَ الظلمُ والنفاقُ والطغيانُ والتكبُّرُ والاستطالةُ على النّاسِ بهذه الكلمةِ التي أعلنها الشَّرْعُ:

أمراءُ للبيعِ! أمراءُ للبيعِ[1]...

* * *

---

(١) [نشرت في «الرسالة» السنة الخامسة (١٩٣٧) العدد (٢٠٠) وتوفي الرافعي بعد أسبوعين من نشر هذه القصة].

الفهارس

١ ـ فهرس الآيـات

* * *

٢ـ فهرس الأحـاديث

* * *

٣ ـ فهرس الشعر

* * *

٤ـ فهرس الأعلام

* * *

٥ـ فهرس الأماكن

* * *

٦ـ فهرس الكتب

٧ـ الألفاظ الغريبة

* * *

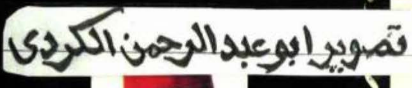
٨ـ فهرس الأحلام الواردة في الكتاب

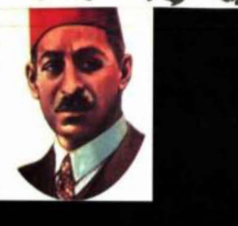
* * *

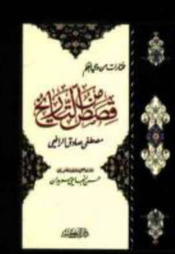
٩ ـ الفوائد الواردة في الكتاب

* * *

١٠ـ فهرس الموضوعات







الأستاذ الرافعي من أفذاذ الألسنة البيانية في الأدب العربي كلّه قديمه وحديثه، وقد استقام قلمه على طريقةٍ من البيان انفرد بها، فعُرفت به وعُرِفَ بها.

وهذا الكتاب قد اجتمعت فيه روحُ الرافعي الفلسفية وروحُه البيانية، وتعاونا على بناء الفن العربي بناءً جديداً فيه من الروعة والمتانة والتسامي والجمال كلُّ بديعٍ.

وكل أديب عربي يحتفل بهذا الكتاب احتفالاً خاصاً، لأنه قطعةٌ من النفس العربية المتصلة بالماضي والحاضر والمستقبل ويهتزُّ له، لأنه تعبيرٌ فني دقيق عن المعاني الغامضة التي لبثت قروناً لا تجد من يبينُ عنها إبانةَ الرافعي.



دمشق : ص.ب. ٣١١
بيروت : ص.ب. ١١٣/٦٣١٨
www.ibn-katheer.com

